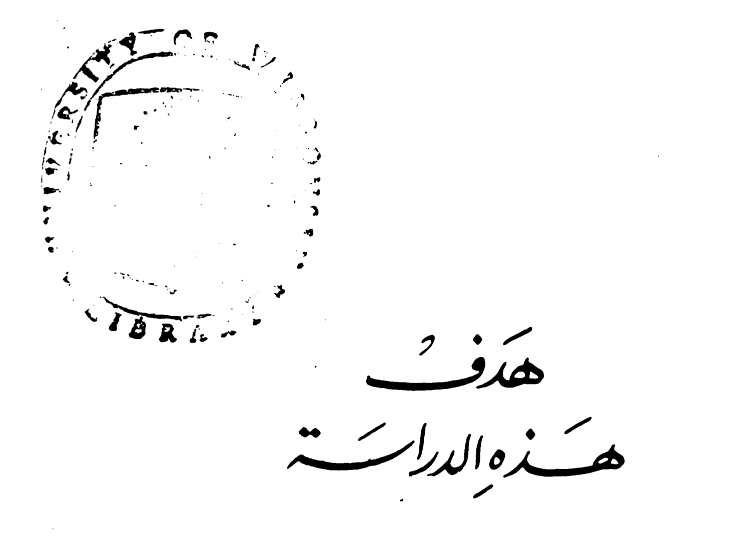
الياس مرقص

الماركسية اللينينية والتطور العالمي والعربي في برنامج الحزب الشيوعي اللبناني وفي نقدنا لهذا البرنامج

دار الحقيقة للطباعة والنشر في بيروت

من كتب المؤلف

● الستالينية والمسألة القومية	(في الفكر السياسي)	١٩٦٣	دار دمشق
● موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي		١٩٦٣	〃 〃
● تاريخ الأحزاب الشيوعية في الوطن العربي		١٩٦٤	دار الطليعة
● الماركسية في عصرنا	(طبعة اولى)	١٩٦٥	〃 〃
●	(طبعة ثانية)	١٩٦٩	〃 〃
● نقد الفكر القومي	(ساطع الحصري)	١٩٦٦	〃 〃
● الماركسية والشرق		١٩٦٨	〃 〃
● الماركسية والمسألة القومية		١٩٧٠	〃 〃
● مفهوم الحزب عند لينين والموقف العربي الراهن		١٩٧٠	دار الحقيقة
● الماركسية اللينينية والتطور العالمي والعربي في برنامج الحزب الشيوعي اللبناني وفي نقدنا لهذا البرنامج		١٩٧٠	〃 〃



هدف هذه الدراسة

وضعت هذه الدراسة خلال عام ١٩٦٩ . كان مشروعي الأول مقالاً أنشره في مجلة « دراسات عربية » ، بعنوان « برنامج الحزب الشيوعي اللبناني – عرض ونقد » ، يواصل المقال الذي نشرته وأحدُ الرفاق في عدد شباط ١٩٦٩ وموضوعه عرض ونقد تقرير اللجنة المركزية للحزب المذكور . غير أنني سرعان ما رأيت ان المسألة تتطلب أكثر من مقال بكثير .. من الأفضل ان نطرح الأمور في كل وجوهها وأبعادها وتفاصيلها. فالقضية هي الماركسية كاملة ، « أي عيانية »، مطبقة على « العصر » وعلى التطور العربي في هذا العصر وعلى بلد عربي محدد .

وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي يخصّص فيها كتاب كامل لنقد برنامج حزب من الأحزاب المنادية بالماركسية في الساحة العربية . بالنسبة لنا ، لن تكون الأخيرة !.

وهذه الدرسة نوجّهها أولاً إلى قادة واعضاء وأنصار الحزب الشيوعي اللبناني . ونوجّهها ثانياً إلى جمهور المتحدثين باسم الماركسيه في العالم العربي ، إلى هذا الجمهور الواسع المؤلف من عشرات الاحزاب والهيئات ، بتشكيلات واتجاهات متنوعة ، قديمة وجديدة ، « يمينية » و « يسارية » . ونوجّهها ثالثاً إلى جمهور التقدميين الباحثين عن الطريق . ولا سيما الى اولئك الذين تعاطفوا ويتعاطفون مع خطّنا وعَمَلِنا .

ان نقدنا للهيئات والأفراد الذين يرفعون شعارات الماركسية هو طريقنا إلى تثبيت أفكار ومواقف الماركسية اللينينية العربيـــة ، بتفنيد أفكار ومواقف التيارات الأخرى العاملة معنا وضدنا تحت لافتة مشتركة . ولأن الحزب الشيوعي اللبناني هو اليوم من أفضل هذه الأحزاب ، لذلك نبدأ به .

ومن نافلة القول ان هذا الكتاب ليس محض ردٍّ (أو نقدٍ) على ما يقوله الرفاق اللبنانيون في صدد قضايا العصر ، قضايا الاشتراكية والرأسمالية وحركة العمال وحركة التحرر الوطني والمفهوم العلمي الطبقي والتطور العربي والوحدة العربية وقضيه فلسطين والتطور اللبناني الخ ، انمـــا يتخطى على الدوام الرد والنقد الى العرض ، الى التحليل المطوّل لهذه القضايا ذاتهـــا من وجهة النظر الماركسية – اللينينية العربية التي نسير على إنشائها وإنمائها منذ سنوات عديدة .

تمهيد [7]

في عدد شباط (١٩٦٩) من مجلة « دراسات عربية » ، عرضنا تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني المقدم الى المؤتمر الثاني للحزب المنعقد في تموز ١٩٦٨ . نريد الآن أن نقدم البرنامج الذي أقره المؤتمر ذاته .

هذا البرنامج هو الوثيقة الاساسية الثانية الصادرة عن الحزب ، وهي تستند على الوثيقة الاولى (التقرير) وترتبط بها .

ولقد رأينا ان التقرير يتّسم بطابع من الجدّية غير مألوف ، يتجلى في النقد الذاتي الحقيقي الذي سلطته اللجنة المركزية على تجربة الحزب السابقة منذ المؤتمر الاول (١٩٤٣) والذي شمل مواقف الحزب من قضايا الوحدة والتأميم والانفصال (١٩٥٨ - ١٩٦١ ،وبعدها) وقضية فلسطين (في١٩٤٨ وبعدها) ، والأوضاع التنظيمية الاستبدادية التي سادت حياة الحزب الداخلية طوال الفترة الماضية حتى عام ١٩٦٤ ، برئاسة « الأمين العام » للحزب السوري - اللبناني . وقد نوّه التقرير بأن الاشتراكية قد عادت الآن الى الحزب بعد غياب دام ثلاثين عاماً ، ونوّه بأن الاصلاح الزراعي نفسه كان غائباً من سياسة الحزب في فترة ما قبل ١٩٤٨ .

غير اننا مع تثميننا لهذا الانتقاد الذاتي ، لاحظنا عدداً من الأخطاء والنقائص ، نذكر ببعضها :

١ - لقد استمر التقرير على اعتبار خط الحزب في فترة ١٩٤٣-١٩٤٧ وفي فترة ١٩٥٤-١٩٥٧ خطا سليما من حيث الجوهر (رغم تسجيله غياب الاشتراكية ،

وغياب الاصلاح الزراعي في الفترة الاولى ، والأصح : في الفترتين !) ، ونسي وَهْم الطريق البرلماني ودور « البرجوازية الوطنية » الذي تسلط على الحزب في ١٩٥٦ . بتعبير آخر ، أدان التقرير بقوة فترتين أسماهما فترتي انحراف «يساري» (فترة ١٩٤٨ – ١٩٥٣ ، وفترة ١٩٥٨ – ١٩٦٣). وهو محق في هذه الادانة، ولكنه ليس محقاً في هذه التسمية ، بالنسبة للفترة الثانية . ولكنه لم يدن فترتي الانحراف اليميني والبرجوازي (١٩٤٣ – ١٩٤٧ ، و ١٩٥٤ – ١٩٥٧)، ولم يدعهما فترتي انحراف يميني وبرجوازي ، رغم إشارته لخطأين كبيرين (غياب الاصلاح الزراعي ، وغياب الاشتراكية)هما خطآن يمينيان وبرجوازيان. (واذا لم يكونا كذلك ،فانه ليس في تاريخ الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ونصف الاشتراكية في العالم أي خطأ يمكن ان ينطبق عليه هذا التشخيص : يميني برجوازي !) . كذلك ، اعتبر التقرير ان موقف الحزب من قضية فلسطين قبل ١٩٤٨ ، أي قبل تحول الحزب الى تأييد التقسيم كان موقفاً صحيحاً ، وكأن المسألة كلها تنحصر في « تأييد » و « رفض » مشروع التقسيم ، وكأن تحوّل الحزب نحو تأييد مشروع التقسيم في اوائل ١٩٤٨ ، لم تكن له أية ممهدات في بيانات الحزب السابقة وفي مجمل تشخيص الحزب للمسائل ولا سيا « المسأله القومية » (التي ذكر التقرير ان الحزب فشل في فهمها على طول الخط : المسألة القومية بشكل عام ، والقومية العربية ، وفلسطين ، والوحدة) .

٢ – وهكذا ، في تقرير اللجنة المركزية اللبنانية ، تبقى الامور – هذه الأمور التي يسميّها التقرير« أخطاء »و« انحرافات »وهي كذلك –اشياءمستقلة بعضهاعن بعض ،بل ومتعارضة .وهي كذلك ، بأحد المعاني: فعلا ،تقلّب الحزب ، وانقلب بشكل مفاجيء ، من اليمين الى « اليسار »،من«الانفتاح»(البرجوازي) الى انعزالية طفولية مقيتة ، في منعطفات تاريخية ، حقيقية أو نصف حقيقية ، رفعها الحزب ذاتياً الى منعطفات أس ٣ . ولكن هناك قاسم مشترك بين هــذه الفترات اليمينية و « اليسارية » ومنعطفاتها، هناك أساس ثابت خــلال ثلاثين

عاماً من التاريخ ، وهذا القاسم المشترك والأساس الثابت يتجلى في القيادةالثابتة الدائمة ، وخطها الفكري ، في ايديولوجيتهاالتي تشكّل قطيعة مع الماركسية – اللينينية ، في كل الميادين بلا استثناء : عجز تام عن فهم فلسفة ماركس ولينين (الديالكتيك والمادية ، احتقار كامل للواقع والوقائع)،جهل للمادية التاريخية، تشوية لستراتيجية الثورة الاشتراكية ولتجربة الثورة الروسية، تشويه « للمسألة القومية »،دكتاتورية القائدالفرد،واعدام المؤتمر والبرنامج[1] وصراع الافكار ،اعدام مبدأ تكوّن الحزب، والحزب . هذه الايديولوجيا هي البكداشية، والستالينية هي الوسيط الذي يقود من الماركسية–اللينينية الى البكداشية ، ولكنهاليست اكثر من وسيط . لسوء الحظ ، ان تقرير اللجنة المركزية اللبنانية لم يتضمن بعدpas encoreاية محاولةلدراسة مؤلفات خالدبكداش. ولعلّ الرفاقاللبنانيين، اليوم ،يقولون بكثير من المرارةالمفهومة : ليس لهذا« الأمين العام »الذي هو المسؤول الأكبر عن الأوضاع الفكرية والسياسية والتنظيمية التي تسلّطت على الحزب السوري – اللبناني ثلاثين عاماً ، ليس له مؤلفات ، ليس له ما يستحق الدراسة النقدية ، ان كل ما كتبه مقالات وخطب الخ... هذا ردّ فعل طبيعي وخاطىء. ففي المؤلفات ، ليس المهم شكلها وحجمها بل مضمونها. صحيح أن الاستاذ خالد بكداش لم يكتب « المادية والنقد التجريبي » أو « الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي»،ولكن مقالاته وخطبه وتقاريره ومقدماته هي مؤلفات،وهذه المؤلفات كونت عقل الحزب،عقل الحزبيين ،عقل القادة والكوادر والاعضاء والاصدقاء، بما في ذلك خيرة المناضلين . وقد يردّ الرفاق اللبنانيون واضعو التقرير والبرنامج ان هذا العقل كان « لا عقل » (كما أسموا ، بصدق وحق ، خطة الحزب فيفترتي الوحدة والانفصال بأنها « لا خطة ») . ونحن نقول لهم : اللاعقل عقـــل . بتعبير آخر : لا فائدة من لعبة الألفاظ . عقل أو لا عقل ، من المستحيل ان نتخلّص منه بدون أن ندرسه دراسة تفصيلية كاملة . وهذا يتطلب ان نتجاوز

---

(١) لقد عاش الحزب بدون برنامج منذ ١٩٤٧

شعور المرارة والقرف تجاه هذا العقل أو اللا عقل، بل يتطلب ان ... نحبّه وان « نؤمن » به كموضوع للدراسة، موضوع خطير، هو موضوعنا[1]. حتى يعرف اليوم الشيوعيون اللبنانيون والعرب ماهي الماركسية – اللينينية، يجب عليهم ان يعرفوا ما ليس هو الماركسية – اللينينية وان كان مليئاً بعبارات الماركسية – اللينينية. وهذا درس ثمين يتخطى الحركة الشيوعية شاملاً بفوائده كل الاحزاب المنادية حالياً بالماركسية – اللينينية في الوطن العربي.

٣ – وبوجه الاجمال، قطع التقرير سياسة الحزب السوري – اللبناني وتطوراتها في فترات ماضية (١٩٤٣ – ١٩٤٧، و١٩٤٨–١٩٥٣، و ١٩٥٤ – ١٩٥٨) عن سياسة « الحركة الشيوعية العالمية » (أو بالاحرى السوفياتية – الاوروبية) وتطوراتها في تلك الفترات. ونحن لا نشك في أن سياسة الحزب السوري كانت شيئاً، وسياسة الحركة الشيوعية العالمية كانت شيئاً آخر، مغايراً، الى هذا الحد أو ذاك، ولكن هناك مسافة بين هذا التمييز الضروري والصحيح (الصحيح بدليل وجود خط آخر في المشرق العربي، غير خط خالد بكداش والسوريين اللبنانيين، هو خط فهد وتوما في ١٩٤٤ و ١٩٤٧، مثلاً ...) وبين ذلك الفصل[2]. ولقد أكدّ التقرير، بحق، ان مواقف الحزب السوري –

---

(١) ونحدد هنا اهم مفاصل هذا العقل، اهم مؤلفات « الامين العام »: مقدمة « طريق الاستقلال » (« العرب وأبحاث ستالين في المسألة الوطنية »)، ١٩٣٩، خطاب امام مؤتمر مكافحة الفاشستية، ١٩٣٩ (انظر مجموعة مجلة « الطريق »)، تقرير امام المؤتمر ٣١ - ١٢ - ١٩٤٣، ومحاضرة الشرح اللاحقة بالفرنسية في قاعة فندق نورماندي ١٩٤٤، قرارات ١٩٤٨ وبعدها، تقرير ١٩٥١ (« حزب العمال والفلاحين »)، قرارات « نحو آفاق جديدة » ١٩٥٦، خطب زمن الوحدة (انظر مجموعة « الوقت » + كتاب « طريق الاستقلال والديمقراطية والوحدة »)، الخ، كراس « سوريا على الطريق الجديدة » ١٩٦٥ ...

(٢) في أمس قريب (١٩٥٩ – ١٩٦٤)، كان يؤكد العكس، كان يؤكد لأعضاء الحزب واصدقائه، ان سياسة وافكار الحزب السوري اللبناني المعادية للجمهورية العربية المتحدة هي نفسها سياسة وافكار الاتحاد السوفياتي. انهارت هذه التأكيدات مع زيارة خروشوف للقاهرة. واليوم، يرتكب التقرير الخطأ المعاكس. ينطلق من كون الخطأ هو خطأ الحزب السوري اللبناني، الى القول بأن لا خطأ ولا نقص في سياسة وأفكار الاتحاد السوفياتي و « الحركة الشيوعية العالمية ».

اللبناني من الوحدة ومن حركة التحرر العربية كانت في سنوات ١٩٥٩-١٩٦٤ مخالفة وبشكل واضح لسياسة الاتحاد السوفياتي ولتقديرات الحركة الشيوعية العالمية حول « حركة التحرر الوطني » . لسوء الحظ ، تسير الأمور ، في تقرير اللجنة المركزية اللبنانية ، وكأن هذه التقديرات هي الحقيقة النظيفة الكاملة . وهذا تخل عن الاستقلال الفكري ، كسول ، لا نعتقد انه يفيد « حركة التحرر الوطني » العربية أو الاتحاد السوفياتي. فإذا كانت وظيفة كل فصيلة قطرية من فصائل« الحركة الشيوعية العالمية »هي تطبيق أفكار« الحركة الشيوعية العالمية» وحسب ، فإن الحركة الشيوعية العالمية مهدّدة بأن تصبح ، على صعيد الفكر والعمل ، لا شيء . وان مسائل من نوع قضية التجزئة والوحدة العربية ، قضية فلسطين ، القومية العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين،السبل الجديدة للاشتراكية ،تطور الأمبريالية العالمية ،موقع الصهيونية التاريخي الماضي والحاضر والمقبل ، تضع على اكتاف الماركسيين-اللينينيين العرب، عبئاً ثقيلا، بل ونقول عبئاً فريداً . ان نستفيد بل وان نغرف من المؤتمر العشرين والثاني والعشرين ، ومن فارغا وكونستانتينوف وغليزرمن ، ومن ايفانوف وسلطانوف وعليخانوفا الخ... هذا شيء . وأن ننتظر المؤتمر الخامس والعشرين وايفانوف وعليخانوفا هذا شيء آخر ، لا يوصف ماركسياً بوصف . ان المسائل العربية ، « القومية » « الخاصة » ، هي من لحم وعظم العصر ، عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية . وللمرة الأولى ، تشير القرائن الى ان الشيوعيين اللبنانين بـــدؤوا يتحسّسون هذه الحقيقة الحيوية . الأمر الذي يشجعنا على توجيه نظرنا اليهم .

هذا المقـــال النقدي عن برنامج الحزب الشيوعي اللبناني - والذي يكمّل المقال السابق عن التقرير - يتوجّـه بالدرجة الاولى إلى قادة وكوادر وأعضاء الحزب الشيوعي اللبناني ، واصدقاء الحزب المقربين . أي إلى رجـــال قرؤوا البرنامج المذكور ، وناقشوه ، ونعتقد انهم سيناقشونه مرة اخرى ، رغـــم كونهم أقرّوه ، وسيعدّلونه .

ان حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي قد أصدر في مؤتمره الأول في ١٨٩٨ بياناً ، يخطىء الرفاق اللبنانيون اذا تصوّروا انه كان أقل جودة من برنامجهم اللبنـــاني الحالي [١] . ومع ذلك فقد كان المؤتمر الثاني المنعقد في ١٩٠٣ والبرنامج الذي اقرّه ، شيئاً آخر ، أرقى بكثير . ثم عـــدّل هذا البرنامج أيضاً ...

مرّة أخرى ، نريد ان نسجّل ما قلناه بصدد الاسلوب الذي اتخذه التقرير في النضال ضد « الكتل الانقسامية » التي خرجت من الحزب (كتلة أغباش – نمر – مطران ، وكتلة قريطـم – صوايا) : بالأمس كنا نتصوّر ، (أي كنتم تتصوّرون) في ١٩٥٩ أو ١٩٥٧ أو ١٩٤٧ أو ١٩٣٧ – لا فرق ! – انكم انمـا تنطلقون في عملكم الايديولوجي والتنظيمي والخططي من نقطة النهاية التي وصل اليها لينين والبلاشفة الروس في ١٩٢٣ (عام وفاة لينين) أو في ١٩١٢ (عام استقلال التنظيم البولشفي) ، ثم تبينتم في ١٩٦٤ – ١٩٦٥ انكم قبل نقطة البداية ! قبل ١٩٠٣ بل وقبل ١٨٩٨ ! لسوء الحظ ، ليس وراءكم « اتحاد النضال لتحرير الطبقة العاملة » البطرسبرجي وجماعة « تحرير الشغل » ، ليس وراءكم لا لينين ولا بليخانوف وبلاغوييف ، بل ولا ستروفه ... وراءكم ارث طويل ومعقد ... وبقدر ما تعون انكم في البداية ، وتعملون بهدي هذا الادراك ، سيكون في استطاعتكم ان تحرقوا المراحل ، كما أحرقها البلاشفة الروس .

واستناداً على هذه الملاحظات الأولية [٢] ، نقدّم لكم تقييمنا للبرنامج الذي أقره مؤتمركم الثاني .

ان البرنامج – برنامجكم الذي تريدونه برنامجـــاً للطبقة العاملة وللشعب –

---

(١) كان بياناً جيداً استشهد به لينين مراراً في نضاله ضد « الاقتصاديين » .

(٢) هذه الملاحظات الاولية كان لا غنى عنها ، لا سيما وان البرنامج ذاته خال من اي نقد ذاتي لتجربة الحزب الماضية . على ما يبدو ، اعتبر الرفاق اللبنانيون ان هذا النقد الذاتي يجب ان ينحصر في اطار التقرير .

كان حصيلة نقاش واسع في صفوف الحزب وأصدقائه . وان تقريركم وبرنامجكم يدلان على انكم أخذتم بعدد لا بأس بـه من الانتقادات الكبيرة التي وجّهت اليكم من خارج دائرة الحزب ، طيلة سنوات ، والتي تناولت جميع المواضيع والمسائل التي أجريتم بصددها التغيير . ان هذه « المشاركة » ثمينة ويجب ان تستمر ونحن حريصون على استمرارها .

وقـد ترون للحوار والتواصل شروطا من نوع : « الموضوعية » ، « التزام النقد البناء » ، الابتعاد عن الشتائم والمهاترات والاتهامات .

ان اسلوب الشتائم ليس أسلوبنا . أما « الموضوعية » و « الذاتية » و «النقد البنّاء » وعكسه ، فهذه أمور ليست مقررة سلفاً في وعيكم ووعينا (وعلى ضوء الماضي : خصوصاً في وعيكم !) . والحوار هو طريق الوصول إلى الحقيقة الموضوعية ، وطريق بناء ما يجب بناؤه وهدم ما يجب هدمه . وحتى يكون الحوار حواراً ، يجب أن يذهب كلّ طرف إلى عرض كل افكاره بوضوح وتفصيل ، وأن لا يتهرب من تسمية الأشياء بأسمائها ، خوفاً من نعوت « النقد الهدّام » و « المهـاترات الاتهامية » ، ويجب ان يتناول في عروضه وردوده جميع القضايا المطروحة في الحوار . ان الزمن الذي كنتم فيه تردّون على اتجاهات غير محددة تفصّلونها كما تشاؤون ، آن له أن ينتهي . وآن لكم ان تعودوا إلى لينين : التفنيد التفصيلي لآراء الخصم ، بعد عرض هذه الآراء والاقوال والكتابات كما وردت حرفيـاً بلسان اصحابها : ميخايلوفسكي ونيكولاي – اون ، ستروفه ، مارتينوف ، مارتوف ، كاوتسكي ، روزا لوكسمبورغ الخ ، الأخيار منهم والأشرار ، وبصرف النظر عن هذا الاعتبار الأخير .

فهل نقرأ قريباً في مجلة « دراسات عربية » أو سواها تفنيداً لآرائنـا وانتقاداتنا ، تضعونه بأسلوب المعلم العظيم ؟

يقع برنامج الحزب الشيوعي اللبناني في ٩٦ صفحة (الصفحة ٢٧ سطراً ، السطر ٩ كلمات ... مع بعض الفراغات . المجموع حوالي ٢٠,٠٠٠ كلمة) .

وهذا يبعدنا كلياً عن « الميثاق الوطني » الذي اقر في المؤتمر الأول(١٩٤٤/١/٢) والذي يقع في ثلاث صفحات . ولئن كان الميثاق القديم قد صيغ في عدد من البنود المرقمة (كل بند جملة واحدة) وكأنه دستور لدولة (دولة ترضي الجميع ، مستقلة برجوازية عصرية ، ولكن بدون الاصلاح الزراعي وبدون اشياء اخرى) ، فان البرنامج الحالي قد صيغ في شكل تحليل طويل لقضايا لبنان والعرب والعالم ، تحليل ينتهي إلى حلول نضالية ، ويؤكد الصفة البروليتارية والثورية والعربية للحزب ، ويضع الاشتراكية في مكانها كهدف لحزب ماركسي – لينيني .

ويتضمن البرنامج ، بعد المقدمة ، فصلاً أول عن الوضع العالمي ، وفصلاً ثانياً عن حركة التحرر العربية ، تليها اربعة فصول عن لبنان : خصائص تطور لبنان ، تركيب الاقتصاد اللبناني ، التركيب الاجتماعي ، طبيعة الدولة ، وفصلاً سابعاً واخيراً عن برنامج الحزب ووسائل تحقيقه .

سندرس بشكل خاص المقدمة والفصلين الأولين ، وننتقل ، بعد ذلك ، إلى قضايا لبنان . نعرض المحتويات مع استشهادات حرفية ، ونعلق عليها بالتأييد والنقد ومحاولة الاكمال وسد الثغرات . وغايتنا من خلال العرض والتأييد والانتقادات الفرعية : الوصول إلى حقائق أساسية ،غابت عن واضعي البرنامج .

مقدّمة البرنامج

تعرّف المقدمة الحزبَ : « حزب العمال والفلاحين وجماهير الكادحين والمثقفين الثوريين » ونشأته ، وهدفه : « تحويل المجتمع تحويلاً ثورياً إلى الاشتراكية » – « مسترشداً في سبيله إلى هذا الهدف بنظرية الاشتراكية العلمية : الماركسية – اللينينية » – « والحزب الشيوعي يتوجه بنشاطه السياسي والفكري – بالدرجة الأولى – لتنظيم الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وفئات الكادحين بسواعدهم وأدمغتهم ... ». والحزب « يناضل بحزم لتحقيق الاستقلال الاقتصادي وإسقاط سلطة الطغمة المالية وتصفية التبعية للاستعمار الجديد » . ويقاوم « كل دعوة وكل عمل لتقسيم الشغيلة حسب الانتماءات الطائفية » . وهو «يستلهم ويطوّر كل ما هو تقدمي وثوري في تراث شعبنا الوطني والقومي » و « يرى ان ما وصلت اليه الحركة الوطنية والشعبية في الوقت الحاضر هو المكمّل لانتفاضات الفلاحين البطولية في العاميات » وللنضال الشعبي ضد الاقطاعية والسيطرة العثمانية والاستعمار الفرنسي. ولبنان «عضو أصيل في الأسرة العربية». والحزب « يقاوم بحزم (...)[1] كل اتجاه سياسي أو فكري أو طائفي ينطوي على محاولة لاضفاء صفة على لبنان غير صفته العربية » . « لذلك ناضل الحزب دائماً وسيبقى يناضل في سبيل توطيد التضامن بين الشعب اللبناني وسائر الشعوب العربية الشقيقة (...) وفي سبيل تحقيق الوحدة ، المطمح الكبير للشعوب العربية . وقد وضع الحزب هذا المطمح في صلب سياسته التي أعلنها في وثائقه

---

(١) هذه الاشارة – نقاط موضوعة بين قوسين (...) – اعتمدناها للدلالة على اننا أسقطنا بعض العبارات تخفيفاً للنص ، (وهي لا تغير شيئاً في سياقه أو معناه) .

السياسية منذ السنوات الأولى لنشوئه » . « وانطلاقاً من مواقف الأممية البروليتارية (...) فان الحزب الشيوعي (...) يؤكد الصلة الوثقى بين نضال شعبنا ونضالات الشغيلة والشعوب الأخرى ، وقد دأب في تثقيف الجماهير بروح الأممية » ، وأسهم في النضالات المعادية للنازية والفاشستية ولنصرة قضية السلام العالمي . والحزب « يحرص بثبات على التزام الخط العام للحركة الشيوعية العالمية ، وعلى الأمانة الدائمة للصداقة وروح الاخاء بينه وبين الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » .

هذه المقدمة تبدو لنا صائبة ، من حيث الجوهر ، من حيث النقاط الجوهرية فعلاً التي تضمنتها والتي يجب ان تتضمنها وتشملها . و« خلافنا » معها على تفاصيل هذه النقاط الجوهرية ، على بعض الألفاظ وبعض النواقص .

١ — « الحزب الشيوعي هو حزب العمال والفلاحين وجماهير الكادحين والمثقفين الثوريين » .

لا نعتقد ان الحزب الماركسي يستطيع ان يعرّف نفسه بأنه حزب ... « الفلاحين » بدون تمييز. والحزب « يتوجه بالدرجة الاولى لتنظيم الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين وفئات الكادحين بسواعدهم وأدمغتهم جميعاً » . هل بقيت درجة ثانية ؟ هذا الانسياق يضعف الطابع البروليتاري للحزب الماركسي .

٢ — ولقد أشارت المقدمة الى ان « الاشتراكية وحدها تكفل القضاء على التخلف الاجتماعي في بلادنا ». وهذا شيء ثمين . في الماضي ، كنا نتوقع مجيء الاشتراكية من التقدم الاجتماعي ، من تقدم أدوات الانتاج والتصنيع والمجتمع البرجوازي العصري ، هذا كان تشخيصكم للأمور حتى أمس قريب (١٩٦٤) . وها أنكم تلاحظون بحق « ان الاشتراكية وحدها تكفل القضاء على التخلف الاجتماعي » . التخلف الاجتماعي لا يمكن ان يقضي عليه بدون الاشتراكية . وهذه الجملة لا يمكن ان تكون مجرد جملة . انها حقيقة . وهذه الحقيقة ليست

حقيقة لسويسرة وفرنسا . انها ، كما تقولون حقيقة « لبلادنا » ، للبنان والعالم العربي ، للشرق ، لـ « شرقنا » [1] ، للبلدان المتخلفة (والتخلف ليس لفظاً عامياً غير محدّد المضامين . انه حالة تخلّف النمو sous-développement) . ثمة اذن ديالكتيك جديد للثورة الاشتراكية ، ديالكتيك يبدأ تحققه في الثورة الروسية ، في البولشفية ، في اللينينية ، ويتثبت في تجربة اوروبا الشرقية والصين وكوريا وفيتنام وكوبا والبلدان العربية ، الخ ... الاشتراكية لا تنبثق من « التقدم » ، تقدم قوى الانتاج تجريدياً ونظريا . وبالعكس إنها ، الى حدّ كبير ، تنبثق من عدم امكانية التقدم الرأسمالي البرجوازي الديمقراطي في الشرق ، من حدود هذا التقدم في زمن الامبريالية وفي ظل علاقاتها الموضوعية . الثورة الاشتراكية تنبع من التناقض بين علاقات الانتاج الرأسمالية وبين قوى الانتاج الآخذة في تقدم سريع ، ولكن هذا التناقض يتحقق عالمياً على اساس عدم التساوي . وفكرة العالمية (عالمية الرأسمالية وبالاحرى عالمية الامبريالية ، والعالمية = التفاوت : عدم التساوى) هي ركن اللينينية ضد الكاوتسكية ، تتثبت كركن للينينية في سنة ١٩١٦ ، سنة المجادلات الكبرى ضد كاوتسكي ، وايضاً بالتمايز عن تروتسكي وروزا لوكسمبورغ الخ ... وشباب « اليسار » (بياتاكوف ، بوخارين) .

هذه الحقيقة يجب ، في نظرنا ، ان توضع في مقدمة برنامج الحزب الشيوعي اللبناني . لسوء الحظ ، لا نجدها في الفصل الاول ايضاً . وهذا نقص ليس تفصيلياً . المطلوب قلب المنطق السابق الذي ساد في مختلف مراحل تاريخ الحزب ، سواء كانت يمينية أو « يسارية » ، والذي كان في هذه « النقطة » المبدئية والستراتيجية ، يمينا . من المؤسف ، ان البرنامج قد « تجاوز » المنطق السابق ، ولكنه لم يصل الى المنطق الجديد . كأنه

---

(١) ولفظ « شرقنا » من عند لينين ذاته . وليس من عند كاوتسكي ولا من عند تروتسكي او روزا لوكسمبورغ .

يخشاه . – ألأنه يخشى التروتسكية ؟ – ان تجاوز المنطق السابق (وهذه المرة نقول تجاوز بدون مزدوجين) يتطلب نقد المنطق السابق ، أي عرضه عرضاً جوهرياً وتفصيلياً ، ثم نقده نقداً جوهرياً وتفصيلياً .

ونرى ها هنا ان خلو تقرير اللجنة المركزية من ادانة صريحة كاملة للوهم البرجوازي الذي سيطر في قرارات « نحو آفاق جديدة » لعام ١٩٥٦ ، نقيصة ندفع ثمنها في البرنامج ايضاً . ونرى ان خلو البرنامج من أي تقييم لتجربة الحزب الماضية ، تقييما نقدياً ، نقيصة اخرى ندفع ثمنها في تشخيص الحاضر والمستقبل .

٣ – من المستحيل الموافقة على قول البرنامج « لقد ناضل الحزب دائماً ، وسيبقى يناضل في سبيل توطيد التضامن بين الشعب اللبناني وسائر الشعوب العربية الشقيقة ... وفي سبيل تحقيق الوحدة ، المطمح الكبير للشعوب العربية » . هذه الجملة فيما يتعلق بالماضي (« لقد ناضل الحزب دائماً ») ليس لها معنى : فمثلاً ، اذا كان انفصال ١٩٦١ نتيجة هجوم استعماري شرس على الشعوب العربية ، واذا كان الحزب آنذاك غارقاً في « الدفاع عن كيان لبنان » ضد « الأطماع المصرية » ، ينال الترحيب من « الإديين والكتائبيين » (وهذا كله يقوله تقرير اللجنة المركزية بصدق وعمق) ، حينئذ لا يمكن القول ان الحزب « ناضل دائماً في سبيل التضامن بين الشعب اللبناني « والشعبين السوري والمصري المعترضين » للهجوم الاستعماري الشرس » (بله « في سبيل الوحدة ، المطمح الكبير...») .

اما الاشارة الى ان الحزب « وضع هذا المطمح (الوحدة) في صلب سياسته التي أعلنها في وثائقه السياسية منذ السنوات الأولى لنشوئه » ، فهي اشارة ثمينة ولكنها لا تروي عطشنا . هناك فعلاً وثيقة صدرت عن اجتماع عقده ممثلو شيوعيي سوريا (ولبنان) وفلسطين في سنة ١٩٣١ ، حللت موضوع التجزئة العربية تحليلاً ماركسياً فذاً ، ووضعت الوحدة

العربية المناهضة للامبريالية والاقطاعية في رأس مهمات الشيوعيين والثوريين العرب[١] . فهل هناك وثائق بنفس الاتجاه تعود إلى الفترة السابقة ايضاً ؟ هذا ممكن . على أي حال ، ليس هناك وثائق من هذا الطراز تعود الى الفترة اللاحقة . وان يكون الحزب قد وضع هذا المطمح (الوحدة العربية) « في صلب سياسته التي اعلنها في وثائقه السياسية منذ السنوات الاولى لنشوئه » شيء ، وأن يكون الحزب قد استمر على هذه السياسة بعد السنوات الاولى (١٩٢٥ و ١٩٣١) شيء آخر . بتعبير آخر ، نقترح على الرفاق اللبنانيين ، دفعاً لالتباس مثالي ، ان يغيروا كلمة « منذ » وأن يضعوا محلها كلمة « في » .

ونقترح عليهم ان يسجلوا سحب هذا المطمح (الوحدة) من السياسة ومن الوثائق خلال الثلاثينات ، وان يدرسوا جدياً آلية هذا السحب ، ظروفه المحلية والدولية ، السياسية والإيديولوجية ، والقيادية ، فلسفته — فلسفة « الامم » العربية القطرية الآخذة في النشوء والتكوّن ، وهى الفلسفة التي تبلورت تماماً في بحث « العرب وأبحاث ستالين في المسألة الوطنية » الذي ألفه « الأمين العام » ووضعه كمقدمة لمجموعة مختارات من ستالين وتوريز ، صدرت في ربيع ١٩٣٩ في شكل كتاب بعنوان « طريق الاستقلال »[٢] .

---

(١) هذا موضوع يعرفه قراء « دراسات عربية » حيث عالجه ناجي علوش، كما ذكرناه في كتابنا « تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي » . سننشر الوثيقة كاملة في الطبعة الثانية الموسعة من الكتاب المذكور .

(٢) هذا الكتاب موجود. والاعلانات عنه موجودة في « صوت الشعب » ، ١٩٣٩ . ويستشهد به «الامين العام » في تقريره امام المؤتمر بتاريخ ٣١ - ١٢ - ١٩٤٣ . في أوائل ١٩٣٩ ، وضع موريس توريز نظرية « الامة الجزائرية الآخذة في التكون » « بمساعدة الجمهورية الفرنسية ». وتبعه خالد بكداش ، فعمم هذه النظرية عربياً ، وقال « بالأمة السورية» « الآخذة في التكون « بفضل » المعاهدة الفرنسية — السورية » لعام ١٩٣٦ والتي لم يكن البرلمان الفرنسي قد صادق عليهابعد (!) في هذه السنة ١٩٣٩ ! .

ونقول « ان يدرسوا جدياً » . ففي الكتابات العائدة لفترة ١٩٣٦ – ١٩٥٤ ، او لفترة ١٩٥٨ – ١٩٦٥ ، نجد مديحاً للثقافة العربية ، ودعوة لإحياء التراث العربي ، وكلاماً كثيراً عن تضامن الشعوب العربيــة ... ومع ذلك ، كما يقول تقرير اللجنة المركزية اللبنانيــة ، لم يفهم الحزب المسألة القومية ، وأخطأ في موضوع الوحدة وفي موضوع فلسطين الخ ... بتعبير آخر : شتان ما بين حديث « الثقافة العربية » و « التراث العربي » و « العرب » و « العروبة » وشتى « العروبيات » الثقافية والسياسية وبين اتخاذ موقف صحيح من « المسألة القومية » العربية ، موقف ثوري ، أي بالتالي قومي عربي . وان أحد بنود هذا الموقف الصحيح هو الموضوعة القائلة بأن لبنان وكل شعب عربي جزء من الأمة العربية .

٤ – ونأسف لأن هــذا اللفظ « الأمة العربية » لم يرد في مقدمة البرنامج ولا في البرنامج بشكل عام . لقد أيّد البرنامج الوحدة العربية ، وأورد تعبير « القومية العربية » ، الخ ، ولكنه تجنب تعبير « الأمة العربية » .

وبالطبع ان الذي يؤيد الوحدة العربية قولاً وفعلاً ، حتى إذا كان يتحاشى لفظ الأمة العربية ، بل وحتى اذا كان لا يؤمن بوجود « أمة عربية » أو « أمة عربية مكـّونة » او « واحدة » ، أفضل الف مرة ، من ذلك الذي يردّد لفظ « الأمة العربية » بل و « يؤمن » بوجود أمة عربية مكـّونة ، ومكـّونة منذ معركة ذي قار أو منذ زمن ابراهيم الخليل ، ولا يؤيد الوحدة العربية فعلاً . (هذا الصنف من القوميــين منتشر في مشرقنا العربي ، ولا سيما في العراق مثلاً ، بــين أنصار « الاشتراكية الرشيــدة » ، بل وبين أنصار الاشتراكية العلمية وربمــا الماركسية) . فالشيء الأساسي هو المضمون التاريخي الحاضر : الحركة القومية العربية ، حركة الأمة العربية نحو الاستقلال والوحدة .

واذا أراد الماركسي ان يبقى أميناً لبعض المقولات والألفاظ – لتعريف ستالين للأمة = العلائم الأربعة : لغة ، ... + الحياة الاقتصادية المشتركة (التكامل الاقتصادي ، المراكز الصناعية المشتركة الخ) – وأن يساند القومية العربية والوحدة العربية ، فإنه مضطر لتجنب لفظ « الأمـــة العربية » أو للقول بأمة عربية آخذة في التكـّون ، ويساند هو تكونها الكامل والنهائي . ولكن هذه « الأمانة » اللفظية ليست **ضروريـــة ماركسياً ، وليست ممكنة ، ماركسياً** . إن تعريف ستالين يرتبط بالموضوعة الماركسية الستالينية القائلة ان الأمة مقولة تاريخية لعصر الرأسمالية الصاعدة (وما يستتبعه ذلك في فهم الحركة القومية ، وطبيعتها البرجوازية) . والحال ، نحن لسنا اليوم في « شرقنـا » في عصر الرأسمالية الصاعدة ، ومفهوم الرأسمالية الصاعدة والمضمون البرجوازي للحركة القومية لا يشكل اليوم ، في أحسن احتمال ، سوى جزء صغير أو صغير جـداً من هذه الحركة التاريخية القومية ، لدى شعوب الشرق . نحن اليـــوم أولاً في عصر الامبريالية ، والثورة الاشتراكية . والوحدة القومية السياسية للعرب والتكـّون القومي الحديث للافريقيين (حالتان مختلفتان ولفظان مختلفان) لا يمكن ان ينبعا من التطور البرجوازي الذاتي لعصر رأسمالية صاعدة وهمي . ولئن كانت موضوعة ستالين « الأمة مقولة تاريخية لعصر الرأسمالية الصاعدة » هي موضوعة ماركسية فعلاً ، وجزء لا يتجزأ من نظريـــة المادية التاريخية ، فهي كذلك عن طريق وبوساطة نظرية تعاقب المجتمعين الاقطاعي والبرجوازي ، (تعاقبهما وصراعهما ، موت الأول ونشوء الثاني وانتصاره) التي تلخص فعلاً تاريخ اوربا الماضي . ولكن هذه النظرية – تعاقب المجتمعين المذكورين – لا تلخـّص تاريخ الشرق الماضي والحاضر . انها في أحسن احتمال ، عنصر صغير في تاريخ الشرق الفعلي في القرنـين الأخيرين .

والموضوعة الماركسية عن الأمم « كمقولة تاريخية لعصر الرأسماليـــة

الصاعدة » (ستالين) و « كنتاج وشكل حتميين للدور البرجوازي في التطور الاجتماعي » (لينين) – وصيغ مشابهة عند ماركس وانجلز وكاوتسكي وبليخانوف – لم تمنع أبداً لينين وروزا لوكسمبورغ من القول بأن « شعوب المستعمرات هي ايضاً امم » (١٩١٦) ، وماركس وانجلز من ذكر « خضوع أمم الفلاحين لأمم البرجوازيين » كسمة لعصر الرأسمالية (١٨٤٨) ، وانجلز من الحديث عن الوعي القومي العربي قبل الاسلام (١٨٥٣) ، وماوتسي تونغ من تأكيد عراقة « الأمة الصينية » (١٩٣٩) . وهذا كلّه يذكرنا بجدود « النظرية الماركسية الكلاسيكية » في المسألة القومية ، ويذكرنا بهذه المناسبة بجدود « النموذج » الكلاسيكي للتطور « البشري » (نموذج المادية التاريخية كما عرضها ستالين في كتاب « المادية الجدلية والمادية التاريخية ») والذي هو في الواقع نموذج التطور الاوروبي .

نقترح اذن على الرفاق اللبنانيين ان يضيفوا تعبير « الأمة العربية » على برنامجهم الجديد .

وثانياً . بعد تسجيل ان لبنان وكل شعب عربي جزء من الأمة العربية الواحدة ، لا بأس من دراسة نقص الاندماج القومي في هذه الأمة العربية ، بوجه عام ، وفي القطر اللبناني بوجه خاص ، (بالمقارنة مع النموذج القومي البرجوازي الحديث ، ومع النموذج القومي الاشتراكي) ، دراسة تاريخية – اقتصادية – اجتماعية ، بعيدة عن الكليشيات ، (مع استخدام تحليلات ماركس وانجلز الشرقية والهندية والعربية ، وأداة « الاسلوب الآسيوي للانتاج » الماركسية التاريخية) .

ان اقتراحاتنا بالنسبة لصياغة هذه المقدمة تتلخّص في النقاط الآتية :

١ – عند تعريف الحزب ، تعديل الصيغ بما يُبرز الطبقة العاملة ويؤكد الصفة البروليتارية للحزب .

٢ – عند تعريف هـــدف الحزب ومبادىء الماركسية – اللينينية ، تسجيل ديالكتيك التخلّف والثورة الاشتراكية في زمن الامبرياليـــة وعلاقاتها ، أي ديالكتيك تحوّل الثورة الديمقراطية (القومية الديمقراطية) إلى ثورة اشتراكية ، باعتبار ان هـذا الديالكتيك هو من صميم افكار لينين و ماركس . وادانة الستراتيجية البرجوازية (وغير الديمقراطية) التي سيطرت على مفاهيم الحزب خلال ثلاثين عاماً من تاكتيك اليمين وتاكتيك اليسار أو ربع اليسار .

٣ – تعديل الصيغ المتعلقة بنضال الحزب السابق في الوحدة العربية ، والاشارة إلى التغيير الحاصل منذ الثلاثينـات ، حين ابتعد الحزب عن المطمح الكبير ، ومال زعيمه إلى فلسفة « الامم » القطرية والاقليمية ، وادانة هذا التغيير .

٤ – اضافة لفظ « الامة العربية » . هذا اقتراح لفظي محض ، مـا دام البرنامج يؤكد الهوية القومية العربية للبنان بما لا لبس فيه ولا غموض . ولكن هـــذا اللفظ يمكن ان يتخذ مناسبة لدراسة نظريات ستالين في « المسألة القومية » دراسة نقدية ، بالاستناد إلى لينين وانجلز وماركس .

٥ – بعد تأكيد الأممية البروليتارية والالتزام بخط الحركة الشيوعية ، تأكيد استقلاليـة الحزب – الفكرية بالدرجة الأولى – وأنّ الحزب الشيوعي اللبناني يأخذ على عاتقه مهمة دراسة الاوضاع اللبنانية والعربية والعالميـة ، جنباً إلى جنب مع سائر الماركسيين – اللينينيين في الوطن العربي والعالم ، ومهمة انماء التراث التاريخي العالمي للماركسية .

الفصل الاول

الوضع العالمي

١ – الفقرة التمهيدية : عرض ونقد

يمتد هذا الفصل من الصفحة ٧ الى الصفحة ٢٠ . وهو يبدأ بفقرة تمهيدية عن « **محتوى عصرنا وجوهره** » (ص ٧ – ٨) .

ونظراً لأهمية هذه الفقرة التمهيدية (انها التمهيد الذي يعطي النغم الرئيسي للفصل كله) ، فقد رأينا ان نبدأ بتقديمها ، وأن نبدي بصددها عدداً من الملاحظات . ثم نعود الى تقديم سياق الفصل (ص ٨ – ٢٠) ، منتقلين بعد ذلك الى مناقشة محتوياته تفصيلياً .

تقول الفقرة التمهيدية « **محتوى عصرنا وجوهره** » :

« ان عصرنا الراهن ، ومحتواه الرئيسي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، هو عصر الصراع بين النظامين الاجتماعيين العالميين المتناقضين ، عصر الثورات الاشتراكية وثورات التحرر الوطني وانهيار الامبريالية وتصفية نظام الحكم الاستعماري ... » . « ويتحدد جوهر عصرنا بأن علاقات الانتاج الرأسمالية قد أنهت مهمتها التاريخية ونشأت ظروف

موضوعية لانتقال البشرية الى نظام الاشتراكية » (ص ٧) « لقد بدأت ثورة أوكتوبر الاشتراكية هذا الانعطاف التاريخي ، بتحطيمها علاقات الانتاج الرأسمالية في روسيا منتزعة سدس الكرة الأرضية من نظام العبودية الرأسمالية ، واقامت دولة العمال والفلاحين ... » (ص ٧ – ٨) . « وان الصراع بين الاشتراكية والامبريالية يشكل محور الصراع الطبقي على النطاق العالمي » (ص ٨) ...

هذه الفقرة التمهيدية الممتدة على ٢٢ سطراً جيدة وممتازة بما تثبته ولكنها سيئة بما تجهله . كل ما تؤكده صحيح . ولكن هناك حقائق أساسية أخرى لم تؤكدها ولم تشر اليها .

« يتحدّد جوهر عصرنا بأن علاقات الانتاج الرأسمالية قد أنهت مهمتها التاريخية ونشأت ظروف موضوعية لانتقال البشرية الى نظام الاشتراكية » . – ما في ذلك ريب . هذا « جوهر **عصرنا** » . ويمكن القول ان عصر ماركس ١٨٤٥ – ١٨٨٣ لم يكن كذلك ، حتى اذا كنا نصادف عند ماركس ما يوحي بأن عصره كان عصر انتهاء مهمة الرأسمالية ونشوء الظروف الموضوعية للانتقال (نصادف أو لا نصادف ، هذا لا يعنينا هنا) . ان عصر ماركس لم يكن عصر انتهاء مهمة الرأسمالية وتوفر الظروف الموضوعية للاشتراكية . ولقد انتهى ماركس وانجلز إلى ادراك هذه الحقيقة (وانتهى كلمة غير دقيقة ، صحيحة فيما تؤكد ، خاطئة فيما تنفي . في الواقع ، نصادف عند ماركس وانجلز ، أحياناً ، قبل نهاية حياتهما ، ادراكاً غامضاً لهذه الحقيقة) . كان عصر ماركس عصر أكبر تقدم للرأسمالية ، عصر انتصار الرأسمالية ومجتمعاتها البرجوازية القومية على الاقطاعية في اوروبا ، وعصر موجة جديدة لتوسع الرأسمالية الكولونيالي في العالم . كانت هناك حاجة الى هذا الصعود البرجوازي ، حاجة الى انتصار الرأسمالية في

العالم أو على العالم ، حاجة الى هذا التقدم الرأسمالي ، الى هذه الثورة الرأسمالية . وكما يقول لينين (١٩١٣) : بعد كومونة باريس ١٨٧١ ، أي في نهاية حياة ماركس ، بدأ دور ثان في التاريخ الكوني منذ ظهور الماركسية ، دور سلمي متدرج اختفت فيه الصدامات أو تقريباً ، دور يملؤه نمو حركة العمال والماركسية في الاتساع ، ويصل الى الثـــورة الروسية لعام ١٩٠٥ التي تبـدأ الدور الثالث ، دور الصدامات ، دور الثورات الديمقراطية في آسيا والمعارك البروليتارية في أوروبا ، وهذا الدور هو ايضاً وفي نهاية التحليل (كما يعرّفه لينين في سنوات لاحقة) عصر الامبريالية والثورة البروليتارية الاشتراكية العالمية . بتعبير آخر : ان عصر الامبريالية هو ، واقعياً ، عصر الثورة البروليتارية الاشتراكية العالميه . تسير الأمور وكأنه كانت ثمة « حاجه » الى هذا التقدم كله ، وصولا الى عصر الامبريالية . [1] وعصر الامبريالية يغيّر – واحياناً يقلب – معطيات ستراتيجية الثورة الاشتراكيـة .

ان ماركس وانجلز (في البيان الشيوعي اوائل ١٨٤٨ ، أي منـذ البداية !) وجّها بصرهما نحو المانيا المتخلفة (المتخلفة عن انكلترة وفرنسا) لأن المانيا المتخلفة شبه الاقطاعية الاستبدادية المجزأة والممزقة كانت حبلى بثورة برجوازية ديمقراطية وحدوية ، يريدانهـــا فاتحةً مباشرة للثورة البروليتارية الاشتراكية ! [2] . وعلى هذا الأساس ، وضعا فكرة « الثورة الدائمة » (١٨٥٠) . وهذا الاتجاه إلى اطلاق الثورة البروليتارية من شيء

---

(١) ان مسألة ما إذا كان انتصار الثورة الاشتراكية في زمن ماركس (باريس ١٨٧١ أو المانيا ١٨٦٢ – ١٨٦٦) « ممكنا » أو « غـــير ممكن » لا تعنينا ، على الاقل هنا . وهي لا يمكن ان تتخـــذ مرتكزاً لستراتيجيتنا الحاضرة (استراتيجيـــة الثورة الاشتراكية المناهضة للامبريالية) ، رغم فوائدها الاكيدة بالنسبة لنظرية المادية التاريخيـــة والجدلية ، وايضاً بالنسبة لستراتيجيتنا الحاضرة وتاكتيكنا الحاضر . سنرى كيف !

(٢) انظر البيان الشيوعي ، « الفصل الرابع » .

« آخر » ، هذا الاتجاه إلى « **عطف** » الثورة البروليتارية على الثورة الديمقراطية وفروعها وعلى موجودات العالم الواقعي ، ظل ثابتاً عند ماركس وانجلز : هذا الشيء الآخر هو « طبعة جديدة لحرب الفلاحين الالمان » (١٨٥٦) ، الثورة القومية الايرلندية (١٨٦٧ – ١٨٧٠) ، الحرب القومية « اليعقوبية » الالمانية ضد عدوان روسي محتمل (١٨٩١) . – وقد ذكر لينين مراراً هذه الأمثلة في مؤلفاته الاكثر كلاسيكية ! – حتى ان ماركس وانجلز فكرا بانعكاس الثورات والحروب الآسيوية الوطنية على اوروبا والثورة في اوروبا ، في وقت كانت فيه آسيا بعيدة ، بعيدة ، جغرافياً **وتاريخياً** ! وهذه الأمور كلها تأخذ مكاناً جديداً – هائلاً – في العصر القريب ، القريب ، عصر الامبريالية ، عصر اللينينية والتحريفية والكاوتسكية وماركسيات اليسار غير اللينينية .

بتعبير آخر : **لا يكفي** ان نقول « ان علاقات الانتاج الرأسمالية قد أنهت مهمتها التاريخية » ، بل يجب ان نبيّن كيف أنهت وبأي معنى أنهت ؟ **ولا يكفي** أن نقول « ونشأت ظروف موضوعية لانتقال البشرية إلى الاشتراكية » ، بل يجب أن نقول ما هي هذه الظروف الموضوعية . ان كلمة « البشرية » ، العالم ، كلمة عظيمة وثمينة . ولكنها لا تكفي لدرء الاحتمال البغيض ، الخطأ الذي درجنا (درجتم) عليه في الماضي : تحويل مفهوم « الظروف الموضوعية » إلى مفهوم تجريدي ، هيكلي ، عظمي لمجتمع برجوازي « خالص » يتسم بالتعارض بين « قوى الانتاج » وعلاقات الانتاج ، وبين الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية (والباقي يأتي بشكل « مضاف » surajouté : الفلاحون ، « العمال والفلاحون » ، الامبريالية (المسماة في المفردات القديمة « الاستعمار ») .

والحال ، ان التناقض بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، باعتباره سمة المجتمع الرأسمـالي ، وقانوناً للرأسمالية (من بدايتها إلى نهايتها) ،

يتجلى اليوم بالدرجة الأولى في عجز العالم المتخلّف عن تقدمّ حقيقي ، في اتساع الهوة الفاصلة بين الدول الرأسمالية المتقدمة (ناهيك عن الدول الاشتراكية) وبين الدول المتخلفة . التناقض المذكور يتحقق ويتشخّص « عالمياً » و « بشرياً » ، على هذا الشكل . والرأسمالية ، وقوى الانتاج الرأسمالية ، والعلم والتكنيك الرأسماليان لا يزالان – وبخلاف ما ورد في كتب وكراسات الزمن الستاليني الاخير وما بعد الستاليني لا يزالان يتقدمان وبوتائر لا بأس بها ، في الولايات المتحدة وكندا وفرنسا والمانيا الغربية وايطاليا الخ .. بل ان الرأسمالية في اوروبا الغربية دخلت في طور تقدم جديد ومرموق في ١٩٥٠ – ١٩٥٥ أي في الفترة التي اكدنا فيها نبوءتنا المتفائلة عن عجز هذه الرأسمالية وسقوطها القريب .

هذا هو المضمون الاول (ولا نقول الأول والأخير) الذي يجب أن نعطيه بوضوح للصيغة الصحيحة القائلة « ان الصراع بين الاشتراكية والامبريالية يشكل محور الصراع الطبقي على النطاق العالمي » ، والاّ ، تبقى هذه الصيغة غامضة ، ويبقى مفهوم « النطاق العالمي » مجرّد « توسيع » لمفهوم « القطر » (قطر اوروبي برجوازي ، مثالي) ومحض « تطبيق » لمخطط sehéma « ماركسي كلاسيكي اوروبي » ليس هو افكار كارل ماركس .

والحال ، ان الاسطر السبعة التي خصصتها الفقرة التمهيدية لثورة اوكتوبر تركت هذه المسألة الكبيرة خارج حقل النظر . هذه الاسطر السبعة الثمينة والصحيحة من أولها الى آخرها تذكرنا بالوثائق والموضوعات الصادرة عن الحزب الشيوعي السوفياتي بمناسبة الذكرى الخمسينية للانعطاف التاريخي العالمي العظيم : انها مكرسة لنتائج ثورة اوكتوبر ، وفي أحسن احتمال لثورة اوكتوبر وما بعدها (البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ونمو الثورة العالمية) : ولكن كان من الواجب ، بالنسبة لبرنامج حزب

شيوعي يعمل في بلد رأسمالي وشرقي ، ان تتناول هذه الاسطر السبعة ثورة اكتوبر وما بعدها وما قبلها ، ما قبلها تاريخياً ومنطقياً ، أي المقدمات والأسس والمنطلقات ، نقصد ديالكتيك تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكيــة في روسيا في زمن الامبريالية ، وبالتالي ومن هذا الانطلاق ذاته ، وفي صدد « ما بعد » وفي صــــدد التطور التاريخي السابق واللاحق كله ، ديالتيك الثورة الدائمة المنبسطة في الزمان والمكان ، في زمن الامبريالية وأوكتوبر الاشتراكي .

بتعبير آخر ، وباضافة ضرورية : بعد سبعة أسطر مخصصة لثورة اوكتوبر ، من المطلوب اضافـــة سبعة أسطر تتناول الثورة الصينية ، والثورات اليوغوسلافية والبلغارية . . والكورية . . . والكوبية ، والعربية . . . سبعه أسطر لكل هذه الثورات (بما فيها الثورة الصينية ، التي إن لم تنتزع سدس مساحة الكرة من نير العبودية ، فقد انتزعت ربــــع سكان المعمورة) . أو سطرين فقط ، لتعداد هــذه الثورات ، مجرد تعدادها بالأسماء .

لم تفعلوا ذلك . لو فعلتم ، لكنتم تحاشيتم الوقوع في الخطأ الكبير ، الخطأ الذي يتجلى في سياق الفصل الأول كله . (لأنكم أثبتم صدق النيّة ، فاننا لا نقلب الجملة الآنفة ، ولا نقول : حتى « تمرروا » الرأي اللاحق – الخطأ الكبير – تحاشيتم تعداد الثورات الـــتي أعقبت ثورة اوكتوبر ، وتحاشيتم موضوع مبدأ التحول الذي هو قوام اوكتوبر الروسي ، الذي تحقّق في زمن الامبريالية[1]) .

وننتقل الآن – بعد ملاحظاتنا على الفقرة التمهيدية – إلى سياق الفصل .

---

(١) « الامبريالية » لا تحتل في هذه الفقرة التمهيدية ولا في سياق الفصل ، المكان المركزي الذي يجب أن تحتله .

٢ - عرض محتويات الفصل الأول

يتواصل موضوع « محتوى عصرنا وجوهره » في الحديث عن « **الأزمة العامة للرأسمالية** » (ص ٨ - ١٠) .

« دشنت ثورة اوكتوبر مرحلة الأزمة العامة للرأسمالية (...) . وتشمل الأزمة العامة ، وهي أزمة العالم الرأسمالي بمجمله ، جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية . والانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية هو المحتوى الجوهري لعهد الأزمة العامة للرأسمالية » (ص ٨) ... « ان الرأسمالية هي مصدر الآلام والويلات للشعوب . فهي تولد الحروب العدوانية ، وتنطوي على خطر حرب عالمية جديدة ، (...) وهي لا تزال تستثمر الشعوب بمختلف الوسائل والأساليب ، وهي المسؤولة عن التخلف المريع للبلدان التي كانت تستعبدها في السابق . وهي التي تعرقل استخدام الامكانيات الهائلة التي يوفرها العلم والتقدم الفني للقضاء على البؤس والجوع والمرض . (ص ٨) .

ويتناول البرنامج بشيء من الاسهاب موضوع « الرأسمالية الاحتكارية للدولة » (ص ٨ - ٩) : « ان الرأسمالية المعاصرة هي ، قبل كل شيء ، رأسمالية الدولة الاحتكارية » التي « تجمع قوة الاحتكارات وقوة الدولة في ظروف تمركز متزايد للانتاج والرأسمال » . لقد بات الاحتكاريون - سعياً منهم وراء « الحد من الظاهرات المدمرة في النظام الرأسمالي » - « يلجأون ، على نطاق واسع ، الى طرائق البرمجة وضبط الاقتصاد بواسطة الدولة ، مع الاعتماد المتزايد على الانتاج الحربي » . « الا ان مختلف الوسائل المستخدمة لا تفيد في ستر عيوب الرأسمالية ولا في شفائها من تناقضاتها المستعصية » . « أن الظاهرات الجديدة في الاقتصاد الرأسمالي مثل البرمجة ومساهمة الدولة في الأبحاث العلمية والتكنيكية ، تؤكد صحة الموضوعة اللينينية عن رأسمالية الدولة الاحتكارية بوصفها أكمل تحضير

مادي للاشتراكية » . ان الطابع الطفيلي للطبقة البرجوازية يتعمق ويزداد وضوحاً ، وتتفاقم التناقضات الطبقية والاجتماعية .

« ان التناقض الأساسي في عصرنا ، التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية لا يخفي التناقض بين الدول الامبريالية . وتشهد المرحلة الراهنة موجة جديدة من التناقضات بين هذه الدول « وتتعرض للتمزق الكتل الحربية التي انشأتها الولايات المتحدة وسائر الدول الامبريالية » . وتشهد الكتل الاقتصادية الامبريالية منافسة حامية واحتكاكات حادة بين اعضائها (ص ٩ – ١٠) .

وينتقل البرنامج الى تسجيل « **اشتداد عدوانية الامبريالية** » (ص ١٠ – ١١) : يتميز الوضع الدولي الراهن باشتداد عدوانية الامبريالية العالمية وعلى رأسها الامبريالية الاميركية التي انتقلت الى « التدخل العسكري الصريح والمباشر في فيتنام ، وغير المباشر بدعمها وتشجيعها واشتراكها في تدبير العدوان الاسرائيلي الاخير على البلدان العربية وتشديد سباق التسلح ، وتزايد نهبها لثروات الشعوب ، ... ، وتنظيم الانقلابات العسكرية الرجعية في عدد من بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية ، وتشديد النشاط الايديولوجي لمقاومة أفكار الاشتراكية والشيوعية . « ان ايديولوجية العداء للشيوعية تعكس الأهداف الاجرامية للامبريالية » ... « ولكن تزايد عدوانية الامبريالية ليس دليلاً على تنامي قواها » . « وتقدم فيتنام مثالاً ملموساً على إمكانية التصدّي للمخططات الاجرامية الدموية للامبريالية واحباطها بالجهود المشتركة لقوى التحرر والديمقراطية والاشتراكية » . « ان النجاحات التي حققها ويحققها نضال الشعوب لا تتوقف من حيث الاتساع والعمق رغم تزايد عدوانية الامبريالية . ان تزايد عدوانية الامبريالية هو نتيجة لتعمق الأزمة العامة للرأسمالية ، ورد فعل للتناقضات المستعصية التي تتآكلها بفعل تنامي العملية الثورية العالمية واتساعها ،

وبفعل تفاقم الصراع الطبقي والسياسي داخل النظام الامبريالي واشتداد التناقضات بين الدول الامبريالية . ويشجع على تزايد عدوانية الامبريالية كذلك سياسة كتلة ماوتسي تونغ الانتهازية اليسارية في الحركة الثورية العالمية المعاصرة ، سياسة الانقسام التي تنهجها داخل الحركة الشيوعية وداخل المنظومة الاشتراكية » (ص ١١) .

هكذا يصل البرنامج الى « كتلة ماوتسي تونغ **عنصر شقاق وعامل اضعاف لقضية الثورة** » (ص ١١ – ١٢) : « يتميز نهـج كتلة ماوتسي تونغ بالتنكر لمبـادىء الماركسية اللينينية ، والخروج على وحدة المنظومة الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية ، والسعي لشق الاحزاب الشيوعية وتخريبها والقيام بأعمال تخريبية في قلب فصائل حركة التحرّر الوطني . « ويعزز القادة الصينيون سياستهم العمليّة بتحليلات واستنتاجات «نظرية» مزعومة تتجاهل سمة العصر ، وترسي مفهوماً خاطئاً عن التناقض الاساسي على الصعيد العالمي . فاعتبار التناقض الاساسي قائماً بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني ، لا بين الرأسماليـــة والاشتراكية ، يستعيض عن التحليل العلمي التاريخي والطبقي ، بالعوامل العرقية والجغرافية . وينال هـــذا التحديد من دور الطبقة العاملة العالمية ووليدها النظام الاشتراكي العالمي وطليعته الاتحاد السوفياتي في العملية الثورية العالمية ، ويؤدي الى فصل حركة التحرر الوطني عن قوة الدعم الاساسية التي تساندهـا في النضال ضد الامبريالية » ... ان القادة الصينيين وقعوا في أسر الذاتية والهوس الشوفيني وانساقوا الى مواقف غير مسؤولة في قضية السلم المصيرية وأمعنوا في خط تسلطي مغامر ، ممـــا أدى الى « تدهور الاوضاع الداخلية في الصين » . والنضال ضد كتلة ماوتسي تونغ واتجاهها السياسي واستنتاجاتها النظرية وسياستها الانشقاقية « احدى المهـــام الرئيسية امـــام جميـــع الشيوعيين » (ص ١٢) .

وبعد هذه الحملة التي تركزت ، في جملة امور ، على فهم « العملية الثورية العالمية » ، ينتقل البرنامج الى هذه العملية الثورية العالمية » بفرعيها الكبيرين: الاول – كما رأينا وسنرى – هو « الطبقة العاملة العالمية ووليدها النظام الاشتراكي العالمي » ، والثاني هو « حركة التحرر الوطني » (الذي يرفعه الصينيون فوق الاول ويفصلونه عنه ، على حد ما قرأنا آنفا) .

يتناول البرنامج الفرع الاول في فقرة بثلاث صفحات تحت عنوان « **الطبقة العاملة هي القوة الثورية الاساسية في عصرنا** » مكتوب بأحرف كبيرة (ص ١٣ – ١٥) . وتبدأ هذه الفقرة بالتمهيد الآتي : « ان تطور الاحداث يؤكد باستمرار ان القوة المحركة الاساسية لتحويل العالم تحويلا ثوريا في عصرنا هي الطبقة العاملة العالمية ، فهي التي تعيّن الاتجاه العام لعملية تحرير البشرية كلها من العبودية وانتقالها من الرأسمالية الى الاشتراكية . وتقف في مركز عصرنا الطبقة العاملة العالمية ووليدها الرئيسي النظام الاشتراكي العالمي » (ص ١٣) . ثم تتفرع الى مقطعين اثنين : يعالج الاول : « **المنظومة الاشتراكية دعامة الحركة الثورية العالمية وطليعتها** » (بأحرف صغيرة) ، باعتبار ان هذا النظام الاشتراكي العالمي هو « وليد الطبقة العاملة العالمية » كما رأينا سابقاً ، ويعالج الثاني « **الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية طليعة النضال ضد الاحتكارات وفي سبيل الاشتراكية** » (باحرف صغيرة) والمقصود بالبلدان الرأسمالية « البلدان الرأسمالية المتطورة » .

ثم يتناول البرنامج الفرع الثاني في فقرة بأربع صفحات تحت عنوان « **حركة التحرر الوطني** » مكتوب بأحرف كبيرة (ص ١٥ – ١٩) ، وتتضمن هذه الفقرة وفي نهايتها صفحة عن « **الاستعمار الجديد** » (بأحرف صغيرة) ، ويليها خاتمة عن ضرورة « توثيق وحدة القوى الثورية : بلدان المنظومة الاشتراكية ، وحركة التحرر الوطني والحركة العمالية الثورية

في البلدان الرأسمالية » ، في سبيل الاهداف المشتركة : السلم ، والحرية ، ومجابهة القوى الامبريالية و « حل مهام التقدم الاجتماعي للبشرية بأقل ما يمكن من التضحيات والآلام » (ص ٢٠) .

وتحت هذه العناوين ، وفي اطار هذه التقسيمات ، سجل البرنامج عدداً من الحقائق والاستنتاجات النظرية :

عن الطبقة العاملة : ان تطور الاحـداث يؤكد باستمرار ان القوة المحركة الاساسية ، لتحويل العـالم تحويلاً ثورياً في عصرنا ، هي الطبقة العاملة العالمية » (ص ١٣) .

عن المنظومة الاشتراكية : « ان الحصيلة الرئيسية لنضال الطبقة العاملة العالمية (...) هي قيام المنظومة الاشتراكية العالمية وتوطيدها » . فهي قاعدة الحركة الثورية العالمية » و « قوتها الرئيسية في كبح جماح عدوانية الامبريالية » و « في حفظ السلم » ... « ان جهود الشعوب السوفياتية لبناء الشيوعية وجهود شغيلة البلدان الاشتراكية لتحقيق نجاحات أكبر في بناء وتعزيز المجتمع الاشتراكي هي اكبر مساهمة أممية في العملية الثورية العالمية » . و « تدعم بلدان المنظومة الاشتراكية القوى الثورية في العالم ، وهي تقـــدم المساعدات الكبيرة للحركات الثورية التقـــدمية » ... (ص ١٣ — ١٤) .

عن « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية » : ويتعاظم الدور الطليعي للطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » . « فعلى عاتقها تقع مهمة انجاز الرسالة التاريخية العظيمة والأكثر صعوبة ، مهمة القضاء على الامبريالية في مراكزها الاساسية ، وإقامة النظام الاشتراكي » . « ويشهد عصرنا اشتداد نضال الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة (...) . وتشن الطبقة العاملة هجماتهـــا المنظمة والواسعة ضد الاحتكارات وتقوم بالاضرابات

والحملات المطلبية التي كثيراً ما تشمل بلدان بأسرها . وفي ظروف رأسمالية الدولة الاحتكارية ، تكتسب الحركة الاضرابية والمطلبية طابعاً سياسياً مباشراً » . . . (ص ١٤ — ١٥) .

وعن « **حركة التحرر الوطني** » : ان عمليـــة التحول النوعي في حركة التحرر الوطني (. . .) تثبت صحة الموضوعة اللينينية التي تقول بان الثورة الاشتراكيـــة « لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها بل ستكون ايضاً نضال جميع المستعمرات وجميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية ، وجميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » (ص ١٥) . « لقد تحررت معظم شعوب الارض سياسياً ولكن النضال لم ينته بعد » . « فما زال بعض الشعوب يرسف في سلاسل العبودية الاستعمارية » .. و « لا يزال القسم الاكبر من الدول التي انتزعت استقلالها السياسي في حالة تبعية اقتصادية شبه كاملة للاحتكارات العالمية » . ان الاستقلال السياسي ينشيء الامكانيات ويوفر الشروط للتحرر من التبعية للامبريالية (ص ١٦) . والمهمات المطروحة امام هـذه البلدان : تصفية مخلفات نظام الحكم الاستعماري ومواقـع الرأسمال الاجنبي ، تحطيم العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية التي تعوق التطور ... « التصنيع باعتباره الوسيلة الرئيسية لتغيير التركيب الاقتصادي الاستعماري والوحيد الجانب » ، القضاء على التخلف المزمن في حقل العلم والتكنيك والثقافة ... ، اشاعة الديمقراطية وتوعية الجماهير ، قيام تعاون نشيط مع الاتحاد السوفياتي وسائر الدول الاشتراكية . وتشكل هذه المهام برنامجاً ديمقراطياً عاماً يتطلب تحقيقه قيام تحالف واسع ، يضم العمال والفلاحين والفئات الوسطى والمثقفين الثوريين ، والفئات المرتبطة بالانتاج الوطني من البرجوازية » . وقـد اكتسبت الافكار الاشتراكية شعبية واسعة بفضل نجاحات البلدان الاشتراكية (. . .) ونتيجة الدور البارز الذي قامت به الاحزاب الشيوعية في هذه البلدان . و « تفقد شعوب هذه البلدان ثقتها بامكانية تحقيق هـذه

المهام عن طريق التطور الرأسمالي » (ص ١٦ — ١٧) .

« فانطلاقاً من الدور الكبير الذي تقوم به الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة بالنضال الثوري في البلدان النامية ، ولكونها تشكل غالبية السكان العظمى ، في حين ان ضعف نمو الطبقة العاملة ونفوذها السياسي لم يمكنها ، في العديد من البلدان النامية ، من تحقيق قيادتها للنضال التحرري الوطني ، وصلت الى الحكم في عدد من هذه البلدان عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين » . « وقد دفع تصدّي هؤلاء القادة لعملية البناء الداخلي الى اجراء جملة من التحويلات الاقتصادية والاجتماعية لضرب مواقع الرأسمال الاحتكاري الاجنبي وضرب الملكية الرأسمالية الكبيرة ووضع الاسس لسير البلاد في طريق للتطور غير رأسمالي » . (ص ١٧) .

ويؤكد البرنامج ان ذلك « يشكل احدى الظاهرات الرئيسية والبعيدة الاثر في حركة التحرر الوطني ، وفي العملية الثورية العالمية » . ثم يسجل نقاط الضعف : كون هؤلاء القادة من الفئات الوسطى ، ووجود تأثيرات الرجعية الداخلية بين المراتب العليا من البرجوازية الصغيرة ، مما يفسر الترددات وعدم الثبات وعدم جذرية أغلب الاجراءات ، وسعي بعضهم للتفرد بالسلطة وإبعاد الجماهير ومحاولتهم حصر القوى التقدمية المنظمة وقمعها ، افكار العداء للشيوعية ، الانتقائية ، البعد عن المفهوم العلمي الطبقي ، ابقاء جهاز الدولة القديم ، النهج التجريبي في تحقيق التحويلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ظهور « محاولات لايجاد نظريات اشتراكية اقليمية ودينية وقومية تغفل وحدة التاريخ العالمي ، ووحدة الحركة الثورية العالمية والقوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تحدد المجرى العام للتطور البشري»... وفي هذا السياق يجري احياناً الترويج لنظرية التناقض بين الدول «الغنية والفقيرة » دونما تمييز في طبيعة النظام الاجتماعي للبلدان المتقدمة » (ص١٨).

وتحت عنوان « **الاستعمار الجديد** » ، يقول البرنامج : ... « والمرتكز

الرئيسي للاستعمار الجديد هو بقاء مواقع الاحتكارات الامبريالية في البلدان المتحررة حديثاً ، والاحتفاظ ، من حيث الاساس ، بالعلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي ، وتوظيف الرساميل والمشاركة». ثم يؤكد اهمية تعاون هذه البلدان فيما بينها ، وأهمية الدعم الذي تلاقيه من قبل الاتحاد السوفياتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية لافشال مخططات الامبريالية وسحق عدوانها . « ومجرى التاريخ المعاصر يؤكد ان نجاحات حركة التحرر الوطني وثيقة الارتباط بنجاحات الاشتراكية العالمية والطبقة العاملة العالمية والتحالف المتين والوطيد الدعائم بين هذه القوى الثورية العظيمة هو ضمانة النصر النهائي لقضية تحرر الشعوب الوطني والاجتماعي » (ص ١٩) .

ذلك هو سياق **الفصل الاول – الوضع العالمي** – الذي يلي تمهيد هذا الفصل .

عند دراستنا التمهيد المذكور « محتوي عصرنا وجوهره » (ص ٧)، لاحظنا ان مفهوم « انتهاء المهمة التاريخية للرأسمالية » بقي بدون تحديد، وان التعريف بثورة اوكتوبر لم يعرف ديناميكية الثورة ذاتها في سنتي ١٩١٧ و ١٩١٨ – ديناميكية تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية– واكتفى بالتعريف بعمل ونتائج اوكتوبر . وان التمهيد ، بعد هذه الحلقة المحورية ، أحجم عن تعداد الثورات الاشتراكية اللاحقة – المنغولية ، واليوغوسلافية والبلغارية والكورية والصينية ... والتشيكوسلوفاكية ... والكوبية . وانتهينا الى ان هذه النواقص تمهد للخطأ الكبير ، الخطأ في فهم آلية الثورة الاشتراكية العالمية وفروعها ومشاكلها الكبيرة ، وهو الخطأ الذي يهيمن على سياق الفصل الاول .

وننتقل الآن الى هذا السياق .

٣ – الازمة العامة للرأسمالية

نبدأ بـ « الازمة العامة للرأسمالية » وما يتبعها .

لقد عرّف البرنامج هـذه الازمة تعريفاً جيداً ، تعريفاً شيوعيـاً كلاسيكياً وصحيحاً (لقد فتحت ثورة اوكتوبر الازمة العامة للرأسمالية... وهي ازمة عامة تشمل جميع الميادين) . وتخطى عادات سابقة ، فتحدث عن دور « الدولة » وعن « البرمجة وضبط الاقتصاد » : ان« مفهوم الرأسمالية الاحتكارية للدولة » يبدو الان ، اكثر من مفهوم سيطرة الاحتكارات على الدولة .

يقيناً : ان « التخطيط الرأسمالي » بواسطة الدولة لا يستطيع ان يستر عيوب الرأسمالية ولا ان يشفيها من تناقضاتها . ان الصفة الطفيلية تتعمق وتزداد وضوحـاً ، والتناقض بين الدول الامبريالية مستمر ». « وتشهد المرحلة الراهنة موجة جديدة من التناقضات بين هذه الدول ». والكتل الحربية والكتل الاقتصادية الامبريالية ليست على ما يرام . ان أن عدوانية الامبريالية تشتد ، ولكن مثال فيتنام يثبت امكانية التصدي بنجاح للعدوان الاميركي .

غير ان ذلك كله لا يكفي ، ولا بد للماركسي ، اذا اراد التمسّك بمبدأ « الصفاء العلمي الكامل في تحليل الحالة الموضوعية والتطور الموضوعي» (لينين) ، ان يطرح على نفسه السؤال الآتي :

هل أوضاع الرأسمالية الاميركية – الكندية – الانكليزية – الفرنسية – الالمانية الغربية – الايطالية – الهولندية – اليابانية – الخ ... هي اليوم في سنوات ١٩٥٠ – ١٩٦٩ أسوأ مما كانت في سنوات ١٩٢٠ – ١٩٣٩ ؟

ولا يتصوّرنّ القارىء اننا سنجيب على هذا السؤال بالنفي ، فوراً

دون تمحيص ! كلا ! علينا بادىء ذي بـدء بالتمحيص ، أي بالتفصيل والتحديد !

اولاً – هـــل عدد العاطلين عن للعمل في صناعة (أو في صناعة وزراعة ...) الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية الخ ، هو اليوم أكبر مما كان في سنوات ١٩٢٠ – ١٩٣٩ ؟ – كلا بوجه الاجمال . لقد كان عدد العاطلين عن العمل في الصناعة البريطانية بين الحربين العالميتين يتراوح بين مليون ومليونين ونصف ، ولا ينزل ابداً تحت المليون ! والمانيا الغربية والولايات المتحدة وأكثر البلدان الرأسمالية المتقدمة شواهد تشهد في نفس الاتجاه .

ثانياً – هل عرفت البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة بعـد الحرب العالمية الثانية أزمات اقتصادية كبيرة ومدمّرة على غرار الازمات الثلاث التي أصابتها بين الحربين العالميتين ، واشهرها ازمة ١٩٢٩ – ١٩٣٣ (١) ؟ – كلا . ولقد أخطأنا جميعاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، اذ توقعنا مراراً مجيء الازمة العملاقة (٢) .

ثالثاً – هل وتيرة نمو الانتاج الرأسمالي في ١٩٥٠ – ١٩٦٩ هي أصغر من الوتيرة المتوسطة لنمو الانتاج الرأسمالي في ١٩٢٠ – ١٩٣٩ ؟ – كلا . ان فرنسا وايطاليا والمانيا الغربية واليابان عرفت في العشرين سنة الاخيرة وتائر نمو لم تعرفها الا نادراً في تاريخها الرأسمالي الطويل .

---

(١) حيث انخفض الانتاج انخفاضاً هائلا ، وبلغ عدد العـــاطلين عن العمل في الولايات المتحدة ١٢ او ١٤ مليون عاملا ، وحيث انتقلت الازمة من اميركا الشمالية الى اوروبا والى المستعمرات ، وشملت البنوك والصناعة والزراعة ... وفتك الجوع بملايين الناس في نيويورك وهامبورغ ومناجم البوريناج ...

(٢) لا نعتقد ان هناك علمـــاء اقتصاد ماركسيين لم يقعوا في هـــذا الخطأ ، بدرجة واخرى ،

بتعبير آخر : الازمة العامة للرأسمالية « – التي بدأت مـــع ثورة اوكتوبر ، والتي هي عهد تاريخي كامل محتواه انتقال العالم من الرأسمالية الى الاشتراكية – لها من العمر اكثر من نصف قرن . ولقد مرت حتى الآن بمرحلتين ، تفصل بينهما الحرب العالمية الثانية . هـــذا ما يبينه الاقتصاد السوفياتي الكبير ، فارغا ، في مؤلفه الأخير « رأسمالية القرن العشرين » [1] . والرأسمالية في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة هي، من الوجهة الاقتصادية ، في المرحلة الثانية من عهد الازمة التــاريخية ، في وضع أفضل مما كانت في المرحلة الأولى . ودفعاً للأخــذ والرد حول هذه الحقيقة البديهية غير الثانوية ، رأينا ان ننقل عن كتاب فارغـــا الجداول والارقام ، التي تتصل مبــاشرة بالسؤال الفرعي الثالث الذي طرحناه وأجبنا عليه آنفاً ، فضلاً عن أنها تعطي فكرة كافية عن السؤالين الفرعيين الأول والثاني .

مؤشرات الانتاج الصناعي للعالم الرأسمالي

(١٩٠٠ – ١٩١٣ = ١٠٠)

١٩١٣	١٩٢٠	١٩٢٩	١٩٣٢	١٩٣٨
١٢١	١١٦	١٧٦	١١٤	١٨١

مؤشرات الانتاج الصناعي الرأسمالي

(١٩٠٠ – ١٩١٣ = ١٠٠)

١٩٣٧	١٩٤٦	١٩٥٠	١٩٥٤	١٩٥٩
١٩٨	٢١٦	٢٩٤	٣٥٤	٤٥٠

مؤشرات الانتاج الصناعي لأهم البلدان الرأسمالية

(٩٥٣ = ١٠٠) – أرقام هيئة الأمم –

---

(١) موجود بالعربية ، وكان يمكن ان تكون الازمة العامة للرأسمالية فعـــلا في بداية مرحلتها الثالثة (والاخيرة) ، لو كان هناك وعي صحيح للمسائل .

السنوات	الولايات المتحدة	كندا	بريطانيا	فرنسا	المانيا الغربية	اليابان
١٩٣٧	٤٦	٤٣	٨٠	٧٨	٧٨ (عن ١٩٣٨)	٨٠
١٩٤٦	٦٧	٦٩	٧٢	٦٠	٣٠ – ٣٥ (حسب تقديراتنا.ف.)	٢٤
١٩٦٠	١١٩	١٣٠	١٢٨	١٦٩	١٧٩	٢٥٨

وتتلخص هذه الجداول ، فيما يتعلق بسؤالنا ، بما يلي :

١ – حجم الانتاج الصناعي للعالم الرأسمالي قد زاد من ١٩٢٠ الى ١٩٣٨ بمقدار ٥٥ ٪ (١٩ سنة) ، ومن ١٩٤٦ الى ١٩٥٩ بمقدار ١٥٥ ٪ (١٤ سنة) .

(بالمقارنة مع سنة البداية – ١٩٢٠ ، ١٩٤٦ – وبعملية قسمة بسيطة). واذا واصلنا عملية الحساب البسيطة ، وعلى مستوى القارىء العادي، قلنا : أن وتيرة النمو في المرحلة الثانية تعادل ($\frac{١٥٥}{٥٥} \times \frac{١٩}{١٤} =$) ما يقرب من اربعة امثال وتيرة النمو في المرحلة الاولى (٣٨٢ ٪ منها) .

٢ – الجدول الاخير يفصل معدل النمو للمرحلة الثانية (+ ١٥٥ ٪ أي × ٢،٥ ضعفا ، في ١٤ سنة) عن الاقطار : فهو ينزل عن هـذا المستوى قليلاً (الولايات المتحدة) او كثيراً (بريطانيا) ، ويرتفع عنه قليلاً (فرنسا) ، او كثيراً (المانيا : × ٥ ، واليابان × ١٠) .

ذلك وجه من وجوه القضية ، وجه غير ثانوي .

وبالتالي : من المفيد ان ندرس مؤلف فارغا ومندلسون « معطيات تكميلية لكتاب لينين عن الامبريالية » والعائد إلى ما بين الحربين العالميتين . ولكن من المفيد ان ندرس ايضاً مؤلفات كينز Keynes ومن

الواجب ان ندرس الاقتصاد الرأسمالي المعاصر في مؤلف فارغا الأخير ، وفي غير مؤلف فارغا ،عند الاقتصاديين الماركسيين الغربيين ، وعند الاقتصاديين البرجوازيين والامبرياليين [1] .

ومن المفيد ، في البرنامج ، عند حديث « الأزمة العامة للرأسمالية » ان لا نترك المناضلين ، نتيجة حذرنا الشديد في صياغة الحقائق على الاعتقاد بأن « **العمل للحد** من الظاهرات المدمّرة ... » التي تقوم به الاحتكارات « بواسطة الدولة » قد باء بالفشل ولا شيء سوى الفشل .

ومع ذلك ، فإن المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ليست اليوم على ما يرام . فأوضاعها سيئة ومستقبلها مظلم ، بالتأكيد : اتساع الهوة في توزيع الدخل بين الاحتكارات والبرجوازية وبين العمال والكادحين ، وعجز الرأسمالية عن القضاء على الفقر لدى ملايين الناس في مجتمعاتها ذاتها ، نمو الانخلاع (الاستلاب) في مجتمع الاستهلاك ، نمو سلطة الاجهزة الخفية ، خطر الحرب العالمية النووية بعد حربين عالميتين فتاكتين ، عجز الرأسمالية عن اطفاء جذوة النضالات المطلبية والسياسية في فرنسا ، وإيطاليا ، وسواهما ، تمرد الطلاب والشباب على مجتمع الاستهلاك والانخلاع ، ثورة الزنوج الاميركيين ، بداية ظهور وجدان أنساني عالمي في الرأي العام الأوروبي بعد ميل انحداري طويل طويل ، انعكاس ثورة الشعوب المغلوبة على هذا الرأي العام . وبتعبير آخر ، نضيف : هنا أيضاً ، في موضوع البلدان الرأسمالية المتقدمة ، علينا ان نخرج نهائياً من المنظور الهيكلي لصراع الطبقتين في مجتمع برجوازي خالص ، وأن نأخذ بمنظورات اللينينية . سنعود إلى هذا الموضوع في حينه . نريد الآن

---

(١) ولنتذكر ان لينين قد اعتمد مراراً على « البرجوازي القح والانجليزي التافه الضيق الافق » عالم الاقتصاد الكبير : كينز . انظر لينين : المختارات ، بالعربية ، الجزء الاخير ، ص ٣٥ وبعدها ..

أن ننقل إلى القراء المقدمة التي استهل بها فارغا الفصل الذي خصصه لـ « المرحلة الثانية من الأزمة العامة للرأسمالية » ، حيث كتب يقول :

« ان المرحلة الثانية من الأزمة العامة للرأسمالية كانت [1] غنية بالأحداث التاريخية . وهي معروفة لدى غالبية القراء . وقد أسفرت جوهرياً عن تدهور محسوس ، سياسي قبل شيء ، وبدرجة أقل اقتصادي ، للامبريالية ، وعن تعزز مرموق ، سياسي واقتصادي معاً ، للاشتراكية ، عن تكوّن المنظومة الاشتراكية العالمية » .

نعتقد ان هذا التمييز بين الوجهين السياسي والاقتصادي تمييز هام ، وهو في خط اللينينية ، التي لم تجعل من السياسة ذيلاً للاقتصاد . والسياسة ترتكز على الوعي ، وعي العالم جملة وتفصيلاً ، وعي جميع العلاقات الواقعية ، بدءا من التحليل الاقتصادي للعالم وأقسامه . ولا نعتقد ان البرنامج اللبناني قد استوعب فعلاً القسم الرأسمالي المتقدم من هذا العالم ، اقتصادياً وسياسياً ، رغم الآراء الصحيحة التي انطوى عليها ، والتي تشكل خطوة إلى الأمام .

٤ – حول أوضاع العالم الاشتراكي

ولكنه هل استوعب القسم الاشتراكي من العالم ، ما دامت الأزمة العامة الرأسمالية هي عهد تاريخي مضمونه تواجد النظامين العالميين الاشتراكي والرأسمالي ، وصراعهما وصعود الأول وأفول الثاني ؟.

« الأزمة العامة للرأسمالية » . « تتعرض للتمزق الكتل الحربية والكتل الاقتصادية الامبريالية » . . ما هو وضع « المعسكر الاشتراكي » ؟

---

(١) في الفصل الاخير من كتابه ، يتحدث فارغا عن « المرحلة الثالثة في الازمة العامة للرأسمالية » ، التي بدأت في نظر فارغا .

عبثاً فتشنا عن هـذا الاصطلاح – « المعسكر الاشتراكي » – في البرنامج . قرأنا مراراً « النظام الاشتراكي العالمي » ، « المنظومة الاشتراكية العالمية » . ولكننا لم نجد « المعسكر الاشتراكي » ... والبرنامج على حق في تحاشيه هذا اللفظ ، من باب ما هو كائن وان ليس من باب ما يجب ان يكون .

والحق يقال ، ان وضع « المعسكر » الاشتراكي ، أو المنظومة الاشتراكية ، ليس على ما يرام . انّ العلاقات بين بيكين وموسكو ليست اليوم أفضل من العلاقات بين باريس وواشنطن [1] . ولا ندري ما اذا كانت العلاقات بين بخارست وبراغ وموسكو أفضل من العلاقات بين لندن وطوكيو وواشنطن .

لنقف عند براغ . تشيكوسلوفاكيا كانت ، قبل ربع قرن ، البـلد البرجوازي الصناعي المتقدم الوحيد في اوربا الشرقية . وفي ١٩٤٥ – ١٩٤٨ كان الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي يضم مليونين من الاعضاء ، واتحاد النقابات بقيادة الزعيم الشيوعي الكبير انطونين زابوتوسكي ورفاقه يضم ٤ ملايين رجلاً . من كل ستة أشخاص (رجال ونساء واطفال) في الترامواي أو في الشارع ، بامكانك أن تعد واحداً (ليس طفلاً !) يحمل بطاقة العضوية في الحزب واثنين يحملان بطاقة العضوية في « الاتحـــاد العام للشغل » . وحين حاولت الرجعية والقوى الوسيطة ايقاف العجلة أو ارجاعها الى الوراء ، في شباط ١٩٤٨ ، « نفخ » غوتفالد وزابوتوسكي ونوفوتني وقضي الأمر . أن شعبية الرئيس الوطني البرجوازي بِنِش لم تكن قادرة على تأخير نتيجة الاضراب العـام يوماً واحداً ، كما كتب أحـد القادة البرجوازيين الفارين الى لندن آنذاك ، رداً على زملائه في الغرب الذين تحـــدثوا عن « الضربة المصطنعة » coup préfabriqué. ليست الضربة مصطنعة ، بل تأجيلها حتى شباط ١٩٤٨ . وفي ١٩٥٦ ، بعد المؤتمر العشرين

---

(١) العكس أقرب إلى الصواب .

وإبان أوكتوبر البولوني وأحداث المجر ، كان القول السائد : ان تشيكوسلوفاكيا « صامدة » ليس فيهـــا مشاكل ولا تغييرات ... وفي ١٩٦٨ ، بعد ٢٠ سنة من الحكم الاشتراكي وفي ظل الرفاه المادي للشعب يستقيل الرئيس نوفوتني ، يسقط دون محاولة جدية للبقاء والدفاع عن النفس ثم ... تجد الاشتراكية نفسها بحاجة الى دخول قوات حلف وارصو...

ليس هنا المكان لبحث الاوضاع والتطورات التي ادت الى التدخل أو فرضته . ولنسلم جدلاً بكل التشخيص السوفياتي للموقف الذي هو أيضاً تشخيص الرفاق اللبنانيين والسوريين الخ ... : الدوائر الامبريالية، الجواسيس : أسلحة من المانيا الغربية ، الرجعية والطبقات الساقطة ، التحريفية والفكر الليبرالي البرجوازي ولنضف الى ذلك: الصهيونية (وقد أورد حسنين هيكل معلومات دقيقة وثمينة عن هذا الموضوع ، وهناك غيرها ايضاً) .

يبقى ان النظام الاشتراكي ، لكي يُحمى ، قد احتاج الى دخول قوات الدول الشقيقة بعد عشرين سنة ... سلمنا جدلاً بوجهـــة النظر السوفياتية ، ولكن وجهة النظر السوفياتية ليست وجهة النظر الصينية والالبانية واليوغوسلافية ، بل وليست وجهة نظر الاحزاب الشيوعية في ايطاليا وفرنسا وفنلندة ، أكبر وأهم الاحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية الخ...

علينا اذن ان نقلع عن الاسلوب الذي يظهر العدو وكأنه ممزق وعلى شفير السقوط ، والصديق وكأنه يعيش في عـالم الانسجام والتناسق والوحدة . تلك صورة كانت في ١٩٥٠ صحيحة ، ظاهراً على الاقل . ولكنها اليوم فقدت حتى مظهر الصحة . انها صورة وردية ، يرفضها الشيوعيون الطليان والفرنسيون والبولونيون والسوفياتيون والكوبيون والصينيون ، ويرفضها عندنا الانسان العادي ، و « البرجوازي الصغير ». فهل يُبقى عليها في الحزب الشيوعي اللبناني ؟

لسوء الحظ ، ان البرنامج – بخلاف تقرير اللجنة المركزية عن ٢٥ سنة من تجربة الحزب – قد عاد الى أسلوب « المسيرة الظافرة » البغيض ، الغريب عن لينين

واللينينية . في هذا البرنامج ، يبدو العالم الاشتراكي وكأنه عالم بلا مشاكل ، بلا مشاكل حقيقية .

ومشكلة الصين ؟ هل هي حقيقية ، بمفهوم البرنامج اللبناني ؟

انها ، في البرنامج ، تبدو مشكلة حقيقية . ولكنها لا تبدو ، ولو جزئياً ، مشكلة « طبيعية ». فهي مشكلة مصطنعة ، اصطنعها ماوتسي تونغ وكتلته . انها مشكلة ماوتسي تونغ وكتلته ، مشكلة القادة الصينيين : لقد سقط هؤلاء في الذاتية ، ابتعدوا عن الواقع الموضوعي ، انشقوا عن « الحركة الشيوعية العالمية » (انهم زمرة صغيرة انشقت عن نيّف ومليار انسانا ؟) . ولا ندري ما اذا كانت الصين ، في هذا المفهوم ، لا تزال دولة اشتراكية ! (يقال انها لا تزال . ولكن كيف تكون الصين دولة اشتراكية مع ضياع عنصر « سلطة البروليتاريا » هذا السيل الغاضب لا يوقفه تناقض) . وخط ماوتسي تونغ الانقسامي يشجع العدوان الاميركي على الشعوب .

انه منطق ذاتٍ نصّبت نفسها ممثلة الموضوع ، « شيّأت » الممارسة ، و « أقنمت » القوانين .

ولكن هناك ، فضلاً عن « كتلة ماوتسي تونغ » ، كتلة كاسترو ، وزمرة تيتو ، ودوبشيك ، وخوجه ، ولونجو الخ [1] .. هنـاك بيكين ، وتيرانا ، وبراغ ، وبخارست ، وباريس ، وروما ، وهافانا .. هذه « النظرية » التي تحوّل التاريخ إلى ضرب من اللاهوت الطبيعي ، يدّعي الجدلية والمادية ، أشبه بأسطورة واسطورة لم تعد حرّكة . ألا تخشون ألا تذهب الحقيقة مع الخرافة (وأن يعقب اليأس التفاؤل الكاذب) ؟ وحق لا تذهب الحقيقة مع الخرافة لا يجدي ان نحاول تثبيت الخرافة كأنها حقيقة . بل الاسلوب الجدي ان ندرس الممارسة ، « الممارسة التي تدعي أنها شيء غير النظرية » و « النظرية التي تدعي انهـا شيء غير الوعي

---

(١) و « كتلة ليوشاوشي » من فضلكم . لا نعتقد ان ليوشاوشي وتنغ سياوبنغ وبنغ تشن كانوا من أنصار ما يسميه البرنامج « خط الحركة الشيوعية العالمية » . طوال المرحلة الأولى من الخلاف الصيني – السوفياتي ، كانوا في مركز الصدارة .

وفي البلاد العربية ، هناك : « الامين العام » السوري وكتلة قريطم – صوايا ، وعزيز الحاج ومحمد حربي وأنتم ... ونحن .

النقدي » . بهـذه التعابير ، دافع ماركس عن الممارسة ضد « النظرية » وعن « النظرية » ضد « الوعي النقدي » للسادة برونو باور وشركاه . وحق لا نعود بخفي حنين من الماركسية إلى ما قبلها ، إلى تلك « السقطة » من سقطات التطور العظيم الذي قاد من هيغل إلى ماركس عبر فويرباخ ، قصدنا « الهيغلية — اليسارية » التي ضيّعت الديالكتيك دون ان تكسب المادّية ، رغم كونها ، سياسياً ، راديكالية ومعادية للاستبداد ، حق لا نعود ، بعد ماركس وانجلز ولينين ونصف قرن من الثورة العالمية الى برونو باور . علينا ان ندرس الممارسة التي تدّعي — ونِعْمَ الادعاء ! — انها شيء ما غير النظرية ، وان ندرس النظرية التي تدّعي — ونِعْمَ الادعاء ! — انها شيء ما غير « الوعي » الناقص المبتور ، المذّل ، دعائياً وبراغماتيا ولاهوتيا ، الذي درجنا (درجتم) عليه طيلة ثلاثين عاماً .

حين لا ينطبق حساب البيدر على حساب الحقل ، يعيدُ الفلاح العاقل (وهذا هو العقل) النظر في حساب الحقل على ضوء حسا بالبيدر . وبأحد المعاني[1]، ان مهمتنا أسهل من مهمة الفلاح البسيط : عنصرٌ مـا هو عضي عن التنبؤ — الاحوال الجوية في مثال الفلاح — محدود في ميداننا .

مشاكل وتناقضات في العالم الرأسمالي ، مشاكل وتناقضات في العالم الاشتراكي . وقد تكون الاولى أكبر وأشد من الثانية بعدّة أمثال . ولكن القضية — هنا — هي ان الاولى دخلت تماماً (وربما أكثر من تماماً) في حساب الحقل منذ عشرة أعوام ومنذ ثلاثين عاماً ومنذ ستين عاماً . اما الثانية فهي لم تكن داخلة في حساب الحقل . (ونحن ، أولو الأمر منا ، المسؤولون). الأولى لم تفاجئنا . الثانية فاجأتنا . ورغم المفاجأة ، تمسكنا بما دَرَجْنا عليه في ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، قررنا ان « زمرة تيتو » زمرة من الجواسيس العريقين ، خدمت هتلر قبل ان تنتقل إلى خدمة الانكلو — اميركان . ونقلنا النضال ضد « القومية البرجوازية » الى الشرق العربي وقضية فلسطين ، فأعطانا هذا « السحب » استنتاجات من نوع : القومية العربية (وبلغة ماركسيي بلدان اخرى : البان آرابيسم panarabisme)

والصهيونية ، نزعتان قوميتان برجوازيتان ، في خدمة الامبريالية ، والدول العربية واسرائيل ، دول تحكمها حكومات موالية للامبريالية ، حكومات اقطاعيــة عميلة (عند العرب) وحكومة الاشتراكيين – اليمينيين عملاء الامبريالية في (اسرائيل) ، وفي هــــذه وتلك ، حزب شيوعي يقود البروليتاريا وجماهير الكادحين . وتلك هي تعاليم الأممية البروليتارية [1]) .

وفي ١٩٥٣ ، غداة وفاة ستالين ، بدأت مفاجآت صغيرة ، لم تلبث ان اشتدّت في ١٩٥٥ ، عند زيارة القادة السوفيات الى بلغراد ، الى ان بلغت مداها في ١٩٥٦ : صدرت تصريحات سوفياتية متكرّرة بان الشركات المختلطة (السوفياتية – الرومانية ، والسوفياتية – الصينية وغيرها) لم تكن الشكل المناسب للتعاون الاقتصادي بين هذه البلدان . وأعيد حساب تجارة الفحم البولوني . وصدر في اواخر تشرين الأول ١٩٥٦ بيان سوفياتي عن العلاقات مع الدول الاشتراكية الشقيقة في الماضي والحاضر والمستقبل ، أعلن التصحيح رسمياً وفي وضح النهار .. ثم بدأ الخلاف الصيني – السوفياتي ، ظهرت قرائنه منذ ١٩٥٧ أو ١٩٥٨ ، واشتدت في السنوات الثلاث اللاحقة . والاخيرون في رؤية هذا الأمر ، نحن ماركسيي بلدان العالم ، والاخيرون بين الاخيرين : انتم . هل من حاجة لتبيان ذلك في اعداد جريدة « الاخبار » البيروتية ؟...

الاولى (مشاكل المعسكر الامبريالي) لم تفاجئنا . الثانية (مشاكل

---

(١) هذا « السحب » من شغل « الامين العـــام » . بل ولعل « الامين العام » نفسه كان مغلوباً على أمره ، جزئياً . ما يمكن ان نستنتجه من مقارنة وثائق ١٩٤٨ ووثائق السنوات التالية . والوثائق في حوزتكم . ولن نقف عند هذا الموضوع . النقد الذاتي الوارد في التقرير يقف عند عتبة هذا الموضوع . وسنعود اليه . نكتفي الآن بهذا القوس ، وقد كان ضرورياً لانه يبين انعكاس هذه الامور التي هي خط « الحركة الشيوعية العالمية » علينا ، أي على تحليلاتنا العربية « المحلية » .

المعسكر الاشتراكي) فاجأتنا ، وفاجأتكم أكثر مما فاجأتنا – وقد تكون الثانية أقل عمقاً من الأولى (هذا ما نتمناه ، بقدر ما تتمنونه على الأقل) – في هذه الحال يجب ان نوّجه نظرنا نحو هذا الذي فاجأنا ، نحو هذا الذي كان خارجاً عن حقل نظرنا ونظريتنا . « ونستطيع » ان نغمض عيوننا عن ذلك ، مـا شئنا ، الامبريالية لا تغمض عيونها عنه وعن المغمّضين ، الذين يواصلون « الزحف الظافر » .

كان ذلك خارجاً عن حقل نظريتنا . أولاً لان الممارسة ، الواقع ، التاريخ ، فيه دائماً شيء ما غير النظرية ، شيء ما خارج عن اطار مبادىء ومعارف أفضل واكمل نظرية . وهذا الفباء الديالكتيك ، وبالاحرى الديالكتيك المادي . وقد نسينا الألفباء . وثانياً ، لان نظريتنا لم تكن ماركسية تماماً : كان أفضلنا يجهل « نصوصاً » من الماركسية – اللينينية ، نعتبرها اليوم من أهم نصوصها . ولقد تغيّر الأمر ابتداء من ١٩٥٦ – ١٩٥٨ . قرأنا رسالة انجلز إلى كاوتسكي العائدة لعام ١٨٨٢ . وقرأنا تعليق لينين على هذه الرسالة . ونرّجح انكم اولا تأخرتم في قراءة الرســالة ، وتعليق لينين ، التعليق الأكثر شهرة ، والوارد في مجموعة « حركة التحرر الوطني في الشرق » ، وثانياً ، انكم لا تعرفون سوى هذا التعليق ، وتجهلون ان للينين عشرة تعليقات على هذه الرسالة الخطيرة والتي نقلها لينين الى قرائه عشر مرات .

ماذا يقول انجلز لكاوتسكي ، في عام ١٨٨٢ (أي منذ ٨٧ سنة) ؟ يشكو انجلز من عدم وجود حزب عمالي حقيقي في انكلترة : العمال الانكليز ، في السياسة برجوازيون راديكاليون ، وهم يشاركون فرحين في وليمة الاحتكار البريطاني على السوق العالمية والمستعمرات . ثم[1] يبدي

١ – القسم السابق والقسم اللاحق هما في نفس الرسالة . تنبيه مفيد !

انجلز رأيه في موعد تحرر المستعمرات : ان المستعمرات التي يسكنها الاوروبيون (كندا ، الكاب ، اوستراليا) سوف تستقل جميعاً . أما المستعمرات الاخرى (الهند ، الجزائر ، اندونيسيا ..) فيجب أن تأخذ البروليتاريا (المنتصرة في اوروبا) بيدها لمدة من الزمن وأن تقودها بما يمكن من السرعة الى الاستقلال » . ومن الصعب ان نقول كيف سيحصل هذا التطوّر . ومن المحتمل ، بل من المرجح ، ان الهند سوف تقوم بثورة . وبما ان البروليتاريا في سيرها نحو انعتاقها (انعتاقها الكامل) لا يمكن أن تقود أي حرب كولونيالية (أي استعمارية) ، فمن الواجب ان ندعها وشأنها . ولن يحصل ذلك ، طبعاً ، بدون شتى انواع التدمير ، ولكن هـذا أمر يلازم جميع الثورات . ويمكن أن يحصل الشيء نفسه في مكان آخر ، في الجزائر ومصر ، وسوف يكون بالتأكيد أفضل بالنسبة لنا . سوف يكون لدينا ما يكفي من المهام الواجب تحقيقها في بلادنا . ومتى أعيد تنظيم اوروبا واميركا الشمالية ، سوف يعطينا ذلك قوة جبارة وسوف يقدم مثالا رائعاً ، مما يجعل البلدان نصف المتمدنة تسير ورأنا من تلقاء نفسها ، فالحاجات الاقتصادية كفيلة بذلك (...). ثمة شيء واحد مؤكد : أن البروليتاريا المنتصرة لا يمكن ان تفرض اية منفعة (أو سعادة أو بركة) من أي نوع على أمة أجنبية دون أن تقوّض بهذا العمل دعائم انتصارها . الأمر الذي لا ينفي مطلقاً قيام حروب دفاعية من أنواع شتى ...

وبالفعل ، تأخر استقلال الهند ومصر والجزائر الخ ، وتأخر كثيراً . لكن الثورة البروليتارية في الغرب (اوروبا – اميركا الشمالية) تأخرت أكثر.

وفي تعليقه الشهير (١٩١٦) يسجل لينين ان انجلز قد نوّه بأن الامور (العلاقات بين الشرق المستعمر والغرب البروليتاري) لن تكون بسيطة ، وأكد شيئاً واحد فقط ، هو المبدأ : أن فرض المنافع سيكون

معناه تقويض انتصار البروليتاريا . « أن البروليتاريا لن تصبح قديسة ومعصومة عن الاخطاء والزلات بمجرّد تحقيقها الثورة الاجتماعية . ولكن الاخطاء المحتملة (والمصلحة الانانية – محاولات الجلوس على ظهر الآخرين) ستدفعها حتما الى ادراك هذه الحقيقة » ... « أن النفور القومي لن يزول بسرعة » ...

ويعود لينين الى هذه الرسالة عشر مرات ، في تلك السنة ١٩١٦ ، تلك السنة الحاسمه في تاريخ تكوّن اللينينية ، ماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، السنة التي شهدت نضال لينين ضد كاوتسكي ، ومجادلاتة مع روزا لوكسمبورع ومع تروتسكي ، ومجادلاته مع مئة ماركسي يساري أممي من الروس البلاشفة ومن البولونيين والالمان والهولنديين والسويسريين والسويديين واليابانيين الخ ، جمعهم لينين ، بحق ، تحت اسم واحد : « الاقتصاد الامبريالية » ، إي النزعة الاقتصادية الجديدة ، في عصر الامبريالية وعلى أساس مفهوم الامبريالية وتكرار لفظ الامبريالية ، والتي يعتبرها لينين كاريكاتوراً للماركسية .

وبعض ما يقوله لينين : ان انجلس قد ذكر في رسالته لعام ١٨٨٢ ان الهند يمكن ان تقوم بالثورة ضد انكلترة الاشتراكية . ذلك لأن انجلز بعيد عن مذهب « الاقتصادية الامبريالية » السخيف الذي يتصور ان البروليتاريا ما ان تنتصر في البلدان المتقدمة حتى تقضي على الاضطهاد القومي في كل مكان بعملية سحرية وبدون اجراءات ديمقراطية محددة . حين ستقوم بروليتاريا البلدان المتقدمة باسقاط البرجوازية وبالرد على محاولاتها المضادة للثورة ، حينذاك ان الأمم المتخلفة والمضطهدة لا تنتظر ، لا تكف عن الحياة ولا تختفي من الوجود . ولئن كانت هذه الأمم تستفيد اليوم من أزمة كحرب ١٩١٥ – ١٩١٦ (وهي أزمة صغيرة بالمقارنة مع ازمة الثورة الاجتماعية) لكي تثور ، فليس من شك في انها ستستفيد

بالأحرى من الأزمة الكبرى ، أزمة الحرب الاهلية في البلدان المتقدمة[1]

وليس من الماركسية ان « نسحب » هذه النصوص القديمة على الزمن الحاضر . لا سيما وان التاريخ قد خطأ انجلز في النقطة الأساسية التي انطلق منها (الموعد المقارن لانتصار الثورة البروليتارية في الغرب ولاستقلال المستعمرات : لقد استقلت الهند عن انكلترة ، وانكلترة لم تصبح اشتراكية) . وقد سار التاريخ في غير ما يتصوره لينين في ١٩١٦ : انتصرت الثورة الروسية والثورة الصينية ، والرأسمالية لا تزال مستمرة في الغرب .

ولكن هذه النصوص العائدة لعام ١٩١٦ وعـام ١٨٨٢ (ونصوص أخرى للينين ، مثلاً مقالاته عن القضية الجيورجية ضد ستالين ورفاقه ١٩٢٢) فيها شيء ثمين هو تلمس مشاكل المستقبل ، مشاكله الكبيرة ، مشاكل العلاقات بين الشرق المتخلف والثوري والمنكوب والغرب المتمدّن والناكب . والاشتراكية ليست عصاً سحرية . وروسيا ليست غرباً . ولكنهـا ، بالمقارنة مع الصين والشرق ، تشبه بهذا القدر أو ذاك البروليتاريا الغربية المنتصرة ، أو انكلترة الاشتراكية ، التي يتحدث عنها انجلز ولينين . لم تكن روسيا القيصرية تجاه الصين الامبراطورية في موقع بريطانيا تجـاه الهند (استنزاف قرن أو قرنين) . ولكن هذا العنصر ليس غائباً تماماً (انظر مقالة لينين إبان حرب البوكسر وحملة الدول ، في العدد الأول من الايسكرا ١٩٠٠) . ولا نعود إلى ما قبل ذلك ، رغم بعض تصريحات « كتلة ماوتسي تونغ » وتواريخ الخبراء الغربيين عن العلاقات بين بلاط موسكوفيا أو بطرسبرج وبلاط امبراطورية السماء . هـذا كله ثانوي . لقد تغيرت معطيات المسألة كلهـا . ونصوص ١٩١٦ و ١٨٨٢ لا يمكن ان « تسحب » سحباً على العلاقات الحاضرة داخــل العالم الاشتراكي

---

(١) انظر مؤلف لينين : « كاريكاتور للماركسية وحول النزعة الاقتصادية الامبريالية » ، موجود بالفرنسية في كراس ، طبع موسكو .

وداخل الحركة الشيوعية العالميـــة : ١٩٦٩ ليست ١٩١٦ او ١٨٨٢ ، والاتحـاد السوفياتي الصناعي والاشتراكي ، ليس انكلترة الاشتراكية ، والصين الاشتراكية ليست الهند الثائرة وطنياً أو قومياً . ولكن نصوص ١٩١٦ و ١٨٨٢ فيها هذا الشيء الثمين الذي لا يزال مفقوداً عند الرفاق اللبنانيين في ١٩٦٩ : **تلمّس المشاكل** ، الايمان بأن ثمة شيئاً « موضوعياً » تحت ذوات القادة الصينيين والسوفيات وهم ونحن ...

ان الرفاق اللبنانيين يتصورون ان ماوتسي تونـغ وبعض الآخرين ، الذاتيين ، هم الذين صنعوا أو اصطنعوا هذا الانقسام عن خط « الحركة الشيوعية العالمية » . وصين السبعمئة مليون لا تظهر إلا بشكل غـــير مباشر كموضوع لذاتية هؤلاء القادة في شكل « شوفينية الدولة الكبرى ».. الانقسام هو انقسام ماوتسي تونغ وكتلته . ذلك ليس ، على ما يبدو ، رأى فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي ، روجيه غارودي ، الذي ذكر في مكان ما من مؤلفه الأخير « انشقاق آسيا » « ك ظاهرة تاريخيـة تطرح مسائل أساسية »[١] . ولا نعتقد ان الفيلسوف الماركسي الفرنسي هو اليوم من الذين يؤلهون النصوص ، ولكننا نعتقد أنـه قرأ نصوص انجلز ولينين ، ونعتقد انه يفتح عينيه على الواقع : انشقاق (schisme) آسيا (وليس « القادة الصينيين ») . وإلى جانب ذلك ظاهرة نزع الاستعمار décolonisation من افريقيا ، ولنقل من العالم . هؤلاء الشيوعيون الكوريون والاندونيسيون والمالـــيزيون والبورميون ليسوا توابع للقادة الصينيين والخط الصيني ، ولكنهم بوجه الإجمال بعيدون عمـــا يسميه الرفاق اللبنانيون خـط « الحركة العالمية » . ولدى الهنود : ان تطور الاربع سنوات الأخيرة ليست لصالح الخط المذكور .

---

(١) روجيه غارودي « ماركسية القرن العشرين » ، نهاية الفصل الاول . الكتاب موجود بالعربية . ترجمة نزيه الحكيم .

وليس هنا المكان لدراسة ما ينسبه البرنامج إلى « القادة الصينيين » . لا سيما وأننا ، إذا لم نكن ملتزمين بما يسميه البرنامج « خط الحركة الشيوعية العالمية » ، فنحن لسنا ملتزمين بما يسميه البرنامج خط « كتلة ماوتسي تونغ الانقسامية [1] » . وان مسألة ما يجري في الصين في الأعوام الأربعة الاخيرة أكبر وأخطر وأعمق من ان ندّعي استيعابه وأن نسمح لأنفسنا بأن نبدي بصدده أية ملاحظة ، في إطار هذا البحث . ونحن نهنىء الرفاق اللبنانيين على سرعة فهمهم ، ومعرفتهم الوثيقة بـ « تدهور أوضاع الصين الداخلية » (الإنتاج الصناعي ؟ العلم ؟ مزيداً من التحديد من فضلكم !) .

إن الشيء الذي يهمنا بشأن القادة الصينيين في مرآة البرنامج اللبناني هو النظرة إلى « العملية الثورية العالمية » ، الى سير حركة الثـــورة العالمية وفروعها . وهذه النظرة هي جوهر سياق الفصل الأول ، والمادة الاساسية في هذا الفصل . إنهـا قضية الفهم الماركسى — اللينيني للعصر الراهن — وماوتسي تونغ والرد اللبناني على ماوتسي تونغ ما هما سوى مدخل الى هذا الموضوع ، في البرنامج ونقدنا له .

٥ — « المفهوم العلمي الطبقي » و « العوامل العرقية والجغرافية المزعومة » :

ينسب البرنامج اللبناني إلى القادة الصينيين رأياً مفـاده ان التناقض الأساسي في عصرنا هو « التناقض بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني » وليس « التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية » . (ص ١٢) .

ولنقل فوراً اننا لا نعرف وثيقة صينية تقول هذا القول ، ولنقـل فوراً ان هذا التصنيف للتناقضات (في هذين التناقضين الاثنين) ليس تصنيف القادة الصينيين ، بل هو تصنيف البرنامج اللبناني للتناقضات .

---

(١) والحق يقال اننا نخالف الرفاق اللبنانيين و « القادة الصينيين » معاً ، في النقطة الآتية: نحن لا نعتقد بأننا نشاهد اليوم «مسيرة ظافرة » لقوى الحرية والسلام والاشتراكية ، ولا نعتقد بأن « الوضع الثوري ممتاز » .

(ولا شك انه منقول عن الوثائق السوفياتية ، ولكن ليس أكيداً انـــه نسخة طبق الأصل فيما يتعلق بالألفاظ والمقولات) .

إنه تصنيف الرفاق اللبنانيين ، وهم يقلبون سلـّم الأفضلية المنسوب الى الصينيين ويتبنون عكسه . وهذا شيء هام يوضح لنا المنطق الأساسي للبرنامج اللبناني . والحال ، لينينياً : التناقض الأساسي لا يمكن ان يكون إلا التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، أو التناقض بين الثورة الاشتراكية العالمية وبين الامبريالية ، التناقض بين « العملية الثورية العالمية » الاشتراكية وبين الامبريالية والرأسمالية الخ . تلك هي الحال حتماً لدى خروتشوف وبريجنيف وستالين وماوتسي تونغ ولـين بياو وليو شاوشي وكاسترو وغيفارا وتولياتي ودوبشيك وغومولكا وشاوي ومطران وقريطم . وإلا كفوا فوراً عن كونهم لينينيين . الخلاف يبدأ مباشرة بعد هــذه النقطة ، ويشمل كل الفروع والمشاكل ، وينعكس على فهم النقطة .

ماذا يأتي مباشرة بعد هذه النقطة ، في مرآة البرنامج اللبناني بصدد القادة الصينيين ؟

إن « اعتبار التناقض الأساسي قائماً بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني ، لا بين الرأسمالية والاشتراكية ، **يستعيض عن التحليل العلمي التاريخي والطبقي بالعوامل العرقية والجغرافية** » .

هذا — كما هو معلوم — ما نسبه القادة السوفيات للقادة الصينيين ، وتبعهم غالبية شيوعيي أوروبا وكما يبدو الشيوعيون اللبنانيون . انطلقت هذه التهمة من شعار الصينيين « ريـح الشرق تغلب ريـــح الغرب » وستراتيجيتهم عن « منطقـــة العواصف » ، منطقة العواصف الثورية (القارات الثلاث : آسيا ، افريقيا ، اميركا اللاتينية ، قارات الصفر

والسود والسمر والخلاسيين وبعض الآريين [1]) . ولعلها انطلقت ايضاً من أحاديث صينية عن العروق البشرية ، مثلاً من محاضرة قديمة ألقاها لي داتشاو ، « ابو الشيوعيين الصينيين » عن « مسألة العروق » أمام طلاب جامعة بيكين في عام ١٩٢٤ [2] ، أو ربما من حديث ماوتسي تونغ عن عراقة الأمة الصينية وعرق هان أو شعب هان .

وليس ما يهمنا موقف القادة الصينيين ، اي معرفة ما إذا كانت تهمة البرنامج اللبناني للقـادة الصينيين حول الاستعاضة عن المفهوم « الطبقي العلمي » بالمفهوم « العرقي والجغرافي » خاطئة بنسبة ٨٠ ٪ أو ٩٩٫٩ ٪ ، بل ما يهمنا موقف اللبنانيين ، مفهومهم الطبقي العلمي المعادي لـ « العوامل » (؟ ؟) « العرقية » و « الجغرافية » . وهذا يفرض علينا ان نقف عنـد هذه النقطة وأن نعرض الماركسية ومفهومها العلمي الطبقي الحقيقي ، لنعود بعد ذلك إلى الرفاق اللبنانيين .

من المعروف ان نظرية صراع الطبقات في التاريخ قد أنشأها المؤرخون البرجوازيون الفرنسيون في النصف الأول من القرن التاسع عشر [3] . إن أوغستين تيري (Aug. Thierry) ورفاقه غيزو ، مينيه ، تيير ، تبينوا وبينوا ان تاريخ فرنسا وتاريخ انكلترة خلال قرون وقرون (في العصر الوسيط والأزمنة الحديثـة) هو تاريخ صراع **طبقات** ، صراع الشعب « والعوام » والبرجوازية ضد النبلاء الاقطاعيين : هذا الصراع يقف وراء المذاهب الدينية والثورات والمعارك الداخلية التي تملأ تاريـخ

---

(١) هنود ، فرس ، اكراد ، أرمن .

(٢) منشورة في مؤلف شرام – كاريردانكوس : « الماركسية وآسيا » ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ ، فيها تعداد للبشر حسب عروقهم وقاراتهم. هذا الكتاب سيصدر عن دار الحقيقة.

(٣) بالطبع ، ماركس سجل هذه الحقيقة مراراً . انظر مثـلا : رسالته الى فايدماير ، ١٨٥٢ . او مؤلفات بليخانوف : فلسفة التاريخ ، المفهوم المادي للتاريخ ، الخ الخ . أو لينين : كارل ماركس ، الخ .

فرنسا وتاريخ انكلترة .

غير ان مفهوم المؤرخين البرجوازيين الفرنسيين عن صراع الطبقات كان مشوباً بعدة أخطاء : اولاً تجاهلوا أو تقريباً صراع البرجوازية والبروليتاريا داخل المجتمع البرجوازي . وثانياً ، وهذا ما يعنينا هنا : اختلط فهمهم « للطبقات » بمفهوم عرقي . بدلاً من أن يُرسوا مفهوم الطبقات على مفهوم الانتاج الاقتصادي وحسب ، أرسوه على مفهوم العرق.

ولهذا الخلط النظري قصة تعود إلى زمن الثورة الفرنسية البرجوازية العظمى (١٧٧٩) ومساجلاتها التمهيدية :

في هذه المساجلات ، حشد الطرفان الحجج . قال ممثلو الطبقة الثالثة أو الهيئة الثالثة tiers état (العامة ، الشعب ، بالحقيقة البرجوازية) ان حقهم هو حق العمل والانتاج ، حق الشعب المنتج والبنّاء . فبماذا يرد ممثلو الطرف الآخر (النبلاء ، ومعهم الاكليروس) ؟ رفعوا شعار حق « الفاتح » ، حق « الدم الأزرق » : انهم نسل الفاتحين الفرنك والجرمان الذين فتحوا بلاد الغال في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط وصنعوا الوطن وترأسوه في الأزمنة المظلمة ، انهم الزعامة الطبيعية والوراثية المنبثقة من الفتح . وردّ ممثلو « العامة » (مثلاً الاب سييس Seeyès) : « تفاخرون بأنكم أتيتم الينا من هناك ؟ سنعيدكم من حيث أتيتم الينا من هناك ؟ سنعيدكم من حيث أتيتم : إلى غابات فرانكونيا والسواب ! » وفعلا في سنوات الثورة ، خرج ألوف النبلاء الاقطاعيين من فرنسا ، إلى النمسا والامارات الألمانية ، ليقاتلوا مع الملوك مع الملوك سعياً وراء استعادة املاكهم ومركزهم الطبقي ثم عادوا في ١٨١٥ ، وعادت اليهم السلطة دون ان تعود الاراضي . وتواصل الصراع السابق لفترة من الزمن ، واستمر الوهم « الطبقي - العرقي » . وتبلور عند تيري ورفاقه ، اكبر مدرسة في علم التاريخ قبل نشوء

الماركسية : النبلاء هم نسل الفاتحين الاجانب ، والعوام (البرجوازية والشعب) هم نسل السكان الاصليين، الغاليين – المرَوْمَنين Gallo-Romains . ان وراء معارك الطبقتين ، الفتح القديم ، العنف الأول . ولا بأس ان نشير إلى ان هذا الوهم العرقي « والوطني » حول الطبقات يخدم بصورة واعية او غير واعية في تمييع الانقسام الطبقي الجديد داخل الشعب – الامة – الاصلية المزعومة . (دون جدوى ! الانقسام بين البروليتاويا الناشئة والبرجوازية كان حاداً في فرنسا ١٨٣٠ – ١٨٥٠). وفي هذا الوقت ذاته ، عاش ريكاردو وهيغل : الاقتصاد السياسي والديالكتيك .. ثم ظهرت الماركسية . وكتب ماركس يقول : « ليس لي يعود الفضل في الطبقات في المجتمع الحديث أو صراعها . قبلي بكثير المؤرخون البرجوازيون وصفوا النمو التاريخي لهذا الصراع بين الطبقات ، وعلماء الاقتصاد البرجوازيون وصفوا التشريح الاقتصادي للطبقات . الشيء الجديد الذي عملته هو انني برهنت : ١ – ان وجود الطبقات مرتبط فقط بمراحل تاريخية محددة في نمو الانتاج . ٢ – ان صراع الطبقات يقود حتما الى دكتاتورية البروليتاريا . ٣ – ان هذه الدكتاتورية نفسها ما هي الا انتقال نحو الغاء جميع الطبقات وقيام المجتمع اللاطبقي (من رسالة ماركس الى فايدماير ١٨٥٢) .

« ان وجود الطبقات مرتبط فقط بمراحل تاريخية معينة في نمو الانتاج » . ان الطبقات تولّدت وتتولد من الانتاج ، انها التعبير عن **علاقات** إنتاج معينة . وإذا قرأنا نص ماركس مرة ثانية ، ورددنا وراءه : « فقط » ورددنا وراءه : « في المجتمع الحديث » ، « في المجتمع العصري » . وأضفنا : « المجتمع الحديث » يمكن ان يشمل ايضاً بالاضافة إلى المجتمع البرجوازي الفرنسي أو الانكليزي أو الالماني المعاصر لماركس ، المجتمع الاقطاعي السابق الذي حمل المجتمع البرجوازي في رحمه . و« الطبقات » هي دائماً (في مجتمع الرق ايضاً ، وفي أي مجتمع طبقي يمكن تصوره !)

تعبير عن علاقات الانتاج ، وعلاقات الانتاج فقط ، على اساس توزع الدخل الواحد ، نتاج المجتمع الواحد .

ولا بأس ان نشير ، بهذه المناسبة ، الى ان ماركس نفسه لم يعرّف « الطبقة » بشكل عام ، بل عرّف طبقـات محدّدة : البرجوازية ، البروليتاريا (وبدرجة أقل طبقات التشكيلات الاجتماعية السابقة) . ولكن لينين ، منطلقاً من عمل ماركس ، عرّف « الطبقة » بشكل عام . فلنقرأ تعريفه : « تُسَمّى « طبقات » جماعات كبيرة من الناس ، تتميز بالموقع الذي تحتله في نظام انتاج اجتماعى محدد تاريخياً ، بعلاقتها (التي غالباً ما يثبتها ويكرسها القانون) مع وسائل الانتـــاج ، بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي ، بوسائل حصولها وحجم حصتها من الثروات الاجتماعية التي تحت تصرّفها »[1] . ولقد لخصنا أعلاه هـــذا التعريف ، بقصد ابراز ديالكتيك الوحدة والتناقض بين المجتمع والطبقة . ان مفهوم علاقات الانتاج يتضمن « الموقع » في الانتاج و « العلاقة مع وسائل الانتاج » و « الحصة من الثروات الاجتماعية » .

المسألة اذن هي مسألة الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، مسألة موقع البشر في الانتاج ، وملكيتهم وعدم ملكيتهم ونوع ملكيتهم لوسائل الانتاج ، وحصتهم من الدخل الناتج . حيثما يكون ثمـــة مواقع مختلفة ومحددة في الانتاج وحصص مختلفة من الثروة الاجتماعية الخ لـ « جماعات كبيرة من الناس » يكون ثمة طبقات : القضية قضية انتاج ، وليست قضية عروق وأجناس وجغرافيا ، قضية انتاج وانتاج فقط . وهذه هي الماركسية . هذه هي الماركسية ، التجريـد العلمي العظيم للمجتمع الانساني وتاريخه ، المفتاح الذي بدونه تبقى الأبواب موصدة ، المفتاح النظري الذي بدونه لا يمكن ان نفهم لا العالم الواقعي المحسوس بوجه عام ، ولا اية قضية من قضاياه

---

١ — نقلا عن القاموس الفلسفي الصغير ، تأليف روزنتال ويودين ، موسكو ، بالفرنسية .

العيانية بوجه خاص .

ولكن العالم الواقعي المحسوس وقضاياه العيانيـــة ليس هذا التجريد العلمي ، هذا المفتاح النظري . « ثمة فرق بين الواقع والمفهوم » ، هو « الفرق الذي يجعل ان الواقع ليس مفهوم هذا الواقع » (انجلز) . والمادية التاريخية أكثر من تحليل وتجريد نشوء الرأسمالية ونموها ، وأكثر من تحليل وتجريد تعاقب (أي زوال ونشؤ وصراع) انماط المشاعية والرق والاقطاعية والرأسماليـة في مجتمع واحـد اوروبي غربي تجريدي (تجريداً صحيحاً وعظيماً) – وهي بالتأكيد ، ليست تحليل وتجريـد تعاقب الانماط المذكورة في مجتمع واحد « عالمي » تجريدي (تجريداً وهمياً لا نجده عند ماركس ويتعارض مع كتابات ماركس وتحليـــلاته الهندية والشرقية) – والماركسية حين تدرس التعاقب المذكور استناداً على الانتاج وادوات الانتاج والانتاجيـــة الخ ، فانها لا تغرق في النظرة التجريدية السطحية الكسولة التي تتصوّر ان « المفهوم » هو « التاريخ الواقعي » وان المنهج أو النظرية – الماركسية – تُغْني عن دراســـة التاريخ . وضد هؤلاء الذين يتصورون ان « المخطط الماركسي العام » يغني عن دراسة التاريخ « ويقيمون مباني قبْلية على طريقة الهيغليين » ، قال ماركس ساخراً : « انا لست ماركسياً » ، وردّد انجلز قوله ، دفعاً لهذا الالتباس المتعارض مع الماركسية ، المتعارض مع شموليتها الحقيقة . ان الشمولية الحقيقية للماركسية هي في كونها فتحت عينيها على الواقع العياني الكامل ، وطبقت عليه مفاهيمها وادواتها العلمية ، منهجها ونظريتها ونظرياتها ، وطبقتها عليه بنجاح لأن هذا الواقع العياني هو موضوعها ومصدر مفاهيمها وادواتها ومسوّغ شرعيتها الوحيد .

بتعبير آخر : ان « المفهوم العلمي الطبقي » – ونستخدم هذا الاصطلاح لأنه يبدو واضح المدلول عند الرفاق اللبنانيين – أي « المفهوم الطبقي العلمي » المجرّد عن العوامل العرقية والجغرافية ! – ونستخدم هذا الاصطلاح

للسبب نفسه – هو الفباء الماركسية . ولكن الماركسية ليست الفباء وحسب ، والفباؤها مستمد من « اللغة » الواقعية كلها (أي من الواقع كله) وهو في خدمة معرفة هذه اللغة الواقعية (أي هذا الواقع) .

ان الانتقال من « المجتمع الشيوعي البدائي » إلى « مجتمع الرق » لا يمكن أن يفهم بدون تقدم أدوات الانتاج ونمو الانتاجيـة وظهور ونمو الفائض الانتاجي Surproduit نتيجة هذا النمو . هذا هو أساس الانتقال المذكور وقانونه ، قانونه الوحيـــد [1] . ولكن الانتقال من المجتمعات المشاعية البدائية والعشيرية إلى عالم الرق القديم الاغريقي ، الروماني ، لا يمكن أن يفهم بدون حروب الفتح ، المصدر الاكبر للرقيق في روما وامبراطوريتها (والاوحد تقريباً). هكذا نمضي ماركسياً ،من « المفهوم » الى « الواقع » ، باعتبار أن هذا الواقع هو واقع المفهوم ، ما تحته وما فوقه ، ما قبله وما بعده [2] .

كذلك يمكن أن نقول : ان اساس وقانون الانتقال من « مجتمع الرق» إلى « المجتمع الاقطاعي » هو تقدم أدوات الانتاج الـــخ . . وصراع الطبقات في « مجتمع الرق » (وأن نضم المسيحية إلى حساب « ثورة العبيد ») . ولكن انحلال مجتمع الرق الاغريقي – الروماني ونشوء الاقطاعية الفيودالية وعالمها الأوروبي لا يمكن أن يفهم بدون غزوات البرابرة الجرمان ، وبدون لقاء مجتمع الرق الروماني المتحلّل والمشاعية الجرمانية في طورها الأخير (والمسيحية كعامل قوي في انحلال الرق توضع في حساب ثورة المسحوقين طبقات وأمماً ، واجناساً وافراداً) الخ . وهذا يطرح عدداً من المسائل في علم التاريخ الوضعي positive بل نظرية المادية التاريخية ايضاً.

---

(١) الأمر الذي لا يحل كل المشاكل ، حتى ولا كل المشاكل النظرية .

(٢) نفس الشرح السابق :... انظر مثلا مشكلة الرق في مؤلف غليزرمن : « قوانين التطور الاجتماعي » .

وكذلك الأمر بالنسبة لانحـلال المجتمع الاقطـاعي الفيودالي ونشوء الرأسمالية في قلبه ، على اساس الاقتصاد السلعي . ومناقشات العلمـاء الماركسيين حول موضوع المحرك الرئيسي للمجتمع الاقطـــاعي لا تزال ماثلة في ذاكرتنا (١٩٥٠ – ١٩٥٢) . ونقتصر الآن على ما نعرفه من ماركس نفسه : الانتاج السلعي يوّلد الانتاج الرأسمالي والمجتمع الاقطاعي الفيودالي يحمل في رحمه التشكيل الاجتماعي البرجوازي . ومن الممكن ، نظرياً أن نتصور نشوء ونمو وسيادة الرأسمالية بدون التوسع الاستعماري الأوروبي الذي لازم فجر الأزمنة الحديثة .

هذا هو منطوق « رأس المال » – الجزء الاول . ولكن ، عملياً ، ان نشوء ونمو وسيادة الرأسماليـــة ، قد لازمه نشوء ونمو ظاهرة التوسع الاستعماري. وهذا أيضاً في منطوق « رأس المال » – الجزء الأول : فقد خصص ماركس أحد فصول الكتاب لهذا التوسع الاستعماري ، بوصفه جزءاً بالغ الأهمية في ظاهرة « التراكم الأولى لرأس المال » : نهب الهند الغربيـة والهند الشرقية ، « صيد الرقيق الأسود » ونقله من افريقيا إلى اميركا واوروبا ، قتل الهنود الحمر وتدفّق الفضة والذهب على اوروبا وحوض البحر المتوسط .

في صيغة مفهومية وقانونيـة : « المجتمع الرأسمالي » ينشأ وينمو في قلب « المجتمع الاقطاعي » وعلى أساس آلية الانتاج السلعي . وهذان المجتمعان هما – حسب ماركس – مجتمعان أوروبيان ، وآلية هـــذا النشوء والنمو آلية اوروبية – غربية أو غرب – اوروبية (بدءا من ايطاليا وبلجيكا في النصف الثاني من القرون الوسطى وصولا إلى انكلترة ، ومروراً باسبانيا) . ولكنها ايضاً آلية عالمية ، تحققت بالتبادل العالمي ، وبالتوسع الاستعماري العالمي . والرأسمالية الاوربية هي رأسمالية عالمية ، وهي كذلك منذ نشوئها . أنها رأسمالية عالمية بهذا المعنى ، وليس بمعنى أن المجتمعات الاقطاعية المزعومة في الهند والشرق كانت هي أيضاً سائرة في تطور ذاتي يولد تشكيلا « برجوازياً » رأسمالياً في بلدانها ذاتها ! بتعبير

آخر : أن الصفة الأوروبية للرأسمالية لا تنفي صفتها العالمية . وصفتها العالمية لا تنفي صفتها الأوروبية . البرجوازية وتمهيدها الأول طبقة تنشأ في ايطاليا وفرنسا والبلاد الوطئة وانكلترة ، ومعها نقيضها : البروليتاريا وتمهيدها الأول (في الهند ، لم يكن في القرن الخامس عشر ولا في الثامن عشر لا برجوازية ولا مشروع برجوازية)[1] والشيء الذي يهمنا هو الصفة العالمية. الرأسمالية (التي هي بنت تطور أوروبي) عالمية ، وهي النظام العالمي الأول والوحيد ، قبل الاشتراكية[2]. انها النظام الطبقي العالمي الوحيد في تاريخ النظم الطبقية والاستغلالية . وهذا أحد وجوه صفتها التقدمية والثورية . لقد خلقت البرجوازية (الأوروبية) الأنتاج العالمي الواحد ، والتاريخ العالمي الواحد ، والعلاقات الانسانية الواحدة . وهذا الانتاج العالمي الواحد (والمتمثل في السوق العالمية) لا يقوم على أساس تساوي وتوحد الشمال والجنوب والشرق الغرب والأبيض والأصفر والاسمر والأسود والأحمر والانكليزي والهندي والكارابيي في هذا العالم الموّحد . بالعكس تماماً[3] .

ومنذ ١٨٤٨ ، في « **الخطاب عن نظام حرية التبادل** » ، سجل ماركس هذا العكس ، ساخراً من اولئك الذين يتصورون ان حرية التبادل الملازمة للاقتصاد البرجوازي وديناميكيته العظيمة انما تخلق لكل الأمم وضعاً يجعل كل أمة تتخصص في الانتاج الذي يلائم بيئتها الطبيعية : هل تعتقدون أيها السادة ان « الطبيعة » هي التي جعلت جزر الهند

---

(١) انظر تحليل ماركس للهند ، في مقالات ١٨٥٣ . موجودة في مختارات ماركس وانجلز ، طبع موسكو ، بالفرنسية او الانكليزية ، الجزء الاول . أو في كتاب ماركس - انجلز : «نصوص عن الاستعمار». وسيصدر عن دار الحقيقة .

(٢) المجتمع الشيوعي البدائي كان « عالمياً » ، بمعنى انه كان نمط جميع المجتمعات على سطح المعمورة ، وليس بمعنى ان العالم كان موحداً.

(٣) في الفصل الأول من «البيان الشيوعي» البرجوازية الأوروبية خلقت « السوق العالمية » و « الانتاج العالمي » واخضعت الشرق للغرب وأمم الفلاحين لأمم البرجوازيين .

الغربية تتخصص بالزراعات الكولونيالية ؟ قبل قرن أو قرنين ، لم تكن الطبيعة ، التي لا تبالي كثيراً بالتجارة ، قــد وضعت في تلك الجزر لا شجرة البن ولا قصب السكر . .

بتعبير آخر : هذه الوحدة العالمية – وينجم عنها وحــدة المصير البشري – وحدة تناقضية . وهذه العلاقات الانسانية التي خلقتها البرجوازية علاقات معادية للانسان . لقد خلقت البرجوازية « عالما على صورتها » . ولكن يخطىء من يتصور أن عالماً على صورة البرجوازية » معناه ان الهند تصبح انكلترا ثانية ، وجاوا هولنده ثانية . يخطىء من يتصور أن الثانية مثل الأولى تقوم على التناقض الداخلي الذاتي بين طبقتي تشكيل برجوازي ثان منقول إلى الثانية من الأولى . « العالم » على صــورة البرجوازية (وليس هكذا ، كل قطر في الشمال والجنوب والشرق والغرب) عالم استغلال ، استغلال متنوع الأشكال ، عالمي . ليس البرجوازي الانكليزي يستغل العامل الأنكليزي فقط ، بل الانكليزي يستغل الهندي والايرلندي ، وبطريقة ما ربما الالماني والبلغاري والروسي . هذه هي **العالمية** .

هذا واضح بما فيه الكفاية عند ماركس وانجلز في عام ١٨٤٨ و ١٨٥٣ و ١٨٦٧ و ١٨٨٢ الخ... وهو يتضاعف أضعافاً مضاعفة في زمن الامبريالية . وتصبح هذ العالمية في محور اللينينية ومجادلاتها . ينقل لينين أقوال ماركس وانجلز عن تبرجز العمال الانكليز ، عشرات المرات . ويطـّور ويعمّم هذه الآراء ، ويؤكد القطيعة النهائية مع اليمين العمالي والوسط المتذبذب بين اليمين واليسار . يؤكد « الانشقاق داخل الحركة الاشتراكية » ، ضد كاوتسكي وأقرانه : لأن كاوتسكي وهيلفردنغ ومارتوف لايرون عالمية الرأسمالية ، لذلك لا يفهمون طبيعة الانتهازية العمالية ، ولا يرون حتمية وعمق الانقسام في صفوف حركة العمال ، وهو الانقسام الذي يبشر باقتراب الثورة البروليتارية العالمية ، التي لن تكون ثورة البروليتاريا

كاملة وخالصة ، بل ستكون نهراً تلتقي فيه ثورة البروليتاريا وثورة الشعوب المستعمرة والمغلوبة ضد الامبريالية ، وضد الانتهازية والمراتب العمالية الملوثة استعمارياً وشوفينياً ...

كما يقول ستالين في تلخيصه « مبادىء اللينينية » ١٩٢٤ ، ان الامبريالية تتصف لا بتناقض واحد ، بل بتناقضات ثلاثة : التناقض بين العمل ورأس المال ، والتناقض بين الأمم والشعوب المستعمَرة والمضطهدة وبين حفنة من الأمم الامبريالية المستغِلة ، والتناقض فيما بين الدول الرأسمالية الامبريالية . وكما يقول لينين (في عشرات النصوص الكلاسيكية [1]) : السمة الأساسية للعصر الجديد هو أن العالم كله بات موزعاً فيما بين الدول الامبريالية ، ان العالم منقسم إلى حفنة من الأمم الامبريالية المستغلة (ويعددها لينين مركزاً على أربعة هي الاكثر أهمية : انكلترا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، المانيا) وبين غالبية ساحقة من الأمم المستغَلة والمسحوقة .

ذلك ألف باء اللينينية : ليس « المجتمع » منقسماً إلى « طبقات » وحسب ، في عصر الرأسمالية كلها وبالاحرى في عصر الامبريالية . بل العالم منقسم إلى طبقات ، ومنقسم إلى أمم ، إلى أمم مستغلة (أقلية ، حفنة من الأمم) وأمم مستغلة (الغالبية العظمى من الشعوب) . ترى هل هذا الانقسام العالمي إلى أمم مستغلة ومستغلة « إنقسام طبقي » ؟

— نعم ولا .

ان توزع العالم إلى أمم أو شعوب أو أقطار (لا فرق هنا : إلى

(١) مثلا : تعليقه على مؤتمر شتوتغارت ١٩٠٧ (انظر مجموعة « حركة التحرر الوطني في الشرق ») . انظر ايضاً جميع المؤلفات الكلاسيكية لعامي ١٩١٥ و ١٩١٦ ، مثلا : « الامبريالية وانشقاق الاشتراكية » . وانظر مؤلف « الامبريالية » . انظر : تقارير وخطب لينين في المؤتمر الثاني والمؤتمر الثالث للكومنترن ...

فرنسا ، انكلترة ، صين ، مصر ، جاوا ، الخ..) قائم قبل الرأسمالية .ولكنه في زمن الرأسمالية (أي الرأسمالية والاستعمار ، وبالأحرى الامبريالية)والوحدة العالمية الرأسمالية ، يكتسب صفة جديدة ، اذ تدخل الأمم في علاقاتوثيقةهي علاقات تبعية وتسلط واستغلال . التوزّع إلى أمم – أمم منفصلة ، مستقلة – يتحول إلى إنقسام بين الأمم داخل الوحـــدة وعلى أساسها (والانقسام نوعاً ما جوهر الوحدة ، هذه الوحدة) . كان العالم قبلا ، مؤلفاً من أمم (توزع شاقولي|||) ومن « طبقات » داخل الأمم (أنقسام أفقي ☰) دون تداخل أو تشابك أو ترابط بين التركيبين .

ان عصر الرأسمالية ، وبالأحرى الامبريالية ، يغير هذه الحالة ، فيكتسب التركيب الشاقولي (القومي) صفة افقيـــة يمكن تسميتها « طبقية » . (والكلمة العربية توحي بذلك : الطبقات « المراتب » كطوابق العمارة ، أو طبقات الأرض) . ولكن مع ذلك كله ، هل نطلق على هذا الانقسام بين الأمم في زمن الامبريالية اصطلاح « الانقسام الطبقى » ؟ هذا ما قد يفعله البعض ، مقدّمين عليه المبرّرات من تعريف لينين « للطبقة » ... في نهايـة الحساب ، نفضل ان لا نفعل ذلك لأن فيه توسيعاً غير لازم وغير مفيد لمفهوم الطبقة . عالم واحد ، انتاج علمي واحد ، مجتمع عالمي واحد ، منقسم هكذا ، إلى طبقات ؟ لمَ لا ؟ ولكن هذا العالم الواحد أو المجتمع العالمي الواحد مؤلف من « أمم » . (ذلك في بديهيات الواقع والماركسية) . والطبقـات داخل الأمم . فلنحتفظ بصيغ لينين كاملة وبدون اضافات وتسويات : طبقات (برجوازية – بروليتاريا ، الخ) وأمم ، أمم مستغلة وامم مستغلة ، وداخلها طبقات مستغلة ومستغلة . ونستبعد الاضافة المذكورة لأنها تنطوي على اكثر من ضرر : ١ – يمكن ان توحي بأن الأمـــة المستغلة ليست منقسمة إلى طبقات متعارضة . ٢ – يمكن ، بالمقابل وبالارتباط ، أن تقود إلى العدمية القومية باسم هذه « الطبقات » العالمية المقترحة . فلنحتفظ اذن بالتمييز بين المفهومين (الطبقة

والأمة) ، لأنه شرط الربط . الربط عكس الفصل ، ولكنه ليس الخلط ! والاستغلال يمكن أن يكون بين الطبقات ويمكن أن يكون بين الأمم ، وبين الاقاليم ، الخ . (وهذا ، بمصطلحاته ، واضح في خطاب ماركس عن التبادل الحر ، وفي البيان الشيوعي) . ان اصطلاح الطبقية لا يستنفد اصطلاح الاستغلال والصراع في ماركسية ماركس وانجلز ولينين وجميع أعلام الماركسية على اختلافاتهم . والسؤال الآن :

هل يؤمن أو لا يؤمن الرفاق اللبنانيون بهذا الانقسام إلى أمم مستغِلة وامم مستغَلة ؟

انصافاً لهم ، لا يمكن ان نجيب بلا . وانصافاً للحقيقة ، لا يمكن أن نجيب بنعم ! هـذا الانقسام إلى أمم مستغِلة وأمم مستغَلة ، هذا التعريف الاساسي للامبريالية ، غائب أو شاحب ، في برنامجهم .

هل يؤمن الرفاق اللبنانيون بالانقسام والصدام بين الشرق والغرب ؟

كلا بالطبع ! وكأننا نسمع صوتهم المدوي : هي ذي النظرية الجغرافية الرجيمة .

لسوء الحظ ، هذه النظرية « الجغرافية » انما هي نظرية لينين . نقرأ صيغها في عشرات المؤلفات : « اوروبا المتأخرة وآسيا المتقدمة » ، « حرب فارس والهند والصين ضد انكلترة وفرنسا وروسيا « (القيصرية) ، الخ .. وكتتويج لهذه الصيغ الكثيرة ، ما قاله في مولفه الاخير [1] : « روسيا الهند ، الصين ، الخ .. » ، « الصدام العسكري القادم بين الغرب الامبريالي والمضاد للثورة وبين الشرق الثوري والقومي » .

---

(١) مؤلف « من الافضل أقل شرط ان يكون افضل » ١٩٢٣ . وهو آخر ما كتبه لينين فيه عصارة تفكيره حول مستقبل البناء الاشتراكي في روسيا المتخلفة ، وحول مستقبل الثورة العالمية . موجود في « المختارات » الجزء الاخير .

ترى ، في نظر الرفاق اللبنانيين ، ألم « يستعض » لينين العظيم عن المفهوم العلمي والطبقي بالمفهوم « الجغرافي » و « القومي » ؟ ترى هل رأوا عند ماوتسي تونغ اكثر من ذلك في مجال الانحراف « الجغرافي » (!) : « ريح الشرق ضد ريح الغرب » ؟ « منطقة العواصف الثورية » القارات الثلاث [1] .. ولا بأس من التنويه بأن لفظ « القومي » nationaliste (أي القومي النزعة والاتجاه) الوارد في صيغة لينين : « الشرق الثوري القومي » لا نعثر عليه عند ماوتسي‌تونغ . وبالنسبة للينين : الغرب متمدّن ، مثقف متعلم ، والشرق (ومعه روسيا) جاهل وبربري ، ولينين حريص على تثقيف روسيا السوفياتية ، متمسك بتراث الثقافة البرجوازية التي لولاها لما كانت ثمة ماركسية (ضد حركة الثقافة البروليتاريـة المزعومة proltkult) . ولكن : الغرب المتمدّن والعظيم امبريالي ومضاد للثورة . والشرق المتخلف ونصف البربري ثوري . هل يمكن ان تصل النزعة « الجغرافية » المزعومة (التي اكتشفها اللبنانيون وغيرهم عند الصينيين) إلى اكثر من هذا الربط بين « الجهتين الجغرافيتين » والصفتين الثورية والمضادة للثورة ؟ .

بالطريقة التي يعالج فيها اللبنانيون الامور ، بالطريقة التي يفهم فيها اللبنانيون« التحليل العلمي الطبقي » ، لا يمكن ان ينجو لينين' ولا ماركس وانجلز من تهمة من تلك التهم البغيضة في نظر « العلميين الطبقيين » : النزعة القومية ، النزعة الجغرافية ، النزعة العرقية .

ماركس وانجلز أيدا مراراً « الالمان » ضد « الروس » ، والوحدة الالمانية ضد الجامعة السلافية . في ١٨٤٨ ، لم يؤيدا « العمال والفلاحين »(!) الالمان والفرنسيين والروس والبولونيين والتشيك والكروات الخ ضـــد « الرأسماليين والاقطاعيين » الالمان والفرنسيين والروس والبولونيين والتشيك والكروات الخ ، بـــل ساندا « الالمان والفرنسيين » ضد « الروس

(١) منذ زمن الكومنترن : الشرق = القارات الثلاث ، أي عالم المستعمرات والتابعات .

والتشيك والكروات » ، ساندا « الشعوب الثورية » ضد « الشعوب الرجعية » . وفي صحيفة نيويورك د . تريبيون ، ساند كارل ماركس الحرية ضد الاستبداد ، و « الغرب » ضد « الشرق » أي ضد روسيا القيصرية [1] . وفي الخمسينات ، استثار انجاز الحماس القومي للالمان ضد الروس والفرنسيين (وذكر لينين ذلك مراراً ، في مجادلات ١٩١٦) .

ولينين رائد الثورة البروليتارية العالمية ، والذي يعرف ما هو صراع الطبقات ، لم يكتف بتـأييد العمال ضد البرجوازية « وحركة التحرر الوطني » ضد « الامبريالية » ، الخ .. بل أيّد أيضاً « آسيا » ضد « اوروبا » ، و « الشرق » ضد « الغرب » . وكل القرائن تشير إلى انه كان مع الفلاح الهندي بل ومع البرجوازي الهندي ضد العامـــل الانكليزي ، مع معرفته الاكيدة بحقيقة البرجوازي الهندي (الاستغلالي الوغد) وحقيقة الفلاح الهندي (الجاهل ، الشرقي ، البربري ، الخ ..) ولكنه مع هذا الوغد وهذا الانسان المنقوص ضد « اوغاد الامبريالية » . (أي العمال الانكليز ، في بعض رسائل لينين) . حتى انه في هـذا

---

(١) عصر الثورة الديمقراطية الاوروبية (اواسط القرن التاسع عشر) ليس عصر الامبريالية (١٨٩٥ - ١٩٢٣ وبعدها) في التاريخ العالمي. ولينين يؤيد منظورات انجلز وماركس لذلك الزمن ويستفيد منها (من روحها) للزمن الحاضر .

ماركس ساند « الغرب » ضد « الشرق »، أي عالم الثورة الفرنسية والديمقراطية الاوروبية والوحـــدة الالمانية ضد الاستبداد الروسي القيصري الذي يزن بكل ثقـــله ضد تحرك اوروبا الديمقراطي (سنة ١٨٤٨ ، وقبلها ، وبعدها) . الهند والصين وآسيا كانت خارج هذا التاريخ العالمي وقواه الفاعلة ، كانت « مادة » للتاريخ أو « موضوعاً للتاريخ ولم تصبح بعـــد « ذاتا » فاعلة في التاريخ . ومع ذلك ، يتعاطف ماركس مع كفـــاح الهند والصين ضد المستعمرين ، و « يستنجد » بأحداث الثورة الهندية أو الحرب الصينية كـ « مساعدات » ممكنة لانفجـــار برميـــل الصناعة البريطانية والسياسة الاوروبية المشحون ، اي لقيام الثورة الديمقراطية والبروليتارية في اوروبا .

لينين عاش وعمل في الزمن الذي اصبحت فيه الصين والهند وآسيا ذاتا فاعلة في التاريخ العالمي وكان اول واكثر من ادرك هذه الحقيقة بين جميع ماركسيي عصره .

الحماس لآسيا ، حدث ان تعاطف مع ... اليابان (رغم معرفته وتأكيده الطابع الرأسمالي والامبريالي لليابان) . ايماناً منه بأثر هذا المثال الياباني على يقظة الشعوب الاسيوية : « ان الاوروبيين اذ سلطوا نهباً منظماً على البلدان الآسيوية ، قد نجحوا في صقل أحد هذه البلدان ، الا وهو اليابان ، من أجل انتصارات عسكرية كبيرة تؤمن له تطوراً قومياً مستقلاً . وليس من شك في ان نهب الهند القديم من قبل الانكليز والكفاح الراهن الذي يشنه هؤلاء الاوروبيون « المتقدمون » ضد الديمقراطية الفارسية والهندية سيصقلان ملايين وعشرات الملايين من بروليتاريي آسيا من أجل كفاح ظافر ككفاح اليابانيين ضد مضطهديم . ومنذ الآن إن العامل الاوروبي الواعي له رفاق آسيويون وعددهم سيزداد ليس فقط يوماً بعد يوم بل ساعة بعد ساعة » (« مواد مشتعلة في السياسة العالمية » ، ١٩٠٨)[١] .

ان ايمان لينين بالعامل الاوروبي – الواعي – يتمازج مع ايمانه بأصدقائه الآسيويين : الحركة الديمقراطية الاسيوية الجبارة ، وعشرات الملايين من بروليتاريي آسيا الذين يزداد عددهم ساعة بعد ساعة[٢] « والجغرافيا » ليست خارجة من هذا المنظور الطبقي فعلاً والعلمي فعلا . هكذا يبدو التشخيص اللينيني للعصر منذ ١٩٠٧ – ١٩٠٨ ، و ١٩١٢ – ١٩١٣ ، وهذا التشخيص يزداد وضوحاً وقوة في ١٩١٥ و ١٩١٦ ، وبالاحرى في ١٩٢٠ ، ١٩٢٣ ...

---

(١) هذا المقال موجود في مجموعة « حركة الوطني في الشرق » طبع موسكو ١٩٦٤ ، وهو لم يرد في طبعة دار دمشق ، ترجمة الياس مرقص ، ١٩٥٨ ، وهي مجموعة أصغر حجماً .

(٢) وليس المقصود بالبروليتاريين عمال الصناعة فقط ، أو عمال الصناعة والمناجم فقط . ان لينين لا يشاطر الوهم الذي يتصور ان هذه البلدان الآسيوية تصبح صناعية «ساعة بعد ساعة» . ومن المفيد بهذا الشأن ان نعود إلى مجادلات لينين مع النارودبين (الشعبيين) والماركسيين الشرعيين فى ١٨٩٤ وبعدها حول الرأسمالية في روسيا : وان مفهوم « البروليتاريا » والتحول الى بروليتاريا يبدو في هذه المؤلفات اللينينية مختلفاً عن مفهوم « العمال » و «التحول إلى عمال».

ان التشخيص الذي يحرص على اخراج « الجغرافيا » من المفهوم « العلمي الطبقي » ليس تشيخصاً لينينياً . في المفهوم اللينيني – وهو في جوهره مفهوم طبقي وأيّ طبقي !! – لعصر الامبريالية وتناقضاتها وصراعاتها ، تدخل المفاهيم « الجغرافيـــة » الغرب والشرق واوروبا وآسيا الخ – التي – وهنا بيت القصيد – ليست اذن مفاهيم « جغرافية » وحسب ، **بل هي ذات مدلول اجتماعي وبشري هائل .**

هل فعل الصينيون شيئاً غير ذلك ، على صعيد المفاهيم « الجغرافية » المزعومة ؟ اذا كان الأمر كذلك : يجب تبيانه بالشواهد والوثائق . والا فان التهمة تغطي محاولة اصحابها اعدام « الجغرافيا » عبثاً : هـــذه « الجغرافيا » جزء من جوهر العصر .

كذلك بالنسبة لـ « العوامل » ؟ « العرقية » . اذ ما يقصد الرفاق اللبنانيون بهذا الكلام ؟ الردّ على نظرية العرق ؟ ومع من يتجادلون ؟.. مع غوبينو وروزنبرغ ؟

في الماركسية ، الطبقات هي التعبير عن علاقات انتاج معينة . ذلك ألف باء الماركسية ، مفهومها « العام » الاساسي .

والصراع القائم في العالم هو صراع بين الطبقات والانظمة الاجتماعية ، وبين الأمم والدول و « الجهات الجغرافية » (!) وليس صراعاً بين العروق . وإذا كان من الغباء ان نبحث عن العروق المختلفة « وراء » طبقات « المجتمع البرجوازي الحديث » او وراء طبقات المجتمع الفيودالي الذي سبقه (كما فعل تيري ورفاقه منـذ قرون ونصف ، صارفين النظر عن الانتاج ، وقاصرين عن موضوع الانتاج) ، فانه من الغباء ان نجهل ان غالبية الرقيق في رومـــا القديمة كانت من النوميديين والليبيين والسلت والجرمان والأرمن الخ ، وان الفتح هو أحـد « العوامل » في تكون

الصورة الأولى للمجتمع الاقطاعي في فرنسا وانكلترة (بحجة نضال ماركس ضد الالتباس العرقي ، ولا نعتقد ان ماركس قال غير ذلك). والغباء الاكبر أن نخرج « الفتح » من صورة الرأسمالية العالمية بوجه عام ، وصورة بعض مجتمعاتها بوجه خاص .

ونقصد أولا : غالبية مجتمعات اواسط القارة الاميركية ، من المكسيك الى البرازيل وبلدان سلسلة جبال الآندس ، تلك الشعوب المكوّنة على أساس تواجد وتمازج الفاتحين المهاجرين البيض والوافدين الزنوج والسكان الاصليين من الهنود الحمر . في هذه البلدان - بخلاف فرنسا وايطاليا وبريطانيا - التمازج بين « العروق » المختلفة لم يبلغ كماله « القومي » المعروف في النموذج الماركسي الستاليني للأمة . في فرنسا ، ذاب الغاليون والليغوريون والفرانك والبرغوند والنورمانديون في بوتقة الامة البرجوازية العصرية المنقسمة الى طبقات على أساس الانتاج (والى طبقات فقط ، الى طبقات خالية من العرق والاصل والعشيرة) ولكن الامر يختلف في سلسلة من بلدان اميركا اللاتينية : هذا الانصهار لم يحصل . بين القرن السادس عشر واوائل القرن التاسع عشر ، تكونت هذه البلدان كمجتمعات جديدة ، اقطاعية برجوازية - كولونيالية ، (حديثة واوروبية من حيث نمطها الاقطاعي - البرجوازي ، وجديدة من حيث نمطها الكولونيالي) ولكنها لم تتكون كأمم لا عرقية ، وطبقية خالصة! في هذه البلدان « نموذج » آخر ، غير النموذج الاوروبي « العام » ، نموذج يتشخص بأشكال مختلفة وبدرجات متفاوتة . في مختلف بلدانه (بلدان النموذج الاميركي المعني [1]) : أجل ليس كل البيض مستغلين اقطاعيين

---

(١) الذي يشمل سلسلة من بلدان اميركا اللاتينية ، وليس كل بلدان اميركا اللاتينية . يخرج منه تماماً الطرف الجنوبي من القارة : الارجنتين ، اوروغواي ، جنوبي شيلي (أي اميركا الجنوبية البيضاء) وكوستاريكا وبورتوريكو وكوبا وجنوبي البرازيل (وهي أقاليم ذات اكثرية ←

أو رأسماليين ، وليس كل الزنوج والهنود والخلاسيين فلاحين وعمالاً . مئات الالوف من البيض كادحون وفقراء وطبقات وسطى . وهناك مئات من الزنوج والهنود وألوف من الخلاسيين ، اغنياء ورأسماليون وملاكون كبار وطبقات وسطى . (مما يدل على ان هذا العالم هو ايضاً ، ليس عالم اجناس وعروق بل هو عـــالم انتاج اقتصادي) . ولكن الغالبية الساحقة من الرأسماليين وكبار الملاكين (٩٥ ٪ واحياناً ٩٩،٩ ٪) هم من البيض (الاسبانيين القدامى أو الوافدين الاوروبين الجدد) . وغالبية البيض — والغالبية الساحقة في البلدان التي لا يكون فيها البيض سوى اقلية صغيرة ، واحياناً ٩٠ ٪ وأكثر — هم من الطبقات ذات الامتياز . والغالبية الساحقة (احياناً ٩٩ ٪) من الفقراء هم من الهنود والزنوج والخلاسيين . والغالبية الساحقة من الهنود والزنوج والخلاسيين (احياناً ٩٩ ٪ من الهنود والزنوج) هم من الفقراء المسحوقين ، مثلاً « الفلاحين الهنود » ، و « عمال مناجم النحاس والقصدير الهنود » ، و « عمال مزارع قصب السكر الزنوج » .

وهذه الظواهر المختلفة والأرقام المتنوعة تتلخص في جملتين :

أولاً — : غالبية المستغِلين الساحقة (٩٠ او ٩٩ ٪ منهم) هم بيض .

ثانياً — : (وهنا نقلب تسلسل المبتدأ والخــبر) : غالبية السود والحمر وخلاسييهم (٩٠ أو ٩٩ ٪ منهم) هم مستغَلون ومسحوقون .

حيثما هناك « تواجد » بين العروق والأجناس والألوان ، حيث هناك

← بيضاء) . وبالمقابل ، تدخل فيه بعض ولايات جنوبي الولايات المتحدة ، باعتبارها مناطق تواجد العروق في حوض البحر الكارايبي .

هذا النموذج يضم اذن المكسيك وغالبية دول البرزخ وغالبية جزر الآنتيل ودول جبـــال الاند ، وبوجه عام ثلثي اميركا الجنوبية (شمالها ووسطها) . انه نموذج اميركا الحمراء واميركا السوداء واميركا الخلاسية ، أي نموذج البلدان والاقاليم التي غالبية سكانها أو غالبيتهم الساحقة من الملونين بغير اللون الابيض .

تداخل وتمازج لا يصل إلى درجة الانصهار والذوبان ، يتلوّن الاستغلال باللون الأبيض ، ويتلوّن الفقر والعذاب باللون الأحمر والأسود والهجين. ذلك قانون عالم الظاهرات الواقعية . يتحقق هذا القانون في خمس عشرة دولة (المكسيك ، خمس دول في البرزخ ، هاييتي والجامايك وجزر أخري ، كولومبيا ، فنيزويلا ، اكوادور ، بيرو ، بوليفيا ، باراغواي ، شمالي شيلي ، شمالي ووسط البرازيل) . بل ويزداد شدة كلما كان العنصر الأبيض أقل .

تلك حقائق نجدها اليوم (وأحياناً بالأرقام) في أي كتاب جغرافيا مدرسي يحترم نفسه — مثـــلاً ، في الكتب المدرسية الفرنسية ، وهي كثيرة في بيروت ، وجيدة — . ونجدها أيضاً في كتاب التاريخ لصف الكفاءة ، المدرّس في الاتحاد السوفياتي[1] ، الذي يعالج بكثير من النفاذ ثورات الاستقلال في أوائـــل القرن التاسع عشر ، منطلقاً من تحليل التركيب الطبقي الواقعي لهذه المجتمعات كما تكوّن في الزمن الكولونيالي ، ومعززاً هذا التحليل بوسائل الإيضاح . ونشير بشكل خاص إلى الصفحة ١٢٥ ، وهي لوحة تمثـــل أشخاصاً نموذجيين يرمزون الى « **سكان اميركا اللاتينية** » : فوق : « المستغِلون » وهما اثنان : في الأعلى « نبيـــل اسباني » ، وتحته « مـــلاك ارض كريول » (والكريول من البيض المؤقلمين ويتعاطون ايضاً التجارة والحرف ، ومنهم البرجوازية أو مشروع — برجوازية) . وتحت : « المستغَلون » ، على صف واحد : لانيروس ، و « فلاح هندي » ، و « عبد أسود » . المستغِلون : نبلاء ، وملاكون ، بيض . والمستغَلون : **فلاحون ، وأرقاء ، ومدقعون ، هنود ، وزنوج ، وخلاسيون** .

---

(١) « تاريخ الازمنة الجديدة » ، « للصف التاسع » ، تأليف آ. إفيموف ، وهو موجود باللغة الفرنسية ، طبع موسكو .

ترى ، أليس في هذا التشخيص للكتاب المدرسي السوفياتي انحراف عن المفهوم « الطبقي » الخالص النظيف إلى مفهوم طبقي « عرقي » ؟ ربما ! ولكن ما حيلتنا ؟ انه **تشخيص الواقع** « غير النظيف » .

ولا يمكن القول ان هذا الوضع الطبقي الملوّن بالأبيض والأحمر والأسود ، والذي يشخصه كتاب التاريخ السوفياتي لزمن توباك آمارو وتوسان لوفرتور والأب هيدالغو وسيمون بوليفار ، قد اختفى اليوم وحل محله الوضع الطبقي غير الملوّن[1] . في سلسلة من بلدان اميركا اللاتينية (في معظم هذه البلدان !) ، لا تزال قمة الهرم بيضاء وقواعده هندية او افريقية . والتغير الكبير الحاصل هو إضافة قمة فوق القمة : الامبريالية الاميركية الشمالية : شركة النحاس وشركة الفواكه والسائح اليانكي لونهم أبيض .

وليس مثال اميركا اللاتينية فريداً من نوعه . هناك اتحاد جنوبي افريقيا وروديسيا وكينيا . هذا جزء من الرأسمالية العالمية . في نهاية الحساب ، لا يمكن ان تكون الأمور على نحو آخر في عصر الرأسمالية ، لأن عصر الرأسمالية هو في انطلاقه ونموه عصر الاستعمار ، عصر الفتح والغزو والتوسع ، بقصد الاستغلال البشري .

والمفهوم الطبقي الواقعي ، غير النظيف ، لا ينحصر في العلاقات بين

---

(١) ليس في حوزتنا كتاب جغرافيا مدرسي سوفياتي ، عن اميركا . ونقرأ في كتاب جغرافيا فرنسي للصف الخامس (أي فوق الشهادة الابتدائية بصف واحد) بشأن البرازيل : « الثراء والشقاء يتجاوران في البرازيل . ان حياة الترف التي يعيشها ملاكو المزارع الكبيرة تتعارض مع عرى الفلاحين خلاسيي الهنود ، واسمهم « الكابوكلوس » ، الذين يزرعون اراض فقيرة ويأكلون الذرة والمانيوك ، وكثيراً ما يتعرضون للجوع والاوبئة . والمدن تقدم طباقاً أشد : العاصمة ريو دي جانيرو فيها في آن واحد قصور ومبان جديدة على شاطىء البحر (انظر الشكل ٢) ، وعلى التلال الصخرية ، احياء فقيرة ، تدعى الفافيل ، يزدحم فيها سكان بائسون من الزنوج والخلاسيين » ... واذا كنا نريد ان نرتقي فوق مستوى الكتب المدرسية ، علينا بالرجوع إلى مؤلفات جوزيه دو كاسترو .

العروق الكبرى : الأبيض والأسود والأحمر ، بل يتعداها إلى العلاقات داخل « العرق الأبيض » بين الغالب والمغلوب . وجزائر مـــا قبل الاستقلال تقدم المثال النموذجي :

عرب ، أو عرب وبربر ، او مسلمون ، و فرنسيون – أوروبيون : ٩٠ ٪ من السكان ، و ١٠ ٪ من السكان . بين التسعين ، واحـــد من الأغنياء (المستغِلين) وثلاثة من الميسورين (نصف – المستغلين) وثلاثة على الحد ، ونيف وثمانون من المدقعين (المستغَلين) . وبين العشرة ، اثنان من الفقراء (المستغلين) واثنان على الحد وأربعة ميسورين واثنان يؤلفان يؤلفان قمة الهرم كله . وفي هـــذا الوضع المركب (الذي ليس وضعاً طبقياً بسيطاً بل هو وضع طبقي – قومي – عرقي – ديني الخ الخ ، وأضف ما شئت من الألفاظ الرجيمة) ، يمكن ان تكون « العرقية العربية » تغطية لمصالح البرجوازي العربي (اذا كان موجوداً) والأقطاعي العربي ورجل الدين العربي (الـــخ) ، ولكن « الطبقية البروليتارية الخالصة » « اللاعرقية » و « اللاقومية » و « الأممية » لقادة « ماركسيين » ونصف – ماركسيـــين ، كانت في ١٩٠٢ و ١٩١٢ و ١٩٢٢ و ١٩٣٩ و ١٩٥٤ ، كانت بالتأكيد ترفعاً على المسألة القومية ، وعلى الفلاح العربي ، وهروباً من شعار الاستقلال ، ومساعدة للاستعمار الفرنسي ، وتساهلاً مع « الشوفينية الأوروبية » التي يمقتها لينين وروزا لوكسمبورغ . هذا هو الاختبار المشهود للمفهوم « الطبقي » « البروليتاري » الخالص في الجزائر المستعمرة ، في زمن الرأسمالية العالمية .

وفي برنامج الحزب الشيوعي اللبناني ، ان الحملة الغامضة على « العوامل» (؟) « العرقية » و « الجغرافية » تنطوي على خطر الهروب من مفهوم عالمية الرأسمالية ، الهروب من التحليل اللينيني لعصر الامبريالية .

وهذا الخطر يتحقق عند الرفاق اللبنانيين . (ولا يغـير من الأمر

شيئاً واقع انهم مع الشعوب ضد الامبريالية ومع المستغَلين ضد المستغِلين ، بل ومع المستغَلين السود والحمر ضد المستغِلين البيض) . وفي هذا الصدد ، ليست الحملة على « القادة الصينيين » و « العوامل » المزعومة ، « العرقية » و « الجغرافية » المزعومة ، سوى مقبّلات hors d'œuvre .

لننتقل إذن إلى الطبق الرئيسي : « العملية الثورية العالمية » بفرعيها الكبيرين : « الطبقة العاملة ، القوة الثورية الأساسية في عصرنا » و « حركة التحرر الوطني » .

٦ – أين وكيف ولد النظام الاشتراكي العالمي ؟

« وتقف في مركز عصرنا الطبقة العاملة العالمية ووليدها الرئيسي النظام الاشتراكي العالمي » .

ان يكون النظام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العاملة العالمية هذه حقيقة لا شك فيها . صحيح ان هذه الحقيقة تتسم بطابع من الشمولية والعمومية والتجريدية . ولكنها حقيقة ، وحقيقة بديهية ، في الماركسية . لولا الطبقة العاملة العالمية (ولولا النظام الرأسمالي) لما كانت هناك اشتراكية لا في روسيا ولا في تشيكوسلوفاكيا ولا في الصين بل ولا في منغوليا وتركمانستان . هذا هو ألفباء الماركسية اللينينية . وهذا هو قانونها العام .

ولكن الماركسية – اللينينية (و « الحسّ السليم ») لا تقف عند الألفباء . والقانون العام « يتوسط » مادياً واقعياً ، أي يتشخص حسياً . بين هذا القانون الجوهري وبين الظاهرات الظاهرية « وساطات » و « جسور » . وهذه الوساطات والجسور ليست من حيز « الظاهرات » « الظاهرية » وحسب ، إنما ترتقي هي أيضاً إلى مرتبة القوانين والجواهر : ولنقل (وفي هذا القول بعض التساهل مع منطق وفلسفة الرفاق اللبنانيين

الذي هو منطق كل حلفائهم وخصومهم ، منطق وفلسفة الماركسية العامة الشائعة) ان هذه القوانين والجواهر المتعلقة بالوساطـات والجسور هي أقل عمومية وشمولية من القانون العام ، البديهي ، ولكنها لذلك أقـل تجريدية وأكثر « مادية » انها اكثر خصوصية ، وبالتالي فهي إذا كانت أقل في الاتساع extension ، إلا أنها اكثر في التضمن compréhension . انها اكثر تضمّناً لظاهرات الواقع المحسوس .

بتعبير آخر : لا يكفي ان نقول ان النظـام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العاملة العالمية ، بل يجب أن نحرر شهادة الولادة كاملـة . يجب ان نبين أين ولد الوليد وكيف . مع تسجيل اسم الأب ، يجب تسجيل اسم الأم ، وملابسات الولادة .

هل ولد الطفل ونما وترعرع في مراكز الرأسمالية و « الطبقة العاملة » ، أم في مؤخرات الرأسمالية ، في بلدان لا يؤلف فيها العمال سوى نسبة صغيرة من السكان ؟ هل ولد في البلدان الرأسمالية المتقدمة أم ولد في البلدان المتخلفة ؟ هل ولد في الغرب الرأسمالي والعمالي ، بـين أمم البرجوازيين ، والعمال ، أم في الشرق الفلاحي والقومي ؟. الخ...

هل ولد النظام الاشتراكي العالمي في انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا ؟ حيث تؤلف « الطبقة العاملة » ٥٠ ٪ أو ٦٠ ٪ من السكان ؟ [1] كلا !

---

(١) من أجل مزيد من التحديد نقـدم مثالين : فرنسا (مثال من الحد الأدنى ، حيث السكان الزراعيون يؤلفون نسبة كبيرة من المجموع) وانكلترة (مثال من الحد الأقصى ، حيث السكان الزراعيون يؤلفون نسبة صغيرة جداً) .

في فرنسا : « ٣٣ بالمئة عمال ، ٦ بالمئة اجراء زراعيون ، ١١ بالمئة مستخدمون ، ٢٠ بالمئة مزارعون ١٢ بالمئة أرباب عمل في الصناعة والتجارة (كبار وصغار ، بمـا فيهم الحرفيون المنفردون) ، ٦ بالمئة اطارات متوسطة ، ٣ بالمئة مهن حرة واطارات عالية ، ٨ بالمئة خدمات جيش ، بوليس ». حاصل جمع الحقول الثلاثة الأولى = ٥٠ بالمئه . ←

لقد ولد النظام الاشتراكي العالمي في روسيا المتخلفة ، حيث يؤلف الفلاحون ثلاثة أرباع السكان وربما اكثر . وبفضل روسيا شمل فوراً القوقاس الشمالي وتركستان ، أي بلاداً تسعة أعشار سكانها من الفلاحين والبدو الرحل وأمتد إلى صحارى وسهوب منغوليا . ثم انتصرت الاشتراكية في الصين الكولونيالية ونصف الاقطاعية ، في الصين الفلاحية والمغزوة من اليابان واميركا ، وفي بلدين من بلدان « الشرق الثوري والقومي » - كوريا الشمالية ، فيتنام الشمالية - . وفي ظروف النضال القومي والديمقراطي والاجتماعي ضد الامبريالية الفاشستية الالمانية ، انتصرت الاشتراكية في بلدان « الشرق » الاوروبي - المتخلف ، الزراعي ، الفلاحي - في يوغوسلافيا والبانيا وبلغاريا وبولونيا والمجر ورومانيا . وفي تشيكوسلوفاكيا الصناعية . (وفي « شرقي المانيا - الزراعي المتأخر - بفضل الصراع العالمي بين الاتحاد السوفياتي والامبريالية الألمانية ، وبين معسكري الاشتراكية والرأسمالية ») . ثم في كوبا بلد قصب السكر . بالمجموع : ١٣ دولة كبيرة ومتوسطة وصغيرة ، مليار انساناً ، ثلث البشرية . بينهم دولة واحدة صناعية (تشيكوسلوفاكيا) تعد ١٢ مليوناً من أصل المليار (أي ١ ٪) « وكأنها الاستثناء الذي يثبت القاعدة » .

والحال ، ليس هذا الاستثناء إلا استثناء نسبياً . ذلك لأننا بالأصل - طبقاً لتعاليم لينين وماركس - لا نضع قانوناً تجريدياً عارياً مضمونه « ان التخلف يولّد الثورة الاشتراكية » : فالبروليتاريا (والبروليتاريا

← في انكلترا : « ٦٥ بالمئة من السكان يكرسون نشاطهم للصناعة أو النقل ، ٢٥ بالمئة مستخدمون في الادارة والمهن الحرة والجيش .. ، و ١٠ بالمئة يشتغلون في صيد الاسماك والزراعة »
نقلاً عن المؤلف الماركسي المعروف بيار جورج : جغرافيا العالم الاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٤٥ ، الرابعة ١٩٥٦ ، باريس .

ويقول سوسلوف : ان نسبة المأجورين Salariés قد ارتفعت إلى ٨٠ - ٩٠ بالمئة من مجموع السكان العاملين في الولايات المتحدة والبلدان الرأسمالية المتطورة الاخرى .. من «تقرير سوسلوف في الاحتفال بالذكري المئة والخمسين لميلاد كارل ماركس» (موسكو ١٥ أيار ١٩٦٨)

الصناعية) موجودة واقعياً في ١١ حالة من الحالات الثلاث عشرة ، وحزبها ، حزب البروليتاريا الماركسي ، هو الذي قاد الثورة الاشتراكية (وقادها على وجه التحديد ، لأنـه وعى « الوساطات والجسور » ولم يغرق في مدلولات القانون العام الأعم) . والبروليتاريا الاشتراكية العالمية موجودة في كل الحالات . هذا أولاً : ديناميكية التخلف والاشتراكية لا تلغي موقع البروليتاريا ، بشكل وآخر ، حتى في مثال منغوليا أو أو ألبانيا . وثانياً : في اللينينية ، إلى جانب قانون الوساطة وكجزء من هـذا القانون ، أي من ديناميكية التخلف والاشتراكية ، أي من ديناميكيـة تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ، تبرز المسألة القومية . تبرز المسألة القومية كجزء من الثورة الديمقراطية (من ميراث « العصر السابـق » ، وكجزء من العصر الجديد ، عصر الامبريالية . وفي تشيكوسلوفاكيا البرجوازية الصناعية ، كما في الصين وألبانيا وكوريا وبلغاريا ويوغوسلافيا وكوبا ، ليس هنـاك ديناميكية ثورة اشتراكية ، لولا النضال القومي ضد الامبريالية والفاشستية . وإذا أردنا مواصلة التحليل إلى نهايته ، إلى جزئياته الأخـيرة ، لاحظنا انه ، في نضال تشيكوسلوفاكيا ضد الاحتلال الفاشستي الالماني ، بدأت الثورة المسلحـة من سلوفاكيا الزراعية الفلاحية المتخلفة ، وفي سلوفاكيا الجبلية المتخلفة والشديدة التخلف ، لا في بوهيميا التشيكية الصناعية المتقدمة ، اتخـذ الكفاح العظيم شكل حرب ثورية عارمة ، قومية وديمقراطية واجتماعية ، على الرغم من ومع ان حزب البروليتاريا كان أكبر وأقوى في منطقـة التشيكيين العمالية .

في شهادة ولادة ونمو النظام الاشتراكي العالمي نقرأ إذن ما يـلي : إن النظام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العامـلة العالمية . أبوه هو حركة العمال الثورية . وأمه هي « حركة التحرر الوطـني » ، الثورة القومية والديمقراطية والفلاحية . تاريخ الولادة : عصر الامبريالية . **مكان**

الولادة : روسيا والصين وعدد من بلدان الشرق الأوروبي والآسيوي المتخلف . ملابسات الولادة : تناقضات الامبريالية ، تناقضاتها الواقعية ، الطبقية والقومية والسياسية الخ ..

هذا ما حدث . وليس كل ما حدث كان يمكن أو ينبغي أن يحدث ، خالصاً وكاملاً . لعله كان يمكن أن تنتصر الثورة الاشتراكية في المانيا ١٩٣٢ ، أو في فرنسا ١٩٣٦ ، أو في ... الهند أو اندونيسيا ، أو في اسبانيا (شبه المتخلفة) ١٩٣٦ . ومسألة الاخطاء - الظروف الذاتية — تبقى كاملة . (انها غائبة كلياً من منظورات الشيوعيين اللبنانيين وغالبية شيوعيي البلاد العربية ، مع ان آخرين – تولياتي مثلاً – قد عالجوها) . ولكن الظروف الذاتية لا تلغي الظروف الموضوعية . وإلى جانب الاخطاء المحتملة أو الاكيدة في تجربة الغرب (المانيا ، فرنسا) ، هناك الاخطاء المحتملة أو الأكيدة في تجربة الشرق (الهند ، اندونيسيا ، الشرق العربي . واسبانيا شبه شرق) . ولعلّ بين الاخطاء ، وفوق الاخطاء ، هناك الخطأ الأكبر العام والعالمي ، القصور عن استيعاب المعادلة اللينينية للثورة الاشتراكية ، أي اولاً النواقص الفادحة في تسجيل شهادة ميلاد ثورة أوكتوبر الروسية . وأن انتصار الثورة الصينية برهان بالعكس .

هذا اذن ما حدث . هذه هي الجبال ، التي قال هيغل امام مشهدها : « هكذا ! » « c'est ainsi ! » . هـذا هو الجبل الذي لا يراه الرفاق اللبنانيون . الجبل الكبير فعلاً ، هو كما رأوه — « المفهوم الطبقي » ، « الطبقة العاملة ووليدها النظام الخ . . » — جبل أجوف . ومن غير الممكن أن نصف الأمور بوصف آخر ، أخف وطأة . لقـد انتصرت الاشتراكية في الصين وبلغاريا الخ ، بعد روسيا ، وحتى هـذه اللحظة لم تنتصر الثورة الاشتراكية في الولايات المتحدة وانكلترة والمانية الغربية وفرنسا وبلجيكا وهولندة ... ، بل ولم يقم في معظم هذه البلدان حزب

البروليتاريا الثوري والجماهيري [1] . تلك حقيقة مزدوجة لا نجد لها أثراً في « محتوى العصر وجوهره » و « السمة الاساسية للعصر » ، كما ينعكسان في مرآة الرفاق اللبنانيين . وفي هذا الاهمال ، سقطت بنود شهادة الولادة : اسم الأم ، والمكان ... وسقطت ملابسات الولادة ، وكأن الكاتب يخجل من هذه الملابسات غير الشرعية ، ومن الوليد الذي جاء قبل« الشهر التاسع » .

والحق يقال أن هذا التجاهل للحقيقة المزدوجة ، الشرقية والغربية ، أشد لفتاً للانتباه حين يأتي من أناس لم يتعدّوا ، فلسفياً ومعرفياً ، مستوى « الحتمية » و « المادية » الآلية [2] .

ترى هل يتصوّرون ان هذا كله (انتصار الثورة في الصين وكوريا والبانيا وكوبا وروسيا ، وعدم قيام حزب بروليتاري ثوري في الولايات المتحدة وبريطانيا) هو وليد مجموعة من الصدف ؟ في روسيا : الحرب والاستنزاف ، العَفن القيصري وفضيحة راسبوتين ومقتله ، غفلة الغرب المتحارب حتى الموت ، عبقرية لينين وانتصار رأيه على رأي زينوفييف والآخرين . في الصين : التطاحن الاميركي – الياباني ، فساد الكوومنتانغ الخ . في البانيا : الحرب الوطنية ضد الطليان والالمان . في كوبا : غفلة الاميركان عن التمرد الفيديلي الذي لم يكن شيوعياً الخ ؟؟ .

لنقل أن هذه « الصدف » (ما يمكن منها ان نعتبره كذلك ، وما ليس كذلك ، وما هو بين بين) هي مادة التاريخ ، نسيجه ، ونسيجه الوحيد . والفهم القانوني انما هو فهم هذه المادة . والاستيعاب العقلاني الجدلي المادي ، استيعاب هذه الثروة الموضوعية الواقعية . فالقوانين قوانين هذه الظاهرات . والجواهر جواهر هذه الظواهر .

---

(١) وهذا الحزب هو موضع تقديس لدى "رفاق اللبنانيين، ولدينا. (وان على نحوين مختلفين).

(٢) أي اناس ، بالنسبة اليهم كذات واعية وفاعلة ، مشكلة ديالكتيك الذات والموضوع مشكلة غير موجودة أصلا .

بتعبير آخر : لنقل – جرياً مع « الصدف » – ان هناك جمعاً من « الصدف » ، تراكماً « للصدف » . والماركسية تصدّت وتتصدّى لاكتشاف قوانين هذا الجمع وهذا التراكم . وفي هذا الشأن ، أن تكرار الصيغة القـــائلة « النظام الاشتراكي العالمي وليد الطبقة العاملة العالمية » لا يدفعنا كثيراً إلى الامام. انه عاجز عن اكتشاف قوانين التراكم الذي يتشخص في فردية الحادث التاريخية sa singularité ، الفردية المليئة بالقوانين ، بالشمولية أو الكونية universalité.

واذا كانت الصيغة القائلة « ان النظام الاشتراكي العالمي هو وليـــد الطبقة العاملة العالمية » صيغة صحيحة ، من حيث انها صيغة تجريدية بالغة اقصى درجات التجريد [١] ، فان التصنيف الذي يتبناه البرنامج اللبناني لفروع « العملية الثورية العالمية » لا يبدو لنا صحيحاً ، حتى ولو بصورة تجريدية بالغة ما بلغت من التجريد .

لننظر إلى القضية عن كثب .

٧ – « الطبقة العاملة » أم « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » ؟

من المعروف ان « العمليه الثورية العالمية » تشمل – وصفياً على الأقل – فروعاً ثلاثة وليس فرعين اثنين . وهذا التصنيف إلى فروع ثلاثة ورد في البرنامج اللبناني نفسه ، مرة واحدة ، وعلى وجه التحديد في نهاية الفصل الأول في الخلاصة العامة للفصل ، الخلاصة القصيرة وغير

(١) أي مع كل الملاحظات السابقة البالغة هي ايضاً درجة ما من التجريد ، والتي لا تملوء الهيكل القانوني لحماً وشحماً ودمـــاً وحسب ، بل هي تكمل الهيكل ذاته ، بعظام الاطراف والمفاصل والرأس ، فتحول دون سقوطه من هيكل كائن حي إلى هيكل ميت أكلت الثورات عليه وشربت .

المعَنونة التي تعقب موضوع « الاستعمار الجديد » وتبدأ بما يلي : « ان ضمان التطور العام وازاحة نظام الاستعمار الامبريالي والرأسمالي يتطلبان توثيق وحدة القوى الثورية : بلدان المنظومة الاشتراكية ، وحركة التحرر الوطني والحركة العمالية الثورية في البلدان الرأسمالية » (الصفحة ١٩ ، الأسطر الثلاثة الاخيرة) .

هذه هي اذن فروع « العملية الثورية العالمية » : الدول الاشتراكية ، حركة التحرر الوطني ، الحركة العمالية الثورية في البلدان الرأسمالية المتقدمة . هذا هو الوصف ، السَرْدُ ، التعداد . ولكن الرفاق اللبنانيين أرادوا ، على ما يبدو ، ان يتخطوا مستوى الوصف الى مستوى أعلى ، إلى مستوى التحليل والتجريد العلميين . وأرادوا ذلك من البداية (!) ، من مطلع الفصل الأول (أو من المقدمة ، أو قبل المقدمة ، من الصورة التي رسموها سلفاً في ذهنهم) . وأسفرت هذه الارادة غير المشروعة علمياً ، أي ماركسياً ، عن تصنيف إلى فرعين : الأول هو « الطبقة العاملة العالمية ووليدها النظام الاشتراكي » ، والثاني هو « حركة التحرر الوطني » . وفي هذا التصنيف سقطوا لا نقول في تناقض ، بل نقول في تلاعب . وان يكون التلاعب غير واع يزيده خطورة ! فلنتتبع هذه العمليّة غير المعقدة .

في الحملة على الصينيين : ... دور « الطبقة العاملة العالمية ووليدها النظام الاشتراكي » (ص ١٢) .

عنوان الفقرة الكبيرة المتعلقة بهذا الدور : « الطبقة العاملة هي القوة الثورية الأساسية في عصرنا ، » بحرف أسود كبير ، (ص ١٣) . وتحت هذا العنوان مباشرة في تمهيد الفقرة ، يتضح ان المقصود بـ « الطبقة العاملة » هو « الطبقة العاملة العالمية » : ويتكرر هذا الاصطلاح في الجملتين اللتين تؤلفان تمهيد هذه الفقرة : « وتقف في مركز

عصرنا الطبقة العاملة **العالمية** ووليدها الرئيسي النظام الاشتراكي العالمي » .

عنوان الفقرة الفرعية الأولى بحرف أسود صغير : « المنظومة الاشتراكية دعامة الحركة الثورية العالمية وطليعتها » (ص ١٣) . ومحتواها هذه « المنظومة الاشتراكية العالمية » .

عنوان الفقرة الفرعية الثانية بحرف أسود صغير : « الطبقة العاملة في **البلدان الرأسمالية** طليعة النضال ضد الاحتكارات وفي سبيل الاشتراكية » (ص ١٤) . ومحتواها : « الطبقة العاملة في **البلدان الرأسمالية المتطورة** » (ص ١٤) : الاحزاب الشيوعية « الاضرابات والحملات المطلبية » و « المطالبة بالتأميم الديمقراطي والتخطيط الديمقراطي » و « اشاعة الديمقراطية الحقيقية » ، في هذه البلدان الرأسمالية **المتطورة** (ص ١٤ – ١٥) .

ثم عنوان الفقرة الكبيرة الثانية ، (الفرع الثاني في العملية الثورية العالمية) : « حركة التحرر الوطني » ، بحرف أسود كبير (ص ١٥) ومحتوى هذه الفقرة : حركة التحرر الوطني (ص ١٥ – ١٨) والاستعمار الجديد (ص ١٩) .

في نقطة ما ، في لحظة ما ، ننتقل ، نسقط ، من « الطبقة العاملة العالمية » الى « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطوّرة » . ونرجح ان هذا الانتقال ، هذا التزحلق ، لا يعيه معظم قراء البرنامج وربما واضعوه . (فقد أَلِفوه قبل أن يؤلّفوه) .

صحيح ان الرفاق اللبنانيين لم يقولوا أن النظام الاشتراكي العالمي هو « وليد الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » ، بل قالوا دائماً ان النظام الاشتراكي العالمي هو « وليد الطبقة العاملة العالمية » . ولكنهم في عنوان الفقرة الكبيرة بالحرف الأسود الكبير قالوا : « الطبقة العاملة – الطبقة العاملة وحسب – هي القوة الثورية الأساسية في

عصرنا » (عنوان الصفحة ١٣) . ولم يلبثوا ان أوضحوا في الجملتين اللتين تؤلفان تمهيد هـــذه الفقرة ان المقصود هو فعلاً « الطبقة العاملة العالمية » (ص ١٣) ثم ... جاء الفرعان المؤلفان لهذه الفقرة الكبيرة : عن « النظام الاشتراكي العالمي » ، وعن « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » (في عنوان هذا الفرع الأخير بدون كلمـــة « المتطورة » التي استُدْرِكت في الجملة الأولى ! وهـــذه الاختلافات اللفظية تعزز أو تسهل التلاعب) .

ما هي « القوة الثورية الاساسية في عصرنا » ؟ — الطبقة العاملة ! هكذا يقول البرنامج في العنوان الكبير . ونحن نسأل : الطبقة العاملة العالمية ؟ — نعم ! وهذا ما يتضح من التمهيد الذي يلي مباشرة . وهل من الممكن أن يكون الجواب غير ذلك ؟ « الطبقة العـاملة التي هي القوة الثورية الأساسية في عصرنا » هي بالبـداهة الطبقة العاملة التي ولدت « النظام الاشتراكي العالمي » أي « الطبقة العاملة العالمية » .

والحال ، « الطبقة العاملة العالمية » تشمل عمال باريس ونيويورك » وموسكو وبكين ، وبومباي وبيروت ، عمال الدول الرأسمالية المتطورة ، وعمال الدول الاشتراكية ، وعمال آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

في التصنيف الذي اعتمده البرنامج اللبناني لفروع « العملية الثورية العالمية » ، نشاهد « النظام الاشتراكي العالمي » ، و « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » ، و « حركة التحرر الوطني » . ولكننا لا نرى « الطبقة العاملة » في البلدان الاخرى ، في البلدان الرأسماليـة غير المتطورة ، المتخلفة ، المستعمرَة أو المستعمرة سابقاً . لقد سقطت الطبقة العاملة في البـــلدان المتخلفة من العناوين وسقطت ايضاً من كل مضمون الفقرة الكبيرة المتعلقة بـ « الطبقة العاملة (العالميـــة) القوة الثورية الأساسية في عصرنا » !

هل هي غير موجودة ؟ أليس هناك عمال في مصانع بومباي وكالكوتا ودلهي ؟ في مناجم الكونغو والشيلي ؟ في حقول الرز والشاي والبن والكاكاو وقصب السكر ؟ في موانيء سنغافورة وعدن وبيروت وداكار ؟ .

لقد رأى لينين ، في عام ١٩٠٨ ، « عشرات الملايين من بروليتاريي آسيا » « يزداد عددهم ساعة بعد ساعة » . وفي ١٩٦٨ ، أي بعد مضي (٢٤ ساعة × ٣٦٥ يوماً × ٦٠ سنة =) أكثر من نصف مليار ساعة ، لا يرى الرفاق اللبنانيون بروليتاريين في آسيا ، وافريقيا ، واميركا اللاتينية .

ونحن نعلم ان عدد « عمال الصناعة » في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا اكبر بكثير من عدد « عمال الصناعة » في الهند واندونيسيا والكونغو . ولكننا نعلم أيضاً أن عدد « عمال الصناعة » في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كان أكبر بكثير من عدد عمال الصناعة في روسيا القيصرية . ونعلم من لينين وتروتسكي وستالين (بل ومن بليخانوف وكاوتسكي ومارتوف [1]) ان دور العمال الروس وعمال المصانع الروس كان هائلاً بالمقارنة مع نسبتهم العددية الى مجموع السكان ، وكان هائلاً بالمقارنة مع دور العمال الاميركيين والانكليز والفرنسيين : فاولئك صنعوا ثورة اوكتوبر ، وهؤلاء أسهموا في حمايتها ، عند اكبر منعطف في تاريخ البشرية .

---

(١) نعم : من بليخانوف وكاوتسكي ومارتوف ! او لم ير هؤلاء الماركسيون غير الصغار – الذين انتهوا الى الفشل كماركسيين – لو لم يروا هذه الحقيقة اطلاقا ، لما كانوا ماركسيين ، أو كانوا « ماركسيين » تكراريين وجامدين وتافهين . كلهم أدركوا ، بدرجة ما وبشكل ما ، وقبل الثورة بعشر أو عشرين سنة ، ان كل عامل روسي قد يعادل في حساب المنعطف التاريخي المنشود ، عدة عمال من الغرب .

والبروليتاريا هي اكثر من عمال المصانع . هنـــاك عمال المناجم ، وعمال الموانىء ، وعمال حقول الرز ومزارع البن الـــخ . وهناك شبه البروليتاريا . (لسوء الحظ ، ان مفهوم « البروليتاريا » باهت ، ومفهوم « شبه البروليتاريا » غائب ، في البرنامج اللبناني) . ترى ، ما هو تعداد البروليتاريا « الخالصة » في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ؟ وما هو تعداد شبه البروليتاريا ؟ عشرات الملايين ؟ لنقل مئات الملايين .

والحق يقال ، أن بروليتاريا البلدان المتـّخلفة ، بعد ان طـُردت من حساب « الطبقة العاملة أو الطبقة العاملة العالمية القوة الثورية الاساسية في عصرنا » ، عادت لتظهر في حساب « **حركة التحرر الوطني** » ، وظهرت على الشكل الآتي : ضعف نمو الطبقة العاملة ونفوذهـــا السياسي ! سوف نعود الى هذه النقطة الاخيرة في حينها وسندرسها في إطارها ، محاولين جلاء ما يكتنفها ، ما يسبقها ويعقبها ، تبعاً لتسلسل البرنامج. **ولنفترض** موقتاً ان هذه الفكرة – « ضعف نمو الطبقة العـاملة وضعف نفوذها السياسي في العديد من البلدان النامية » – مع كل ما حولها ، صحيح ١٠٠ ٪ . **لنفترض** ان البرنامج اللبناني قد حلل موضوع « حركة التحرر الوطني » ومكان الطبقة العاملة المحلية في أطار هـذه الحركة ، تحليلاً ماركسياً صحيحاً ! (وهـــذا افتراض صعب !) . تبقى **مسألة التصنيف الاساسي لفروع « العملية الثورية العالمية »** . ودفعاً لكل التباس، نلجأ إلى مقارنة تاريخية بسيطة ، نعتقد انها أتت تلقائياً إلى ذهن القاريء .

حسب البرنامج اللبناني ، يكون معنا : من جهة ، الطبقة العـــاملة القوة الثورية الاساسية في عصرنا = ١) النظام الاشتراكي العالمي ٢) الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة . ومن جهة ثانية ، حركة التحرر الوطني وبضمنها الطبقة العاملة في البلدان المتخلفة .

هذا كما لو أن ماركسياً في ١٩١٠ أو ١٩١٦ صنـّف « العملية الثورية

العالمية » على الشكل الآتي : من جهـة ، الطبقة العاملة القوة الثورية الأساسية في عصرنا = حركة العمال في البلدان الرأسمالية المتقدمة . ومن جهة ثانية ، حركة التحرر الديمقراطية في البلدان المتخلفة وبضمنها الطبقة العاملة في روسيا (علماً بأن روسيا كانت تواجه مهمات ديمقراطية برجوازية . ولينين مصرّ ، هو أيضاً ، وليس فقط بليخانوف وكاوتسكي ، على هذه النقطة ، ضد عدد من « اليساريين ») .

وكما لو أن ماركسياً لينينيـاً في ١٩٣٩ أو ١٩٤٦ صنّف « العملية الثورية العالمية » على الشكل الآتي : من جهة الطبقة العاملة القوة الثورية الأساسية في عصرنا = ١) الاتحاد السوفياتي ، ٢) الطبقـة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة . ومن جهـة ثانية ، حركة التحرر الوطني والديمقراطي وبضمنها الطبقة العاملة في الصين وكوريا وفيتنام وربمـا في بلغاريا وبولونيا ويوغوسلافيا ... (كل هذه البلدان كانت تواجه فعـلاً مهمات وطنية وديمقراطية) .

نقول « كما لو أن » . والحقيقة أن ذلك حدث . لقــد اعتـُمِد التصنيفان المفترضان فعــلاً في ١٩١٦ وفي ١٩٤٦ . بليخانوف وكاوتسكي ومارتوف ، رغم كونهم ماركسيين وماركسيين غير جامدين تمامـاً على نحو ما رأينا (لم تغب عنهم أهميـة العمال الروس) ، عارضوا الثورة البروليتارية في روسيا كشيء مناقض لقوانين التطور التاريخي . وستالين وشراح عصره مالوا أكثر فأكثر نحو التصنيف المفترض ، في الثلاثينات وبعدها ، مخالفين بذلك ليس فقط منهج لينين بشكل عـــام وكتاباته الأخيرة بشكل خاص ، بل أيضاً تلخيص ستالين لمبادىء اللينينية ، أي منظورات ستالين لعام ١٩٢٤ . ولهذا السبب نقول انهم انتهوا إلى الفشل كماركسيين . لأنهم فشلوا في فهم ديناميكية الثورة العالميـــة في زمن الامبريالية وتناقضاتها ، نقول أنهم فشلوا كماركسيين . هذا أولاً وقبـل

أي شيء آخر . وثانياً ، وبالتالي ، وبالارتباط مع هذا الفشل في المنظور الستراتيجي ، نفهم فشلهم في المادية التاريخية والمادية الديالكتية .

لقد اعتُمد التصنيف المفترض فعلاً . **وأثبت التاريخ خطأه الفاجع** ، وإذا كان الخطأ الفاجع له في الماضي نصف مبرر ، فإنه ، **بعد** دروس التاريخ ، لم يعد له أي مبرر . والحل ، في البرنامج اللبناني الحاضر ، الذي يأتي **بعد** دروس التاريخ ، **وبعد** العودة العالمية إلى نصوص لينين ، **وبعد** كل المجادلات الفكرية في البلاد العربية وفي العالم ، هذا الخطأ يبلغ كل مداه . وكأن الرفاق اللبنانيين يطبقونه على الحاضر والمستقبل ، وعلى الماضي الذي حسمه التاريخ ! لقد تخلف كاوتسكي وبليخانوف عن الوليمة وهي في بدايتها . هل ينتظر الرفاق اللبنانيون حتى تشارف الوليمة على النهاية ؟ إن ماركس وانجلز ، في نقدهما لهيغـــل وتشخيصها لقصور « الفلسفة » لاحظا بعمق : « الفيلسوف يأتي بعد وقوع الوقائع » . أفلم يحن وقت انطلاق بومة مينرفا[1] ؟

لندع الفلسفة واستعاراتها ولنرجع الى « الحساب » البسيط .

كما تبين لنا ، في برنامج الرفاق اللبنانيين ضاعت بروليتاريا البلدان المتخلفة من حساب « الطبقة العاملة ، القوة الثورية الأساسية في عصرنا » ، من حساب « الطبقة العاملة العالمية ، التي تعين الاتجاه العام لعملية تحرير البشرية كلها من نير العبودية وانتقالها من الرأسمالية إلى الاشتراكية » ، هذه البشرية التي « تحررت من نير العبودية وانتقلت من الرأسمالية إلى الاشتراكية » في نصف القرن الأخير كانت ، على ما يبدو ، « بلداناً رأسمالية متطورة » ، وبروليتارياها كانت ، على ما يبدو ، بروليتاريا بلدان رأسمالية متطورة ! !

وهكذا نعود مرة أخيرة الى موضوع الوالد والوليد : ان قول البرنامج

---

(١) مينرفا : إلهة الحكمة عند الاغريق . و « بومة مينرفا لا تطير إلا عند هبوط الظلام »، بعد انقضاء النهار . وعند العرب القدامى ، هنالك نوع من البوم يسمى (الصدى) . ألم يحن الوقت لكي نسمع صدى الوقائع ؟!

« النظام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العاملة العالمية » قول صحيح ١٠٠٪ ، انه حقيقة أولية ، بديهية ، ابتدائية . ولكن كل حقيقة يمكن أن تتحول بالتكرار الى جملة جوفاء لا معنى لها . وكل بديهية يمكن أن تتحول الى أكذوبة ، بتبديل صغير . وقد أعطانا لينين أمثلة كثيرة على هذا التحول عند رفاقه الماركسيين بل وعند رفاقه البلاشفة . صحيح (١٠٠ ٪) قول البرنامج ان النظام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العاملة العالمية . ولكن : خطأ (١٠٠ ٪) القول بأن النظام الاشتراكي العالمي هو وليد الطبقة العاملة في **البلدان الرأسمالية المتطورة** . خطأ وخرافة وأكذوبة . ولم يذهب البرنامج اللبناني الى هذا القول . ولكنه أسقط الطبقة العاملة في البلدان **الاخرى** من حساب « الطبقة العاملة القوة الثورية الاساسية في عصرنا » . التي هي « الطبقة العاملة العالمية » التي « وليدُها النظام الاشتراكي العالمي » !

عملياً ، النتيجة واحدة .

٨ – الانتهازية في حركة العمال الاوروبية :

وليس هذا كل شيء . فالقضية لها وجه آخر ، خطير الشأن ، ننتقل اليه الآن :

في حساب « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » ، **سقطت ظاهرة الانتهازية** داخل « هذه الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة ». وسقطت كلياً وتماماً . في حديث « الطبقة العاملة » المذكور ، وفي حديث « الأزمة العامة المرأسمالية » ، لا نجد أي أثر لشيء اسمه **الانتهازية ، التحريفية ، الشوفينية ، الاشتراكية – الاستعمارية ، الاصلاحية ، الجناح اليميني في حركة العمال** . كل هذه الأشياء التي

تكوّنت اللينينية في صراع يومي ضدها ، في ١٨٩٦ و ١٩٠٢ و ١٩٠٧ و ١٩١٢ و ١٩١٣ و١٩١٤ و ١٩١٥ و ١٩١٦ . . و ١٩١٩ و ١٩٢٠ ... غائبة من منظورات الرفاق اللبنانيين . إنهم لا يرون عمـــال سنغافورة ، ولكنهم يرون عمال لندن . لا يرون عمال مزارع البنغال ، ولكنهم يرون عمال مصانع شيكاغو . . هذه هي « الطبقة العاملة العالمية » !

يختلف الأمر بالنسبة لماركس وانجلز . كما يقول لينين ، لقد تتبـــع ماركس وانجلز هذه الظاهرة – الانتهازية داخـل حركة العمال – منذ أواسط القرن وحتى نهاية حياتهم . لاحظا ان العمال الانكليز يسيرون وراء البرجوازية المتقدمة ، من أجل الإصلاحات . وربطا هذه الظاهرة بالسيطرة البريطانية على السوق العالمـــية والمستعمرات . فبريطانيا هي الشمس الصناعية ، التي تدور حولها عشرات الكواكب الزراعية ، البعيدة والقريبة . والعمال الانكليز يشاركون فرحين في الوليمة . النقابيون الانكليز مباعون . . . وينقل لينين نصوص ماركس وانجلز مئات المرات شارحاً ، معلقاً ، مؤكداً ، مطوراً ، معمماً[1] . .

ضد « الاقتصادية » وجه لينين كتابه « ما العمل ؟ » (١٩٠٢) ، والاقتصادية كانت الشكل الروسي للتحريفية . إن نظرية الوعي – الوعي الذي لا ينبثق من الحركـة العفوية ، الوعي الذي لا ينبع من نضال العمال ضد أرباب العمل ، ومن نضال « الطبقة العاملة » ضد «البرجوازية» ، هكذا وبشكل تجريدي ، بل يستند على تحليل كل الطبقات وكل العلاقات – ان نظرية الوعي اللينينية تجد مبرّرها الاول في هذا الوضع التاريخي ، في الانقسام داخل حركة العمال ، داخل « الطبقة العاملة » في ضرورة النضال ضد التيار العمالي الانتهازي .

---

(١) انظر مؤلفات لينين: كارل ماركس ، مقدمة لرسائل بيكر الخ.. الامبريالية وانقسام الاشتراكية ، الخ .

وفي ١٩٠٧ ، علق لينين على المؤتمر الاشتراكي الدولي في شتوتغارت : ان غالبية وفود جميع « البلدان الرأسمالية المتطورة » وقفت مع السياسة الاشتراكية – الاستعمارية ، مع « البرنامج الاستعماري – الايجابي » (بما فيها الوفد الالماني ، ورغم مقاومة كاوتسكي للتيار البغيض) . ولم يهزم – هزيمة جزئية ووقتية وشكلية الى حد كبير – التيارُ الاستعماري إلا بفضل اجماع الروس (ماركسيين و « اشتراكيين ثوريين » غير ماركسيين) ووفود الشعوب المخضَعة داخل أوروبا (كالبولونيين) (لينين : تعلق على مؤتمر شتوتغارت) .

وفي ١٩١٦ ، ردّ لينين على كاوتسكي (ممثل الوسط المتأرجح بين اليسار الثوري الاممي المتمثل في لينين وروزا لوكسبورغ وبين اليمين المدافع عن الوطن الامبريالي والذي ضم « الماركسي » بليخانوف و « الماركسي اليساري » السابق غيسد ، إلى جانب برنشتاين وطائفة التحريفيين) بقوله : لأن كاوتسكي لا يرى إن الرأسمالية عالمية ، لأن كاوتسكي لا يرى ان حفنة من الامم الامبريالية تجني ارباحاً طائلة من عمل مئات الملايين من أشباه العبيد في المستعمرات وأنصاف المستعمرات ، لأن كاوتسكي لا يرى ان الانتهازية والاشتراكية – الامبريالية – ترتكز على هذا الأساس المادي المخيف ، لذلك فهو لا يفهم ضرورة القطيعة النهائية مع هذا التيار ، وقد بات أسيراً له وخادماً . (لينين : الامبريالية وانقسام الاشتراكية) .

هذه النصوص اللينينية الكلاسيكية معروفة جيداً [1] . ولن نسهب

---

(١) في مجموعة « حركة التحرر الوطني في الشرق » ، يجد القارىء العربي عشرات منها . وكذلك في « المختارات » . بعضها يعود لما قبل الحرب العالمية الامبريالية ، بكثير . وأكثرها يعود لسنوات الحرب ، وسنوات بناء الكومنترن اللينيني . ان النضال ضد الانتهازية والاشتراكية الامبريالية هو الخيط الأحمر الذي يملأ « شروط الانتساب إلى الأممية الشيوعية » من أولها إلى آخرها ، وهي الشروط التي وضعها لينين وأقرها المؤتمر الثاني (١٩٢٠) .

في عرضها : ليس الرفاق اللبنانيون أنصاراً لهذا التيار ! ولكن ما هو سبب هذا النسيان ؟.

لعل السبب هو معارضة الرفاق اللبنانيين لذلك التصور الذي يرى أن « حركة العمال الثورية » قد ماتت في الغرب ! هذا التصور ضرب من المزاودة « الشرقية » و « القومية » و « الفلاحية » ، منتشرة في اوساط الفانونيين المشرقيين ، واولئك « اللينينيين » الذين لم يقرأوا لينين ، و « الغيفاريين » الذين قرأوا عنوان آخر كتاب لغيفارا ، و « الصينيين » بلا ماركسية ، و « الماركسيين » بلا ماركس ... نحن نشارك الرفاق اللبنانيين رفضهم لهذا التصور . ولكن هذا الرفض الضروري والمشروع لا يجوز ان يقودنا الى مواقف رد الفعل ، والى التمسك بماركسية « كلاسيكية » دارجة ليست ماركسية ماركس . (هل يعتقد الرفاق اللبنانيون أن مواقفهم الفكرية هي العلاج الناجع لتلك الأوهام « الشرقية » و « القومية » و « الفلاحية » ... والبرجوازية ! ؟ أليس العكس أقرب إلى الصواب ؟) .

أن مسألة مستقبل الحركة البروليتارية في الغرب كانت من جملة المشاغل التي شغلت لينين في ١٩٢٢ و١٩٢٣ وفي ١٩٠٧ . لأن لينين أدرك أن الثورة البروليتارية مستحيلة في أوروبا في غد قريب ، وجه الكومنترن نحو سياسة جديدة في المؤتمر الثالث (١٩٢١) وعارض النهج اليساري الذي دعا اليه فريق من شيوعيي ايطاليا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا. ووجّه انظاره اكثر فأكثر نحو « الشرق » ، فكتب يقول في مؤلفه الأخير (١٩٢٣) « إن نتيجة الصراع تتوقف في النهاية على ان روسيا والهند والصين الخ تؤلف الكثرة الغالبة من سكان المعمورة . وهذه الكثرة هي التي انجرفت ، بسرعة لا تصدّق ، منذ بضع سنوات في النضال من أجل انعتاقها . وبهذا الصدد ، ليس هناك ادنى شك فيما يتعلق بالنتيجة

الاخـيرة للصراع العالمي » ... « النزاع العسكري القـادم بين الغرب الامبريالي والمعادي للثورة وبين الشرق الثوري والقومي » .

وفي تعليقه على مؤتمر شتوتغارت الذي كشف قوة التيار الانتهازي الاستعماري في حركة العمال الاوربية – الغربية ، كتب يقول (١٩٠٧) :

« أن التصويت على المسألة الكولونيالية (أي مشكلة الاستعمار والمستعمرات) ذو أهمية بالغة . فهو أولاً يكشف بوضوح عن الانتهازية الاشتراكية التي تستسلم للوعود البرجوازية ، وثانيـاً يكشف عن خاصة سلبية في حركة العمال الاوروبية ، وهي خاصة بوسعها أن تلحق ضرراً بالغاً بقضية البروليتاريا ، مما يوجب علينا ان توليها انتباهاً جدياً . لقد ذكّر مـاركس مراراً بقول لسيسموندي عظيم النتائج : لقـد عاش بروليتاريو العالم القديم على حساب المجتمع [1] ، أما المجتمع الحديث فهو الذي يعيش على حساب البروليتاريين .

ان الطبقة غير المالكة ولكن غير الكادحة ليست قادرة على الاطاحة بالمستغِلين ، والطبقة البروليتارية التي تعيل المجتمع بأسره هي وحدهـا قادرة على تحقيق الثورة الاجتماعية . ولكن مع نمو الاستعمار ، أصبحت البروليتاريا الأوروبية جزئياً ، في وضع لم يعد فيه عملها هو الذي يعيل المجتمع باسره ، بل عمل اشباه العبيد في المستعمرات . فالبرجوازيـة البريطانية مثلا تجني من عشرات أو مئات الملايين من سكان الهند وغيرها من المستعمرات أرباحاً أكبر من تلك التي تجنيها من العمال البريطانيين .

---

(١) البروليتاريي ، باللاتينية proletarii ،هي الطبقة السفلى في روما القديمة (وهي غير الرقيق الخارجين عن التصنيف الطبقي القانوني لمجتمع روما).وهي لا تملك شيئاً. ولكنها ايضاً بلا عمل . تطالب بـ « الخبز وألعاب السيرك » . تعيش مما يغدقه عليها الأسياد والحكام . فهي اذن تعيش على فتات مائدة الامبراطورية المترامية الارجاء .

ولهذا السبب ، فقد نشأ ، في بعض البلدان ، أساس مادي واقتصادي لتلوث البروليتاريا بالشوفينية الاستعمارية . وبطبيعة الحال ، قد لا يكون هذا إلا ظاهرة موقتة ، ولكن يجب ان يكون الشر واضحاً وأسبابه مفهومة حتى يتاح لنا توحيد بروليتاريا جميع البلدان للنضال ضد هذا النوع من الانتهازية . وهذا النضال سيكلل حتماً بالنجاح ، اذ أن الأمم « صاحبة الأمتيازات » تمثل أقلية من الأمم الرأسمالية تتناقص باطراد » .

ذلك كان تعليق لينين على مؤتمر شتوتغارت في عام ١٩٠٧ . قد تكون ظاهرة تلوث البروليتاريا الاوروبية الغربية بالشوفينية الاستعمارية ظاهرة مؤقتة . وقد لا تكون . (في عصر الامبريالية : تستباح الامم المغلوبة داخل اوروبا بصورة مشدّدة هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، أن الرأسمال الاجنبي يفرض أتاوة على أمم كبيرة كروسيا) . غير انها شر مستطير . هل يخيم شبح روما القديمة على البروليتاريا الاوروبية ؟

لن نلحّ على هـذه النقطة . ترى ، لو نشر أحد هذا الكلام بغير توقيع لينين وقبل ان نعرف (في ١٩٥٨) أنه كلام لينين ، مـا هي الاتهامات التي كنتم أو كنا نلقيها عليه ؟

وهذا التساؤل يقودنا إلى الملاحظة الاخـيرة بشأن ظاهرة الانتهازية والتلوث (الانتهازية ، التلوّث بالشوفينية الامبريالية ، التحريفية وشبه التحريفية الخ شيء واحـد) . وأساسه الأول الامبريالية والاستعمار ، الرأسمالية العالمية – (هذا أيضاً شيء واحد[1]) .

---

(١) الرأسمالية عالمية ، أي انها قامت على علاقات معينة بين الأمم ايضاً (وليس بين طبقات كل أمة فقط) ، علاقات تبعية وخضوع وتعاون معقدة ، أهمها علاقة خضوع القسم الأكبر من العالم (الشرق) لقسم صغير منه (الغرب) – رؤية الاشجار لا يجوز ان تمنعنا من رؤيـة الغابة ـ . والامبريالية تواصل هذه الحالة ، وتطورها بأشكال مختلفة ، وفي ما يعنينا هنـا : تضاعفها أضعافاً !

لقد اعتدنا ان نتحدّث عن المراتب المتبرجزة داخـل الطبقة العاملة في الغرب . بريطانيا الامبريالية أو المانيا الامبريالية أو فرنسا الامبريالية تجني من مستعمراتها (ومن امتيازها التجاري العالمي) ربحاً اضافياً تنفق قسماً منه على قسم من طبقتها العاملة ، فتنشىء مرتبة أو طبقة couche داخل الطبقة العاملة نسميها الارستقراطية العمالية أو العمال المتبرجزين ، وتشتري بطريقة وأخرى القيادات والاطارات النقابية والبرلمانية والصحفية والحزبية لحركة العمال الحديثة والمنظمة . ونحن محقون في هذا التشخيص : ليست كل الطبقة العاملة في هذا الوضع ، بل جزء منها . ولينـين ، في مجادلته مع كاوتسكي لعام ١٩١٦ ، يدعو إلى التوجه إلى الجماهـير التي تحت هذه المرتبة العمالية المتبرجزة ، إلى الجماهير العميقة وغـير المنظمة ، ضدّ التنظيم الملوث الذي تكشّف عن خيانة لا مثيل لها [١] ولقد كانت فعلاً هذه الملايين الكثيرة (عشرات الملايين) من البشر – من العمال اولاً ، وايضاً من الفلاحين وغيرهم – في حالة فقر مدقع في فرنسا والمانيا وايطاليا الخ . وكانت الشعوب المتحاربة والمستنزفة في حالة غليان .

ولكن لينين ، إلى جانب ذلك ، إلى جانب التمييز والفصل بين المرتبة البرجوازية داخل الطبقة العاملة وبين سائر الطبقة العاملة (الجمهور أو القسم « البروليتاري الحقيقي ») ، لم يكن يحجم عن القول بأن الطبقة العاملة كلها ، في الأمم الامبريالية والغالبة (بريطانيا ، فرنسا ، المانيا ، بلجيكا الخ وروسيا ايضاً باعتبارها صاحبة طائفة من الأسلاب القومية) ،هي ، نوعاً ما وإلى حد ما ، **شريكة** في الوضع ذي الامتياز (بالمقـارنة مع

---

(١) لينين ، أكبر منظم في جميع العصور ، بعيد اذن عن اسلوب تفضيل « الجماهير المنظمة » على « الجماهير غير المنظمة » دائماً وحتماً ومهما كان الامر . هذا الموقف في صلب اللينينية كلها ، وفي صلب تكشيفها الاخير : نظرية الوعي أي بالتالي نظرية الحزب .

عمال وفلاحي الهند والصين وايرلندة واوكرينية ...) [1] . وقد ردّد لينين هذا القول مراراً في مجادلاته مع أصحاب الـنزعة « الاقتصادية الامبريالية » البلاشفة اليسارين الشبان الذين كان يتصورون أن المسألة القومية قد انتهت في عصر الامبريالية وان « المهّم » هو « النضال ضد الامبريالية » ويعارضون « حق الامم في تقرير مصيرها » و« يسحبون» المعارضة الماركسية والبولشفية لمبدأ « الدفاع عن الوطن » لدى الأمم الرأسمالية والمسيطرة على الأمم الخاضعة داخل اوروبا وفي الشرق المستعمر[2]

أن رفض المزاودات الشرقية والقومية والفلاحية شيء. ونسيان هذه الحقائق اللينينية شيء آخر . وأحد وجوه هذا النسيان الاكتفاء ، في هذا الصدد ، بالموضوعة اللينينية عن تمييز « المرتبـة المتبرجزة » و « جمهور الطبقة ». ولينين، اذ لم يكتف بهذا التمييز ، كان أميناً لتراث ماركس وانجلز . « العمال الانـكليز » وليس فقط الاقلية الارستقراطية العمالية « يشاركون فرحين في الوليمة » ...

٩ – الاوضاع الراهنة للطبقة العـــاملة ولحركة العمال في البلدان الرأسمالية المتطورة

كيف تبدو الامور اليوم ؟ ما هي اوضاع الطبقة العاملة في الغرب ، بعد مضى نصف قرن ، وفي « المرحلة الثانية » من « الازمة العـامة

(١) والامتيازات التى يتمتع بها العمال الروس بالمقارنة مع عمال الامم الخاضعة داخل «سجن الشعوب» هي ، في تعداد لينين : امتيازات معاشية ، وامتيـــازات قانونية وسياسية (الدولة القومية ومزاياها « الطبيعية ») ، واجتماعية انسانية (التربية العامة ، الرأي العـــام ، يخلق عادات تحقير القوقاسي والاوكريني والبولوني ، وعلى الحزب ان يربي البروليتاريا تربية مضادة. وهذه هي الامية !) .

(٢) ولهـــذه الشعوب المضطهدة والمسحوقة ، يقول لينين : دافعوا عن وطنكم ، حاربوا أوطاننا الامبريالية ، نحن معكم ..

للرأسمالية » ؟ ارتفعت اجور العمال ارتفاعاً مرموقاً في البلدان الرأسمالية المتطورة ، وأقرّ الضمان الاجتماعي « من المهد إلى اللحد » في عـدد من هذه البلدان الخ . وزاد عدد « **المستخدمين** » زيادة مرموقة و« سريعة ». « **ان تركيب الطبقة العاملة قد تغيرّ كثيراً خلال القرن العشرين ، نتيجة التطور السريع للتكنيك** ... ان الفوارق في الأجور هي اليوم أقــل شأناً . ولكن ذلك لا يعني بالطبع أنه لم يعد هناك ارستقراطية عمالية ، بمعنى قوة سياسية . لقــد تحدث لينين دائماً عن الارستقراطية العمالية كعناصر انفصلت عن جمهور البروليتاريا ، عناصر لا تشارك في نضالها السياسي ، وتنكر انتماءها إلى هذه الطبقة ، وتسعى في سلوكها وحياتها إلى الاقتداء بالبرجوازية . بهذا المعنى ، لا تزال الاستقراطية العماليــة موجودة » .

هذا ما يقوله فارغا في « رأسمالية القرن العشرين » (الفصل الخامس ، الفقرة ٣) : **ان تركيب الطبقة العاملة قد تغير كثيراً** (وعلامة التشديد لفارغا) . الفوارق في الأجور (ومنها الفوارق بين المرتبة الارستقراطية وسائر الطبقة) قد خفّت ... ومع ذلك فالارستقراطية العماليــة لا تزال موجودة . لا تزال موجودة ، أولاً كقوة سياسية ، « بمعنى قوة سياسية » . ويضيف العالم السوفياتي الكبير : ان سلوك البرجوازيــة الكبرى تجاه البروليتاريا قد تغير بعض الشيء . « فالرأسماليون ، والدولة الرأسمالية بشكل خاص ، مضطرة الى السهر على ان تبقى البروليتاريـا تحت النفوذ السياسي للبرجوازية وان لا تسلك الطريق الثوري . ولسوء الحظ ، يجب الاعتراف بأن البرجوازية قد بلغت هدفها مؤقتاً ، في أهم الدول الرأسمالية ، ما عدا فرنسا وايطاليا حيث نفوذ الحزب الشيوعي هو الغالب بين البروليتاريا . في الولايات المتحدة ، لا يزال لا يوجد حتى حزب اصلاحي جماهيري (...) والقادة النقابيون يواصلون حملة مسعورة

ضد الشيوعية وضد الاتحاد السوفياتي . في انكلترة (...) ثلث العمال المنتسبين إلى النقابات يصوتون لحزب المحافظين » ، (رغم كون « حزب العمال » هو بحكم التعريف ، حزب النقابات) ، أما حزب العمال فإن « قيادته اليمينية تساند الرأسمالية بشكل يزداد صراحة » .

ويمكننا القول ، ان انحسار الفقر هو اتجاه عام في البلدان الرأسمالية المتطورة في الغرب وداخل طبقتها العاملة . ولا يزال الفقر هـو الوضع المهيمن في الطبقة العاملة والشعب الياباني ، رغم حصول تقـدم محسوس في هذا البلد أيضاً . وبالارتباط مع هـذا التطور للاحوال المعاشية ، ومع سلسلة من الظروف التاريخية ، يمكن ان نفهم وضـع حركة العمال في « البلدان الرأسمالية المتطورة » التي هي أيضاً وبوجه الأجمال وبشكل وآخر « الدول الامبريالية » .

في الولايات المتحدة الاميركية ، أكبر وأهم هذه « البلدان الرأسمالية المتطورة » وزعيمة الامبريالية العالمية بلا جدال : لا يوجد حتى حزب عمال اصلاحي تحريفي أو تحريفي أس ٥ على غرار الحزب الاشتراكي الالماني في مؤتمر بادغودسبرغ ، والعمال يصوّتون لواحـد من حزبي جونسون ونيكسون .

في بريطانيا والمانية الغربية واليابان وهي ايضا ثلاث دول امبريالية رئيسية ، غالبية العمال « لا تزال » خاضعة لنفوذ الاشتراكية اليمينية . نقول « لا تزال » ونلاحظ ان « حزب العمال » البريطاني ليس اليوم أفضل مما كان في سنة ١٩٠٦ أو في سنة ١٩٢٠ أو قبل تأسيسه في زمن الفابيين الاوائل . لقد استلم الحكم مراراً لصالح الرأسمالية والامبريالية الانكليزية والامبريالية الاميركية . وكلنا نتمنى تحسن هـذه الحالة ، أو انتصار جناح يساري الخ .... ونلاحظ ان ويلي براندت اسوأ بكثير من برنشتاين (ولا نذكر كاوتسكي ، فذلـك سيكون إهانة لهذا الذي

عارض لينين واوكتوبر الروسي) ... والأحزاب الشيوعية تكاد تكون في حكم العدم في كلا البلدين ، رغم وجود مفكرين ماركسيين ممتازين في بريطانيا . ان عمـال لندن وهامبورغ وحوض الرور ليسوا اليوم أكثر ثورية مما كانوا في ١٩٠٦ و ١٩٢٠ بالعكس . واليابان في وضع أفضل ، ليس بكثير .

في بلجيكا وهولندة ودانمارك والسويد والنرويج والنمسا ، الحالة شبيهة بما هي عليه في انكلترة والمانيا واليابان . وان نسبة لا بأس بها من عمـال بلجيكا تصوّت للحزب المسيحي كما تصوّت نسبة من العمال الانكليز للمحافظين . والغالبية تحت نفوذ الحزب الاشتراكي ، الذي ليس اليوم أفضل ممـا كان في زمن فاندرفيلد اليميني ودوبروكير اليساري (أي زمن لينين وبعده ايضاً) .

فرنسا وايطاليا وفنلندة في وضع مختلف جوهرياً : غالبية الطبقـة العاملة تحت نفوذ الحزب الشيوعي الذي ينال ربع مجموع الأصوات الانتخابية . صحيح ان « القادة الصينيين » يتهمون هذه الأحزاب بالإصلاحية والتحريفية وانعدام الثورية (١) ولكننا لا نشاطرهم هذا الاتهام ، مع علمنا بأن الحزب الشيوعي الفرنسي في حوادث ايار ١٩٥٨ قـد أكد مرة أخرى « الطريق البرلماني » و « الدستوري » . (ولا نشاطر الصينيين موقفهم من حوادث ايار) ، اننا قد أدنّا دائماً الطريق البرلماني في البلاد العربية ، في الشرق المتخلف والمسحوق . ولكننا لم نحكم على هذا الموضوع بالنسبة للغرب . وبالطبع اننا لا نحصر مشاكل استراتيجية الثورة في الغرب في ثنائية « الطريق الثوري » و « الطريق البرلماني » . ولا نرى في المستقبل القريب لا « انتفاضة مسلحـة » ولا « بؤر ثورية » وحرب أنصار . ولكن لا بد لنا من أن نذكّر بأن الحزب الشيوعي قـد ارتكب في

---

(١) ولعل الرفاق اللبنانيين يجدون « التحريفية » في هـذه الاحزاب ، في موقفها من احداث تشيكوسلوفاكيا .

الماضي سلسلة من الأخطاء في قضية الجزائر وقضية المستعمرات بوجه عام . لأننا من هذا التذكير نصل أيضاً إلى موضوع انعكاس أحداث العالم الكبير على مستقبل الصراع الاجتماعي والانسان في البلدان الرأسمالية المتطورة ، وهو موضوع غائب من برنامج رفاقنا اللبنانيين . بتعبير آخر : إن الشيء الكثير في فرنسا وايطاليا وبلدان الغرب جميعاً يتوقف على الوعي الماركسي – اللينيني لقضايا العالم وتطوره . وعلى هذا الوعي الأساسي ، يمكن ان نختلف ، كثيراً في بعض الأحيان ، مع هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب الشيوعية في الغرب ومع هذا المفكر أو ذاك من المفكرين الماركسيين في الغرب .

هذا هو إذن وضع « حركة العمال » في البلدان الرأسمالية المتطورة : في أضخم وأهم هذه البلدان (الولايات المتحدة) لا وجود لهذه الحركة كلها ، لا حركة عمال ثورية ولا حركة عمال غير ثورية ، إصلاحية تحريفية الخ ، رغم وجود « الطبقة العاملة » ، وأيّ وجود ! في بريطانيا والمانيا الغربية ، وبلجيكا وهولندة ودول سكانديناقيا والنمسا : الطبقة العاملة تحت سيطرة الاحزاب الاشتراكية اليمينية التي تبنت النظام الرأسمالي في الجوهر والأساس ، وجزئياً تحت نفوذ أحزاب البرجوازية والبرجوازية الاكثر رجعية . في فرنسا وايطاليا[1] غالبية الطبقة العاملة تحت نفوذ الحزب الشيوعي ، وأقلية غير قليلة تسير في ركاب الاشتراكيين اليمينيين .

هذا هو وضع حركة العمال ، أي الوضع السياسي « للطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة . ذلك أنه ، لئن كانت « الطبقة العاملة هي القوة المحركة الأساسية لتحويل العالم تحويلاً ثورياً في عصرنا » ، ولئن

---

(١) ملاحظة هامشية لا تضر : فرنسا وايطاليا وفنلندة متأخرة عن بريطانيا والولايات المتحدة في نسبة الصناعة وعمال الصناعة ! وقوى الحزب الشيوعي الايطالي ليست ضعيفة في « الجنوب » المتخلف .

كانت « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة هي طليعة النضال ضد الاحتكارات وفي سبيل الاشتراكية » ، فإن الطبقة العاملة » تؤدي هذه الرسالة التاريخية العظيمة عن طريق وبوساطة وعلى جسر « حركة العمال » ، حركة العمال المسيّسة (ثورياً) ، الواعية (ثورياً) ، حركة العمال الثورية .

وإذا عدنا الى المفهوم « العلمي الطبقي » ، في ضوء هـذا العرض لأوضاع الطبقة العاملة وحركة العمال في « البلدان الرأسمالية المتطورة » ، وجب علينا القول : قد ينشأ في صباح الغد ، حزب عمـالي ثوري جماهيري في الولايات المتحدة الاميركية ينهض بقضية البروليتاريا الاميركية والعالمية ويأخذ على عاتقه قضايا السلام العـالمي وتحرر الشعوب وقضايا المجتمع الاميركي الداخلية المِلحّة كقضية التمييز العنصري وقضايا امتهان القيم الانسانية (ربما ! وان بدا لنا هذا الاحتمال صغيراً !) . ولكن ، اليوم ، ليست الطبقة العاملة أو حركة العمال الثورية (الحزب الشيوعي الاميركي ، أو طوائف التروتسكية والماركسية المحدثة) أكثر أهمية من كفاح الزنوج السلمي والعنيف أو تمرد شبيبة الجامعـات ... وفي أوروبا الغربية ، قد نشهد ، في مستقبل غير بعيد ، نضالاً شعبياً حقيقياً ضد الاميركان سالبي السيادة والعلماء ، أو ضد هيمنة الصهيونية على قطاعات واسعة من الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية [1] .

بتعبير آخر : في حساب مستقبـل « العملية الثورية العالمية » في

---

(١) نرفض وبشدة ، نظرية القادة الصينيين عن « المنطقة المتوسطة » لأن هذه النظرية تجمع في إطار هذا المفهوم كل البلاد الواقعة بين المعسكر الاشتراكي وبين الولايات المتحدة الاميركية، زعيمة المعسكر الامبريالي ، أي انكلترة وفرنسا والمانيا الغربية واليابان مع الهند وأندونيسيا ومصر والجزائر والكونغو والبرازيل ... لا لأن التناقضات غير موجودة داخـل معسكر الامبريالية او عالم الامبريالية . ولكن معسكر الامبريالية (عالم الامبريالية) يبقى معسكر الامبريالية (عالم الامبريالية) رغم تمحوره تحت سيادة أو زعامة واحدة .

« البلدان الرأسمالية المتطورة » ذاتها ، نقترح على الرفاق اللبنانيين ان يعودوا إلى حساب لينين وجبره ، بدءاً من « ما العمل ؟ » ووصولاً إلى مؤلفات ما بعد أوكتوبر ، عبر مقالات ورسائل عام ١٩١٦ ، عام النضال العظيم ضد كاوتسكي ، وضد طائفة من الحلفاء الماركسيين اليساريين. نقترح عليهم دراسة هذه المؤلفات بعين جديدة ، نافذة ، وعقل هادف ، (هدفه استيعاب المعادلة التاريخية اللينينية للثورة البروليتارية العالمية) ، إذ أن « التحليل العلمي الطبقي » الوارد في البرنامج ليس بالمقارنة ، سوى صورة فقيرة باهتة عن « ماركسية » مكرورة مملّة بعيدة عن لينين وماركس .

وغني عن البيان أن الظاهرات المعروفة المرأسمالية المعاصرة والطبقة العاملة وحركتها في البلدان الرأسمالية المتطورة ، التي عرضناها نقلاً عن فارغاً ، تدفع إيديولوجيي الرأسمالية « الديمقراطية » الامبريالية إلى إنشاء نظرية « الرأسمالية الشعبية » ونظرية « مراحل النمو الاقتصادي » . وليست أفكار « الاشتراكيين » الغربيين (وأتباعهم العرب القلائل) بعيدة عن هذا التزييف المثالي الرامي إلى حرف الشعوب ، ولا سيما شعوب البلدان المتخلفة عن طريق النضال الثوري . ولكن ردّنا الضروري على هذا التزييف ، وبالأصح تفنيدنا التفصيلي لهذا التشويه كله ، لا يجوز أن يقودنا إلى موقف رد الفعل ونفي الظاهرات ذاتها التي ذكرها فارغا (وعشرات الماركسيين) والتي يتخذها الامبرياليون وخدامهم منطلقاً « موضوعيا » لعملية التشويه . أن مثل هذا السلوك أشبه بسلوك النعامة التي تدفن رأسها في الرمال .. أن نظرية الافقار ، مطبقة بشكل آلي وتجريدي ورياضي ، كانت تبدو مقبولة قبل عشرين عاماً . ولكنها اليوم ، بهذا الشكل فقدت حتى مظهر الصحة . ولنتذكر دائماً أن لينين في في نضاله ضد التحريفية (ثم ضد التحريفية المقنّعة = كاوتسكي) قد وجّه انتباهه نحو الرأسمالية العالمية (باعتبارها الاطار الموضوعي لكل الظاهرات ،

بما فيها « تحسّنات » الرأسمالية) ، نحو الامبريالية والانقسام إلى امم مستغِلة وأمم مستغَلة ، وظاهرة التلوّث المستندة على هـذا الاساس « العـالمي » و « الامبريالي » ذاته .

ومن المعروف أن عملية التشويه الايديولوجية التي يقوم بها مفكرو العدو عملية متنوعة الاشكال والاتجاهات . ولكن في جوهر هذا التنوع أن « الاستعمار » قد زال ومعه الاستغلال الامبريالي لشعوب القارات الاخرى ، وأن الرأسمالية الغربية دخلت رغم ذلك في طور من الازدهار ، جديد وغير متوقع [1] . سوف نرى ما إذا كان الاستغلال الامبريالي (استغلال أمم لامم) قد زال أو زاد . وسوف نرى مـا اذا كان لمواقف الرفاق اللبنانيين (الصحيحة والخاطئة أو الناقصة) من هـذا السؤال علاقة ما بمواقفهم (الصحيحة والخاطئة أو الناقصة) من مسائل الأزمه العـامة للرأسمالية ، ومسائل الطبقه العاملة في بلدان الغرب ، ومسائل العملية الثورية العالمية .

---

(١) انصافاً للحقيقة ، نشير إلى ان أوهامـاً مشابهة حول موضوع الاستعمار والاستغلال الامبريالي قد تسربت الى بعض الكتب السوفياتية . انظر بهذا الخصوص تعليقاً على كتاب صدر في موسكو منشوراً في عدد ديسمبر ١٩٦٢ من مجـلة « الوقت » . التعليق بعنوان « حول اشكال الاستعمار الجديدة » ، ويحمل توقيع مصطفى امين وغيورغي ميرسكي. يعترض الناقدان على قول مؤلف الكتاب : الامبريالية لا يمكن ان توجد بدون استعمار مستعمرات » ، اذ ان المؤلف نفسه قد بين في مقاطع عديدة من كتابه حالات استثمار البلدان المتخلفة .

ميرسكي من اكثر الكتاب السوفيات تفهما للقضايا العربيـة ، ومن أقربهم لمنظوراتنا . ومصطفى امين من قادة الشيوعيين السوريين . وكما تلاحظون لسنا اعداء للشيوعيين السوريين وقادتهم ، بل اعداء لكل ما هو سيء ورديء ومتخلف في الشيوعيين السوريين وغيرهم . ونحن نثمن عالياً اي موقف صحيح ولو صدر (خاصة اذا صدر) عن قادتكم أو قادتهم . « الصواب والخطأ » ، « تمييز الصواب والخطأ » ، ذلك مبدأ لا يمكن التخلي عنه أو التحايل عليه .

في تعليق امين وميرسكي ، نظرات كثيرة صائبة . هناك اختلاف واضح بـين آرائها وبين اقوال خالد بكداش ومقالات جريدة « الصدى العام » في الفترة نفسها . هل هذه الآراء هي هي آراء ميرسكي وحده ؟ ليس هناك ما يجبرنا على هذا الاعتقاد ، أو يدفعنا اليه .

علينا الآن ، وقبـل الانتقال الى « حركة التحرر الوطني » ، أن نلخص حساب « الطبقة العاملة » :

اولاً . لقد أخطأ الرفاق اللبنانيون في الجمع . ان الطبقة العاملة بدون الطبقة العاملة في البلدان المتخلفة ليست هي الطبقة العاملة العالميـة ، وبالاحرى ليست هي الطبقة العالمية التي حررت مليـاراً من الروس والصينيين والألبان واليوغوسلاف من نير العبودية الرأسمالية .

ثانياً . لم يلاحظ الرفاق اللبنانيون ان العامل في بلد متخلف قـد يعادل ، في حساب الثورة الاشتراكية (أي في حساب المشروع التاريخي الكبير الذي منه وله الماركسية) ، عشرة عمال في بلد من البـلدان الرأسماليـة المتطورة . لقـد أخطأوا في الضرب . وبالاصح لم يعوا مشكلة الضرب .

ثالثاً . لم يعوا ان هناك مشكلة طرح . لم يلتفتوا إلى ظاهرة الانتهازية (التحريفية ، الاشتراكية الاستعمارية الخ .) في حركة العمال وبالاحرى في « الطبقة العاملة » في البلدان الرأسمالية المتطورة .

رابعاً . وبقيت « الطبقة العاملة » هي « الطبقة العاملة » ولم تصبح « حركة العمال » . مسألة الوعي بقيت خارج نطاق الوعي . الطبقة العاملة تصنع التاريخ بدون هذا الجسر : الوعي الثوري ، الحركة البروليتارية الواعية الثورية . نمضي من « الطبقة العاملة » الى وليدهـا « النظام الاشتراكي العالمي » كما يمضي اللاهوت من الآب الى الابن ، في عملية انبثاق . بتعبير آخر : حين يكون الحساب خاطئاً في الجمع والطرح والضرب ، لا يمكن الارتقاء من الحساب إلى الجبر .

لننتقل الآن الى « حركة التحرر الوطني » .

١٠ . « حركة التحرر الوطني » أم « القومي » ؟

لقد خصص البرنامج اللبناني أربع صفحات **لحركة التحرر الوطني** ، بينها صفحة للاستعمار الجديد . وهذا أكثر بكثير ممـــا خصصه للطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة (صفحة واحدة بصرف النظر عن صفحتين « للازمة العامة للرأسمالية ») . وهذا ، بحد ذاته ، شيء ايجابي ، يعززه تخصيص الفصل الثاني لحركة التحرر العربية . كل هـــذا **خطوة كبيرة إلى الأمام** . صحيح ان الحزب الشيوعي اللبناني كان يعتبر نفسه ، في الماضي القريب ، جزءاً مسؤولاً في « حركة التحرر » . ولكن الفرق واضح بين أن يعتبر نفسه وبين أن يكون فعلاً . والبرنامج الحاضر قرينة كبيرة تؤكد التقدم على طريق هـذا الانتقال من عالم التصوّر إلى عالم الكينونة . وهذه الصفحات الاربع أو الثلاث المكرسة « لحركة التحرر الوطني » ، (وبالأحرى وبشكل أفضل هذه الصفحات العشرين المكرسة لحركة التحرر العربية ، **ومضمون** هذه الصفحات العربية) تشهد بهذا الذي نهلل له اليوم .

ومن المفهوم أن الشيء الأهم ليس هو عدد الصفحات ، بـــل مضمونها . يستطيع المرء ان يقول في نصف صفحة ان القوة الرئيسية هي الحركة العمالية في الغرب وأن يقول في خمسين صفحة ان حركـــة التحرر الوطني ما هي إلا رافد ثانوي تافه . هذا من قبيل الافتراض ، وهو لا ينطبق اطلاقاً على الرفاق اللبنانيين ، لا في شطره الأول ولا في شطره الثاني . ولو كان ينطبق ، لما قلنا : « تقدم » بل قلنا « انتكاس » ، ولما كنا الآن نفتح هذه المساجلة . افترضنا الافتراض لتأكيد ان المهم هو **مضمون** الصفحات ، واستنتاجاتها الرئيسية وخطها العام . فما هو مضمون « حركة التحرر الوطني » في العملية الثورية العالمية ، كما يظهر في برنامج الرفاق اللبنانيين ؟.

لنبدأ من البداية : العنوان : « حركة التحرر الوطني » .

يتحدث البرنامج دائماً عن « حركة التحرر **الوطني** » ، ولا تصبح هذه العبارة مرة واحدة « حركة التحرر القومي » . وبالطبع كلنا نأخذ هذا الاصطلاح عن اللغات الأوروبية . والاصطلاح الاوروبي هـــو « ناسيونال » national . فهل نحن محقون في ترجمـــة ناسيونال الى « وطني » ؟

ان « ناسيونال » صفة تنتسب إلى nation أي **الأمة** . وناسيونال هي إذن « قومي » . الأدب القومي ، الموسيقي القومية ، national . كذلك الحركة القومية ، النضال القومي ، الحرب القومية ، national . وحركة التحرر القومي .

القومي صفة منسوبة إلى القوم ، إلى الأمة ، إلى البشر . أمّا الوطني فهو ترجمة patriote و patriotique نسبة إلى الوطن patrie (وهذه الكلمة توحي أولاً بالارض) . هذا يبدو لنا في عـــداد البديهيات . صحيح أن الدول العربية (أو بعضها أو بالتقليد عن بعضها البعض) اصطلحت « وزارة الاقتصاد الوطني » أو وزارة « التربية الوطنية » أو « وزارة الدفاع الوطني » بدلاً من « القومي » . ولعلّ من دوافعها إلى ذلك خوفها من مدلول عبارات كالتربية القومية السورية أو الدفاع القومي العراقي . في حين ان الصفة الوطنية أو القومية لا تحمل هنا سوى مدلول القطر ، أي البلد . (وفي سوريا حذفنا هـــذه الصفة كلها من اسم الوزارات . كل الوزارات هي للبلد : التربية والاقتصاد ، والزراعـــة والبلديات والمواصلات ، سواء بسواء) .

والحال ، ليست القضية محض قضية لفظية ، بل قضية المعنى والمدلول والمضمون . وما يمكن أن يكون موضوع نقاش في تسمية الوزارات ، لا يمكن أن يكون موضع نقاش في تسمية « حركة التحرر القومي » ، هذا الفرع من فروع العملية الثورية العالمية .

حين يتحدث ماركس وانجلز وكارتسكي وبليخانوف ولينين وسائر أعلام الماركسية عن الحركة القومية ، فانهم يقصدون حركة الأمة ، ومضمونها (في تاريخ صعود المجتمع البرجوازي في اوروبا) : حركة تكوّن الأمة وتلاحمها الاقتصادي وتكوّن دولتها القومية (فرنسا ، انكلترة) ، حركة نضال الأمة من اجل وحدتها (المانيا وايطاليا) واستقلالها (ايطاليا ، بلاد البلقان الخ) ... وحركة التحرر القومي لشعوب الشرق ، في القرن العشرين ، تواجه مهمات من هذا النوع : استقلال الامة ، وحدتها ، أي تكوين دولتها القومية المستقلة والموحدة . هذه المهمات ليست فقط مهمات وطنية بل هي ايضاً مهمات قومية ، تتصل بهذه المقولة التاريخية الهامة التي هي الأمة .

الترجمة الوحيدة الصحيحة والتي تعبّر عن المضمون الاجتماعي والتاريخي هي « القومي » وليست « الوطني » .. وحتى نقتنع بذلك ، يكفي ان نطالع مؤلف ستالين لعام ١٩١٣ ، وبالترجمتين المحتملتين[١] .

في الترجمة الأولى : عنوان الكتاب : الماركسية والمسألة القومية . عنوان الفصل الأول : الأمة . مضمونه : الأمة جماعة من الناس ، ثابتة ، تكونت تاريخياً ، على أساس اللغة والأرض والحياة الاقتصادية المشتركة والتكوين النفسي المشترك الذي يجد تعبيره في الثقافة المشتركة أي في الطابع القومي (الملامح القومية) . والطابع القومي انعكاس لشروط الحياة . عنوان الفصل الثاني : الحركة القومية . ومضمونه : الأمة مقولة تاريخية لعصر معين هو عصر الرأسمالية الصاعدة . في الغرب ، كانت القاعدة العامة تشكل دول قومية مستقلة (باستثناء ايرلندة). في الشرق، في اوروبا الشرقية : تكوّنت دول متعددة قومياً (متعددة الأمم أو

(١) نأخذ هذا الكتاب لأنه الاشهر والاكثر انتشاراً في بلادنا العربية . طبع مراراً بالعربية . وطبع مؤخراً على يد الجماعة « الصينية » في بيروت .

القوميات multinational (روسيا ، النمسا) في ظروف سابقة للرأسمالية . ثم تألفت الأمم مع صعود الرأسمالية ، فظهرت الحركة القومية الموجهة ضد الاضطهاد (الذي تمارسه الدولة المتعددة القوميات والتي هي دولة الأمة الغالبة) . وأساس هذه الحركة القومية : النضال من أجل السوق . الطبقة البرجوازية في الأمة المضطهَدة تناضل من أجل السيطرة على سوقها القومية ، وتستنجد بـ « الشعب » ... والنضال القومي لا بد أن يرتدي اشكالاً متنوعة . ولكنه في الجوهر والاساس نضال بين الطبقات البرجوازية .

ونواصل القراءة في الفصول التالية : ان برنامج الماركسيين النمسويين خاطىء لأنه ينطلق من مبدأ الاستقلال الذاتي الثقافي القومي ، أي مبدأ الاستقلال الذاتي للامم بصورة مستقلة عن الأرض . أما الماركسيون الروس فهم يؤيدون مبدأ الاستقلال الذاتي الاقليمي (أي على أساس الأرض) لوحدات مبلورة ، ويؤيدون المساواة القومية في كل اشكالها (لغة ، مدارس) ، ويرفضون الامتيازات القومية ، ويتمسكون بمبدأ حشد العمال الاممي .

ان قراءة الكتاب بالترجمة الثانية (والدارجة) تبدو لنا ، بالمقارنة ضعيفة ومتناقضة : نقرأ في العنوان « المسألة الوطنية » ثم نبدأ بموضوع .. الأمة ! ونقدم تعريف الامة لنجد ان لها طابعاً وطنياً أو ملامح وطنية . ونقرأ في عنوان الفصل الثاني « الحركة الوطنية » لنتابع فوراً : الامة مقولة تاريخية لعصر الرأسمالية الصاعدة ، ولنتحدث عن حركة الامة التي نسميها حركة وطنية وعن النضال بين الامم الذي نسميه « النضال الوطني » أو الصراع الوطني الخ ... ثم ننتقل إلى برنامج النمسويين فنسميه الاستقلال الذاتي الثقافي الوطني لنفسّر بأنه الاستقلال الذاتي الثقافي المستقل عن الأرض !!

والشيء نفسه في نصوص ستالين اللاحقة . . لقد أصبحت المسألة القومية (حسب الترجمة الصحيحة) ، من حيث الجوهر ، مسألة فلاحية . ان الرفيق سيميتش يستشهد بكراستي لعام ١٩١٣ ، حيث قلت ان النضال القومي هو نضال بين الطبقات البرجوازية . والحال ، ان تلك الكراسة تعود لما قبل ثورة اوكتوبر والحرب العالمية الامبريالية . أما اليوم فان النضال القومي هو جوهرياً نضال جماهير الشغيلة (١٩٢٥)[1].

نفس المصطلح ناسيونال ، يستخدم عند ستالين ولينين وجميع الماركسيين في الحالتين معاً : حين كانت المسألة مسألة برجوازية من حيث الجوهر ، وحين اصبحت مسألة فلاحية وشغيلية ، من حيث الجوهر (على حد تصنيف ستالين[2]) . وهذا طبيعي وبديهي : المسألة مسألة قومية ، مسألة الأمة ، في كلا الحالتين قبل منعطف ١٩١٤ - ١٩١٧ - ١٩١٨ ، وبعد هذا المنعطف . انها مسألة الأمة ، مسألة استقلالها ، تحررها ، وحدتها ، دولتها القومية ، سواء كان الأمر يخصّ الايرلنديين والتشيك في القرن التاسع عشر ، أو الهنود والصينيين والعرب والاتراك والافريقيين والفرنسيين في القرن العشرين .

ومصطلح « الوطني » لا يفي بهذا المدلول ، يلغي أو يميّع هذا المضمون القومي : الأمة ، استقلالها ، وحدتها ، وربما تكوّنها كأمة . وعلى طول الخط ، ليس من مبرر يسوّغ هذا الافقار .

---

(١) رد ستالين على الرفيق سيميتش ، زعيم الحزب الشيوعي اليوغوسلافي . هذا النص الهام ينقله ماوتسي تونغ في كتابه « الديمقراطية الجديدة » (موجودة بالعربية ،طبع بيروت، ١٩٥٥). ولكن الجماعة « الصينية » مصرة ، رغم نقل ماوتسي تونغ لنص ستالين العائد لعام ١٩٢٥ على نشر كراسة ستالين العائدة لعام ١٩١٣ . لعلها لم تقرأ كتاب ماوتسي تونغ ، تشغلها عنه آخر تطورات « الثورة الثقافية البروليتارية » ... ، وعلى الأرجح النضال ضد النضال القومي باعتباره نضال البرجوازية .

(٢) سنرى فيما بعد إلى أي حد هذا التصنيف صحيح .

في فترة قديمة ، كانت أدبياتنا الماركسية العربية تعتمد كلمة « قومي » (نجدها في مؤلفات خالد بكداش أو رئيف خوري ، وفي جريدة صوت الشعب) . ثم اختفت هذه الكلمة ، واستقرت ترجمة ناسيونال ، نهائياً وبصورة مطلقة ، على لفظ « الوطني » (في سنة ١٩٤٧ أو ١٩٤٨) . فـ « القومي » يوحي بـ « القومي العربي » المكرّس « قومياً برجوازياً » ، وشيئاً في ركاب الاستعمار . أما « القومي السوري » فيوحي بحزب انطون سعادة . في فترة ١٩٤٨ – ١٩٥٥ : فكرة الأمة العربية مرفوضة قطعاً ، « الأمة السورية » تسقط هي أيضاً كمصطلح ، رغم بقائها كفكرة . وعلى أي حال وبصرف النظر عن هذه المسألة السورية والعربية ، تستقر ترجمة ناسيونال بـ « وطني » (سواء كان هذا « الوطني » سوريا أو كان عربياً أو صينياً أو فرنسياً).

تلك كانت الفترة الستالينية الأخــيرة التي تكمل وتشدّد الفترات الستالينية السابقة . الكفاح ضد النزعة القومية البرجوازية في ذروته . وكلمة « قومية » « وقومي » تـُعتمَد لترجمة ناسيوليسم nationalism الدالة على الاتجــاه القومي ، أو النزعة القومية . والناسيوناليسم يرادف شيئاً بغيضاً ، هو القومية نقيض الاممية (انترناسيونالسم) . القومية هي القومية البرجوازية ، والصفة البرجوازية هي الشيطان ، دائماً وبلا استثناء . وهنا خطأ أول في الفهم (حتى في الماركسية الاكثر كلاسيكية ، ليست الصفة البرجوازية هي دائماً الشيطان . بالمقارنة مع الاقطاعية ، انها تقدم وثورة عند ماركس وانجلز ولينين ، في شتى المجالات ولا سيما في هــذا المجال : الأمة بدلاً من التبعثر الاقليمي) . ولكن الأمور تتعدى هذا الفهم الخاطىء الى المفردات المستخدمة ، في اللغات الاوروبية ذاتهـــا (وعند الفرنسيين ، تصبح ناسيوناليسم = الشيطان ، دائماً) .

فقد رأينا في مكان سابق ان لينين لا يمتنع عن استخدام كلمـــة

« ناسيوناليسم » ذاتها في غير موضع الذم والتحقير : الشرق الثوري والقومي : « ناسيوناليست » (١٩٢٣) . ومنـــذ ١٩١٣ – ١٩١٤ ، قال لينين مراراً : في كل ناسيوناليسم برجوازي (أي في كل نزعة قومية برجوازية) لأمة مضطهَدة يوجد دائماً محتوى ديمقراطي وتقدمي عام ، وهذا المحتوى هو ما نأخذه ونسانده ، على سبيل الحصر . وفي ١٩١٦ وبعد اوكتوبر ، أكد لينين مراراً مبدأ التمييز بين ناسيوناليسم الأمة المضطهَدة وناسيوناليسم الأمة المضطهِدة (أي بين النزعة القومية لكل منهما) ، ووجوب تأييد ومساندة ناسيوناليسم الأولى ومكافحة ناسيوناليسم الثانية .

هذا ما نعرفه جيداً ، على الأقـل منذ سنة ١٩٥٧ (سنة صدور مجموعة لينين « حركة التحرر الوطني في الشرق » عن موسكو باللغـة الانـكليزية [١]) . واذا كنا نذكّـر به ، فلأنه يزيل المبرر الأخير لترجمة « ناسيونال » ، الا وهو الاحتفاظ بكلمة « قومي » و « قومية » لـ « ناسيوناليست » و « ناسيوناليسم » حتى لا يقع التباس بين ناسيونال ، وطني ، وناسيوناليست ، قومي ، الأول مأخوذاً كشيء جيد (النضال « الوطني » ضد الاستعمار ، الاستقلال « الوطني » الخ) والثاني مأخوذاً كشيء سيء وبغيض (برجوازي الخ) . والحال ، كما رأينا ، ان لينين والماركسيين لم يقيموا علامـــة تعادل بين الناسيوناليست والشر ، بل ولم يقيموا علامة تعادل بين الناسيونال والخير (و « الاشتراكية القومية » التي تدينهـــا الماركسية هي ، في المفردات الأوروبية ، من ملكوت « الناسيونال » وليست من ملكوت « الناسيوناليست » ، والاحرى ان نسميها ، في الترجمة الدارجة والخاطئة « الاشتراكية الوطنية » ، وهذا يكون خطأ آخر ، ولكنه هو الصحيح حسب المنطق الخاطىء للترجمـة الدارجة) .

---

(١) في ترجمة دار دمشق (١٩٥٨) ، اعتمدنا في العنوان « حركة التحرر الوطني »، ولكن من الواضح اننا اعتمدنا في كل نصوص الكتاب « حركة التحرر القومي » .

اننا نصرّ اذن على تغيير صيغة « حركة التحرر الوطني » والاستعاضة عنها ، دائماً ونهائياً ، بصيغة « حركة التحرر القومي » : هذه الشعوب الذي تناضل ضد التخلف والاستعمار والامبريالية انما تناضل من أجل الأمة ، من أجل استقلالها وتحررها وتوحدّها ، من أجل الدولة القومية ، (وبدرجات متفاوتة من أجل تكوّنها كأمم حديثة متلاحمة اقتصادياً واجتماعياً) ، أي انها تناضل لتحقيق مهمات هي **مهمات قومية** .

وبالطبع اننا نجد في أدبيات الرفاق اللبنانيين وفي برنامجهم ذاته اصطلاح « القومي » كترجمة لـ « ناسيونال » (مثلا في الفصل الثاني : « كانت كارثة فلسطين عنصر تجمع **قومي** للشعوب العربية » ، نشوء « الفكرة **القومية** في البلاد العربية » ... – وهذا نوعاً ما يناقض منهج الترجمة الأصلي ، ولكن لعلهم لاحظوا ان المسألة هنا لم تعد مسألة ترجمة : الحديث عن « كارثة فلسطين كعنصر تجمع وطني » وعن نشوء « الفكرة الوطنية ... » شيء مستحيل فعلاً !) ، ولكن « الوطني » يلحق **دائماً** « حركة التحرر » (ثم في الفصل الثاني : « حركة التحرر **الوطني** العربية ») ، وهذا له « بعض » الأهمية على صعيد النظرية الماركسية العامة ، وعلى صعيد فهم حركة التطور والنضال « الشرقي » عامة والعربي خاصة . لقد آن الأوان كي نتخلى عن المصطلح الخاطىء والمفقر ونعتمد المصطلح الصائب حامل المضامين التاريخية والكفاحية .

ولقد لاحظنا في مقدمة البرنامج غياب لفظ « الأمة العربية » وقلنا ان غياب هذا اللفظ لا يلغي بأي حال الطابع العربي الفعلي للبرنامج (تمسّكه المبدئي بقضية الوحدة العربية ، تأكيده الصفة العربية للبنان ...) وعللنا هذا الغياب بالحرص على عدم مخالفة « النظرية الماركسية الكلاسكية للامة » الحديثة ، أي التعريف الستاليني للامة كمقولة

لعصر الرأسمالية الصاعدة (و « الحياة الاقتصادية المشتركة » كأحدى علائم التعريف ، وهي مفقودة بالنسبة للعرب) . وخلصنا الى ان هذا الحرص في غير محله وإلى اننا (والرفاق اللبنانيين) مضطرون إلى مخالفة « النظرية » ، ما دمنا « نتخطى » الموضوعة الستالينية القائلة « ان النضال القومي نضال بين الطبقات البرجوازية » ورأينا قبل قليل ان ستالين نفسه في ١٩٢٥ يتخطى هذه الموضوعة ...

وربّ قارىء « قومي » أو « قومي ثوري » يقول : لقد وجدتها ! في الحالتين ، لا يزال البرنامج اللبناني أسير مخلفاته « الشعوبية » ! انه لم يهتـــد بعد إلى « الموقف القومي » ، ومفرداته تكشف نفس الخطأ في الحالتين : فهو لا يرى « الأمة » العربية ، وهو يتحدث عن « حركة التحرر الوطني » بدلاً من « القومي » . والقارىء « القومي » فُطِر على القفز الاستنتاجي والتبسيط الواهم ، سميّ التخلف الذهني . حمانا الله من مفهومه « القومي » وطهّر الرفاق اللبنانيين من هذا المفهوم « القومي » ، المثالي ايضاً (هناك أكثر من قاسم مشترك واحد بـــين المفهوم القومي البرجوازي المثالي وبين المفهوم الستاليني المحلي للمسألة القومية ، رغم كل تشنجات الطرفين) .

وضد تبسيط القارىء « القومي » « الشامل » في الواحد الأحـــد الخطأين اللفظيين في برنامج الشيوعيين اللبنانيين ، نسارع إلى القول اننا نرى فرقاً بين هذا الخطأين . والخطأ الثاني يبدو لنا ، من وجهة نظر مفردات الماركسية ومن وجهة النظرية الماركسية الكلاسيكية ، اكبر من الخطأ الأول ، ونحن مصرون على تصحيحه حتى اذا كان الرفاق اللبنانيون يريدون الاستمرار على التمسك بـ « الماركسية الكلاسيكية » وعدم استخدام اصطلاح « الأمة العربية » والقول مثلاً بأمة عربية لم يكتمل تكوّنهـا بعد . من الممكن ان يسيروا على هذا النهج ، ولكن ليس من الممكن

ان يستمروا في عدم تسمية « حركة التحرر » « حركة التحرر القومي ». حتى اذا كانوا يريدون (اذا كنا نريد) ان يعطوا (ان نعطي) « حركة التحرر » الحاضرة معنى يتضمن ايضاً عنصر التكوّن القومي للعرب أو اكال هذا التكون في زمن النضال ضد الامبريالية ومن أجل الاشتراكية ، بحلّ قضايا خلفها ماض طويل وتصفية الكيانات العشيرية والبطريركية والطائفية ، فضلاً عن الكيانات القطرية والامبريالية والاقطاعية ، بل وخصوصاً اذ كانوا يريدون (اذا كنا نريد) ان يعطوا (ان نعطي) هذا المدلول ايضاً . يجب ان نسمي حركة التحرر « حركة التحرر القومي » ، لأن هذا الاعطاء يعزز الطابع القومي للمهات التي تواجه حركة التحرر المذكورة .

لنطو الآن هـــذه القضية المتعلقة بـ « العنوان » . ولننتقل الى ما تحت العنوان ، إلى مضمون « حركه التحرر الوطني » .

١١ – إلى ماذا تتحول حركة التحرر الوطني ؟

تبدأ هذه الفقرة الطويلة بتسجيل « عملية التحول النوعي في حركة التحرر الوطني » و « تنامي الاتجاه المعادي للرأسمالية في داخلها » ممـا يثبت « صحة الموضوعة اللينينية التي تقول ... » .

ويفهم القارىء اننا ، اذ ننقل هذا الكلام ، نشعر بسعادة كبيرة يشوبها بعض الحزن .

أما الحزن فمصدره ما يلي : أنْ يأتي التاريخ مصداقـــاً للينين شيء جيد ، ولكنه ليس شيئاً كثيراً . وواقع ان بعض الرفاق اللبنانيين يجدون في قولنا هذا تخفيضاً للينين أو حداً من قيمته يبين الهوة الـتي تفصلنا عن هذا البعض في كل نهاجية الماركسية – اللينينية ، في فهم

وظيفة النظرية . نقول اذن : أنْ تأتي الوقائع مصداقـــة للينين ليس شيئاً كثيراً . والمطلوب أن نعرف لينين قبل وقوع الوقائع . وفي هذا المضمار ، تبقى مسؤلية القيادات المنادية بلينين في العالم العربي ، كاملة . هذه الموضوعة اللينينية وموضوعات أخرى غير قليلة معروفة جيداً منذ سنة ١٩٥٧ (سنة صدور مجموعة « حركة التحرر الوطني » ، باللغـة الانـكليزية ، في موسكو) وسنة ١٩٥٨ (سنة صدور المجموعة ، باللغة العربية في دمشق) – وبعض الموضوعات اللينينية معروفة قبل ١٩٥٧ : فقد كانت دائماً في (المختارات) : مثلاً : « روسيا والهند والصين الخ ... » « الشرق الثوري والقومي » ، وسنرى غيرها فيما بعد . – والحال ، عند هذا المنعطف التاريخي ، ورغم انتشار الموضوعة المعنية وغيرها ، وقعت قيادات الاحزاب المنادية بلينين في خطأ كبير يندّد به اليوم الرفاق اللبنانيون في تقريرهم [1] . وهنا ايضاً ، في البرنامج ، كان يجب على على الحزب اللبناني ان يحرص على تسجيل هذه الادانة ، وان ينطلق منها ، اي ان ينطلق من تفنيد المنظور السابق الخاطىء .

وأما السعادة الكبيرة فمصدرها اننا حقاً أمام تطور كبير يجريه الحزب الشيوعي اللبناني في مفاهيمه : حركة التحرر الوطني تتحول نوعياً . وإذا كان ثمة معنى لاصطلاح (تتحول) و (تتحول نوعياً) ، فهو يعني ان حركة التحرر تتحول إلى شيء آخر ، يتجـــاوز مفهوم (حركة التحرر) . ترى ، ما هو هذا الشيء ؟

يقول الرفاق اللبنانيون : حركة التحرر تتحول نوعيـاً . ويتنامى الاتجاه المعادي للرأسمالية في داخلها . يبدأون بتأكيد عملية التحول النوعي للشيء المعني ، ثم ، بدلا من ان يبينوا ما هو الشيء الآخر مآل التحول ،

---

(١) ويعتبرونه ، بحق ، أكبر اخطاء تاريخهم الطويل . واهمية الخطأ تنبع ، على نحو ما بينا ، من أهمية المنعطف التاريخي ، ومن اهميـــة الاحزاب المعنية ودورها الفاعل في تطور الاحداث اللاحق .

ينوهون بتنامي الاتجاه الخ داخل الشيء . ترى ، أليس هنـــاك صياغة أفضل ؟ أليس هناك عند لينين صيغة أفضل ، أكثر وضوحـاً وتركيزاً .

اليكم ما يقوله لينين في نص ثمـين (هو غير الموضوعة اللينينية التي يستشهد بها البرنامج) : « ويجب ان يكون واضحاً كل الوضوح انه ، في المعارك الحاسمة القادمة للثورة العالمية ، هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان العالم ، والتي كانت تهدف في الأصل إلى التحرر القومي ، ستتحول ضد الرأسمالية والامبريالية »[1] .

وهذا أكثر من مجرد « تنامي الاتجاه المعادي للرأسمالية في داخلها ». هذه الحركة « **ستتحول** ضد الرأسمالية والامبريالية » . ونحن كنا على حق حين فهمنا من هذه الموضوعة اللينينية ان حركة التحرر الوطني والقومي المعـادية للاستعمار ستتحول الى حركة اشتراكية . تتحول أو تنمو وتتحول وتتجـــاوز transcroît . ونكون سعداء لو أن البرنامج اللبناني نقل ايضاً هذه الموضوعة اللينينية ، ولو بين لنـــا ما اذا كانت تعني أو لا تعني أو لا يجوز ان تعني « تحول الثورة القومية إلى ثورة اشتراكية » . ومما يعزز أهمية طلبنا هذا كون فريق من اولئك الذين تبنوا الماركسية اللينينية مجدداً ، اذ أخذوا (وأخذوا عنّا) موضوعة التحول المذكورة (في ١٩٦٣ أو ١٩٦٤) ، لم يلبثوا ان « **تخطوا** » هذه الموضوعة ، واعتبروها فكرة قومية برجوازية صغيرة وآمنوا بـ « المفهوم العلمي الطبقي » المطهر (وإن بطريقة تختلف عن الطريقة التي نراهـا

---

(١) « وربما تلعب دوراً اكثر ثورية بكثير مما تصورنا حتى الآن » . من تقرير للينين الى المؤتمر الثالث للكومنترن (١٩٢١) . نص موجود في مجموعة « حركة التحرر الوطني » . او « ستنقلب » **will turn** .

ولا بأس من الاشارة الى ان عباره لينين « ستتحول ضد الرأسمالية والامبريالية » تتصدر حديث سوسلوف عن المسألة الكولونيالية في تقريره عن « كارل ماركس ، المعـلم العبقري ومرشد الطبقة العاملة » المذكور سابقا . كراس ٣٩ صفحة ، بالفرنسية ، ص ٣٢ .

في برنامجكم [1]) .

نريدكم اذن ان تتخذوا موقفاً من موضوعة التحول كما وردت في نص لينين ، في تقريره المذكور الى المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية . نحن أيدناها وأعطيناها دونما مواربة المدلول الآتي : الثورة القومية تنمو – تتحول الى ثورة اشتراكية في زمن الكفاح العالمي ضد الامبريالية في زمن ثورة أوكتوبر وامتداداتها الشرقية والعالمية .

ولعلكم تقولون : نعم ولكن ...

ونحن نقول : موافقون . نعم ولكن ...

تقولون : هذا يحتاج الى تحوّل المضمون الطبقي الداخلي ، الى تغيير القيادة الخ ...

ونحن نقول : والى سلسلة من المعارك والانفجارات .. هـذا يحتاج الى أكثر مما تقولون . فهو تحوّل (وليس مجرد « تقدم ») تحوّل وتغير وتبدل في الصفة ، في الكيف ، في الطبيعة ، في الجوهر . ولكنه تحوّل الثورة القومية الى ثورة اشتراكية .

وقد لا تقولون : نعم ولكن . قد تقولون : لا !

لا ! لا يمكن ان نبني مبدأ تحول الثورة القومية الى ثورة اشتراكية على قول أو قول ونصف للينين ! هذا على الأرجح هو تفكير أولئك الذين « تخطوا » « القومية » « البرجوازية – الصغيرة » من « اليسار » –

---

(١) نقصد أولئك الذين لاحظتم عنهم في التقرير انهم يدعون الى الحرب الفورية ، وهم بالقرب منكم يؤكدون ان الحل السلمي قد تقرر ووافقت عليه اكبر الدول العربية البرجوازية الصغيرة (واكثرها برحوازية صغيرة)،ويؤكدون ذلك في جريدتهم منذ عام كامـــل (ملتقين في ذلك مع تشخيص الموقف لدي بعض مذيعي راديو بيروت وعدد كبير من « الثوريين » في سائر البلاد العربية ، وان كان « الثوريون » جميعاً يتخذون من التشخيص المشترك مبدأ لحملة متنوعة الاشكال ضد القـــائد البرجوازي الصغير ، الذي « يرضى بالاستسلام ». كل الاشياء متماسكة ... تخطوا موضوعتنا « البرجوازية الصغيرة » ، ثم وصلوا الى تحرير فلسطين بـ « الثورة الثقافية البروليتارية » .

ولا داع لأن نذكر ان مبدأ « الطريق البرلمـــاني الى الاشتراكية » (بصرف النظر عن صوابه وخطله) قد بني على قول أو قول ونصف لماركس أو لينين ! – . وسنرى نصوص لينين بالتفصيل . نريد فقط أن نبدي دهشتنا لعدم فهم الارتباط بين هذا التحول والتحول الآخر ، أي بين موضوعة تحول الثورة القومية الى ثورة اشتراكية وموضوعة تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية . وهنا بيت القصيد .

١٢ – تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية .

ان نظرية تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية (وتعرف عند ماركس وعند لينين باسم نظرية الثورة الدائمة أو المتصلة) هي أحـــد محاور الفكر اللينيني الذي طوّر هنا بذرة ثمينة في كل تفكير ماركس.

خلال عشرات السنين ، أهملت هذه النظرية أو شوّهت وخصيت . في الفكر الستاليني المحلي (لبنـــان وسوريا والعراق) ، سقطت هذه النظرية كلياً . واعتباراً من ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ بدأتم تعودون اليها . لسوء الحظ ، لا نجدهـا كنظرية في برنامجكم الحاضر . ولذا ، فقـد بات علينا أن نتوقف الآن ، عند هـذه المسألة الكبيرة . نحن نعتقد ان نظرية الثورة الدائمـة (أو تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية ، ومعها مسألة « التخلف » ، والمسألة القومية الخ) هي في صميم الماركسية كلها ، وليست أبداً شيئاً هامشياً ، أو سقطة فرعية . ونعتقد ان هذه النظرية الجوهرية تطرح مسائل كبيرة هي مسائل الماركسية – اللينينية . ولكن ادراكنـا لاتساع المسائل لا يغير شيئاً من كونها نظرية اساسية وصحيحة بشكل مطلق ، في أساسها وجوهرها وخطها النهاجي .

لا نجعل من ماركس وانجلز رائدي ستراتيجية شرقية وآسيويـــة وروسية وايرلندية وقومية وفلاحية . ان ستراتيجيتهما كانت ، في الاساس ،

ستراتيجية اوروبية وبروليتارية متفقة مع واقع العصر [١] . وهـذه الستراتيجية لا نلقي بها من النافذة . بل ندرسها ونفهمها ونسجل ما يلي :

أولاً – في « البيان الشيوعي » ، قبيل انفجار ثورة شباط ١٨٤٨ في باريس التي فتحت الثورة الديمقراطية والقومية الاوروبية الكبرى (المانيا وايطاليا والنمسا والمجر ١٨٤٨ – ١٨٤٩) ، وجه ماركس وانجلز بصرهما بشكل خاص إلى المانيا المتخلفة لأن المانيا المتخلفة (اقتصادياً وسياسياً ، بالمقارنة مع جاراتها في غربي اوروبا) حبلى بثورة برجوازية يجب ان تكون فاتحة لثورة بروليتارية . وفي ١٨٥٠ ، أعلنا فكرة « الثورة الدائمة » .

ثانياً – في ١٨٥٦ ، قال ماركس بضروة جمع الثورة العمالية المنشودة في المانيا مع « طبعة جديدة لحرب الفلاحين » التي هزت المانيا في القرن السادس عشر .

ثالثاً – في ١٨٦٧ – ١٨٧٠ قـال ماركس بالضغط على « الرافع الايرلندي » ، أي على وجه التحديد بالاعتماد على ثورة قومية وفلاحية ، من أجل حركة الثورة الاشتراكية في انكلترة والبر الأوروبي .

رابعاً – في ١٨٩١ ، حين لاح احتمال قيام عدوان روسي قيصري على المانيا ، قال انجلز باحتمال حدوث اجراءات ثورية في المانيا وتسلم البروليتاريا السلطة وإعادة سيرة « عام ١٧٩٣ » الفرنسي . وهنا نجد فكرة تعليق الثورة الاشتراكية المنشودة على حرب قومية دفاعية (على غرار اليعاقبة الفرنسيين ، ابان ذروة الثورة البرجوازية في فرنسا ومضاعفاتها الاوروبية أي العالمية) .

---

(١) عالمية الرأسمالية لم تكن قد اتخذت مداها الامبريالي . والتاريخ الكوني كان يجري في اوروبا المتقدمة . امكانية الحسم المنشود كانت في المانيا وفرنسا وانكلترة . الشرق كان لا يزال « مادة » للتاريخ .

خامساً – ان فكرة « الثورة الدائمة » تلد اذن مع الماركسية نفسها . وتبقى على الدوام جزءاً من ماركسية ماركس وانجلز ، وتتخذ أشكالاً عيانية واقعية متنوعة . لقد كان ماركس وانجلز حريصين على « تعليق » الثورة البروليتارية على شيء آخر ، وهذا الشيء الآخر هو الثورة « السابقة » او « الاولى » ، الثورة الديمقراطية البرجوازية بكل مضامينها (المسألة القومية ، المسألة الفلاحية) . ومسألة معرفة إذا كان يجب ان نُدخل هذا « التعليق » في في مفهوم ستراتيجية ماركس وانجلز أو في تاكتيكها ليست مسألة هامة ، وقد لا تكون أكثر من مسألة لفظيـة . ونحن مستعدون « للاقرار » بأن هذه الثورة الدائمة هي عنـــد مؤسسي مذهبنا مسألة في التاكتيك وحسب (ومن الانصاف ان نقول ان مواضيع الستراتيجية والتاكتيك وتمييزها لم تأخذ مداها الا في فترة لاحقة) .

سادساً – الشيء المهم ان ماركس وانجلز قد استشعرا ، في مناسبات مختلفة ، كون « الثورة البروليتارية » ، العتيدة ، تحتاج إلى شيء آخر ، تحتاج الى هذا التعليق على ما قبلها . لم يستنبطا هذه الحقيقة من فلسفة ما متعالية ، من جدلية بنيانية تركيبية structuralism بل استخلصاها من الواقع التاريخي الاجتماعي ، من واقع البشر الاحياء . في ١٨٤٨ وفي ١٨٧١ فشلت الثورة البروليتارية في فرنسا ، لأن الفلاحين « خطأوا » الحركة ، « أخلفوها » ، عارضوها ، أي لأن الثورة البرجوازيـــة الديمقراطية كانت محققة من حيث الاساس (منذ زمن الثورة الكبرى ونابوليون) . بتعبير آخر : لأن الانقسام الطبقي البالغ اقصى درجـــات الحدّة قد اتخذ في ١٨٤٨ شكل انشقاق البروليتاريا عن سائر الامـــة البرجوازية ، وفي ١٨٧١ ، شكل انشقاق باريس العمال والحرفيين والمثقفين التقدميين عن الاقاليم ، عن الارياف . علماً بأنه ، في هذه الحالة الاخيرة بشكل خاص ، انطلقت الكومونة الخالدة مـــن ظرف اجتماع الكفاح

البروليتاري مع ظرف « الوطن في خطر »[1] والجمهورية في خطر . ان ديناميكية الثورة الدائمة ليست غائبـــة اذن حق من الثورات البروليتارية التي فشلت (باريس ١٨٤٨ ، ١٨٧١) .

سابعاً – المسألة هي مسألة البشر الأحياء . المجتمع البرجوازي الخالص المؤلف من بروليتـــاريا وبرجوازية ، مفهوم تجريدي نكاد لا نراه الا في انكلترة (وفي مؤخرة انكلترة : ايرلندة !) . هنـاك فلاحون وهناك حرفيون .. هنـــاك اكثر من طبقتين . وهناك مسائل سياسية ، داخلية وخارجية ، ومسائل قومية الخ ... وهذه الحقيقة لم تكن غائبة من ذهن رجل من طراز بسمارك . كما يقول انجلز وماركس ، ان بسمارك ونابوليون الثالث ، حافري قبر ثورة ١٨٤٨ ، قد نفذا وصيتها السياسية . ونقول ان بسمارك بعمله هذا (الوحدة المنقوصة ، التحويل البرجوازي المنقوص – الاصلاحات الفلاحية والدستورية) انما عمل بوعي أو دون وعي على انهاء ظرف اجتماع الثورتين ، أي على افراغ ديناميكية الثورة الدائمـــة البروليتارية .

ثامناً – لقد اشرنا إلى أن فكرة الثورة الدائمة (أي تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية) موجودة في الماركسية منذ البداية ، منذ الولادة . فقد وجه « البيان الشيوعي » نظره بشكل خاص نحو المانيا المتخلفة . ويجب أن نضيف ان الماركسية ذاتها ولدت في المانيا ، وان الاختمار الفكري العظيم الذي تنشأ الماركسية منـــه اختمار الماني (الديالكتيك ، هيغــــل . فويرباخ) . ويلاحظ ستالين ، في الفصل الأول من مؤلف « مبادىء اللينينية »[2] ، ان اللينينية ولدت في روسيا لأن روسيا كانت

---

(١) عنوان كتاب ألفه المناضل الكبير ، بلانكي .

(٢) نستشهد بمؤلف ستالين لأنه الاكثر انتشاراً . بالطبع ، هناك نصوص كثيرة للينين تعطي المعنى ذاته .

حبلى بثورتين ، ثم يقول : « حدث لروسيا وللينين تقريباً ما حدث لالمانيا ولماركس وانجلز بـــين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ . مثل روسيا في اوائل القرن العشرين ، كانت المانيا آنذاك حبلى بثورة برجوازية (ثم ينقل ستالين نص البيان الشيوعي : « نحو المانيا خاصة يتوجه انتباه الشيوعيين » ...) ونتخطى ستالين ونقول : ان الاختيار السابق للماركسية موطنه المانيا ، التي كانت عقدة مسائل انسانية ومهمات تاريخية كبرى : ان المانيا هي وطن غوته وبيتهوفن وفويرباخ وماركس . وهـذا لا يغمط حق الامتين البرجوازيتين المتقدمتين الفرنسية والانكليزية ، حيث الاشتراكية الطوباوية ، والمؤرخون البرجوازيون ، وعلم الاقتصاد السياسي .

– ولقد تركنا جانباً تحليلات ماركس الآسيوية والروسية : مع ان استراتيجة ماركس كانت في الاساس استراتيجية اوروبيـة بروليتارية تركز نظرها وعملها على اوروبا الغربية الصناعية وبروليتارياها ، فقد وجه ماركس بصره نحو الأحداث الآسيوية منذ سنة ١٨٥٠ . وكتب تحليلات ثمينة عن الهند والصين والشرق . وفي ظروف تأخر الثورة البروليتارية في الغرب ، ودخول الرأسماليـــة في طور من الاستقرار والسلم النسبيين في اوروبا ومستعمراتها ، واستمرار ونمو الأزمة الثورية في روسيا بعـــد الاصلاح الفلاحي ، انتهى ماركس الى اعطاء روسيا المتخلفة قيمة فريدة . لقد عقـد ماركس وانجلز أملهما « على الثورة الروسية ومداها الكوني الشامل » (لينين) ، وذلك في وقت لم يكن في روسيا بروليتاريا صناعية ، وقالا باحتمال ان تتجنب روسيا الطريق الرأسمالي . وهذا يطرح مسائل كبيرة في الماركسية ، من حيث انهـــا منهج للثورة ومنهج لعلم تطور المجتمع الانساني . ان دراسة هذه المسائل تخرج عن اطار هذا البحث . ولكن كيف لا نسجل هنـا هذا الموقف لماركس وانجلز ؟ لا سيما وان هذا الموقف في عرف الرفاق اللبنانيين و « تحليلهم العلمي الطبقي » ، لا بد ان يعتبر تحريفاً وانحرافاً من ماركس تجاه ماركس !

هكذا تبدو الامور فيما يتعلق بماركس وانجلز وعصرهما وماركسيتهما . ومن الواضح ان هذه الأمور تتخذ مدى اكبر ، مدى هائلاً عند لينين وعصره وماركسيته . يمكن أن يتناقش الماركسيون لمعرفة ما هو المكان الذي تتخذه هذه الثورة الديمقراطية وهـــذه المسائل القومية والفلاحية وهذا « الاجتماع » بين الثورتين البرجوازية والبروليتاريـة ، في ماركسية ماركس وانجلز . ولكن الأمر لا يقبل النقاش في ماركسية لينين . ان اللينينية تطور هذه الافكار وتنمّي هذه الجوانب وتعطيها بالتأكيد مكاناً محورياً ، وقيمة ستراتيجية ومبدئية (اذا كان لمفهوم الستراتيجية معنى ما مغايراً للتاكتيك ! والأمر كذلك قطعاً) .

اللينينية ، ماركسية عصر الامبرياليـة والثورة العالمية (العالمية فعلاً وبالتمام والكمال) ، هي اولاً البولشفية الروسية ، ولدت في روسيا ، عقدة تناقضات العصر الجديد ، حيث تجتمع الثورتان ، الديمقراطية والبروليتارية ، وحيث يلتقي الغرب والشرق ، روسيا الرأسمالية والفلاحية والقوميات ، وطن تولستوي ودوستويفسكي وتشرنيشفسكي ودانيلسون وبليخانوف ، والانتلجنتسيا والاغتراب (ثلاثـــة أجيال من المفكرين الثوريين) ، وبروليتاريا بطرسبرج واوديسا ..

ولينين يبدأ عيانياً من دراسة روسيا ، وتشكيلاتها الاجتماعيـة وطبقاتها (بالجمع) ، ونمو الرأسمالية في روسيا ، وسبل هذا النمو (مع التمييز بين « البروليتاريا » و « عمال الصناعة » الخ ، وتأكيد زعامة العامل الروسي للبروليتاريا الروسية وللثورة الديمقراطية الشعبية) ويصيغ نظرية الوعي (مؤكداً كل العلاقـــات ، كل الطبقات ، نابذاً المفهوم « الطبقي » العمالي الخالص المزعوم للاقتصاديين ، متلمّساً احتمال تحوّل روسيا من أكبر حصن للرجعية الاوروبية والآسيوية إلى طليعة للثورة العالمية (١٩٠٢) ، ويؤكد ، بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ، ان الثورة

الديمقراطية والفلاحية لم تخبُ ، يبحث المسألة القومية متلمّساً منذ عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ أهميتها الانفجارية في العصر الجديد الذي لم يستنفدها (بالعكس !) ، خارجاً (في تشخيص المثال النرويجي والمثال البولوني) من الصيغة الستالينية القائلة « ان الصراع القومي صراع برجوازي ». ثم ، في زمن الحرب العالمية الامبريالية (مع رجوع إلى هيغل والديالكتيك) ، يحلل الامبرياليــة وتناقضاتها ويؤكد الانقسام النهائي في حركة العمال الأوروبية ، صائغاً قانون تفاوت النمو بين البلدان الرأسمالية (مؤكداً امكانية وحتمية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحـد بادىء الأمر) ، ويعود من جـــديد إلى المسألة القومية في مساجلات خطيرة مع روزا لوكسمبورغ ومع بياتاكوف وانصار النزعة « الاقتصادية » على أساس مفهوم « الامبريالية » الذي غدا عندهم هيكلا أجوف . وفي ١٩١٧ يعلن تجاوز الصيغ البولشفية القديمة ، ويصيغ عيانيا برنامج الانتقال من المرحلة الأولى للثورة إلى مرحلتها الثانية . وبعد اوكتوبر ، يلخص لينين التجربة في قانون التحول ، تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة برجوازية : ليس من سور صيني بينهما . ان محاولة التمييز والفصل بينهما على غـير أساس درجة استعداد البروليتاريا واتحادها مع الفلاحين الفقراء ابتـذال برجوازي ليبرالي للماركسية ، الاولى تنمو – تتحول إلى الثانيـــة . الثانية تحل ، مروراً ، مسائل الأولى [1] .

هذا كله معروف جيداً . واحـــدى أهم نقاط هذا الكل تلمّس وادراك لينين (وخيرة ماركسيي عصره) حقيقة ان الثورة البروليتارية الاشتراكية انمـــا تنطلق وتنتصر في ظرف اجتماع الثورتـــين الديمقراطية والاشتراكية . نقول لينين وخيرة ماركسيي عصره . وفي هذا الصدد ، ان مأثرة تروتسكي كبيرة حقاً . منذ سنة ١٩٠٦ ، طرح

---

(١) وينقل ستالين هذه الموضوعات اللينينية الاساسية ، في « مبادىء اللينينية » ، « مسائل اللينينية » الخ ... وينقلها آخرون ويتناقشون حولها .

بشكل حاد مسألة ديناميكية الثورة الاشتراكية في بلد متخلف وفيه بروليتاريا صناعية متمركزة ومكافحة وان كانت قليلة العدد . وهـــذا التلمّس موجود بشكل وآخر عند سلسلة من الماركسيين : بارفوس ، كاوتسكي ، روزا لوكسمبورغ ، بليخانوف ، فضلا عن لينين والبلاشفة . كلهم فتحوا أعينهم على الواقع ، فادركوا أهميـــة روسيا والبروليتاريا الروسية ، مبدئيا . خلافاتهم على ما بعد هـــذا الادارك المبدئي ، على الاستنتاجات الستراتيجية والنظرية . ومحاولة اعادة بناء لينين ضد التروتسكية المحوّلة الى شبح مرعب قاد هنا وهناك الى ما دون بليخانوف وكاوتسكي .

ليس هناك ديناميكية ثورة اشتراكية خارج ظرف اجتماع الثورتين :

١ – هذا ما رأيناه في الموجة الأولى للثورة العالمية (الأوروبية): فرنسا والمانيا ١٨٤٨ ، فرنسا ١٨٧١ .

٢ – وهذا ما نراه في الموجـــة الثانية للثورة . أولاً ثورة ١٩٠٥ الروسية . وثانياً التحرّك الآسيوي (الثورة الديمقراطية في ايران وتركيا والصين ، تحرك الهند واندونيسيا والبلاد العربية) والأوروبي (بروليتاريا حوض الرور وفرنسا وانكلترة ، وخصوصاً ايطاليا وبلغاريا وشعوب النمسا) .

في روسيا : البروليتاريا ومجالس (سوفيات) نواب العمال والثورة الديمقراطية الشعبية الجبارة : العمال والفلاحون طلبة الجامعات وبحارة الدراعة بوتيمكين والبرجوازية الليبرالية . خارج روسيا : عمال مناجم الفحم في المانيا وفرنسا ، وعمال بلغاريا ، وعمال تبريز وبومباي والقاهرة ، الضباط الاتراك والمثقفون السوريون والضباط العراقيون ، برجوازية الهند

والصين وجاوا ومصر ... البروليتاريا تتحرك في غربي أوروبا ، وتتحرك أكثر في شرقيها وجنوبيها : في انكلترة ، نصر انتخابي ، والتكوّن النهائي لحزب العمال ، حزب النقابات . في بلغاريا ، نشوء تنظيم التسنياك على غرار تنظيم البلاشفة الروس (والوحيد من نوعه في أوروبا) . في ايطاليا ، نمو النجاح الماكسيمالي (جناح الحد الأقصى) داخل الحزب الاشتراكي وضد القيادة اليمينية ، بعد دراما الحرب الليبية . في فرنسا والمانيا وبلجيكا : الانتهازية ، الاشتراكية الاستعمارية ، الاصلاحية ، التحريفية ، تنمو يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ، وفي عام ١٩١٤ ، ينضم جول غيسد زعيم اليسار في حزب العمال الفرنسي إلى حكومة (الدفاع عن الوطن) الامبريالي . في آسيا : الحركة البروليتاريا في بداياتها . ويظهر في ايران حزب على غرار حزب الماركسيين الروس ، نشأ بمساعدة بلاشفة القوقاس . في روسيا ، تتثبت زعامة البروليتاريا للثورة الديمقراطية .

٣ - وهذا ما نراه في الموجة الثالثة للثورة : روسيا ، اوروبا ، آسيا والعـــالم . في زمن الحرب الامبريالية العالمية ، في ظرف اجتماع الثورتين الديمقراطية والبروليتارية ، وعـلى أساس الوعي اللينيني للعقدة التاريخية الروسية والعالمية والظروف العيانية في أدق تفاصيلهـا ، تفتح البروليتاريا الروسية بقيادة حزب البلاشفة الروس أول ثغرة ، ثغرة كبيرة في جبهة الامبريالية العالمية . عشرات الملايين من العمال والفلاحين والجنود يحطمون القيصرية والاقطاعية والرأسمالية والواناً من الاستغلال والاضطهاد الطبقي والقومي والديني والعرقي ، ويضعون الثورة الاشتراكية في « أمر اليوم » بالنسبة لمئات الملايين من الناس في العالم أجمع . المانيا ، ايطاليا ، بلغاريا ، فنلندة ، تشيكوسلوفاكيا ، بولونيا ، تركيا ، ايران ، سوريا ، مصر ، العراق ، الهند ، جاوا ، الصين ، منغوليا ، كوريا ،

اليابان ، فلسطين ، المغرب .. تدخل في حلبة الصدام الطبقي والقومي.

حركة العمال الثورية في « البلدان الرأسمالية المتطورة » و « حركة التحرر الوطني » في آسيا ترتقيان إلى مستوى أعلى . هـــذا ما يمكن قوله ، حسب منطق البرنامج اللبناني ، وهو قول حق : قامت عدد من الثورات البروليتارية في أوروبا ، وقامت عدد من الثورات الوطنية في آسيا . ونشأت احزاب البروليتاريا الثورية — الاحزاب الشيوعية — في البلدان الرأسمالية المتطورة (وفي البلدان الأخرى ايضاً ، في فرنسا وفي الصين ، وفي المانيا والولايات المتحدة وفي سوريا ومصر) .

ولكن لندقق الصورة ، وصولاً إلى مزيد من التحديـد والتشخيص .

أجل تحرك عمال نيويورك في ١٩١٧ (وبعنف) ضد دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية ضد المانيا . وعمال انكلترة تضامنوا مع روسيا السوفياتية ضد المتدخلين ، وبحارة الاسطول الفرنسي تمردوا في البحر الأسود . ونشأت الاحزاب الشيوعيـــة في فرنسا وانكلترة والولايات المتحدة ... ولكن : لم تقم ثورة بروليتارية ولا بداية ثورة بروليتارية في تلك « البلدان الرأسمالية المتطورة » والمنتصرة في الحرب العالمية . الثورات البروليتارية أو الديمقراطية — البروليتارية قامت وبقوة — واحياناً عدة مرات — في المانيا وايطاليا والمجر وفنلندة وبلغاريا أي في وسط أوروبا وشرقها . ايطاليا والمجر وفنلندة وبلغاريا كانت بلدانا نصف متخلفة أو متخلفـــة تواجه جميعاً مهمات ديمقراطية (أهمها مسألة ملكية الأرض ، ونضيف مسألة النظام الملكي والاستقلال الفعلي) . أما المانيا فهي من البلدان الصناعية المتطورة الجبارة ، ولكنها مستنزفة في الحرب ، وهي أيضاً تواجه بقايا مهمات ديمقراطية برجوازية (الامبراطور ، وارستقراطيته الزراعية والعسكرية ، نقص الوحدة) . والاندفاع الأول للثورة يشمل بحارة الاسطول وعمال برلين ، ويسقط الامبراطور وينهي الحرب العالمية ، ثم تأتي كومونة برلـين البروليتارية وجمهورية سوفيات بافاريا (وبافاريا

منطقة متخلفة ، ولعل وضع جمهورية سوفيات بافاريا لا يختلف كثيراً عن انتفاضات بروليتاريا باريس في ١٨٤٨ و ١٨٧١ ، وتحرك العمال الالمان في ١٨٤٨ ، فيما يتعلق بالتحالفات الطبقية ، بالقاعدة الشعبية والجغرافية للثورة الدائمة البروليتارية [١]) . الاندفاعات الالمانية اللاحقة تأتي من ظرف اجتماع ثورة البروليتاريا والنضال القومي ضد الاضطهاد الذي يسلطه الحلفاء المنتصرون (تعويضات الحرب ، الاحتلال ، سلخ السار ، منع انضمام النمسا الخ) . ولينين والكومنترن والحزب الشيوعي الالماني يحاولون ان يربطوا الثورة البروليتارية المنشودة بهذا الظرف القومي . وستالين في « مبادىء اللينينية » (١٩٢٤) يوجه نظره نحو المانيا ، لأن فيها بروليتاريا صناعية ضخمة ومكافحة ولأنها أمة مضطهدة ومهانة .

وبالطبع ، لا يكفي وعي الارتباط ، بل يجب تحقيقه . وهذا يؤلف مسألة كبيرة ، « مكتوبة » inscrite في الظروف الموضوعية ، جزئياً ، وجزئياً في الوعي (والتنظيم) . وليس الوعي هو مجرّد وعي « دور البروليتاريا القيادي » « المكتوب » في « التحليل العلمي الطبقي » .

٤ — الموجة الرابعة الظافرة للثورة العالمية تقدّم تسويغاً جديداً ، أعلى تسويغ ، لموضوعة اجتماع الثورتين ، تحوّل الاولى إلى الثانية في سير ثورة متصلة : البرجوازيات في اوروبا الشرقية لم تستطع ان تحقق مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية (ولا ان تصون الاستقلال) . وفي زمن الاضطهاد الفاشستي الالماني والمحلي ، وقفت الاحزاب الشيوعية في طليعة النضال القومي والديمقراطي ، واستشهد الالوف من مناضليها . وتحت قيادة هذه الاحزاب ، وفي ظرف انتصار الاتحاد السوفياتي ومعسكر الديمقراطية العالمية على الامبريالية الالمانية ، تحوّلت الثورة القومية والديمقراطية إلى

---

(١) هذا ايضاً ما يمكن ان نقوله عن كل التحركات البروليتارية التي قامت آنذاك في اوروبا الشرقية والجنوبية ، ولا سيما عن كومونة المجر ، وهي أهم الجمهوريات السوفياتية بعد روسيا (١٩١٩)

ثورة اشتراكية : صُفيت ملكية الاقطاعيين ، أممت المصارف والمصانع ، وتسلمت البروليتاريا السلطة . الصين ، كوريا الشمالية ، فيتنام الشمالية ، كوبا : أمثلة أخرى سنعود اليها .

ان التاريخ كله ، التاريخ الكوني منذ صدور « البيان الشيوعي » ، تاريخ الثورات التي انتصرت والثورات التي اخفقت ، شاهد يشهد **بأن لا ثورة اشتراكية خارج اجتماع الثورتين** ، خارج اجتماع الثورة الاشتراكية والثورة الاخرى ، الديمقراطية البرجوازية . الثورات البروليتارية التي فشلت ، هي أيضاً انطلقت من ظرف اجتماع الثورتين . وفشلها لم يكن مردّه ضعف الطبقة العاملة أو ضعف الطبقة العاملة فقط ، بل ايضاً وبصورة أوسع ، **ضعف الارتباط** بين الثورتين ، أو ضعف المهمات البرجوازية الديمقراطية (حالات متنوعة : المانيا ١٨٤٨ ، فرنسا ١٨٤٨ باريس ١٨٧١ ، الخ الخ ، لن نشمّلها تحت « قانون للفشل » بسيط ، تجريدي ، وهمي) . والثورات البروليتارية التي نجحت لم تنجح بسبب القوة العددية للطبقة العاملة أو « نضج الشروط الموضوعية » المنزلة الى « درجة التصنيع » ، بل نجحت بسبب قوة الارتباط بين الثورتين ، **واتساع القاعدة الشعبية الناجم عن الاجتماع والارتباط**، ووعي هذا الاجتماع وتحقيق هذا الارتباط على يد الحزب الماركسي – **اللينيني** ، **ونجحت** كلها على اساس عصر **الامبريالية** وتناقضاتها الرئيسية **الثلاثة** .

هذا كله معروف جيداً عند الماركسيين ومنذ زمن غير قصير (وان كنا لا نجده في البرنامج اللبناني) . ان تحوّل الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية يتخذ عند خبرة الماركسيين قيمة **القانون** . انه قانون رئيسي للثورة باعتبارها عملية ، أو سير تطور ونمو وتحوّل processus صراعي ، لا يحجبه مفهوم الامبريالية اللينيني ، بل يسنده ويؤكده .

١٣ - التحول والمسألة القومية على أساس الامبريالية .

ولكن هذا القانون ، حتى اذا « أضفنا » اليه مفهوم الامبريالية وأرسيناه على هذا المفهوم ، يبقى ناقصاً وقاصراً عن استيعاب ثروة الواقع التاريخي ، اذا لم نأخذ المسألة القومية وفي هذا الاطار نفسه ، اطار الثورة الدائمة المنبسطة في الزمان والمكان ، عالمياً ، في روسيا وأوروبا والشرق ، في عصر الامبريالية .

وأفكار لينين في المسألة القومية تبرز بالمقارنة مع أفكار خصومه المفكريين ، حلفائه الذين يقفون على « يساره » - روزا لوكسمبورغ ، بياتاكوف (كيفسكي) ، بوخارين - وأيضاً مع أفكار ستالين[1] .

في نظر ستالين (١٩١٣) المسألة القومية مسألة برجوازية ، والنضال القومي نضال بين الطبقات البرجوازية . وبالطبع ، تهتم البروليتاريا بالمسألة اهتماماً جدياً ، لأن القيود المفروضة على الأمم المضطهدة تصيب ايضاً البروليتاريا ، ولأن المشاحنات القومية تحوّل أنظار البروليتاريا عن مشاكلها ، مما يفرض على الحزب الماركسي تبديد الضباب القومي . وستالين يدافع بنجاح عن سياسة الحزب المتمثلة في شعار « حق الأمم في تقرير مصيرها » ومبدأ التحويل الديمقراطي لروسيا ، ضدّ خصوم الشعار ، من أنصار الاستقلال الذاتي الثقافي ، وضد البوند اليهودي وآخرين .

ويمكن القول ان الصفة البرجوازية الأساسية للمسألة القومية مبدأ أساسي عند لينين أيضاً . ولكن هذه الصفة ذاتها تعطيها مدلولاً عظيماً وتقدمياً وثورياً في « شرقنا » ، في شرقنا الذي لا يزال يواجه مهام الثورة البرجوازية (روسيا ، النمسا ، بله آسيا) . هذا اولاً . وثانياً . الصفة البرجوازية لا تستنفد المضمون الطبقي الفعلي للحركة : يسمي لينين نضال النرويج ضد الحكم السويدي نضال « الديمقراطية الفلاحية

---

(١) وأفكار ستالين هي التي ستهيمن .

النرويجية » ضد « الارستقراطية السويدية » (وهذان مفهومان يخرجاننا بهذا القدر أو ذاك من أطار الصفة البرجوازية الجامدة) . ويذكر ، نقلاً عن كاتب الماني قومي عنصري ، ان القومية (أي النزعة القومية = ناسيوناليسم) البولونية ، في بولونيا التي يضطهدها الالمان بشكل مضاعف في العصر الجديد ، قد حرّكت النبلاء ثم البرجوازية ثم الفلاحين ، مستبشراً بذلك ، مؤكداً ان هذا التحول في الحركة يحدث ايضاً في بولونيا الروسية (١٩١٤) . ويهتم لينين اهتماماً بالغاً بآسيا : لقد انتهى الطور السلمي من التاريخ العالمي : بعد روسيا ١٩٠٥ تتحرك آسيا ، وتتحرك قبل أوروبا ، وبذلك يبـــدأ طور جديد عالمي .. السند الرئيسي للديمقراطية الآسيوية هو الفلاح ...

وضد روزا اوكسمبورغ والبلاشفة الشباب وطائفة مـــن أصحاب « النزعة » الاقتصادية « الامبريالية » (وروزا اوكسمبورغ أفضل من هؤلاء ، لا تسقط في كاريكاتورهم « الطبقي ») يؤكد لينين ١٩١٥ — ١٩١٦ : ان الحروب القومية ليست فقط « ممكنة » في عصر الامبريالية المنفلتة من عقالها (بعكس ما تتصوره روزا وآخرون) ، بل هي ايضاً حتمية وتقدمية وثورية . ولئن كان من الممكن ان تتحول حرب قومية إلى حرب امبريالية (في الحرب العالمية الأولى : روسيا تقـــف وراء المطامح القومية الصِرْبية) ، فان هذا التحول ليس محتوماً . بل ان التحول المعاكس ممكن ايضاً (وهنا يقول له بعض رفاقه : « زوّدْتَها » . فيجيبهم : قلتُ « ممكن » ، وقد تكون الامكانية صغيرة جـــداً ، ولكنها موجودة) .

ولقد كان الحلفاء الخصوم بوجه عام يعاطفون بصدق مـــع شعوب المستعمرات ، مع شعوب آسيا وأفريقيا المنكوبين بأبشع استغلال واضطهاد ، بل ان بعضهم كان يعطي قيمة كبيرة للتحرك الآسيوي العظيم (مثلاً :

جماعة « تريبون » الماركسية الثورية الهولندية بقيادة أنطوان بانكوك[1] . غير أنهم دائماً كانوا يرفضون نقل هذا الموقف إلى أوروبا ، ويرفضون اعطاء اية قيمة ثورية للاحتمالات القومية داخل أوروبا . ولينين يرد عليهم : بولونيا ، ايرلندة !.. ليس فقط في شرقنا الأوروبي المتخلف (في سجن الشعوب القيصري ، وفي امبراطورية النمسا - المجر) بل ايضاً في الغرب المتقدم ، وطن الديمقراطية والدول القومية المستقلة ، هذه المسألة لم تستنفد . ان زمن « الديمقراطية » و « الامبريالية » بدلا من ان يستنفدها كما تتصورون ، يتيح لها امكانيات جديدة . انكلترة تشدّد قبضتها على ايرلندة زمن الحرب . والمانيا تسلط كابوس الاضطهاد القومي على بلجيكا الصناعية المتقدمة (وبعد الحرب ، فرنسا وحلفاؤها يسلطون كابوس الاضطهاد « القومي » على المانيا !) . ويستبشر لينين بصدور أول عدد من جريدة « بلجيكا الحرة » السرية (وهي اليوم جريدة كاثوليكية يمينية كبيرة ، ونرجح انها كانت كذلك آنذاك) .

ويستبشر بالانتفاضة الايرلندية لعام ١٩١٦ : هؤلاء الذين تصوروا أن المسألة الايرلندية التي شغلت القرن التاسع عشر قد استنفدت (والقرائن كانت تشير إلى انها استنفدت : اذ ان الحكومة البريطانية كانت قد حلت مسألة الملكية الزراعية وأعادت الأرض إلى الفلاح الايرلندي ، ومنحت السكان الحريات السياسية الخ) انما كانوا واهمين . وها هم الآن يزعمون ان الانتفاضة الايرلندية ما هي الا بوتش (اي تمرّد تآمري تقوم به أقلية معزولة) . ويرد لينين : « أن الحركة القومية الايرلندية التي لها من العمر قرون والتي مرّت في مراحل مختلفة و في تشكيلات

---

(١) ولينين ينقل في البرافدا معلومات أحد هؤلاء الرفاق عن التحرك القومي الديمقراطي في جزيرة جاوا (١٩١٣ ولينين يثني على قول روزا لوكسمبورغ : كثيراً ما ننسى نحن الاوروبيين ان شعوب المستعمرات هي أيضاً أمم والتساهل مع هذا النسيان هو تساهل مع الشوفينية الاوروبية (١٩١٦) .

مختلفة من المصالح الطبقية قد عبّرت عن نفسها مؤخراً (...) في قتال شوارع قادَهُ قسم من البرجوازية الصغيرة في المدن **وقطاع من العمال** [1] بعد طور طويل من التحريض الجماهيري والتظاهرات والغاء الصحف . أن من يسمي انتفاضة كهذه « بوتش » هو إما رجعي متصلب ، أو مذهبي فارغ عاجز عن ان يرسم لنفسه صورة الثورة الاجتماعية كظاهرة حية .

أن من يتخيّل ان الثورة الاجتماعية **يمكن تصورها** بدون ثورات الأمم الصغيرة في المستعمرات وفي اوروبا ، بدون الانفجارات الثورية لقطاع من البرجوازية الصغيرة **بكل أوهامها** ، بدون حركة تقوم بها الجماهير البروليتارية ونصف البروليتارية غير الواعية سياسياً ضد اضطهاد الاسياد ملاكي الاراضي والكنيسة والملكية ، ضد الاضطهاد القومي الخ – أن من يتخيل ذلك انما **يهجر الثورة الاجتماعية** (...) .

من ينتظر ثورة اجتماعية « طاهرة » لن يراها ابداً في عمره . « ذلك ثوري في الكلام لا يعرف ما هي الثورة الاجتماعية ».

وهنا موضوعة لينينية اخرى ، نضمها إلى اضبارة « التحول » والمسالة القومية ، والتخلف والاشتراكية الخ : **ليس من ثورة اجتماعية خالصة** ، ابداً . ونحن « الانتقائيين » الذين « نضيف » (!) « القومية » إلى الثورة الاشتراكية ، و « ننكر » (!) دور الوعي الذي أكده لينين وننسى (!!) قول ماركس ولينين « ليس المهم ما هي عليه البروليتاريا اليوم بل ما يجب أن تكون وما ستكون حتما » . كان أبونا ذلك « الانتقائي » الكبير الذي صنع الوعي بهذا الشكل والمضمون : ليس من ثورة اجتماعية خالصة . هذا ما يجب أن تكون عليه البروليتاريا وما ستكون عليه حتماً . (وفي بلادنا الشرقية : هذا ما هي عليه أصلاً ، وهذا ما يثير حقد أعداء « الانتقائية » اللينينية) .

---

(١) علامة التشديد من وضع لينين .

أن هذا النص اللينيني (ونصوصاً اخرى كثيرة) يؤكد لنا الارتباط الصميمي بين المسألة القومية وديناميكية التحوّل في منظورات لينين. وكل حديث عن الثورة الدائمة وتحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية بدون هذه المسألة القومية « موقف رجعي متصلب أو مذهبي مدّع فارغ » . أو لنقل انه عودة إلى المفهوم « الطبقي » الهيكلي بشكل أرقى ، بشكل مركّب « آلتوسريا » و « تروتسكيا » . وفي هذا المفهوم يغرق الماركسيون الجدد الذين « تجاوزوا » (!) الثورة القومية إلى ثورة اجتماعية خالصة « اشتراكية بروليتارية » ، وأن شئتم ، ديمقراطية برجوازية واشتراكية بروليتارية في آن واحد ، و « ضد الامبريالية » . كل هؤلاء على اختلاف مللهم ، يتشدّقون هم ايضاً ، بلفظ « الامبريالية » و « النضال ضد الامبريالية » (كما كان يفعل الكاريكاتوريون القدامى) دون أن يعرفوا ما هي الامبريالية وما هو النضال ضد الامبريالية . انهم رواد مفهوم « امبريالية » بلا «أمم»[1].

ولقد فكر لينين بتأليف كتاب يغطي فيه احصائياً القارات الخمس (الغرب ، شرقي اوروبا ، القارات الاخرى) من زاوية المسألة القومية ، بدءا بالتركيب القومي للسكان في كل قطر وفي كل منطقة من المناطق العالمية الثلاث. وما تركه لنا من هذا المشروع بعنوان « احصاء وسوسيولوجيا» (اوائل ١٩١٧) يفرض علينا ان نؤكد ان ايمان لينين بأهمية هذه المسألة القومية يسير صعوداً : يشعر لينين بضرورة البدء من البداية – الوصف والتعداد الاحصائي – ويسعى الى الاحاطة بأدق الجزئيات ، يذكر أصغر الدول مثل لوكسمبرغ وموناكو وسان مارينو ... قبل أن يعلن مشروعية اهمالها . يتحدث عن بلجيكا وسويسرة ، يستعمل عبارات من نوع « اليابان طاهرة قومياً » . يتلمس أهمية مسألة الزنوج في الولايات

---

(١) سواء كانت الفاظ « الامة » و « القومية العربية » و « الوحدة العربية » قد فرت خجلة من قاموسهم ، او كانت لا تزال تحتل مكاناً مرموقا و « ثوريا » في هذا القاموس .

المتحدة ... ولقد تخلى لينين عن مشروعه اثر قيام ثورة شباط في روسيا. ولم يفكر أحد من الماركسيين بإكماله [1] . ويواصل الفكر اللينيني تقدّمه في سنة ١٩١٧ . الفترة الممتدة بين شباط و٧ نوفمبر ١٩١٧ هي بالدرجة الأولى فترة نضال لينين ضدّ اولئك الذين لم يفهموا مبدأ تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية ، فترة التاكتيك العياني العظيم لهـذا التحول في روسيا ١٩١٧ ، فترة تحضير وتحقيق ثورة أوكتوبر . غير أنه من الخطأ ان يحجب هذا النضال الأساسي ضد « البولشفيك اليمينين » أسرى صيغ قديمة ، النضال الآخر على صعيد المسألة القومية ، ضد بوخارين وبياتاكوف ، من أجل شعار مساواة الأمم وحقها في تقرير مصيرها [2] .

ويتكرر هذا النضال بشكل أرقى في المؤتمر الثامن للحزب في آذار ١٩١٩. بوخارين طلب الاستعاضة عن صيغة : « حق تقرير المصير للأمم » بصيغة أخرى « طبقية » هي « حـــق تقرير المصير لجماهير الشغيلة » لـ « الكادحين » ، لـ « الشعوب » لمعارضة حق تقرير المصير للبرجوازية . وعلى الرغم من ان مسألة مصير السلطة الاشتراكية ومسألة مصير أمـــم « سجن الشعوب » القيصري (داخل أو خارج الدولة السوفياتية – الاشتراكية الاتحادية ؟) كانتا تتقرران معاً وفي اطار الصدام الروسي والعالمي (الحرب الأهلية وضد تـــدخل الدول الامبريالية) ، وعلى الرغم من أن بوخارين كان يرضى بشعار « حق الأمم في تقرير مصيرها » بالنسبة للهوتنتوت والبوشمن والزنوج والهنود ، أي بالنسبة

---

(١) ويرى القارىء ان حديثنا عن النموذج الاميركي – اللاتيني لم يكن من وحي الكتب المدرسية وحدها !

(٢) في كتاب « تاريخ الحزب الشيوعي (البولشفي) في ا . ج . ا . س »الصادر في١٩٣٨، من أصل خمس صفحات خصصت لاعمال مجلس (كونفرانس) نيسان ، خصصت صفحتان ونصف لهذه المسألة القومية ، وصفحتان ونصف لكل المسائل الأخرى : الوضع العام ، الحرب الحكومة الموقته ، السوفيات ، المسألة الزراعية . صحيح ان هذا المكان الزائـــد يرتبط بابراز ستالين وتقريرة عن المسألة القومية – غير ان هذه المسألة كانت بالتأكيد أحدى أهم المسائل في كل الفترة التي تسبق أوكتوبر .

لآسيا وأفريقيا (بالنسبة « للمستعمرات »)، ويستبعده فقـط بالنسبة لروسيا السوفياتية وبولونيا وعلاقاتها الخ . خشية ان يساعد شعار « حق الأمم » دعاية البرجوازيات ويخدم في تقليص رقعة الدولة السوفيانية الخ (وهذا تقريباً، موقف روزا لوكسمبوغ في كتابها الأخير)على الرغم من ذلك فان لينين هاجم بقوة آراء بوخارين (دعوته إلى الاستبدال المذكور في أوروبا الشرقية على الأقل) نظراً لطابعها التجريدي ولرفض صاحبها ان ينظر وجاهياً إلى مسألة تقرير المصير كما هي مطروحة في ما كان « سجن الشعوب » .

لسوء الحظ ، هذه المسألة ، مسألة « تقرير المصير » التي شغلت ماركسيي ١٩١٣ و ١٩١٥ – ١٩١٦ و ١٩١٩ الخ ، والتي تميز لينين وأنصاره (ستالين ، زينوفييف ....) من جهـة ، والنمسوين والبونديين وروزا لوكسمبورغ و « الوسط » الماركسي وبياتاكوف وبوخارين وأنصار تيار « الاقتصاديـة الامبريالية » (وفي ١٩٢٢ ستالين) شوهت في بلادنا. وعملياً بُترت « دعائياً » . في نظر « اللينينيين » – الستالينيين ، القضية هي تأكيد « حق الأمم في تقرير مصيرها » والمساواة بين القوميات الأقلية والعرب في بلادنا . وجماعـة الحزب الشيوعي الكردي (جماعـة شورش) في عراق ١٩٤٤ – ١٩٤٧ « سحبت » مباشرة تقرير المصير على موضوع كردستان العراق ، ثم تبعها الحزب الشيوعي العراقي ، بعد عهد القيادة الفهدية . في برنامج الحزب الشيوعي العراقي (جماعة القاعدة = فهد)لعام ١٩٤٤ ، لانجد حق تقرير المصير للاكراد ، والمساجلات بين فهد والمثقفين الشيوعين الأكراد من جماعة شورش المخاصمة لفهد وحزبه معروفة . ولقد تحفظ فهد تجاه جمهورية ماهاباد الكردية الايرانية وجناحها اليساري (المتطرف في هذا الموضوع ايضاً) . ولعل الشهيد الخالد كان يدرك ان الصيغ والشعارات والمبادىء لاتسحب هكذا من روسيا وأوروبا على الشرق الأدنى ، (أن تقرير المصير للهوتنتوت والزنوج والهنود هو أولاً ضد الاستعمار والامبريالية وليس لتشجيع النوازع القبلية ، أو القبلية القومية بقيادة « ماركسيين » . واذا كان من غير الممكن ان نبدي أي تحفظ تجاه اعتبار الاكراد قومية أو أمة وليس مجرد قبائل أو عشائر ، واذا

كانت معرفتنا باللعب الاجنبي والغربي بالمسألة الكردية الحديثة (ومنـــذ ظهورها)[1] لا تحجب عنا أهمية الحركة وجماهيريتها واساسها « الموضوعي » في الوجود القومي الكردي ذاته ، واذا كانت ادانتنا كاملة للنزعة القوميـــة العربية المعادية للاكراد وقوميتهم (التي تعي وتعلن عداءها أحياناً ، واحياناً لا تعي هذا العداء وتغرق في عبارات الود والحب تجاه الاكراد وتاريخنا المشترك صلاح الدين محرر وموحد العرب ...). واذا كان ليس هنا المجال لدراسة وحسم هذه النقطة الشائكة (هل « نعطي » أو « نعلن » حق تقرير المصير للاكراد) فانه قد رأينا من الضروري ان ننوه هنـــا بموقف الرفيق فهد وبرنامج حزبه . رأينا ذلك ضرورياً ما دام أخ كردي ماركسي – لينيني قـــد عرض في ندوة الجزائر (ايار١٩٦٧) تاريخ مواقف الشيوعيين العراقيين من النقطة المعنية (تقرير المصير للاكراد) ، دون ان يذكر هذه النقطة : غياب النقطة موضوع حديثه من برنامج الحزب الشيوعي الفهدي[2] .

الرفاق اللينينيون – الستالينيون في لبنان وبلدان الشرق العربي والعـــالم العربي حطـّوا اللينينية وشعارها عن حق تقرير المصير ، دعائيـــاً ، بتروه من

---

(١) كيف ننسى اللعب الغربي والانكليزي بالمسألة العربية والدعوة العربية ؟

(٢) وكأننا نسمع تهليل صنف من الاخوان العرب ... « انه كردي مـــع الاكراد ضد العرب . شكراً على الرد . حمانا الله من هؤلاء العرب القوميين ، حتى (خصوصاً) اذا أيدونا (قد كتبنا كل ما يلزم حتى لا يؤيدونا)سواء كانوا ثوريين بدون الماركسية او معها. فالاخ الكردي المذكور اكثر إيماناً وولاء للوحدة العربية من كل ملهم. ومرة اخرى لا ندعي أننا حسمنا هنا أي شيء فيما يخص المسألة الكردية . في الحوار المطلوب مع الاخ الكردي نرجو أن ننطلق جميعاً من التاريخ والوثائق (١٩٤٤ إلى ١٩٦٩) وان يصحح لنا الاخ المذكور معـــلوماتنا القليلة اذا كانت خاطئة وان يثبتها اذا كانت صحيحة . ولا ريب ان القسم الاكبر من « الاضبارة »هو في حوزته ، وما لدينا منها لا يسد الرمق .

حالياً الماركسيون – اللينينيون الجدد اليساريون انصار الثورة الثقافية البروليتارية ، حملوا على اكتافهم قضية الاكراد وتفجير الثورة الكردستانية ، من بيروت . « اذا كنت تشعر بالذنب، أجلد نفسك بدلا من ان تجلد الآخرين» .

مجمل الفكر اللينيني في المسألة القومية والامبريالية ... وضد هـذا الابتذال ، نهض رفاق آخرون لينينيون – لوكسمبرجيون – ترتسكيون، سقطوا في موقف رد فعل خاطيء: في نظرهم ان تقرير المصير ليس عند لينين أكثر من « شعار »، ولينين اعترف بان خلافه مع يونيوس (روزا لوكسمبورغ) صاحبة الكراسة الشهيرة (١٩١٦) خلاف تاكتيكي ، أجل tactique ، ولكنه « شعار » أصر عليه لينين وعارضه غيرهم، وعارضته روزا لوكسمبورغ ، بشكل لاذع وساخر ، في كتابها الاخير في نقد « الثورة الروسية » ومسلك البلاشفة الروس (١٩١٨) . وأصر عليه لينين ضد ستالين و أوردجونيكيدزه ود زرجنسكي ، ضد سلوك هؤلاء الجيورجيين والبولوني المروّسين والذين هم أشد تشنجاً قومياً روسياً ضد جيورجيا من الروس (١٩٢٢) . وسخرية التاريخ الحقيقية هي اذن في الامر التالي : هذا آخر ما قالته روزا لوكسمبورغ – الماركسية الثورية العظيمة – وهذا آخر ما قاله لينين – مؤسس ماركسية عصر الامـــبريالية والثورة الاشتراكية – بخصوص تقرير المصير وبخصوص المسألة القومية . تاكتيك أو غير تاكتيك (والتاكتيك عند لينين شيء عظيم والتركيز الاخـــير للنظرية والستراتيجية ، رغم الفرق والاختلاف ، وليس اذن تكتكة « ثوريي » بلادنا) ، وهذا النقطة التي هي المسألة القومية ، جزءاً لا يتجزأ من المعادلة التاريخية للثورة الاشتراكية ، ترتبط بكل التحليل اللينيني للعصر الامبريالي وتشكل مع نقاط أخرى نسيج هذا العصر . والفترة اللاحقة كلها تبرّر هـــذه النقطة اللينينية وتعطي للاختلاف بين لينين والآخرين قيمة اكبر مما كانوا يتصورون ، ومما كان يتصور لينين [1] .

ويواصل الفكر اللينيني تقدّمه في السنوات الاولى لبناء الكومنترن

(١) نقول ? مما كان يتصور لينين مع شيء من التحفظ ، ولا نفهم من هذا القول ان لينين لم يكن يتصور الأهمية . كتاباته في ١٩٢٢ و١٩٢٣ و١٩١٦ الخ تشهد بذلك . غير أننـــا اذ نقول هذا القول فقصدنا منه انه لا يجوز ان نبني تقـــديرنا لأهمية الخلاف بين لينين وروزا لوكسمبورغ على قول (واحد) للينين فى ١٩١٦ ولا حتى على خمسة أقوال للينين في ١٩٢٨ . (ولا يفوت القارىء ان لينين مات قبل هذا التاريخ) .

(١٩١٩ - ١٩٢٣) .

يؤكد لينين بشكل متعاظم على وجوب التمييز بـــين النزعتين القوميتين (ناسيونالليسم) - قومية المضطهَد وقومية المضطهد - ، يحارب الشوفينية الاستعمارية للاحزاب الاشتراكية اليمينيه ، في الاحزاب التي انضمت مجدداً إلى الأممية الشيوعية ، ولا سيما في الحزبين الشيوعي الفرنسي والانكليزي ، ويدعو الى مساندة استقلال المستعمرات فوراً ، بالافعال وليس فقط بالاقوال .

وفي المؤتمرين الرابع والخامس للكومنترن (١٩٢٢ ، ١٩٢٤) ، تشن حملة متكررة عـــلى الحزب الشيوعي الفرنسي وصحيفته ، إثر فضيحة فرع سيدي بلعباس الشيوعي الجزائري الفرنسي الذي عارض في وثيقة شهيرة نداء الكومنترن عن استقلال تونس والجزائر ، ويشترك في هذه الحملة سافاروف ومانويلسكي و . . . نغوين آي كووك (هوشي منه) .

وفي المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) ، وهـــو المؤتمر الذي صاغ شروط الانتساب إلى الكومنترن بهذه الروح ، والموضوعات المتعلقة بالمسألة القومية والكولونيالية ، يضع لينين أسس استراتيجية عالمية تتوجه في آن واحد نحـــو الغرب البروليتاري المتقدم ونحو الشرق القومي والفلاحي والثوري والبروليتاري الناشيء . وكان ذلك انعطافاً في المفاهيم والتأسيس الحقيقي للأمميـــة الشيوعية اللينينية .

وحتى نفهم هذا الانعطاف لا بأس من نقل فقرة وردت في بيان المؤتمـــر الأول للكومنترن (١٩١٩) . وتقول هذه الفقرة « ان تحرر المستعمرات لا يمكن تصوره إلا في وقت واحد مع تحرر الطبقة العاملة في البلدان الاستعمارية . فان العمال والفلاحين ، ليس فقط في آنام والجزائر والبنغال ، بل وفي العجم وأرمينيا أيضاً لن يستطيعوا التمتع بوجود مستقل الا يوم يقبض عمال انكلترة وفرنسا على زمام السلطة الحكومية بعد ان يكونوا قد اطاحوا بلويد جورج وكليمنصو » .

نقلنا هذه الفقره الهامة من حديث بشير الحاج علي في « ندوة علمية دولية »

انعقدت في براغ بمناسبة مرور مئة عام على الأممية الأولى (مجلة الوقت « نوفمبر ١٩٦٤ » ص ١٥٧) . وينتقد الرفيق الجزائري هذا المفهوم : « ان هذا المفهوم الذي يبرز خصوصاً دور الطبقات العاملة الأوروبية قد أسهم في تأخير الاوساط العمالية الأوروبية في وعي معنى التغيرات العميقة التي كانت مزمعة أن تحصل خلال السنين التالية في المستعمرات » . . . والرفيق الجزائري محق في نقده ليس لأن المفهوم المذكور خاطىء وَحَسْب ، بل لأن هذا المفهوم حين تسير عليه الأوساط العمالية الأوروبية خلال عشرات السنين (وهذا مَدْلول نقد بشير الحاج علي) ، رغم المؤتمر الثاني للكومنترن ، إنما يشكل تراجعاً عن منظورات المؤتمر الثاني والغاء للاشكالية problématique الكبيرة التي انبسطت في هذا المؤتمر وانتهت إلى إقرار مبادىء لينين من حيث الأساس .

لقد واجه المؤتمر الثاني للكومنترن خطين مغايرين لستراتيجية لينين :

١ - خط « يساري أوروبي » دافع عنه الايطالي سيراتي ، وفحواه عدم مساندة الحركات القومية الآسيوية حتى لا تميّع التمايز الطبقي والأنقسام الطبقي فتخدم برجوازية الأمم الآسيوية ، في حين ان هدف الشيوعية هو « البروليتاريا » . وقد رفضت هذه الستراتيجية الأوروبية « اليسارية » بما يشبه الاجماع (سيراتي لا يرى أنه بموقفه الطبقي المزعوم وبحرصه على الصفة البروليتارية المزعومة وعلى عدم التورط في هذه القومية الشرقية المتخلفة ، انما يخدم القومية الأخرى الأوروبية الامبريالية) .

٢ - خط «يساري آسيوي» تمثل في آراء الهندي روي الذي قدم موضوعات أخرى مغايرة لموضوعات لينين في هذه المسألة القومية والكولونيالية . ويتلخص موقف روي في النقاط الآتية :

يحور كل استراتيجية الثورة العالمية على آسيا ، أي على المستعمرات . ويرفض أي تحالف أو مساندة للبرجوازية الوطنية في آسيا . وعلى الرغم من بعض النظرات الثاقبة ، فإن خط روي المزدوج يقود الحركة في طريق مسدود . ومن الجدير بالإشارة أن موقف روي ينطوي على نزعة « المدَمية القومية » منقولة إلى

آسيا وظروفها. حسب روي، في الهند ، هناك من جهة الحركة القومية البرجوازية غير الشعبية ، ومن جهة أخرى الحركة الشعبية الثورية ، حركة العمال والفلاحين، حركة الشغيلة غير القومية . ويقول روي أن عمــال وكادحي الهند لا تعنيهم « القومية » (حتى لو كان ذلك صحيحاً فإنه ليس لصالح العـمال الهنود) . والحقيقة أن روي استعاض عن الواقع بآرائه غير الصحيحة . وقد جـاء رد لينين : ما هى قوة الحزب الشيوعي عندكم ؟ وقد أشار مانويلسكي (في ١٩٢٤) إلى العدمية القومية عند روي ، وقرن موقفه بموقف بوخارين في مؤتمر الحزب الروسي في آذار ١٩١٩ وطلبه الاستعاضة عن حق الامم بحق الشغيلة . ولنقل ان آراء روي تذكر بآراء بياتاكوف وبوخارين وتيار «الاقتصادية الامبريالية» لدى الماركسيين الثوريين الأمميـــين الأوروبيين في ١٩١٦ ، منقولة إلى آسيا ١٩٢٠ ، وعلى أساس استراتيجية متحورة على آسيا في الثورة « الطبقية » العالميــة ضد الامبريالية. وفي المؤتمر الثاني للكومنترن (١٩٢٠) صاغ لينين (وأيده روي) الموضوعة القائلة **بامكانية تجنب المرحلة الرأسمالية من التطور بالنسبة لبعض الاقطار** التي لا تزال في طور سابق (اقطاعي ، او بطريكي – اقطاعي) . هذه الفكرة يقول الخبراء الغربيون، وبعضهم مع الغمز المناسب، انها نبعت من ضرورة توجيه شعوب تركستان والقوقاس ومنغوليـا في الطريق الجـديد ، الاشتراكي (من فوق المرحلة الرأسمالية واحياناً من فوق « المرحلة الاقطاعية » و مرحلة « مجتمع الرق ») ونِعْمَ ما يقولون . والمفهوم ان أصحاب الغمز كانوا يفضلون ان تسير الشعوب في طريق بناء الرأسمالية أولاً (أو ربما بناء مجتمع الرق فالمجتمع الاقطاعي) . والحال ، هـذا الطريق مستحيل ، والطريق الممكن الآخر كان طريق السقوط تحت نير الامبريالية الانكليزية والعالمية (وفي أحسن احتمال سلوك طريق من النمط السعودي أو الليبي اذا وجـد النفط) . والمؤتمر الكومنترني الثـاني وسياسة الحكم السوفياتي فتحت بالتجربة الجـديدة (وهي جزء لا يتجزأ من التجربة كلها) طريقاً يمكن ان تسلكه في بعض

الظروف شعوب اخرى ، تشبة في أوضاعهـا الاجتماعية والاقتصادية منغول وتركان ١٩٢٤ .

غير ان قيمة الموضوعة اللينينية والكومنترنية المتعلقة بامكانية تجنب المرحلة الرأسمالية في بعض البـلدان المتخلفة في بعض الظروف لا تقتصر على ذلك . والمعروف (١) ان هـذه الموضوعة الثمينة ، في زمن لاحق ، قـد سقطت على صعيد النظرية في سلة المهملات . وهذا نوعاً ما مفهوم . لقـد سلكت شعوب تركستان ومنغوليا طريق البناء الاشتراكي بقيادة المركز البروليتاري والصناعي الروسي ، والشعوب التي في وضع مشابه هنا وهناك على سطح القـارات بعيدة جغرافياً وتاريخيـاً ونضالياً . ومن لم يكن منها قـد سلك طريق التطور البرجوازي الرأسمالي بدأ (في أغلب الأحيان) يسلك هذا الطريق ، وبدأ يسلكه في ظل الاوضاع الكولونيالية للامبريالية العالمية . وعلى صعيد النظرية ، قيل في هذه الحالة تسقط موضوعة لينين . وأضيف توضيح مفاده ان تلك الموضوعة صحيحة بالنسبة للبلدان التي لم تلج بعد طريق الرأسمالية . ولكن ما دامت قـد ولجته ، فقد بات عليها ان تواصل ، نظراً لقوة ديناميكية الملكية الخـاصة والانتاج السلعي والعلاقات البرجوازية . ولا يسع الماركسي بالطبع الا أن يقرّ بهـذه القوة . العلاقات البرجوازية ، الاقتصادية السلعي ، قوة المال ورأس المال ، تـُخرّب بسرعة أعرق المجتمعات المشاعية والبطريكية . شتان ما بين النموذج البرجوازي الاوروبي والنماذج الاوروبية السابقة . فهو وهو وحده اقتحم العالم ونفذ إلى اقطاره من الخارج والداخل . من لم يأت الى الرأسمالية أتت الرأسمالية اليه . غير ان المسألة ليست هذه الآلية الاقتصادية وحدهـا . ونحن نعيش في عصر صراع عالمي متنوع الاشكال والاحتمالات . وبعد البحث يبدو لنـا ان ضياع الموضوعة اللينينية عن امكانية تجنب المرحلة الرأسمالية كان خسارة . كان خسارة في حساب الواقع وخسارة جدّية في الجبر اللينيني. وبهذا الصدد تـَكرّر

(١) ونجد دراسات عن هذا الموضوع في اعداد قديمة من مجلة « الوقت » .

في زمن الاممية الثالثة ما حدث في زمن الاممية الثانية : ان فكرة امكانية التجنب واردة عند ماركس ايضاً ، وعن روسيا (١٨٧٥ – ١٨٨٣) . ولقد سلكت روسيا فعلاً طريق التطور الرأسمالي . ولكن ذلك لم يكن مبرراً كافياً لالغاء فكرة الاحتمال من النظرية . بدليل العودة اليها بشكل جديد وأرقي في ١٩٢٠ . وكان ذلك درساً تَكَرَّرَ لسوء الحظ .

نريد ان نقول ان الموضوعة المتعلقة باحتمال تجنب المرحلة الرأسمالية تأخذ قيمتها الحقيقية الكاملة في اطار كل منظورات اللينينية وكجزء من هذه المنظورات : الثورة العالمية على الامبريالية وتحول الثوره القومية والديمقراطية الى ثورة اشتراكية . ليست المسألة اذن منغوليا بل ايضاً كل البلاد الشرقية المتقدمة نسبياً (بالمقارنة مع منغوليا ، ١٩٢٤) : الهند والصين وايران والبلاد العربية الخ ... ليس هناك حدود « موضوعية » تفرضها « قوانين المادية الديالكتية والتاريخية » على تطور الثورة . من فلسفة « الماركسية العامة » ، لا نستخلص هكذا ، أي شيء . والحال ، ما حصل عند ماركسيي بلادنا وبلدان أخرى كان تحريفاً وتخريفاً: من نظرية تعاقب المجتمعات الخمس الموسّعة عالمياً (بما يخالف كل مفاهيم ماركس الآسيوية) أُكد ليس فقط حتمية تقدم الرأسمالية ، أو العلاقات البرجوازية بل وحتمية وضرورة قيام « المجتمع البرجوازي » المستقل ، العصري ، الديمقراطي الخ.... وبالاستناد إلى علم تطور المجتمع الانساني « الذي يبين ان كل المجتمعات » يجب ان (؟) تمر بالمرحلة البرجوازية ، أعلن « الأمين العام » في تقريره أمام المؤتمر بتاريخ ١٩٤٣/١٢/٣١ ، سقوط الهدف الاشتراكي من برنامج الحزب. ان ذكر الاشتراكية هرطقة تجاه هذا العِلم الاجتماعي الذي له قوانينه شأنه شأن علم الكيمياء (ومالك هذه القوانين وحب المجتمع البرجوازي يستغني أيضاً عن مكافحة الملكية الاقطاعية وعن مفهوم « الطبقات » عموماً الخ). والحال ان لينين (وبليخانوف من قبله) لم يقل يوماً في مجادلته ضد « النارودبين » أنطار طريق روسيا الخاص الأصيل ان « المجتمع » البرجوازي « في روسيا يجب ان ينتصر ويكتمل حتى نفكر

بالهدف الاشتراكي ونسجلة في برنامج حزبنا ، بل ولم يقل مرة واحدة ان الرأسمالية » و « العلاقات البرجوازية » « يجب أن » تنتصر . بالعكس :

لقد عارض بصورة متكررة هـذا الـ « يجب أن » . وأكد ان الرأسمالية تنتصر ، وأن الرأسمالية انتصرت في روسيا ، وهيمنت باشكال مختلفة ، وعرضها بالوقائع والأرقام وحلّلها ، وحتى مع تأكيده هذا الانتصار وعلى أساسه أكد على الثورة الديمقراطية (السياسية والفلاحية) .أما الأمين العام السوري والذين ساروا معه فقد تخلوا عن كل هذا واعتمدوا الـ « يجب ان » يقوم « المجتمع البرجوازي » . صحيح ان هذا « التفكير » ليس في جوهره وليد إهمال « الحركة الشيوعية العالمية » للموضوعة المتعلقة بامكانية تجنب المرحلة الرأسمالية. غير ان الاهمال المذكور أحد قرائن المنهج الذي وصل عندنا إلى شوطه الأخير . واذا كنا نعود الآن إلى هذه القضية فلأنها تبين أهمية موضوعة التحول اللينينية وخطر إهمالها في برنامج الحزب ، باعتباره الوثيقة النظرية الأساسية لدى الحزبيين وأصدقائهم .

كانت سنة ١٩٢٠ سنة حاسمة في تاريخ اللينينية . فهي سنة المؤتمر الثاني وشروط الانتساب للكومنترن وموضوعات لينين عن المسألة القومية والكولونيالية : الستراتيجية العالمية فعلاً ، البروليتارية فعلاً ، وبضمنها حركة التحرر القومي والموضوعة المتعلقة بامكانية تجنب المرحلة الرأسمالية من التطور . وتأكيداً لهذه الستراتيجية العالمية فعلاً ، والتي تدفع قضية الأمم المضطهَدة إلى مستوى رفيع جداً ، صدرت مجلة « شعوب الشرق » تحت شعار : « يا عمال العالم وأيتها الأمم المضطهَدة اتحدوا ! » . فسأل أحد الرفاق : « متى قررت اللجنة التنفيذية (للكومنترن) هذا التغير في الشعار ؟ » [1] ويرد لينين : « حقاً لا أذكر أي قرار من هذا النوع . وبالطبع من وجهة نظر البيان الشيوعي هذا

---

(١) شعار البيان الشيوعي : « يا عمال العالم اتحدوا » ، وبالطبع الشعار الجديد لا يلغي القديم إلا في نظر الذين يتصورون ان القديم يحرم الجديد . « يا بروليتاريي جميع الاقطار اتحدوا » (١٨٤٨ - ١٩٦٩) .

الشعار خاطيء . أما من وجهة نظر سياسة العهد الحاضر ، فهـــذا الشعار صحيح . فالعلاقات أكثر حدّة . ألمانيا بأسرها في حالة اختمار . وكذلك آسيا. لقد قرأتم تقريراً عن مصير الحركة الثورية في الهند. وفي الصين ثمة كره شديد ضد اليابانيين والاميركيين . وفي ألمانيا حقد يتلظى ضد الحلفاء لا يعادله الا كره العمال الألمـــان لرأسمالييهم . ومن جراء ذلك ، أضحت روسيا الناطق المباشر بلسان جميع المضطهدين في العالم» (خطاب في اجتماع لمناضلي الحزب في موسكو ١٩٢٠/١٢/٦) .

وفي سنة ١٩٢١ انعقد المؤتمر الثالث للكومنترن ، الذي يقول عنه الخبراء بحق أو غير حق أنه أهمل المسألة الكولونيالية بالمقارنة مع المؤتمر السابق (هل كان عليه أن يكرر المناقشات السابقة ؟ [1]) ، والذي يمثل بداية الانعطاف اللينيني نحـو سياسة « الجبهة المتحدة » ضد الاندفاعات « اليسارية » لفريق كبير من الرفاق الطليان والألمان والتشيكيين (تيراشيني) . في هذا المؤتمر وقف لينين « في أقصى اليمين » (على حد تعبيره المازح والساخر) مميزاً موقفه حتى عن اولئك المتهمين « باليمينية » من قبل اليساريين وهم في نظر لينين لا يزالون « يساريين » طفوليين يطالبهم لينين بمزيد من« اليمينية » (اكالاً للطابق الساخر ضد الرفيق تيراشيني . حقاً كان الرفاق الاوربيون في البداية ... والبلاشفة الروس أجمعوا ضد عدد من سخافاتهم). وليس هنا المكان لعرض رد لينين على « اليساريين » في هذا المؤتمر (هذا الردّ موجود في المختارات . تيراشيني ورفاقه يقولون : معنا اكثرية العمال في ايطاليا ، في تشيكوسلوفاكيا ... عدد العمال كبير ، عدد اعضاء الحزب كبير ، وضعنا أفضل من وضع البلاشفة في اكتوبر ١٩١٧ . ولينين يرد : الجيش؟ الفلاحون ؟) . ولكن تجدر الاشارة إلى ان خطة لينين « المعتدلة » ترتبط ايضاً بمنظوراته العالمية ــ الاسيوية . والمسألة القومية الكولونيالية تحتل أهمية بارزة

---

(١) وقد احتج روي على الاهمال .

في موضوعات الحزب الشيوعي الروسي إلى المؤتمر (ليس فقط « حركة التحرر الوطني » بل الجماهير الكادحة ، بروليتاريا المصانع وسكك الحديد في الهند . .)[1].

وفي هذا المؤتمر الثالث ، قال لينين « هذه الحركة التي تقوم بها غالبية سكان المعمورة والتي كانت تهدف بالاصل إلى التحرر القومي ، ستنقلب ضد الرأسمالية والامبريالية ، وربما تلعب دوراً اكثر ثورية بكثير مما توقعنا حتى الآن [2] ، اكثر ثورية بكثير مما قادتنا الاحداث الى توقعه «that we have been led to expect»

وليس ستالين زمن لاحق ، او توريز او سيراتي ، هو المتوقع بل لينين ، لينين واضع الستراتيجية العالمية فعلا ، ومؤكد التحولات ، ومبرز أهمية الشرق . وكان لينين يقول في هذا المضمار العالمي ، والشرقي ، والقومي : يمكن ان يتخطاني المستقبل ، في هذا الاتجاه « اكثر ثورية بكثير مما توقعنا حتى الآن » . امكانية ! امكانية فقط ! بالأحرى ! ان التاريخ برّرها ويبررها يومياً . ولينين أشار باصبعه إلى هذه الامكانية أن تلعب الحركة المذكورة « دوراً اكثر ثورية بكثير مما نتوقع » . بل اضاف : « ومن المؤكد ان الصعوبات اكبر بكثير في هذا الميدان الواسع » ولكن الحركة تتقدم على كل حال ، وجمهور الشعب الكادح – الفلاحون في البلدان المستعمرة – رغم كونه لا يزال متأخراً ، سوف يلعب « دوراً ثورياً كبيراً للغاية في المراحل المقبلة من الثورة العالمية » (هذه تتمة المقطع في التقرير نفسه) .

سنة ١٩٢٢ تشهد مرض لينين . . وتدخل لينين ضد مشروع ستالين المعروف باسم الاستقلال الذاتي ، وضد سياسة ستالين في القضية الجيورجيـة ، وتأسيس الاتحاد السوفياتي طبقاً لافكار لينين : المساواة الكاملة ، اتحـــاد جمهوريات (لا جمهورية اتحادية) باعتباره الشكل الأصلح لوحدة الأمم السوفياتية : ان ضرورة الوحدة ضد امبرياليي الغرب شيء لا يقبل النقاش . « ولكن شيئاً آخر ان نسقط نحن ولو من حيث التفاصيل في مواقف امبريالية ازاء القوميات المضطهدة » .

---

(١) المختارات ، بالعربية ، المجلد الاخير ، ص ٢٧٨ . مجموعة « حركة التحرر الوطني »

(٢) انظر مقالات لينين الاخيرة في قضايا البناء الاشتراكي والشيوعي في الاتحاد السوفياتي . طبع موسكو ، موجودة بالعربية ، أو مجموعة « حركة التحرر الوطني » .

وفي اوائل ١٩٢٣ ، يُمْلي لينين تعليقه على مذكرات المنشفيك ن . سوخانوف « حول ثورتنا » . ولقد كان رأي سوخانوف واسراب من المنشفيك الطيبين أو نصف الطيبّين ان روسيا متخلفة « لم تبلغ في تطور قواهـا الانتاجية المستوى اللازم الذي يجعل الاشتراكية ممكنة » . وعلى هؤلاء - سوخانوف ، بليخانوف ، كاوتسكي الخ - لا يرد لينين كلا ، كلا روسيا من « البلدان الرأسمالية المتطورة » و « طبقتها العاملة » كثيرة العـــدد وهي « طبقة عاملة لبلد رأسمالي متطور » لا . ليس هذا جواب لينين (بالعكس ، ان لينين يؤكد بقوة على أن روسيا متخلفة ، جاهلة بربرية ، « آسيوية » ، وان الرأسمالية أرقى منا بكثير . فلنتعلم منها ...) .

ولينين « يوافق » على موضوعة تأخر روسيا ، ولكن هذه الموضوعة ليست حاسمة لتقييم ثورتنا . اذا كانت الشروط الأوليـة للاشتراكية مفقودة ، لماذا لا نبدأ بصنع هذه الشروط ثورياً ، بالاستناد على الحكم السوفياتي ؟ ثم ما هو هذا المستوى اللازم ؟ ويشرح لينين عقدة الظروف التي حكمت ديناميكية الثورة وانتصارها في روسيا : اجتماع حركة العمال و« الحرب الفلاحية » التي قال بهـا ماركس في المانيا ١٨٥٦ ، الحرب الامبرياليـــة العالمية الاولى ، موقع روسيا التاريخي والاجتماعي و« الجغرافي » (!) « ان امثال سوخانوف وبالاحرى اولئك الاشتراكيين الديمقراطيـــين الذين يقفون أبعد منهم الى اليمين ، لا يفهمون ان الثورات بشكل عام لا يمكن ان تحصل على نحو آخر . بل ان صغار البرجوازيين الأوروبين لا يتصورون ان الثورات القادمة - في بلدان الشرق ذات كثافة من السكان أكبر بكثير وذات شروط اجتماعية اكثر تنوعاً بكثير - سيكون لها بالتأكيد من السمات الخاصة أكثر مما كان للثورة الروسية بكثير .

حقاً ، ان الكتاب التعليمي الموضوع حسب كاوتسكي كان له في حينه فائدة كبيرة . ولكن ، آن الأوان كي نتخلى عن الفكرة القائلة ان هذا الكتاب قـد توقع جميع اشكال تطور التاريخ العالمي . فمن يعتقدون ذلك ، من المناسب ان

نصفهم بالغباء[1] ».

وهكذا ينتهي لينين إلى وضع حـــدّ « للكتاب التعليمي الموضوع حسب كاوتسكي » ، إمام الماركسية الأكبر بعد وفاة انجلز . اللينينية تعلن نهايـــة الماركسية الارثوذكسية المزعومة ، باستيعابها سبل التطور الجديدة ، عقدة التاريخ التي لا تخرج من « هيكل » المادية التاريخية العام و « المفهوم العلمي الطبقي » ، وبتمثلها لما نسميه اليوم قانون التطور المندمج المتراكب . وفي اهم فصول « اليسارية ، مرض الشيوعية الطفولي » (الفصل الثاني : أحد الشروط الأساسية لنجاح البلاشفة) ، يبين لينين أحد وجـــوه هذا القانون : دور الانتلجنتسيا الروسية المتقدمة في روسيا المتخلفة ، تركز اشكال ومناهج صراع جميع الطبقات في هذا البلد المتخلف ، تراكم تجربة ثورية لا مثيل لها في العالم .

وفي طريق هذا التقدم الفكري الحاسم الذي هو نشوء الماركسية الجديدة سار لينين بين ١٨٩٤ و ١٩٢٣ بفطنة وحذر ، مما يفسر لنا كون آخرين (مثلا تروسكي وبارفوس في الثورة الدائمة أو ربما النمسويون أصحاب الأخ بسام طيبي واصحابنافي المسألة القومية ،ناهيك عنهوبسون وهيليفردنغ وروزا لوكسمبورغ في مفهوم « الامبريالية » وتحليلها الاقتصادي العام) يسبقون لينين في هـــذه النقطة أو تلك من ماركسية العصر الجديد . ولكن اللينينية وحدها تبلغ « الكمال » في « حاصـــل » النقاط وفي كل نقطة ايضا . وهكذا مثلا نشأت نظرية التحول اللينينية وارتكزت على أساس« الامبريالية » و«العالمية » فجاءت أكثر تشخيصا ، اكثر تضمناً للمسائل العيانية ، اكثر انبساطاً في المكان ، عالمياً (وأحد عناصر هذه العالمية ، الوحيدة الصائبة ، تلمس لينين« لاستيقاظ آسيا» ، ولطاقات « المسألة القومية » قبل « الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسماليـــة » ، وقبل تحوّل ١٩١٧ . هذا ما يميز لينين عن روزا لوكسمبورغ وتروتسكي وسلسلة

---

(١) المختارات ، المجلد الاخير . او « حركة التحرر الوطني » ، طبع دمشق . هذا النص ، بخلاف مقالات لينين « الجيورجية » ووصيته التقييمية لمواصفات شخص ستالين واشخاص الخلفاء الآخرين قد نشر في حينه ، وظل نصاً كلاسيكياً ينشر على الدوام في « المختارات » .

من الماركسيين الثوريين اليساريين) . ولكن حقيقة ان لينين سار بفطنة وحذر على طريق انشاء الجديد وهدم القديم لا يمكن ان يمنعنا من اخذ قياس المسافة المقطوعة كاملة . والا عدنا بخفي حنين إلى كاوتسكي ، وبالاحرى إلى ما دون كاوتسكي ، على الاقل لأننا لا نملك علم كاوتسكي (ولأن العصر لم يعد يحتمل أي قصور) .

ان تعليق لينين على مذكرات ن . سوخانوف تثبيت وبلورة للماركسية الجديدة ، ماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية . وأحد أهم وجوه هذه الماركسية قول لينين : « ان الثورات القادمة – في بلدان الشرق (. . .) – سيكون لها حتماً من السمات الخاصة أكثر ما كان للثروة الروسية بكثير » .

وفي هذا القول ، تأكيد لينين لهذه الاصالة « في ثورات الشرق القادمة » أكثر بكثير مما كان في « الثورة الروسية » . روسيا شرقية بالمقارنة مع أوروبا الغربية . ولكنها بالمقارنة مع آسيا ، أوروبية . وهي في نهاية التحليل أقرب إلى أوروبا . كانت على صلة مع أوروبا طيلة قرون (المسيحية ، وأفكار العصر الحديث) ، وهي في ١٩١٣ متقدمة صناعياً « وعمالياً » على صين ١٩٤٩ ، بل وعلى هند ١٩٤٩ ، وهي بلد كبير مستقل ، ذو سيادة وبأس (رغم وجود الرساميل الأجنبية والأتاوة التي تأخذها من الاقتصاد القومي) [1] . الشروط الاجتماعية في روسيا اكثر تنوعاً منها في انكلترة والمانيا ، ولكنها أكثر تنوعاً في الهند والصين والعالم العربي منها في روسيا . وكثافة السكان أكبر بكثير منها في الصين وجاوا ومصر . (وهكذا « ينحرف » لينين عن « التحليل العلمي الطبقي »

---

(١) صيغة لينين موضع نقاش . ومع ذلك نعتقد أنها أكدت هذه الأمكانية وهذه الضرورة ، مع تأكيد لينين ان المسألة هذه مسألة هدنة يتركها الامبرياليون (ويريد لينين ان تكون طويلة). ولقد تطور الواقع وتطورت الأفكار بعد هذه السنة ١٩٢٣ . ومن التشويه ان نعيد مبدأ إمكانية بناء الاشتراكية في بلد واحد (وفي روسيا) إلى ١٩١٦ ، بدليل ان ستالين في الطبعة الأولى لكتابة « مبادىء اللينينية » (١٩٢٤) استبعد صراحة هذه الأمكانية . (هذا ما نعرفه من رد ستالين على زينوفييف بعنوان « مسائل اللينينية » ١٩٢٦) . ثم صحح كتابه وأعلن المبدأ في نهاية ١٩٢٤ .

العزيز على رفاقنا اللبنانيين إلى « العوامل »الديمغرافية بعد « العوامل »الجغرافية والعرقية ، كما نحن انحرفنا قبل قليل إلى « العوامل » الدينية).

وهناك شيء آخر في قول لينين « الثورات القادمة (أو الجديـــدة ، أو اللاحقة ، حسب الترجمات) – في بلدان الشرق ذات ... – ... » . ان موقع علامة (–) يوحي لنا بأن لينين يتوقع « الثورات القادمة » في بلدان الشرق . وهذه الثورات ثورات اشتراكية في نهاية المطاف .

وفي المؤلف الاخير « من الافضل ان يكون أقل شرط أن يكون أفضل » (آذار ١٩٢٣) ، يعطي لينين آراءه الأخيرة بشأن البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي وبشأن الثورة العالمية ، يتحسس لينين حقيقة أن الثورة ليست قريبة في أوروبا ، ويقول – للمرة الأولى – بامكانية بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي (المنفرد والمطوق والمتخلف ، والكبير من حيث الحجـــم والامكانيات) . ويركز لينين مرة أخرى على المانيا المضطهدة قومياً ، وعلى الشرق . ثم يتساءل: هل بامكاننا ان نأمل ان التناقضات بين الأقطار الامبريالية في الغرب والشرق ، ستترك لنا هدنة للمرة الثانية ، كما حدث في المرة الأولى عندما أخفقت الصليبية الامبريالية بنتيجة التناقضات بين المعسكرين الامبرياليين ، بين اليابان واميركا ؟ « ان حل هذه المشكلة يتوقف على عدد كبير من العوامل ... ان نتيجة الصراع تتوقف في النهاية على ان روسيا والهند والصين الخ تؤلف الكثرة الغالبــة من سكان العالم وهذه الكثرة انجرفت بسرعة لا تصدق (...) في النضال من أجل انعتاقها (...) ان انتصار الاشتراكية النهائي مضمون بشكل تام ناجز .

ولكن ما يهمنا ليس هذا الانتصار النهائي المحتوم للاشتراكية . بل هو الخطة التي يجب ان نتبناها نحن (...) كي نمنع الدول الغربيـــة المعادية للثورة من سحقنا . كي نضمن بقاءنا حتى الصدام العسكري القادم بين الغرب الامبريالي والمعادي للثورة والشرق الثوري والقومي ، بين أرقى دول العالم حضارة ومدنية وبلدان الشرق المتأخرة والتي تشكل مع ذلك أغلبية العالم – يجب ان يتوفر لهذه الأغلبية الوقت اللازم كي تتمدن . نحن أيضاً نفتقر إلى المدنية الـــتي تمكننا من

الانتقال مباشرة إلى الاشتراكية، رغم كوننا نملك المقدمات السياسية» . والخطة التي يقول بها لينين لروسيا : قيـــادة العمال للفلاحين ، والمحافظة على ثقتهم ، مكافحة كل تبذير وإفراط ، الاقتصاد في جهاز الدولة ... بذلك فقط سيكون بامكاننا أن نستعيض عن الحصان الفلاحي الفقير بحصان البروليتاريا : الصناعة الآلية ، الكهربة ، مشروع فولخوف ...

هذا المؤلف الكلاسيكي (الذي نشر في ١٩٢٣ ، وغدا خاتمة « المختارات» في الطبعات) يعطينا فكرة اخيرة عن عمق المنهج اللينيني وقدرته على النفاذ إلى المستقبل : سبل بناء الاشتراكية في الاتحـــاد السوفياتي (الدولة الاشتراكية السوفياتية ، التصنيع ، الكهربة ، الثقافة ، المدنية) وسبل التطور العالمي اللاحق : الصدام القادم بين العملاقين الامبرياليين الجديدين (اميركا واليابان) ، التناقضات القومية والامبرياليـــة داخل اوروبا الصناعية المتقدمة (ابتداء من ١٩٣٣ ، مع انتصار النـازية ، ستنقلب المواقع وستبدأ الحرب العالمية الجديدة – ولينين لا يشكّ فيها – كحرب بين الامبرالية الالمانية النازية والامبرياليات الديمقراطية ، وستراتيجية الثورة الصينية ستأخذ في حسابها عمق التناقض بـين اليابانيين والاميركيين الخ) . أما الخطوط العريضة للثورة الاشتراكية العالمية : حتمية الانتصار النهائي تنبع من كون « روسيا ، الهند ، الصين الخ »[1] تؤلف الكثرة الغالبة من سكان المعمورة . الصدام العسكري القادم بين الشرق الثوري والقرمي ، المتخلف وغير المتمدّن ، وبين الغرب الامبريالي والمعـادي للثورة المتقدّم المتمدّن المثقف . وهناك فعلاً هدنة ، هدنة طويلة ... وهذا كله يبعدنا بقدر لا بأس به عن تروتسكي ، وبالأحرى عن الصورة العربيـــة لستالين وتروتسكي .

ومن اكثر الأمور لفتاً للانتباه في نهاجيـة لينين ، في فلسفة لينين (ونكاد نقول في تركيبها الذهني) ، جدلُ « المتقدم » و« المتأخر» . في « ماركسية »

(١) هل نشك بمعنى « الخ » ? « الخ » بعد روسيا والهند والصين ، وفي كل سياق حديث لينين !.

اخرى (ولسوء الحظ في ماركسية البرنامج اللبنـاني) المتقدم متقدم والمتأخر متأخر . هناك « البلدان الرأسمالية المتطورة » من جهة و « البلدان المتخلفة » من جهة اخرى. «وليكن كلامك نعم نعم ، لا لا ، والباقي من الشيطان[1]».

والقوميون والقوميون الثوريون والثوريون اللاقوميون يلتزمون الموقف المضاد . ليست اوروبا متقدمة ولا آسيا متأخرة. « الارادةالثورية » تكفي، والشروط الموضوعية اسطورة. ويستشهدون بلينين . وبخصوص المدنية والحضارة: الصين الهند والعرب أعرق الامم مدنية وحضارة (وهذا صحيح ولكن ليس له صلة كبيرة بالموضوع). و« اوروبية »لينين – حين يطلعون عليها (ولكن هل اطلعوا ؟) – تبدو لهم قصوراً عن « الاسيوية » و « الشرقية » . نِعمَ القصور !

لينين الذي يؤمن بأن الماركسية بنت اوروبا ، بنت اكبر الامم الاوروبية البرجوازية (الرأسمالية الامبريالية الغازيـة الناهبة) وما كان يمكن ان تكون الا بنت هذه الامم البرجوازية المتقدمة . لينين الماركسي يتوجه نحو الشرق ، نحو روسيا والشرق ، ونحو الشرق بعـد روسيا ، « الشرق الثوري والقومي » المتأخر غير المتمدن . آسيا متخلفة واوروبا متقدمة . ولكن أيضاً آسيا متقدمة واوروبا متخلفة . إذا كنا مريدي الثورة الاشتراكية العالمية ومريدي التحليل الموضوعي للعصر الجديد . أساس هذه الثورة الاشتراكية العالمية ، عصر العالمية بالغة ابعادها البعيدة .

ومن الممكن ان « نأسف » لهذه النهاية التي آل اليها التطوّر لو لم يتخلّف الماركسيون الاوروبيون في ١٩١٤ وقبلها ، وكانت هناك ظروف اخرى الخ ، لتجنبنا حربين عالميتين . لو انتصرت البروليتاريا في فرنسا وانكلترا الخ ، ولو سارت الهند ومصر وسوريا والجزائر والعراق وتونس وراء المتروبولات عـلى طريق الاشتراكية ، ولو سارت روسيا وراء اوروبا على هذا الطريق ، لكانت الامور أسهل بكثير . ليت الاشتراكية بُنيت عالمياً على أساس القاعـــدة

---

(١) قول الانجيل الذي ينقله بليخانوف ولينين في مساجلاتهم مع « الماركسيين الشرعيين » ، اشباه رفاقنا اللبنانيين في اكثر من نقطة .

الصناعية الاوروبية والمدنية الاوروبية ! هـذا لم يحدث . وما حدث لم نقرره نحن أو أنتم ،وما لم يحدث لم يقرره لينين أو ماركس ، ولا مئة ماركس ولينين. ان لينين ورفاقه وتلامذتـه قرروا ما حدث جزئياً - ولكنهم في الأصل كانوا « جزءاً » من القرار . ان مأثرتهم في النهاية انهم وعوا ما لن يحدث ، وعلى هذا الاساس وعوا ما يمكن ويجب ان يحدث. هذا هو الفرق بين لينين وبين كاوتسكي وبليخانوف .

بعد أن عرضنا آراء ومواقف لينين في المسألة القومية والكولونيالية ، بارتباطاتها الواقعية المتنوعة ، علينا أن ننتهي إلى خلاصة . ما هو موقع المسألة القومية عند لينين ؟ وهل برر التاريخ اللاحق آراء لينين ؟

لقد رأينا أن المبدأ الرئيسي للثورة الروسية هو تحول الثورة الديموقراطية إلى ثورة اشتراكية . الاولى تنمو – تتحوّل transcroît – الى الثانية . الثانية تحل أو تنجز مسائل الاولى . أساس هذا التجاوز ليس قوانين «علم تطور المجتمع الانساني » « العامة » ، بل استعداد الجماهير الشعبية . ليس من سور صيني بين الثورتين . ثورة شباط كانت ثورة برجوازية ديمقراطية ناقصة ومبتورة (لم تحل مسألة ملكية الارض ، وأقامت حكومة برجوازية يمينية برئاسة الأمير لفوف) ، ومع ذلك أقامت الى جانب هـــذه الحكومة البرجوازية المتخلفة « حكومة » سوفيات عمال وجنود العـــاصمة . وثورة اكتوبر كانت ثورة بروليتارية واشتراكية ، أسقطت سلطة البرجوازية وأقامت حكومة سوفياتية وبولشفية ومع ذلك وإلى جانب ذلك ، كانت ثورة ديمقراطية (لم تُنجَز المهمات الديمقراطية الا خلال أشهر بعد قيامها [١] ، ووزعت اراضي الاقطاعيين) . وليس هذا المخطط كله اجبارياً تكرره ثورات الشرق . ولكن مبـدأ التحول (والتداخل والتجاوز) اجباري . **ليس من ثورة اشتراكية خارج اجتماع الثورتين** . تلك هي شهادة التاريخ ، تاريخ الثورات التي انتصرت بل وتاريخ الثورات التي اخفقت .

---

(١) بل ، نوعاً ما وفي بعض الامور ، خلال سنوات .

والمسألة القومية ترتبط بالثورة الاشتراكية ، عن طريق وبوساطة هـذا التحول وهـذه الثورة الديمقراطية . المهمات القومية (التحرر ، الاستقلال ، الوحدة) هي جزء من مهام الثورة الديمقراطية البرجوازية المتروكة بهذا القدر أو ذاك للثورة الاشتراكية ، جزء من مهام « العصر السابق » (« الرأسمالية الصاعدة » وحركاتها القومية «الجماهيرية » التقدمية) الذي لم يستنفدها « العصر الجديد » (الامبريالية) بل عززها وطوّرها وزادها قوة لأن «العصر الجديد » اصلاً ، لم يلغ « العصر السابق » . وهنا الخط الفاصل بين نهاجية لينين من جهة ، ونهاجية روزا لوكسمبرغ وتروتسكي وبوخارين وبياتاكوف الخ من جهة اخرى ، بين اللينينية و « اليسار » الماركسي غير اللينيني .

وبالتالي ، فان المسألة القومية ترتبط أيضاً بالثورة الاشتراكية ، مباشرة ، (عن غير طريق الثورة الديمقراطية) ، في عصر الامبريالية ، إي بتعبير آخر: أن المسألة القومية ترتبط بالثورة الاشتراكية عن طريق وبوساطة « الامبريالية» ارتباطاًمفهوماً منطقياً وواقعاًعيانيا شاملاً.وهنا أيضاً خطفاصل ليسبينلينين وكاوتسكي فقط،بل ايضاً بين لينين وروزا وتروتسكي وبوخارينوبياتاكوف الخ . والامبريالية هي ايضاً « العالمية » و « تفاوت النمو » (١) .

والتاريخ يبرر منظورات لينين ويخطيء منظورات الآخرين .

الثورة الالمانية لعام ١٨٤٨ استمدت دفعها التاريخي وزخمها الشعبي من لقاء شعارات « الحرية » و « الامة ».وماركس وانجلز ساندا الوحدة القومية للالمان بكل ما أوتيا من قوة . و «الدفاع » عن « الوطن في خطر » كان أحد عناصر انفجار كومونة ١٨٧١ ...

والمسألة القومية كانت أحد العناصر الرئيسية في الموجة الثانية والموجـة الثالثة لحركة الثورة التاريخية .من « استيقاظ آسيا »الى « الانتفاضةالايرلندية» وإلى الاندفاعات الالمانية البروليتارية في سنوات الكومنترن الاولى .

---

(١) ولينين يحذر الوسطي تروتسكي في ١٩١٦ . ولكن شراح زمن ستالين اغرقوا هذه القضية في بحر من التبسيطات الدعائية .

الموجة الرابعة – الزحف الظافر – للثورة العالمية لا تبرر منظورات لينين وحسب ، بل اكثر من ذلك ، انها شهادة ناصعة على صحة هذه المنظورات وعلى خطأ وقصور المنظورات الاخرى (كاوتسكي + اليسار غير الليتيني) ، انها تضخّم الفوارق بين لينين وحلفائه اليساريين في هذه « المسألة القومية » .

ان اقوال لينين (مئات الاقوال) عن المسألة القومية والامبريالية في اوروبا ١٩١٦ ظهرت لغالبية الماركسيين وخصوصاً ماركسيي اليسار ضرباً من الهوس الخيالي عند زعيم البولشفية الروسية . تصوروا ! الحروب القومية ليست ممكنة وحسب بل هي حتمية وتقدمية وثورية ، «في عصر الامبريالية المنفلتة من عقالها» (ليس فقط في المستعمرات . بل في اوروبا ايضاً ! وكما ان الحرب القومية يمكن ان تتحول الى حرب امبريالية ، كذلك الحرب الامبريالية يمكن ان تتحول الى حرب تقدمية قومية وثورية ! وتصوروا ان لينين يعود في الامثلة (وهو يحب الامثلة والمقارنات) الى شواهـد من زمن نابوليون الاول ، أي إلى زمن الرأسماليـة الصاعدة . أفليست الامبريالية هي الرأسماليـة الاحتكارية والمالية بنت ١٩٠٠ أو ١٨٨٠ ؟[١] .

وتصوروا كل هذا الحديث عن « حق تقرير المصير » ، وكل هـذا التكرار لمثال سويسرا (وهو مثـال استثنائي) ، وهـذا « الانسياق » وراء فكرة « الأمة الاوكرينية » ...

وتصوروا ! ليس في المستعمرات وحسب ، بل في أوروبا أيضاً . وتصوروا ان حرباً امبريالية يمكن ان تتحول إلى حرب قومية ثورية .

وهذا ماحدث فعلاً في ١٩٣٩ . نبعت الحرب العالمية الثانية من تناقضات الامبريالية ، من تناقضاتها الثلاثة من كل تناقضاتها العيانية . بدأت كحرب بين الامبريالية الالمانية النازية والامبريالية الديمقراطية الانكلو – فرنسية . ثم تحولت إلى حرب قومية ثورية للشعوب المسحوقة في أوروبا . في ١٩١٤ ، كانت ايرلندا وتشيكوسلوفاكيا تحت

---

(١) ولينين ، صاحب كتاب « الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية » لا يمتنع عن استخدام اصطـلاح « الامبريالية » ، عن زمن نابليون الأول وصلح تيلسيت الخ ...

اضطهاد قومي خفيف. وفي ١٩١٦ ، سلط كابوس الاضطهاد القومي عليها وعلى بلجيكا . وفي ١٩١٩ ، سلط على أمة عظيمة كالمانيا . وفي ١٩٤١ ، على عشرين أمة كبيرة وصغيرة في أوروبا ، على الفرنسيين والصرب والبلجيك واليونان والنرويجيين والألبان واللتون والاوكرينيين والروس الـــخ.. بدأت الحرب كحرب امبريالية ، وتحولت إلى حرب بين الاشتراكية والامبريالية ، وإلى حرب بين الأمم المضطهِدة والأمم المضطهَدة ، وإلى حرب بين حلف الأمم الديمقراطية الاشتراكية والرأسمالية وحلف الأمم الفاشستية . وكانت أعظم وأهم حروب التاريخ على الاطلاق ، من حيث عمقها وشمولها ومن حيث نتائجها التاريخية ، أي نتائجها في تاريخ حركة الثورة العالمية . في الحرب القومية الثورية ، وقفت الاحزاب الشيوعية في الطليعة ، واستشهد مئات الألوف من مناضليها . لأول مرة ، أصبحت البروليتاريا « التي ليس لها وطن » أو كادت ان تصبح « الطبقة القائدة للأمة » واثبتت أنهـــا طبقة « قومية » « وإنْ ليس بالمعنى البرجوازي للكلمة » (على حد عبارات المقطع الشهير من « البيان الشيوعي ») . وفعـلا استولت البرليتاريا على «السلطة» في سلسلة من أقطار أوروبا الشرقية والوسطى. في أوروبا الغربية ، لم يتحقق ذلك (لأسباب موضوعية وذاتية ليس هنا مجال بحثها ، ولكنها لا تخرج عن اطار اشكالية التحول والمسألة القومية والامبريالية) وفي فرنسا بات الحزب الشيوعي يقول بفخر واعتزاز وتعال على الآخرين : نحن حزب بيار سيمار وغابرييل بيرى وراول كاتلا [١] حزب السبعين ألف شهيد . وتعلق أحدى كبريات الصحف البرجوازية : « لعلهم يبالغون في الرقم ، وهذا ما نرجحه . ولكن لنرفع قبعتنا تحية واحتراماً . من يقدم رقماً مشابها ولو من بعيد ولو مع المبالغة ؟ » . بفضل قيادة حزب الثورة الاجتماعية للكفاح القومي ، بفضل دماء الشهداء ، (لا قيادة بدون شهادة !) [٢] ، أصبح حزب البروليتاريا ،

---

(٢) ثلاثة من قادة الحزب الدين استشهدوا في المقاومة الوطنية وهناك غيرهم كثيرون .

(٣) والشهادة ليست « البرنامج » أو « المنطلقات » أو « الايديولوجيا » العلمية الثورية أو « المفهوم العلمي الطبقي » أو « استراتيجية » الخ بل هي شهادة الدم .

في فرنسا واليونان والبانيا في ايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا يتمتع فعلاً بمساندة غالبية البروليتاريا (وأحياناً كلها) ونسبة (واحياناً غالبة) من الفلاحين وصغار الكسبة والمثقفين ، وذلك للمرة الأولى في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية ، في تاريخ الثورة الاشتراكية . تلك هي أوروبا فلننظر الآن إلى آسيا.

في ١٩٣٩ ، يصل ماو تسي تونغ إلى أن « التناقض الرئيسي الأول هو التناقض بين الامبريالية والأمة الصينية » (رافعاً أياه فوق « التناقض الرئيسي الثاني » وهو التناقض بين « الاقطاعية والشعب »). وفي زمن الحرب وتوغل الامبريالية اليابانية داخل الصين ، التناقض الرئيسي الأعلى هو « التناقض بين الأمتين اليابانية والصينية » . ويحمل الحزب الشيوعي الصيني على عاتقه القسم الأكبر من « حرب المقاومة ضد اليابان » ، من « الحرب القومية الثورية » . فتكون هذه الحرب القومية (١٩٣٧ — ١٩٤٥) الانعطاف نحو النصر الحاسم في تاريخ « ثورة الديمقراطية الجديدة » ، في تاريخ الثورة الدائمة الصينية أي في تاريخ الثورة الاشتراكية البروليتارية في الصين رغم (بفضل) نهج الاعتدال في السياسة الداخلية في مناطق الصين السوفياتية ، ورغم (بفضل) نهج « الجبهة المتحدة والاستقلال » أي التحالف مع أولئك الذين قتلوا عشرات الألوف من الشيوعيين ولا يفتأون يتآمرون ضد المناطق الحرة (الشيوعية) ويتهربون من المشاركة في الحرب القومية . وفي ١٩٤٦ ، يترك ماو تسي تونغ لتشانغ كاي شك مسؤولية استئناف الحرب الأهلية ، فتأتي الحرب الأهلية الثورية الأخيرة بانهيار سريع لحكم الكومنتانغ والاميركيين في عموم الصين (١٩٤٩) . وكوريا الشمالية وفيتنام ، وكوبا ، أمثلة أخرى متنوعة على تحول الثورة القومية والديمقراطية الى ثورة اشتراكية وتنوع هذه الامثلة يعلمنا ان لا « نؤقنم » القوانين [1] وان الا نحول المادية التاريخية الى لاهوت .

في البلاد العربية ، تتقدم حركة التحرر العربية وتنمو وتتحول في النضال

(١) ولينين اكبر المتمسكين بالقوانين وموضوعيتها ، هو ايضاً أكبر المكافحين ضد « أقنمة » القوانين .

ضد استمرار السيطرة الاقتصادية الامبريالية وضد التجزئة الامبريالية واسرائيل الامبريالية . وتتنوع السبل والاشكال . في مصر ، أسقاط الملك ثم بداية اصلاح زراعي ونهاية الاحتلال الانكليزي في القنال . في الجزائر ، تنطلق الثورة انطلاقاً غير برجوازي . في سوريا ، تأتي الثورة الاجتماعية « محمولة » على جناح الوحدة القومية . قبل الوحدة ، كان الحزب الناطق بلسان الطبقة العاملة ينادي بالطريق الرأسمالي الوطني و « دور البرجوازية » ، وبدون اصلاح زراعي ، باسم مرحلة ليست هي الثورة الديمقراطية . والآخرون يتجرجرون وراء هذا « المفهوم العلمي » القليل الطبقية . في زمن الوحدة ، مع شعارات « تعاون الطبقات » و « لا يسار ولا يمين » ، بداية الثورة الاجتماعية : الاصلاح الزراعي والعلاقات الزراعية وتأميم الرأسمال المصرفي والصناعي . والحزب الناطق بلسان الطبقة العاملة (والمتجرجرون وراءه) يفتح النار على تأميم « الرأسمال الوطني » وعلى ما يسميه التمصير والناصرية عميلة الاستعمار الجديد ، ويبرق أمينه العام الى مأمون الكزبري مهنئاً بـ « حركة الجيش والشعب » ثم يملؤ قادته وكتابه صحف دمشق اليسارية (!) واليمينية بتحليله العلمي (« اللاخطة » التي تحدث عنها تقرير الرفاق اللبنانيين) الذي « يثبت » في جملة ما يثبت ضرورة التراجع عن التأميم ووطنية البرجوازية الخ ... غير ان هذا الخط الذي يسير عليه « اليسار » الانفصالي بكل قطاعاته لا يساعد الا على تعزيز التطور الحاصل في عهد الوحدة ، أي مكسبه الأكبر son acquis على صعيد وعي الجماهير و « استعدادها » ، نقصد ارتباط الوحدة والاصلاح الزراعي والتأميم المناهض للرأسمالية ، ارتباط « الوحدة » و « الاشتراكية » ، في اذهان ملايين العمال والفلاحين في سورية وفي الوطن العربي . وفي الفترة اللاحقة ، تطبق محاولة دائبة عنيدة لفك الارتباط أي لفك التركيب الثوري الجماهيري المفتوح على المستقبل. ويساعد بعضُ المثقفين المخلصين النية هذه العملية بمناقشات غير كاملة عن طابع التأميم ومفهوم الاشتراكية (« اكتشفوا » ان التأميم لا يكفي لاضفاء الصفة الاشتراكية ، اكتشفوا هذه الحقيقة في الكتب ،ولم يروا في الواقع ان الرأسمالية

جابهت التأميم باكبر هجوم – الانفصال –) [1] .

وكما ان الثورة العربية الدائمة الاشتراكية تثبت مبـــدأ الاجتماع والارتباط والنمو والتحول الليتيني ، في طور نموها وتحولها واتساعها الشعبي ، كذلك فهي تثبت هذا المبدأ في طور تراجعها وانحسارها (وتفتت القاعدةالجماهيرية). المهمة القومية الكبرى(الوحدة) وُضعتعلى الرف باسم « الوحدةالمدروسة » ثم باسم « اي شكل من اشكال الوحدة »، « أي وحدة »[2]، ولقاءالقوى الثورية المزعوم، كجزء من النكسة وشرط من شروطها أو باسم تعميق واكمال « الثورة الدائمة » في القطر أو في احدى مدنه ، أو باسم تعميق واكمال « الثـــورة الوطنية الديمقراطية » وهلمجرا .

سنعود إلى ذلك بالتفصيل . وما نريد أن نسجله الآن : أن الثورة العربية في نموها وفي تراجعها ، في انعطافها الممكن اليوم نحو نصر كاسح ، وفي سقوطها المريع المحتمل ، (نحن ، لأننا نتمسك بالقوانين الموضوعية ، ولأننا نعرف منها أكثر – بكثير – مما تعلمون – وما تعلمون ليس أكثر من «المفهوم العلمي الطبقي» و « حتمية التقدّم » « المنسوبة زورا » إلى قانون ما من قوانين الديالكتيك – ، لأننا نعرف شيئاً من الماركسية ومن تجارب التـــاريخ ، فاننا لا نؤقنم القوانين ، و « نعترف » باننا لا نستطيع أن نحسم مسألة المستقبل القريب . .) هي ، بعد تجـــارب قرن وربع من التاريخ ، تاريخ الثورات التي نجحت والثورات التي فشلت ، تبرير جديد عال لمنظورات ماركس ولينين ، لهـذا الشيء الذي لازم الماركسية منذ ظهورها : نظرية الاجتماع والنمو والتحوّل ، وفرعها الممتاز عند ماركس وانجلز وبالاحرى عند لينين : المسألة القومية [3] .

---

(١) ولينين أكبر المتمسكين بالقوانين وموضوعيتها، هو اكبر المكافحين ضد «اقنمة» القوانين.

(٢) ويسعى الاخرون الى تسويغ مفهوم « فشل الوحدة » باسم القانون – الأقنوم «الفشل» كان محتوماً لأنه لم يكن هناك حزب بروليتاري. وهكذا يلقى « الحرم » على ١٦ سنة من التاريخ، وعلى كل الصعود الكبير الذي يبدأ في ١٩٥٢ و١٩٥٥ و١٩٥٦ ويتواصل في ١٩٥٨ وبعدها وبعدها ... سندرس هذا الموضوع بالتفصيل في مكان لاحق .

(٣) ثمة نقاط مشتركة بين ماركس وانجلز ولينين ، تميزهم عن كل الآخرين بافيهم خيرة ←

وأقل ما يمكن ان يقال في برنامج الرفاق اللبنانيين أنه خال من هذه النظرية وأشكاليتها (نقصد مشكلاتها ، مشكلتها الكبيرة). فلنرجع الآن إلى هذا البرنامج.

لقد أتاح لنا مطلع « حركة التحرر الوطني » عرض هذه النظرية وهـذه الاشكالية كما تظهر في نصوص لينين وفي تجارب التاريخ .

وبالاستناد إلى هذا العرض نستطيع الآن ان نتابع النظر في «حركة التحرر الوطني » . ما هي الموضوعة اللينينية التي يثبت التاريخ صحتها ؟...

١٤ - موضوعة لينين في تعريف الثورة الاشتراكية وكيف يفهمها الرفاق اللبنانيون .

يقول البرنامج :

« أن عملية التحول النوعي في حركة التحرر الوطني في مرحلة إنتقـال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتنامي الاتجاه المعـادي للرأسمالية في داخلها في عصر انهيار الاستعمار تثبت صحة الموضوعة اللينينية التي تقول بأن الثورة الاشتراكية « لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريـا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها بل ستكون ايضاً نضال جميع المستعمرات وجميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية وجميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية »».

هذه الفكرة الأساسية فعلاً (والتي لم نأخذها في عرضنا السابق ، وهناك نصوص أخري مشابهة لم ننقلها) جاءت على لسان لينين في ١٩١٩ ، أمام المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق في عامة روسيا . ونصوص ١٩٢١ و ١٩٢٣ تواصل هذا الخط الفكري ذاته وتدفعه إلى الأمام . غير ان هذا النص العائد لعام ١٩١٩ لا يدع مجالاً لأي التباس . لينين يرد على « المفهوم الطبقي » الدارج كاشفاً هويته التجريدية ، اللاعالمية ، القطرية ، « الأوروبية » ، التقليدية .

← أعلام الماركسية (كاوتسكي ، بليخانوف ، تروتسكي ، روزا لوكسمبورغ ، وجزئياً ستالين). وهـذه النقاط المشتركة - التي لا تنحصر في « السياسة » بل تتعداها الى النهـاجية ، والى « الفلسفة » - هي ضمانة وحـدة فكرنا ، هي المبرر لما نسميه « الماركسية - اللينينية » .
كيف لا نسجل ان احدى هذه النقاط ، وربما أهمها في الجرد الحسابي ، هي المسألة القومية ؟

ولا بأس من تصحيح ترجمة الرفاق اللبنانيين، توخياً للدقة الكاملة، الحرْفية (مع الاعتذار الذين يفضلون «التعريب» على الحرفية، ولا نقصد الرفاق اللبنانيين، بل جمهور المترجمين العرب). يقول لينين ((الثورة الاشتراكية لن تكون فقط أو بصورة رئيسية نضال البروليتاريين الثوريين في كل قطر ضد برجوازيتهم - كلا، ستكون نضال جميع المستعمرات والبلدان التي تضطهدها الامبريالية، جميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية))[1]. عبارة «الثورة الاشتراكية» هي ضمن النص الشاهد، أي بعد المزدوجين. «كلا» تأتي بعد الشطر السالب، للتأكيد، موضوعة بعد علامة - (والرفاق اللبنانيون استعاضوا عنها بكلمة «بل» التي تؤدي تقريباً نفس المفعول. وكلمة «أيضاً» الواردة في الترجمة اللبنانية (بل ستكون أيضاً نضال جميع المستعمرات ...) غير واردة في نص لينين. ولعلها من ضرورات اللغة العربية (وفي هذه الحال نحن موافقون) أو الأسلوب العربي (وفي هذه الحال نحن غير موافقين) أو لعلها موجوده في النص الروسي ولعل الرفاق اللبنانيين ينقلون عن النص الروسي (وفي هـــذه الحال نغبطهم ونحسدهم، ونستبشر بتوافق الأسلوبين العربي والروسي، واللغتين والشعبين).

ولكن لندع هذه المداعبة الأخوية. فكلنا نخطىء في الترجمة مثل هـــذه «الاخطاء» الصغيرة الثانوية فعلاً (مع ان الأمر يجب ان لا يكون كذلك، خصوصاً في برنامج الحزب). ان خطأ الرفاق اللبنانيين ليس شيئاً، وقولهم «ولا» (فقط ولا بصورة رئيسية) يعوّض عن الخطأ أو تقريباً. فلنـــدع موضوع الترجمة ... ولنعتمد نص لينين في ترجمته الأنكليزية أو السورية أو اللبنانية (لا فرق!).

لقد استشهد الرفاق اللبنانيون بنص لينين ليؤكدوا عملية التحول النوعي في حركة التحرر الوطني الخ... وهم على حق، كل الحـق. لسوء الحظ، ليتَهم قرؤوه بمزيد من الامعان والبطء!.

---

(١) مجموعة «حركة التحرر الوطني»، طبعة موسكو بالانكليزية ص ٢٣٢. طبعة دمشق، ص ١٦٤.

وهذا ما نرجو ان يفعلوه الآن . mieux vaut tard que jamais [1] الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها بل ستكون ايضاً (أو بدون أيضاً) نضال جميع المستعمرات والبلدان — الخ ...

هل قرأ الرفاق اللبنانيون فعلاً « بصورة رئيسية » ؟ هل أعطوا أي معنى أو قيمة لهذه العبارة ؟ تُرى هل انساق لينين أو انساب لفظياً مع الأسلوب ، فألحق بـِ « فقط » الظرف adverbe الآخر « بصورة رئيسية » ؟ ولينين عدو الانسياب اللفظي وملك الظروف adverbe ! أما كان يستطيع ان يكتفي بـ « فقط » وان يستغني عن « بصورة رئيسية » ؟.

ولو فعل واكتفى بـ « فقط » في الشطر السالب من الموضوعة لوضع « ايضاً » في الشطر الموجب . ولكنه اذ لا يكتفي بـ « فقط » بل يضيف « ولا بصورة رئيسية » ، يكون من الطبيعي ان لا يضع « ايضاً » في الشطر الآخر . وبعد الحساب يبدو لنا ان النص الانكليزي في هذه النقطة (عدم وجود « أيضاً ») مصابق للاصل الروسي ، ونسقط استبشارنا بتوافق الاسلوبين العربي والروسي على هذا النحو ، ونرجح التوافق بين الاسلوبين على نحو آخر (أي بدون « أيضاً » في النص العربي أيضاً !) .

الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية ... بل ستكون ... لقد قاتل البرنامج اللبناني ضد « القادة الصينيين » لأنهم على حد قوله وتصنيفه لفروع العملية الثورية العالمية تركوا « التحليل العلمي الطبقي » واعتبروا « التناقض الأساسي قائماً بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني لا بين الرأسمالية والاشتراكية » (ص ١٢) . وهاهو الآن (ص ١٥) يؤكد « التحول النوعي في حركة التحرر الوطني » مستنداً على « موضوعة لينينية » تقول « ان الثورة الاشتراكية لن تكون بصورة رئيسية نضال البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها بل ستكون نضال جميع المستعمرات وجميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية

(١) خير ان تفعله غداً من أن لا تفعله أبداً .

وجميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » ، أي على موضوعة للينين تثبت ، في جملة ما تثبت ، ان الرفاق اللبنانيين تسرّعوا بعض الشيء في احكامهم السالبة والموجبة .

تُرى ، لو قرأ الشيوعي اللبناني المتوسط هذه الموضوعة ، موقعة بغير توقيع لينين ، أما كان يكتشف فيها الابتعادَ الرجيم عن « التحليل العلمي الطبقي » والتحويرَ الصيني لأولوية التناقضات ؟ ولو قرأ حديث لينين عن الشرق الثوري والغرب الامبريالي المعادي للثورة ، منسوباً إلى الامير اليساري زعيم الباتت لاو ، أما كان يصرخ ضد هذا الانحراف الجغرافي والقومي والعرقي ؟

بدون لف ودوران ، نقول ان القارىء الشيوعي اللبناني المتوسط أو فوق المتوسط بكثير ، والصادق مع نفسه ومع الحقيقة ، سيقول : نعَمْ ، هذا ما كنتُ أفعله .. أرجمُ الانحراف البغيض ، وهـا أنا أسجـل خطئي ، وأستنتج الاستنتاجات . وأول هذه الاستنتاجات ليس « اعتبار التناقض الاساسي قائماً بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني ، لا بين الرأسمالية والاشتراكيـة » (وهو استنتاج أحمق !) بل هو .. عدم التسرع ، عدم سلق الأمور ! وثاني هـذه الاستنتاجات ان خط الفصل الأول من البرنامج اللبناني ليس خطأً لينينياً ، لأن في اساسه تشويهاً لفروع الثورة الاشتراكية العالمية ، تشويهاً لمضامين « التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية » .

وقلنا « بدون لف ودوران » . اذ أن اللف ممكن ولكنه لا يجدي . رُبَّ مُكابر يقول : أجل ! أجل ! صحيح أن . . ولكن . . . ولكن التناقض الاساسي قائم بين الامبريالية والاشتراكية ولا قيمة لأي شيء لولا المنظومة الاشتراكية العالمية وليدة الطبقة العاملة . . .

لعـل القاريء المكابر يتصوّر أننا نحب « حركة التحرر الوطني » (!) حباً بـ « حركة التحرر الوطني » ، وليس حباً بالاشتراكية . لعلّه لا يستطيع بسهولة ان يتخلص من تفكيره السابق ، رغم موضوعة « التحول النوعي » اللبنانية ، لعلّه لا يزال يتصور ان « حركة التحرر الوطني » (كما يسميها) تكفي

نفسها بنفسها ، ولا تتحول ، وليست جزءاً من « الثورة الاشتراكية » كما يسميها لينين) ، ولا ... « تولِد » اذن « المنظومة الاشتراكية العالمية » (وهنا نعود الى مفردات القارىء المكابر والبرنامج ومفردات لينين ومفرداتنا) ، ثم ينسب الينا تصوّره .

والحال ، هنا بيت القصيد ، هنـــا نقطة الضعف . في الحقيقة الواقعية ، « المنظومة الاشتراكية العالمية » تبدو بعض الشيء وليدة هـــذا الذي تسمونه « حركة التحرر الوطني » ووليدة « نضال جميع المستعمرات وجميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية وجميع البلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية »(كما يقول لينين وينقل البرنامج اللبناني) ، «ايضاً» (كما في ترجمة البرنامج) ، وعلى الارجح « بصورة رئيسية » .

نحن لا نزعم ان هذه الموضوعة اللينينية تحلّ سلفاً كل المسائل . ولكننا نزعم أولاً ان هذه الموضوعة اللينينية تحلّ هذه المسألة بالذات : مسألة تقييم برنامج الرفاق اللبنانيين . أنه برنامج يتعارض فصله الأول مع اللينينية . على وجـــه التحديد لأن اللينينية تعلمنا ان « الثورة الاشتراكية لـــن تكون « فقط ولا بصورة رئيسية » « نضال البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد برجوازيتها ، كلا ستكون نضال جميع المستعمرات والبلدان التي تضطهدها الامبريالية والبلدان التابعة ضد الامبريالية العالمية » « أيضاً » وربما « بصورة رئيسية » . وهـــذه الثورة الاشتراكية التي ستكون ... هي والد والدة النظام الاشتراكي العالمي . والتاريخ اللاحق كله ، بجوهرة وتفاصيله (الصين وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وفيتنام وكوبا تحرر مليار من البشر من نير العبودية ، والوطن العربي) ، يثبت صحة الموضوعة اللينينية . وفي ١٩٦٨ ، يتراجع الرفاق اللبنانيون عما رآه لينين في ١٩١٩ . و « القادة الصينيون » ليسوا أكثر من رأس تركي [١] .

لا نزعم ان « الموضوعية اللينينية » المذكورة تحل كل المسائل . نحن لسنا من الصنف الذي يصنف النصوص في دروج ، ويخرجهـــا حسب الطلب . ان

---

(١) « رأس تركي » هدف ضرب تحويلي للذي يهرب من المسألة .

الدوغمائية هي التي تجد تكميلها وربما اساسها في هذه البراغماتية وفي هذه الانتهازية . ولأننا لينينيون ، لم نكتف بنص واحد للينين بل عرضنا نصوصاً كثيرة ، وقدّمنا اللينينية في مجملها وترابطها : الامبريالية ، روسيا ، الاجتماع ، والتحول ، المسألة القومية ، وفي تمايزهـا عما ليس اللينينية (دون ان يكون الشيطان الأسود : تروتسكي أو غيره) . ان الذين لا يعرفون أكثر من بضعة نصوص للينين هم الذين ينساقون الى الدوغمائية والبراغماتية ، لأنهم هم الذين يبتعدون عن ثروة الواقع ، وهم الذين يحتاجون الى الاخراج الظرفي للنصوص القليلة (والمتناقضة) عند انعطافات الواقع التناقضي . أما الذين يعرفون اكثر من بضعة نصوص فهم يعرفون من هذه النصوص ذاتها ان الواقع أغنى من النصوص أيا كان غناها . وأول شيء يتعلمونه من هذه النصوص — وحرْفياً — هو ان الواقع أغنى من النصوص . وهكذا تبقى الماركسية في مكانها كمنهج للفكر والعمل . لا تُرفع (مثالياً ، أي كذباً) الى مستوى لاهوت (اي الى شيء ميت) . ولا تنزل كتكميل طبيعي إلى مستوى « تكتكة » و « ترقيع ».

ولا نشك في أن الرفاق اللبنانيين بدأوا يتخطّون هذه الحالة . وسيأتي يوم لن نكون فيه مضطرين إلى الاستشهاد بالنصوص والاكثار من النصوص . سيأتي يوم يكون فيه الماركسيون فيبلادنا قد درسوا النصوص(كاملة) وتمثّلوا المنهج. لسوء الحظ ، ليس هذا اليوم بقريب . ولا غنى لنا ، اليوم ، عن « النصوص » لأننا لا نزال نقاتل من أجل الألفباء . غير اننا حتى حين نقاتل من أجل الألفباء لا ننسى أن الألفباء ليست الا البداية ،وحـين نستشهد بنص ، فلكي نتبين كل مضامينه وكل روابطه في الاطار ، في السياق .

ونرجو الرفاق اللبنانيين ان يقرؤوا مرة ثالثة الموضوعة اللينينية بنصها ، وفي اطارها سيجدون في نصها وفي اطارها ما يلي :

ان لينين لا يتكلم عـن « حركة التحرر الوطني » في الشرق (آسيا ، إفريقيا ...) ونضال الطبقة العاملة في الغرب . فذلك في أحسن حال ، لا يمثل

الحقيقة الا جزئياً . ان لينين يتكلم عن نضال البروليتاريا الثورية في الغرب وفي العالم (ويدين مروراً المنظور القطري) ويتكلم عن النضال ضدالاضطهادالقومي الامبريالي في المستعمرات والبلدان التابعة ، اي في الشرق وفي اوروبا ايضاً . ويقول لينين (وهنا نواصل القراءة دون انقطاع) .. « ففي برنامج حزبنا ، البرنامج الذي تبنيناه في اذار من العام الفائت ، قلنا ونحن نحدّد طبيعة اقتراب الثورة الاجتماعية العالمية ، أن حرب الكادحين الأهلية ضد الامبرياليين والمستغلين في كل البلدان المتقدمة بدأت تدمج مع الحروب القومية ضد الامبريالية العالمية . هذا ما يؤكده سير الثورة ، وما سيتأكد أكثر فاكثر مـــع مرور الأيام . وكذلك سيكون الأمر في الشرق ». وهنا يمضي لينين إلى الشرق : تركيا ، ايران ، الصين ، الهند الخ . قبل الموضوعة تكلم عن اوروبا : صلح فرساي ونهب المانيا ، تجارة اميركا بالرقيق الابيض في اوروبا المستنزفة و « صدامات مع العملاء الاميركان في بولونيا وبلجيكا » ، الحقد الموجود في فنلندة وليتوانيا واستونيا وبولونيا ضد الحلف الفرنسي – البريطاني رغم الشوفينية المنـاوئة لروسيا السوفياتية ، شعور هذه الدول الصغير بانها تستطيع ان تعيش في وئام مع روسيا السوفياتية لا مع حلف اللصوص .

لسوء الحظ ، هذا كله غائب عن منظورات الرفاق اللبنانيين وغالبيـــة الماركسيين القدامى والجدد في الوطن العربي . كل هؤلاء « رواد » المفهوم الطبقي العلمي » بشكل وآخر . كلهم لا يرون ان ثلاثة أرباع الماركسيين الذين حاربوا لينين وحاربهم لينين – فكرياً ، ومع مئة نعت أو تهمة ولكن بدون تهمة التجسس والعمالة – كانوا يتصورون (يتوهّمون) انهم يدافعون عن « المفهوم الطبقي العلمي » ضد انحراف لينين نحو « السياسة » ، نحو اليعقوبية ، نحو القومية ، نحو الشرق الخ ! : « الاقتصاديون » القـــدامى و « الاقتصاديون » الجـــدد (« الاقتصادية » الامبريالية) ، بوخارين ، روزا لوكسمبورغ ، سيراتي وروي ، والذين عارضوا شعار « يا عمال العالم وايتها الأمم المظلومة اتحـــدوا » . كلهم تصوروا انهم يتمسكون بالموقف الطبقي ، بالطهر الطبقي ، « البروليتـــاريا »

(أو في أحسن حال ، « البروليتاريا وجميع الكادحين ») . فلماذا نحن « لينينيون » ، اذا لم نكن لينينيين ، من أجل هذا أيضاً ؟ تخلّوا عن لينين صراحة لعلنا نتفق على صعيد آخر . ولكنكم « تتبنّون » لينين بأعلى اصواتكم . ونحن اذن مضطرون ان ندافع عن اللينينية بأعلى اصواتنا . والبروليتاريا والجماهير شبه البروليتارية اذ تُحجم عن تأييد الناطقين باسم لينين وباسمها ، فهي انما تدين حاضر الناطقين وتحفظ (في أسوأ حال) مستقبلها كقائدة للأمة .

لنتابع سير « حركة التحرر الوطني » في برنامج الرفاق اللبنانيين .

لقد بدأ الرفاق اللبنانيون بتأكيد التحول النوعي في حركة التحرر ، وهو التحول الذي يثبت صحة موضوعة لينين . ثم سجلوا تحرر « معظم شعوب الأرض سياسياً ». ولاحظوا أن القِسْم الاكبر لا يزال في « حالة تبعية اقتصادية شبه كاملة للاحتكارات العالمية » . فالاستقلال السياسي « خطوة هامة » ولكنه « لا يحرر تلقائياً » من التبعية للامبريالية بل «ينشىء الامكانيات ويوفر الشروط لهذا التحرر ». بديهيات لا غنى عنها في برنامج حزب ثوري . وقد وُفّق برنامج الرفاق اللبنانيين في تعداد المهمات التي تواجه البلدان التي انتزعت استقلالها السياسي (ص ١٦) ، على نحو ما ذكرنا سابقاً . كما وفّق في تأكيد أهمية «العون المادي والتكنيكي الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية » .

ثمة هوة تفصل علاقات العرب مع الاتحاد السوفياتي وعلاقات العرب مع الولايات المتحدة وفرنسا وانكلترا والمانيا الغربية وايطاليا وبلجيكا واليابان . هوّة مادية منظورة ومقدرة رياضياً . من يتصور احتمال تغير هذه الحال واهم . ميزان سوريا التجاري مع الغرب الامبريالي خاسر دوماً . والاتحاد السوفياتي هو الذي يبني سد الفرات العظيم فعلاً وعدة مشاريع أخرى عظيمة . وفوائد القروض السوفياتية زهيدة، زهيدة ، بالمقارنة مع قروض الامبرياليين . والسلاح مجاني،والافلام السوفياتية معالانسان وليست ضده . ومؤلفات لينين الآتية من

موسكو كنز لا ينضب معينه .

لاننا لا « نؤمن » بأن العلاقات بين الأمم وبين البشر تصبح علاقات بين الملائكة ، بلمح البصر ، بفضل الاشتراكية ، لذلك لا توقفنا روايات فرعية صحيحة أو خاطئة (« في أكثر الحالات ، خاطئة أو خاطئة »بصورة رئيسية) . تلك هي تجربة بلادنا وعلى ما نعتقد تجربة جميع الأمم والأقطار التي تماطف معها لينين . ورداً على الرفاق الذين يوجهون (بوجه الاجمال شفوياً) الاتهامات (الفرعية) للعلاقات الاقتصادية السوفياتية – العربية ، نقول: يمكن ان تكونوا مخطئين. ويمكن ان تكونوا شيئاً آخر : = يمكن أن تكونوا اثانيين قومياً . هل تطلبون ان يضحي الاتحاد السوفياتي بمصالحه على مذبح مصالحنا ؟ هل تريدون ان يشتري بضائعنا بثلاثة أضعاف السعر؟ وان يبيعنا بضائعه بثلث سعرها؟ ان الأخ لا يضحي بمصلحته على مذبح مصلحة أخيه . والعنعنات الصغيرة والاكبر من الصغيرة لا يمكن ان تزول الا بزوال الاقتصاد السلعي. الاتحاد السوفياتي صديق . والولايات المتحدة وحلفاؤها اعداء . فلنواصل التحرر من الأعداء . هذه المهمة لم تنجز بعد . لنتخيل لحظة اننا لا نزال في ١٩٦٨ في الوضع الذي كنا فيه في ١٩٥٤ ، حين كانت ثلاثة أرباع تجـــارة سورية ومصر مع الولايات المتحدة وفرنسا وانكلترة وأقرانها . فلنواصل هذا التقدم انه جزء حيوي هام من ثورتنا [1] .

١٥ – نمو شعبية الأفكار الاشتراكية وأسبابه .

وينتقل البرنامج اللبناني من أهمية العون الذي يقدمه « الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية » إلى نمو شعبية الأفكار الاشتراكية ، فيقول :

« وقد اكتسبت الافكار الاشتراكية شعبية واسعة بفضل نجاحات البلدان الاشتراكية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ونتيجة الدور البارز

(١) التقدم الذي لم نحققه هو في العلاقات الاقتصادية بين العرب ، وبين الاقطار العربية التقدمية بوجه خاص . بالعكس : الوحدة العربية تدهورت ، في المستوى الاقتصادي ، خلال الحقبة التاريخية المذكورة (١٩٥٤ – ١٩٦٨) هذا موضوع آخر سنعالجه في مكانه .

الذي قامت به الأحزاب الشيوعية في هذه البلدان » (ص ١٧) . ولئن كان الشطر الأول من هذا المقطع يسّجل حقيقة كاملة لا تشوبها شائبة ، فإن الأمر يختلف بعض الشيء بالنسبة للشطر الأخير .

ان النمو الهائل لانتاج الفولاذ والنفط والآلات ، والارتفاع العظيم لأوضاع الشعب المعاشية والثقافية ، والنجاح السوفياتي الباهر في غزو الفضاء ، والبضائع الصينية في أسواق بيروت ودمشق ، ومآثر العلماء السوفياتيين والصينيين ... قد اكسبت الافكار الاشتراكية شعبية في بلادنا وفي كل بلدان الشرق . قد يكون مستوى معيشة الروسي أو اللتوني أدنى من مستوى معيشة الفرنسي أو الدانماركي . ولكن مستوى معيشة الاوزبيكي والطادجيكي أفضل بكثير (بعدة مرات) من مستوى معيشة الايراني والتركي . . والعربي . والاشتراكية هي السبب ، كاملاً وخالصاً. وثوار أوكتوبر والثوار في كل مكان انما صنعوا ويصنعون الثورة لا حباً «بالثورة» و « الثورية » بل حباً بهذا ، حباً بالتقدم « الاقتصادي والاجتماعي والثقافي » حباً بحياة تليق بالانسان وتطوي صفحة الاستغلال والاضطهاد والفقر والجهل الى الابد ، تطوي صفحة « ما قبل تاريخ الانسانية » لكي تفتح صفحة « تاريخها الحقيقي » .

ولخدمة هذا الهدف ، لا يجوز ان نتخلى لحظة عن حسّنا النقدي تجاه أنفسنا أولاً . وقد تكون الأحزاب الشيوعية في اندونيسيا وبورما والهند والسودان والعراق قد لعبت دوراً بارزاً في اكساب الأفكار الاشتراكية شعبية واسعة . ولكن لا نعتقد أن الأمر كذلك في سوريا ولبنان . قطعاً لم يكن الأمر كذلك في فترة سير الحزب السوري – اللبناني على خطة «اللاخطة». لم يكن الأمر كذلك حين وضعت الاشتراكية على الرف ، ومعها الاصلاح الزراعي الديمقراطي ، وحين ذوّب كل شيء في « مرحلة » (!؟) النضال ضد الأحلاف والمشاريع الاستعمارية . بحكم التعريف ، لم يكن الأمر كذلك حين نُشرت أوهام الطريق البرجوازي والرأسمالي الوطني.

والمقطع التالي أفضل من هذا المقطع في برنامج الرفاق اللبنانيين :

« ولما كانت سلطة تحالف الاقطاع والرأسمالية تقف عقبة في طريق تحقيق مهام النهوض الوطني والقضاء (...) ، تفقد شعوب هذه البلدان ثقتها بامكانية تحقيق هذه المهام عن طريق التطور الرأسمالي » . (ص ١٧) وهكذا يدفن البرنامج نهائياً « طريق التطور الرأسمالي »بتأكيده «تحالف الاقطاع والرأسمالية». ان لبنان ١٩٦٨ ليس قطعاً فرنسا ١٧٨٩ . ليس في لبنان برجوازية مستقلة ، مستقلة عن الاقطاع ومستقلة عن الامبريالية : بضعة اشخاص من هـذا النوع لا يشكلون طبقة برجوازية ، وبالاحرى طبقة برجوازية تعي ذاتهـا كطبقة برجوازية قائدة لأمة مستقلة . « البرجوازية » السورية واللبنانية لم تفكر لحظة بنزع ملكية الاقطاعيين . ولم تفكر لحظة باصغر اصلاح زراعي . كانت ولا تزال دون دوغاسبيري وشاه ايران . هل – كنتم في زمن سابق – تتوقّعون ظهور سييّس وفولتير والموسوعيين ؟. وبالمناسبة ، ألم يكن ذلك المنظور الغبي يستند ، في الوعي الزائف ، على « المفهوم العلمي الطبقي » = التشكيـل الاقتصادي الاقطاعي الهابط ، والتشكيل الاقتصادي البرجوازي الصاعد ، الاقطاعيون ، والبرجوازيون ، نضال البرجوازية وتشكيلها ضد الاقطاعيـة وتشكيلها ؟ كان كذلك ، كان تحليلاً « علمياً طبقياً » خالصاً من « العوامـل الجغرافية » و « القومية » و« العرقية » و« الدينية » الخ ، أي خالياً من عالمية الرأسمالية ومن الامبريالية ، يستند على « علم تطور المجتمع الانساني ».في لبنان وسوريا ، كنتم آخر من فقد ثقته « بإمكانية تحقيق هذه المهام عن طريق التطور الرأسمالي ». في سوريا ، سبقكم إلى ذلك غالبية العمال ونسبة كبيرة من جماهير الشغيلة ، ونسبة غير قليلة من المثقفين ، وبضعة « احزاب » أو « هيئات » قديمة وحديثة ... وفي لبنان طويتم هذه الصفحة في ١٩٦٤ أو ١٩٦٥ ، أو بعد هذا التاريخ . ما هو سبب هـذا التأخر ؟ الا يكون « المفهـوم العلمي الطبقي » كله بحاجة الى اعادة نظر ؟ في ضوء « عالمية الرأسمالية والامبريالية » و« المادية التاريخية غير المشوهة » ، غير الميّسرة في كراس صغير بعنوان « تطور المجتمع الانساني منذ بدء التاريخ »؟ هذا اليسر يقود الى هذا العسر. و « وإن مع العسر

يسراً » . هنــا ايضاً يفتقر البرنامج إلى نظرة نقدية لافكار الماضي . وكون الرفاق اللبنانيين يتحدثون في هذا الفصل عن « محتوى العصر » بشكل عــام وعن « حركة التحرر الوطني » بشكل عام وليس عن «حركة التحرر العربية» أو اللبنانية ، لا يبرر هذا الافتقار ، الذي يخرّب المنظور التاريخي كله .فلننصت إلى المقطع اللاحق :

١٦ – لماذا وصلت عناصر من البرجوازية الصغيرة الى قيادة حركة التحرر والى الحكم ؟ نقد منطق الرفاق اللبنانيين ، مقــارنة بين الصين والهند والعرب .

« فانطلاقاً من الدور الكبير الذي تقوم به الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة بالنضال الثوري في البلدان النامية ، ولكونها تشكل غالبية السكان العظمى ، في حين أن ضعف نمو الطبقة العاملة ونفوذها السياسي لم يمكّنها ، في العديد من البلدان النامية ، من تحقيق قيادتها للنضال التحرري الوطني ، وصلت الى الحكم في عدد من هذه البلدان عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين » . (ص ١٧) .

هـــذا المقطع حلقة اساسية في « محتوي عصرنا » وفي « حركة التحرر » و« تحولها النوعي » . ويتذكر القارىء تتمة النص : تصدّي هؤلاء القادة لعملية البناء الداخلي واجراء جملة من التحويلات الاقتصادية والاجتماعية ووضع الأسس لسير البلاد في طريق غير رأسمالي ، تلك ظاهرة رئيسية بعيدة الاثر في حركة التحرر وفي العملية الثورية العالمية .ثم تأتي صفحة بنقد هؤلاء القادة : = انهم من الفئات الوسطى ، البرجوازية الصغيرة ، يسعى بعضهم للتفرّد بالسلطة ، وتفكيرهم يتسّم بالانتقائية « البعيدة عن المفهوم العلمي الطبقي » (ص ١٨) .

علينا ، بعد التذكير بالاطار ان نعود مرة اخرى الى قراءة المقطـع الاول الاساسي . والسؤال الذي نطرحه مباشرة : هل صحيح ان ضعف نمو الطبقـة

العاملة ونفوذها السياسي لم يمكنها في العديد من البلدان النــامية من تحقيق قيادتها للنضال التحرري الوطني ؟ وهل صحيح ان هذا الضعف للطبقة العـاملة مجتمعاً مع الدور الكبير الذي تقوم به الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة بالنضال الثوري ، ومع كونها تشكل الغالبية العظمى من السكان ، يعلل وصول عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفـين (أي من البرجوازية الصغيرة وربما من الفئات الفلاحيـة) الى الحكم في عدد من هذه البلدان ؟

في جواب الرفاق اللبنانيين المكثف والواسع المضامين، بعض الصواب و كثير من الخطأ. ونسارع إلى القول ان الخطأ فيه خطأ مطلق، واما الصواب فلا يعدو كونه ضرباً من المحاكمة التكرارية التوتولوجية tautologie ، تكرر فيه النتيجة المقدمة التي انطلقت منها . فلنصرف اولاً هذا الصواب .

حين نقول ان ضعف النفوذ السياسي لطبقة مــا (أو لسين من الناس أو الهيئات) لم يمكّنها من تحقيق قيادتها فاننا لا نتقدم قيد انملة . وحين نقول أن ضعف النفوذ السياسي للطبقـة العاملة لم يمكنها من تحقيـق قيادتها للنضال التحرري الوطني ، فاننا في احسن حال ، نكرّر في السبب النتيجة المطلوب تفسيرها .

وحين نقول « الدور الكبير » للفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة قاد إلى وصول هذه الفئات أو بعضها إلى الحكم ، فاننا ، في احسن حال ، لا نقول شيئاً مفيداً . هذا مع صرفنا النظر عن الغموض الذي يميز عبارة من طراز « الدور الكبير » (للفلاحين والبرجوازية الصغيرة) .

ذلك هو المنطق البسيط . المنطق المضاد للتوتولوجيا والذي يكشف صفتها كتوتولوجيا .

علينا الآن ان ننتقل إلى الواقع ، إلى تاريخ نصف القرن الأخير ، حتى نمسك الجانب الآخر في تعليل الرفاق اللبنانيين ، جانب الخطأ ، الخطأ بشكل مطلق. ان الرفاق اللبنانيين في نهاية التحليل ، يقدمون لنا تعليلاً لعدم وصـول الطبقة العاملة ووصول عناصر من البوجوازية الصغيرة ، بالعوامل « الموضوعية » وعلى

وجه التحديد، بضعف نمو الطبقة العاملة وقوة الفلاحين والبرجوازية الصغيرة.

فلنسأل الواقع ، فلنسأل تجربة نصف قرن من « حركة التحرر الوطني » في الصين والهند وآسيا والوطن العربي .

في ١٩٢٥ ، القى ستالين خطاباً امام طلاب الجامعة الشيوعية لشغيلة الشرق[1]. وفي هذا الخطاب ، صنّف بلدان الشرق المستعمَر والتابع إلى ثلاثة صنوف ، بحسب درجة التصنيع « ودرجة نمو الطبقة العاملة » . الصنف الأول الاكثر تقدما يتمثل في « **الهند** » . والثاني يتمثل في « **الصين ومصر** ». والثالث الشديد التأخر ، الخالي من الطبقة العاملة ، يتمثل في « **مراكش** » . ثم حدد الخط الواجب انتهاجه في كل من هذه الصنوف الثلاثة ، على هذا الاساس . (نعتقد ان في هذا التحديد خطأ فادحاً . هناك فرق اساسي بين مصر المستعمَرة واندونيسيا المستعمرة وبين الصين **نصف** المستعمرة والتي ترزح تحت حكم الجنرالات الصينيين . وفي هذه الفترة ذاتها ، يرتكب شيوعيو جاوا ومصر خطأ «يسارياً» ، بالتأكيد – قد لا يكون ستالين مسؤولاً عنه جوهرياً – ويرتكب شيوعيو الصين خطأ « يمينياً » - وبأمر من الكومنترن وستالين – حسيّاً ، شيوعيو الصين وبالأحرى قيادة موسكو عظّمت من شعبية ووطنية تشانغ كاي شك واقرانه السافلين . وشيوعيو مصر فعلوا عكس ذلك ولم يلاحظوا ان سعد زغلول يتمتع بتأييد ٩٠ ٪ من الناس (بما فيهم غالبية الفلاحين والعمال). وليس هدفنا تقييم استراتيجية وتاكتيك ١٩٢٥ (ولكن الاشارة السابقة كانت ضرورية ، وهي ايضاً تنصبّ على موضوعنا) ، بل تسجيل قضية درجة نمو الطبقة العاملة في الهند والصين ، كما يراها ستالين وكما يمكن ان نراها ونحسبها رياضياً : الهند متقدمة بشكل مرموق على الصين من حيث نمو الطبقة العاملة في ١٩٢٥ وفي ١٩١٩ وفي ١٨٩٠ وفي ١٩٤٩ ، سواء بسواء . درجة تقدم الانتاج الصناعي في الهند في ١٩١٩ وفي ١٩٤٩ ضعفا درجة تقدم الانتاج الصناعي في الصين وربما أكثر ، حتى بعد النمو الصناعي الكبير في منشوريا في

(١) موجود في مجموعة ستالين « الماركسية والمسألة القومية والكولونيالية » ، طبع باريس ، وفي مؤلفاته الكاملة .

زمن « الحماية » اليابانية [١] في ١٨٨٠ و١٩١٨ ليس فقط نمو « الطبقة العاملة » بل « نفوذها السياسي » ايضاً ، أكبر بكثير في الهند منه في الصين : الهند تعرف معاركها العمالية الأولى في بومباي والمراكز الصناعية الاخرى، بينما الصين لا تزال في طور حرب البوكسر ونضال الطلاب والمثقفين والضباط . في ١٩١٩ - ١٩٢٣ يتوجه نظر لينين والكومنترن إلى الهند قبل الصين ، وإلى « الطبقة العاملة » و « البروليتاريا الثورية » في الهند. وفي مؤلفه الأخير ، يذكر لينين « روسيا ، الهند ، الصين » بهذا الترتيب. وستالين في « مبادىء اللينينية » ١٩٢٤ يتوجه في أوروبا إلى المانيا (حيث البروليتاريا والاضطهاد القومي) وفي آسيا إلى الهند (حيث الاضطهاد القومي والبروليتاريا) :

المانيا والهند هما المركزان المحتملان للثورة البروليتارية الاشتراكية القادمة. وفي ١٩٢٥ ، يميز ستالين بحق الهند والصين في مرتبتين من حيث « نمو الطبقة العاملة » . (والمسألة « القومية » ليست غائبة من منظورات ستالين . ولكن لعله استنتج منها استنتاجاً خاطئاً : التسلط الاستعماري الانكليزي **الكامل** على الهند ، يكون حسب هذا الاستنتاج ، مصدر شحن اضافي للتراكب الانفجاري . ذلك تبسيط للموضوع وسلق للامور . تنبيه مفيد نوجهه للاخوان الآلتوسريين! وفي ١٩٤٩ ، ليست الصين متقدمة على مراكش من حيث درجة « نمو الطبقة العاملة » [٢] .

---

(١) انتاج الفولاذ في الجمهورية الهندية عام ١٩٥٠ = ١،٥ مليون طن ، وفي الصين عام ١٩٥٢ = ١،٣ مليون طن . اذا اخذنا بعين الاعتبار فرق العامين وفرق السكان ، نصل فعلا الى فرق يعادل × ٢ أو اكثر .

(٢) مقارنة بين درجة التصنيع في روسيا ١٩٠٠ وصين ١٩٥٢ = الانتاج بالكيلوغرام للفرد من السكان (ما عدا سكك الحديد) -

	الفحم	الحديد الصلب (فونت خام)	الفولاذ	الصوف بالبكرات	سكك الحديد (بآلاف الاميال)
روسيا ١٩٠٠	١٦٨	٣٠	٢٢	٠،٠٠٧	٣٦
الصين ١٩٥٢	١١٠	٣	٢	٠،٠٠١	١٥

الثورة الروسية قلبت موازين الماركسية الكاوتسكية . والثورة الصينية قلبتها أكثر .

أن مقارنة الصين مع الهند (كان يمكن ان نعقد المقارنة مع بلدان اخرى من بلدان منطقة « حركة التحرر الوطني ») تبين بالبداهة ان انتصار الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني ليس مرده قوة « نمو الطبقة العاملة الصينية »، وان فشل الحزب الشيوعي الهندي في الوصول الى « قيادة الحركة » وإلى « الحكم » ليس مرده « ضعف » نمو الطبقة العاملة « الهندية » .

يمكن ان نعزُو الفشل والنجاح إلى « اخطاء » الشيوعيين الهنود وإلى « عبقرية » الشيوعيين الصينيين ، أي ان ننسبهما إلى الوعي .

ويمكن أن نعزوهما للشروط الموضوعية ، ليس الا .

والتعليلان صحيحان بدرجة واخرى .

ولكن هناك تعليل واحد خاطىء بشكل مطلق . وهو التعليل بهذا الشرط الموضوعي المعين الذي هو درجة نمو الطبقة العاملة في الصين والهند . ونقول : تعليل خاطىء **بشكل مطلق** .

لو قلنا مثلاً ان انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا مردّه قوة نمو الطبقة العاملة الروسية ، لكان هذا القول خاطئاً بشكل جزئي : الطبقة العاملة في روسيا كانت متأخرة عن الطبقة العاملة في انكلترة وفرنسا والولايات المتحدة والمانيا وبلجيكا ، من حيث حجمها الاجمالي، من حيث نسبتها الى مجموع السكان (وترتبط هذه النسبة بدرجة التصنيع) ، ومتأخرة كثيراً . ولكن الطبقة العاملة في روسيا ١٩١٣ كانت متقدمة على الطبقة العاملة في بلدان الغرب المتقدم، من حيث درجة التمركز او التركزّ . (وهذا التفوق في التركز ناجم عن حداثة التصنيع الرأسمالي في روسيا) . وقد لا يكون ذلك شيئاً كبيراً ، بالمقارنة مع العوامل الاخرى التي شرحناها (الامبريالية والحرب ، اجتماع الثورتين ...) ، ولكنه بالتأكيد ليس شيئاً تافهاً : قوة البلاشفة الروس هي في المراكز الصناعية الكبرى . واللينينية (والوعي اللينيني كله) مستحيلة لولا هذه المراكز وهذه البروليتاريا . وفي هذه المقارنة بين روسيا والغرب ، نبقى في اطار الشروط الموضوعية الاقتصادية ، في اطار « الكينونة » أو « الوجود »، أي في اطار تلك

الشروط المادية التي يقول عنها ماركس في نص المقدمة الشهيرة [1] انهـــا تقاس بدقة رياضية .

في المقارنة بين الصين والهند ، حتى هذا التفوقُ في درجة التمركز العمالي غير وارد بالنسبة للصين (لم يذكر احد شيئاً من هذا النوع) . وقد يكون التفوق في هذه النقطة ايضاً لصالح الطبقة العاملة في الهند . ولذا نقول : ان تعليل انتصار البروليتاريا (أو الاشتراكية ، أو الحزب الشيوعي) في الصين وعدم انتصارها في الهنـد بدرجة نمو الطبقة العاملة هو خطأ مطلق ، فريد في تاريخ التلمس الماركسي لقضايا العالم .

وإذا عدنا إلى الانزلاق اللبناني من ضعف « نمو الطبقة العاملة » الى ضعف « نفوذها السياسي » ، وجب علينا القول : مهلاً ! مهلاً ! هـــذان شيئان اثنان لا شيء واحد !

هل تقيمون علاقة التعادل بين «الطبقة العاملة» و « أحزابها »؟ — نعم ، بمعنى ما . نحن لسنا أقل تأييداً لفكرة هـــذا التعادل من الرفاق اللبنانيين وسائر خصومنا المنادين بالماركسية و « مفهومها العلمي الطبقي » . ولكننا نفهم هذه الفكرة **بشكل مغاير تماماً** ، بشكل لا يلغي **الفرق والاختلاف** بين الاثنين !

يبقى اذن ان نفسرّ ما يلي : مــــا هو سبب قوة وانتصار الحزب الشيوعي الصيني وعدم انتصار الحزب الشيوعي الهندي ، رغم ان « الطبقة العاملة » التي « يمثلها » « الحزب » « أو يتعادل معها بمعنى ما » ليست في الصين أكثر نمواً منها في الهند ؟ بتعبير آخر وبمفردات البرنامج اللبناني : ما هو السبب في أن «الطبقة العاملة » هي في الصين « ضعيفة النمو » وقوية « النفوذ السياسي » رغم ضعف النمو ، بينما هي في الهند اكثر « نمواً » وأقل نفوذاً « سياسياً » (وهـذا أقل ما يمكن أن يقال !) ؟

بتعبير آخر ، نرى مرة أخرى ان الرفاق اللبنانيين يمضـــون مباشرة من « الطبقة العاملة » إلى الباقي بدون توسط . و الحال ان « الطبقة العاملة » تؤدي

---

(١) مقدمة كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » . منشورة في كل طبعات المؤلفات المختارة ، وفي عدد من مؤلفات بليخانوف ولينين وستالين .

وظيفتها بوساطة وعلى جسر هو « حركة العمال الثورية » ، « البروليتاريا الثورية » ، « الحزب » . لينين لا « يأخذ » كل « الطبقة » و « الطبقة » فقط . عند لينين ، الذات هي البروليتاريا الثورية ومعها الجماهير شبه البروليتارية ، وعدد من المسائل . في البرنامج اللبناني ، الذات هي « الطبقة العاملة » فـ «الطبقة العاملة » هي التي تفعل ، وهي التي تولد ..

وبذلك يرى القارىء بأي معنى نقيم وبأي معنى لا نقيم علامة التعادل بين « الطبقة » و « الحزب » . والتعادل بالمعنى الخاطىء يمكن أن يكون موقف بضع عشرات من الماركسيين المعروفين - مارتينوف وآكيموف ، روزا لوكسمبورغ ، غيسد ، بليخانوف ، بياتاكوف الخ... [1] - ولكنه ليس بأي حال موقف لينين باني البولشفية الروسية الصائرة ماركسية العصر .

في عملية انزلاق مدهش، جمع الرفاق اللبنانيون « ضعف نمو الطبقة العاملة » وضعف« نفوذها السياسي» ،في نصف سطر وبدون تكرار كلمة «ضعف»(«ضعف نمو الطبقة العاملة ونفوذها السياسي ») ، وقرروا ان هذا الضعف الموضوعي - بعد حذفنا شطره الأخير باعتباره تكراريا مع ما بعده - هو ما يفسر عدم قيادة البروليتاريا للنضال التحرري . قلنا ان الشطر الأخير في السبب (ضعف « نفوذها السياسي ») يتكرر في النتيجة (« عدم تمكنها من تحقيق قيادتها للنضال التحرري ») . انه النتيجة التي تتطلب التعليل ، النتيجة التي تبحث عن مقدمة لها وهذه المقدمة ليست سوى « ضعف نمو الطبقة العاملة » . و « النفوذ السياسي » ملحق في ذيل هذا الضعف) . تلك هي لغة رفاقنا اللبنانيين . ليست لغة الطلاب الألمان في حوانيت البيرة ،اللغة المنسابة المائعة المزركشة ، التي يراها لينين عند رفيقه بياتاكوف في ١٩١٦ . ولكنها ليست لغة لينين التي تُحْكِم الألفاظ والمفاصل غير عابئة بالجمال والانسياب . واذا حاولنا ان نصيغ محاكمة الرفاق اللبنانيين بإحكام المفاصل ووضع حد للانسياب قلنا : ضعف نمو الطبقة العاملة ← ضعف نفوذها السياسي ← عدم تمكنها من تحقيق قيادتها للنضال التحرري الوطني.

---

(١) علماً بأن روزا لوكسمبورغ وبياتكوف ، قاتلا ضد الانتهازية في حركة العمال .

وهكذا نكون قد أفصحنا بجرأةعن مفهومهم الوسيط (ضعف النفوذ السياسي)، وبينا ان المفهوم الوسيط ماهو الا وسيط شكلي، يتكرر في النتيجة أو في أحسن حال يذوب في النتيجة والمقدمة ، هذا الافصاح يكشف خطل المحاكمة ، بشكل مضاعف .

بيد أن هذه المحاكمة الخاطئة ليست الا واحداً من وجهي الخطأ في هـذا المقطع الكثيف ، قد لا يكون هو الوجه الأهم .

في هذا العصفور الصغير أو الطائر الكبير (لا فرق !) الذي يُدعى «حركة التحرر الوطني » ، جناحان : من جهة « الطبقة العاملة » ، ومن جهة ثانية « الفئات الفلاحية البرجوازية الصغيرة » . وعلى ما يبدو بقدر ما ينمو أحـد الجناحين ، يضمر الجناح الآخر . ذلك هو معنى النص اللبناني اذا كان له معنى محدد . (أي مع أخـذنا بعين الاعتبار رأي لينين في لغة بياتاكوف والطلبة الألمان) . ولكن لنقرأ النص مرة أخرى ، حتى لا نظلم أحداً .

« فانطلاقاً من الدور الكبير الذي تقوم بـه الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة بالنضال الثوري في البلدان النامية ، ولكونها تشكل غالبية السكان العظمى ، في حين ان ضعف نمو الطبقة العاملة الخ ... » .

الدور الكبير للفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة وكونها تشكل غالبية السكان ، يعلل بالتظافر مع كون ضعف نمـو الطبقة العاملة لم يمكنها من تحقيق قيادتها للنضال التحرري ، وصولَ عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين إلى الحكم .

وحتى لا نظلم أحداً (وسنرى في النهاية وعلى الطريق ، من هـو الظالم) يجب ان نسجل الاطار المكاني لكل شطر أو حلقة في هذا الاستدلال .

المقدمة الأولى : أ — الدور الكبير للفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة بالنضال الثوري « في البلدان النامية » ، أي اذا كان للكلام معنى في جميـع البلدان النامية .

ب – كون هذه الفئات « تشكل غالبية السكان العظمى » ،على الأرجح الشيء نفسه في « البلدان النامية » (في جميع البلدان النامية) ،وإن كانت هذه العبارة الأخيرة قد ألحقت بالشطر أ ، أي قبل الشطر ب .

هذا بالنسبة للمقدمة الأولى أ « الانطلاق الطبقي العلمي ، الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة » « إنطلاقاً من » هذه القاعدة الموضوعية . هكذا يقول البرنامج . والاطار المكاني لهذه القاعدة الموضوعية = هو (البلدان النامية) أي جميع البلدان النامية .

المقدمة الثانية : الطبقة العاملة : ضعف نموها لم يمكنها ، **في العديد من البلدان النامية** ، من تحقيق قيادتها ... « ولا نعلم ، بشكل مؤكد تماماً ، ما اذا كان التحديد المكاني » في العديد من البلدان النامية « يخص ضعف نمو الطبقة العاملة ونفوذها السياسي » أو يخص « عدم تمكنها من تحقيق قيادتها » ، يخص المقدمة والنتيجة أو النتيجة وحدها « عدم تمكنها ، في العديد من ... » . ان وضع « في العديد من البلدان النامية » في **وسط** النتيجة يساعد في ذهن القارىء وعلى الارجح في ذهن واضعي البرنامج على « صرف » السؤال الكبير : هل هناك بلدان نامية غير هذا (العديد) **تتصف بقوة** نمو الطبقة العاملة ووصلت فيها هذه الطبقة العاملة إلى السلطة بنتيجة قوة هذا النمو هذه « مساعدة » غير مجدية . ليس من ماء مبارك يبدّد هذا الشيطان .

إذن عدم تمكن الطبقة العاملة (الناجم عن ضعف النمو) مكانه « العديد من البلدان النامية » فقط وليس كل البلدان النامية .

النتيجة : وصول عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين (من البرجوازية الصغيرة ، الانتلجنتسيا العسكرية والمدنية) . مكانها « **في عدد من هذه البلدان** » .

ان البرنامج اللبناني ، اذ ينتقل من المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية فإلى النتيجة ، إنما ينتقل من العام إلى الخاص فإلى الاخص .

أجل ذلك ليس « قياساً » syllagisme أرسطوطيلياً من نوع : كل انسان فان ، سقراط إنسان ، إذن سقراط فان . ولكنه على أي حال أقرب إلى

القياس الشكلي العقيم منه إلى نهاجية ماركس ولينين والقياس له على أي حال مزية الترابط التام والإحكام المطلق ، مزية الحقيقة (أحد أشكال الحقيقة)...

ويرى القارىء ان قولنا السابق عن جناحي الطائر الوطني قول خاطىء حرفياً . حرفياً ، لا يقول الرفاق اللبنانيون أنه حيث ينمو الجناح الفلاحي والبرجوازي الصغير يضمر الجناح العمالي ، فتصل ريش من الأول إلى الرأس ، (إلى القيادة والحكم) . حرفياً ، يقول الرفاق اللبنانيون الجناح الفلاحي والبرجوازي الصغير نام في جميع البلدان النامية (أو بالاصح « في البلدان النامية ») ، والجناح العمالي ضامر « في العديد من البلدان النامية » ، والريش المعمرة [1] وصلت « في عدد من هذه البلدان » .

حرفياً (ومع بعض التساهل !) .

ولكن ماذا يفيد هذا كله ؟ الفلاحون والبرجوازية الصغيرة هم الغالبية العظمى في كل البلدان النامية . والطبقة العاملة ضعيفة النمو في كل البلدان النامية . ومع ذلك فان الطبقة العاملة وصلت إلى القيادة وإلى الحكم في عدد من هذه البلدان ، وعناصر وطنية ثورية عسكرية ومثقفة وصلت إلى الحكم وإلى القيادة في عدد آخر ومحدود من هذه البلدان ، بينما لا تزال بلدان أخرى عديدة تعيش في ظل الرأسمالية وعلاقات الامبريالية شبه كاملة . **هذا هو ما يحتاج الى تعليل!.**

وبصدد الجناحين ، الصين في ١٩٢٥ – ١٩٤٩ ليست متفوقة على الهند من حيث النفوذ السياسي لحزب البروليتاريا وحسب ، رغم تأخرها عن الهند في مضمار « نمو الطبقة العاملة » ، بل أن الصين متفوقة على الهند في مضمار « الدور الكبير الذي تقوم به » (وهنا نخرج عن ألفاظ النص اللبناني) « **جماهير الفلاحين** » وربما ايضاً البرجوازية الصغيرة والطلبة والمثقفون والبرجوازية الوطنية . اذ ما معنى « الدور الكبير » ؟ هل المقصود النشاط النضالي ؟ هل من شك في ان النشاط النضالي الثوري لفلاحي الصين هو أضعاف هذا النشاط في الهند خلال كل الحقبة التاريخية المعنية ؟ هل نشبه حركة تِلِنغانا وبضع انتفاضات فلاحية أخرى في الهند بهذه « الحروب الأهلية الثورية » التي تملأ تاريخ الثورة الصينية

(١) بالعمرات العسكرية .

المديدة منـذ ظهور ماو تسي تونغ والحزب الشيوعي الصيني ؟ أم أن المقصود ليس« الدور المقارن» لفلاحي الهند وفلاحي الصين بل « لدور » المقارن لبروليتاريا الصين وفلاحي الصين مع اللعب على ألفاظ « الدور » و « القيادة » الخ . لافائدة من هذا اللعب، ان « الحروب الأهلية الثورية » في الصين هي في مضمونها البشري الرئيسي ، « من حيث الجوهـر » أو « الأساس » quant au fond « نضال الفلاحين » . (هذا مايقولة ستالين عن النضال القومي بوجه عام في رده على الرفيق سيميتش، كما رأينا في مكان سابق. وليس اذن بدعة للقادة الصينيين).

ان المقطع المكثّف المكرّس لهذا الموضوع كله في البرنامج اللبناني لا يفيد قيد شعرة في تلمّس واقع تطور « حركة التحرر » وفي تعليل الاختلاف الكبير في نقطة الوصول ، بين الصين والهند والحالة الثالثة التي يتوقف عندهـا الرفاق اللبنانيون (وصول عناصر وطنية ثورية من البرجوازية الصغيرة الى الحـكم)، وليس فقط لا تفيد ، بل انها تخرّب التلمس والتعليل ، استنـاداً على « المفهوم العلمي الطبقي » الفارغ ، تخرب التلمس باعطائها وَهْمَ تعليل .

ما هي أسباب اختلاف النتيجة في الحـــالات الثلاث : الصين ، الهند ، العرب ؟

ولا بأس بعد تفنيدنا التفصيلي لهـذه الحلقة الرئيسية في البرنامج ، ان نقدم التعليل المضاد . ما هي الاسباب (بالجمع) التي تفسر اختلاف الحالات الثلاث ؟ واولاً ما هي الأسباب التي تفسر اختلاف الحالة الصينية والحالة الهندية ؟

اولاً : الشروط أو الظروف الموضوعية . نقصد « بالموضوع » كل مـــا هو وجـود « مستقل » عن ارادة « الذات » المتصديـة لتغيير الموضوع ، أي «الموضوع » من وجهة نظر هذه « الذات » ، بالنسبة لهذه الذات . ما هي هذه الشروط الموضوعية ؟ لنبدأ بالسرد أو الوصف أو التعداد . لأن السرد والوصف والتعداد أول مراحل العلم . ولأن الوصف هو المدخل الطبيعي الى الفهم.

يُذكر مثـــلا اختلاف الحضارتين والثقافتين والايديولوجيتين التاريخيتين التقليديتين ، الهندية والصينية ، أو الموقفين الهندي والصيني من الحيـــاة ومن الوجود . الهنود – تاريخياً وذهنياً – أكثر استسلاماً للطبيعة ، أكثر تسليماً ، أكثر ذوباناً في الوجود الطبيعي ، واكثر بعداً عن الروح البروميثية والفاوستية ، عن الروح «الأوروبية» ، أي عن فكرة تغيير العالم ، من الصينيين ومن غالبية شعوب الشرق .

« يا لهُ من تفسير مثالي حقير ، ما دام يُحقـّر شعباً عظيماً كالهند ! » .

هذا مـــا سيقوله الأخ القارىء « الشيوعي » الجاهـــل والمتشنج . « اضربوا هذا الحمار » المثالي haro sur le baudet .. ولكننا لا نشك في أن التشنج خف وقل عدد المتشنجين ، ولعله هبط إلى ما يقرب من الصفر . أما الجهل فلم يقل بالنسبة ذاتها . وسيكتفي بعض قرائنا الشيوعيين بأنه « تفسير مثالي » ، متسائلين (ربما بعطف) : هل يتبنى ناقدو برنامجنا هذا التفسير ؟

نذكـّر أولاً بأن المثالية – كما يقول لينين – ليست محض حماقة ، انها تشويه وتضخيم أحد جوانب الواقع المتعدد الجوانب والوجوه . والاكتفـــاء بالقول « تفسير مثالي » ينطوي على إقرار بان فيه جزءاً ولو صغيراً من الواقع ، ولعله ينطوي على الاحساس بان وراء الاكمة ما وراءها .

وقبل ان نترك ميدان الأفكار ، نقول لمصلحة القارىء المتسرع مهلاً ! نحن لم ننقل هذا السبب المحتمل عن ألبرت شفايتسر وعشرات المستشرقين من المفكرين الحقيقيين العظام (حتى اذا كانوا مثاليين) وإنمـّا نقلناه (جزئياً على الأقل) عن مؤسس « المفهوم العلمي الطبقي » ، نقلنـــاه عن كارل ماركس . ويجد القارىء هذا الكلام عن الهند حرفياً في المقالات الهندية لماركس العـــائدة لعام ١٨٥٣ ، والتي غدت الآن نصوصاً ماركسية كلاسيكيـــة ، لا تخلو منها طبعة من طبعات المختارات ، تحترم نفسها والقارىء وماركس [١] .

---

(١) مثلا ماركس – انجلز : المختارات ، بالفرنسية أو بالانكليزية ، طبع موسكو . او ماركس انجلز ، نصوص عن الاستعمار ، طبع موسكو . تصدر الآن عن دار الحقيقة .

في هذه المقالات ، يسجل ماركس ان الهنود ، بدلاً من ان يجعلوا الانسان سيداً على الطبيعة وملكا على الظروف ، يجعلونه يركع أمـــام سابالا البقرة وهانومان القرد الخ الخ. مع ان ماركس يحبّ ويحترم الهند وشعبها وحضارتها : الهنود اذكياء خلقوا الحساب ، لا يقلون عن الايطاليين فناً ونعومة ومهـارة ، نجد في نماذجهم اجداد اليوناني القديم والجرماني الحديث (وماركس ليس عرقياً) . وروح التسليم الهندية ترتبط بكون الهند « ليس لها تاريخ » ، أي ليس لهـــا تاريخ اجتماعي . « أياً كانت التقلبات التي أصابت السطح السياسي » (الدول ، الفاتحون والحروب والامبراطوريات العظيمة) فقد ظلت الاعماق الاجتماعية بلا تغير . وهذا ما يسميه ماركس « الأسلوب الآسيوي للانتاج »في شكله الهندي ، في شكله «النموذجي » الكامل الخالص ، ان صح هذا التعبير[1] . والصين عند ماركس هي ايضاً من « هذا النموذج » ، ولكن مع بعض الاختلاف . في الصين التاريخية ، ظهرت الملكية الخاصة للارض وهيمنت (بخلاف الهند). وليس من شك في ان تاريخ الصين قد شهد مئات الانتفاضات وعشرات الثورات الفلاحية. ولكن هذه الثورات – على حد ما يقوله ماوتسي تونغ – عجزت عن إحداث أي تغيير جدّي في النظام الصيني الذي يسميه ماوتسي تونغ « اقطاعياً » (مع

---

(١) عند ماركس ، « الاسلوب الآسيوي للانتـــاج » ليس الاسلوب المشاعي ، ولا اسلوب الرق ، ولا الاسلوب الاقطاعي (الفيودالي) . وقوامه :

اجتماع الزراعة والصناعة العائلية في القريـــة المكتفية ذاتياً ، عدم وجود الملكية الخاصة للارض (والانفصال بين الملكية والحيـــازة والانتفاع) ، سيطرة دولة استبدادية على الجماعات القروية المشاعية المكتفية ذاتياً ، وأخذها فائض الانتاج لتأمين اعمال الري وصرف الميـــاه (والانشاءات الاقتصادية الاخرى وانشاءات الهيبة التي ترمز الى الوحدة العليا) ، في ظروف المناخ الصحراوي ... التجارة على مسافات بعيدة ومع الدول الأخرى هي بيد الدولة والمدن . والاقتصاد السلعي لا ينفذ الى الخلية الاجتماعية (القرية) ولا يفعل فيها فعله المدمر . ولا تتولد دينامية صاعدة كتلك الدينامية التي قادت اوروبا من اسلوب الى اسلوب خلال حقبـــة تاريخية وجيزة نسبياً . وينطبق مفهوم الاسلوب الآسيوي أو الشرقي ، على مصر والشرق الادنى القديم،وعلى الهند وايران وتركستان والصين وجاوا الخ، وهو يبقى صامداً حتى الازمنة الحديثة، واحياناً حتى « الثورة » الرأسمالية والاستعمارية .

عدد من الملاحظات الثمينة عن « الدولة » والبروقراطية والاقتصاد الطبيعي ، وكلها تقرّب تشخيص ماو من تشخيص ماركس)، ويسميه ماركس « آسيوياً »، بل كانت تخدم في احلال سلالة حاكمة محل سلالة أخرى ، على حد ما يقول مارتسي تونغ (في كتابه « الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني »، ١٩٣٩). ومع ذلك ، فان الثورات الفلاحية في الصين هي ثورات ، وهي تكاد تملأ تاريخ الصين حتى حرب الأفيون والاقتحام الاستعماري الأوروبي . ويعقب هذه الصدمة الأولى ثورة تاي بنغ المديدة الجبارة ، وهي آخر الثورات الفلاحية الكلاسيكية . ووضع الهند من هذه الناحية - الثورات الفلاحية - مختلف إلى حد لا بأس به . والاختلاف - بهذا القدر أو ذاك - بين العقلين والموقفين الذهنيين والايديولوجيين يجب ان نفهمه بالارتباط مع هذا الاختلاف في شروط الوجود المادي التاريخي . والايديولوجيا و « العواطف » تبقى حتى بعد زوال الشروط المادية التي اوجدتها ، خصوصاً اذا كانت هذه الشروط شروط أربعة آلاف سنة من التاريخ ، وإذا كانت الايديولوجيا هي الدين ..

ذلك إذن سبب ممكن . ونعتقد انه سبب حقيقي وغير ثانوي : الاختلاف في العقليتين . لنظر الآن إلى سبب ثان ، لعله أهم من الأول .

الصين المقتحَمة من قبل المستعمرين الأجانب في القرن التاسع عشر والعشرين لم تصل في هذا المضمار إلى ما وصلت اليه الهند ، لم تنزل إلى المستوى الذي نزلت اليه الهند : مستعمرة للانكليز ، كاملة[1] ، درّة التاج البريطاني . وملك انكلترة آخر أباطرة الهند . وفي الصين المستقلة سياسياً ، في الصين نصف المستعمرة ، وُزِنت الأمور على يد المثقفين العصريين وقُلِبت على كل وجوهها ، بعيداً عن الايديولوجيا القومية التقليدية ، بعد فترة انتقالية هجينة طبيعية . ولئن كانت البروليتاريا الهندية الحديثة أقدم واكثر تمركزاً ونشاطاً من البروليتاريا الصينية ، فكذلك الأمر بالنسبة للبرجوازية . ان حزب المؤتمر يتكوّن كحزب برجوازي كبير قبل « هيئات » و « احزاب » صن يات صن

---

(١) مستنزفة ، مذبوحة ..

وغيره .البرجوازية في الهند « تتكون كطبقة قومية » على النطاق القومي ، على نطاق القطر ، وتبسط طاقاتها السياسية . الصين تستفيد من استقلالها النسبي ومن تصارع الامبرياليين ، وحزب البروليتاريا المسلح بالوعي السائر في طريق النمو يستفيد من تصارع اسياد الحرب المحليين وصدام امـيركا واليابان ثم من انتصار الاتحاد السوفياتي على اليابان ..

وثالثاً : اذا عدنا من جديد الى الخلفية التاريخية القائمة بقوة في الحاضر : الصين أمة متماسكة (اللغة الصينية الواحدة ، شعب هان – رغم اختـــلاف الألسن ، بقاء اللغة الواحدة ، الكتابية والحضارية) ، بينما الهنـــد خليط من اللغات والاجناس والاديان والقوميات ، ورغم التوحيد الاقتصادي الاستعماري والرأسمالي ، فان الهند لا تسير نحو لغة واحدة وأمةواحدة أو انها تسير ببطء، في ظل الاستعمار والعلاقات البرجوازية والكولونيالية . وبريطانيا« الموحدة » بهـــذا المعنى الاقتصادي النسبي ، تطبق سياسة « فرّق تسد » . وهذا النقص الفادح في الاندماج القومي يضع على عاتق الهند المناضلة وُزْراً اضافياً كبيراً . وتنتهي الامور الى دولتين اثنتين وعدد من المشاكل القومية والاقليمية المعقدة . انتفاضة تلنغانا الفلاحيـــة في ١٩٤٨ تفشل في الوقت الذي تظهر فيه بمظهر التعارض مـع وحدة « الأمة » أي بمظهر انفصال اقليمي عن « الامة » .

ورابعاً : يمكن ان نضيف الى هذه « الظروف الموضوعية » السياسة العالمية والخط العام للحركة الشيوعية العالمية في زمن النضال العالمي ضد الفاشستية وفي زمن الحرب العالمية الثانية . جـاء وقت كان فيه قادة حزب المؤتمر في السجون الانكليزية ، وكان فيه قادة الحزب الشيوعي الهندي احراراً يساعدون «المجهود الحربي » للحلفاء في الكفاح ضد اليابان التي وصلت الى بورمـا . في الصين منـذ اواخر القرن التاسع عشر ، الحركة الوطنية تجابه الاستعمار الياباني ايضاً (وليس فقط الانكليزي أو الاميركي) . ومن التهديد اليـاباني والامتهان الياباني ينبـع الاختمار الشيوعي الأول وحركة ٤ ايار ١٩١٩ وفي عام ١٩٣١ ، تبسط اليابان احتلالها على شمال شرقي الصين (منشوريا وإقليمين مجاورين) ، ثم تبدأ في١٩٣٧

غـَزْو عموم الصين فتحتل كل المناطق الساحلية وتتوغل في وديان الانهار وعلى المحاور الكبرى . غالبية الشعب الصيني تصبح تحت نير الاحتلال الياباني. ويصبح « التناقض الاساسي » التناقض بين الامة اليـــابانية والأمة الصينية . ويقف الشيوعيون في طليعة النضال الوطني . وهم من حيث العلاقة مع الخط العــام للحركة الشيوعية العالمية ، في وضع يختلف عن وضع رفاقهم الهنود .

هذا السبب الرابـع ، نضعه جوهرياً في « الظروف الموضوعية » ، علماً بانه يمكن ان يوضع جزئياً في « الظروف الذاتية » المرتبطة بالوعي والفعل. فالمطلوب وعى هذا الظرف الموضوعي . ولكن هذا يصح ايضاً بالنسبة لكل الشروط الموضوعية . لا نزعم ان وعي الشروط الموضوعية يكفي لحل المشكلات وتحقيق الهدف. ولكنه بالتأكيد وبقدر ما هو وعي صحيح يدفع الى الامام نحو الهدف.

ان وعيَ الشروط الموضوعية (أي الظروف الذاتية للثورة) أي بالتالي ، التجارب والاخطاء والتقدم ،السير الصاعد للفكر والعمل ، هو شرط لا غنى عنه للنصر . ومن الممكن النقاش لمعرفة ما اذا كان ينبغي ان نعزو الفشل الهنـدي الى الشروط الموضوعية بمقدار ٥٠ ٪ أو ٨٠ ٪ ، وإلى الظروف الذاتيـة (وعي حزب البروليتاريا الخ) بمقدار ٥٠ ٪ أو ٢٠ ٪ . ولكن هناك شيء أول أكيد : لا نرى بين هذه الشروط الموضوعية للفشل الهندي والنجاح الصيني شيئاً اسمه درجة « نمو الطبقة العاملة » . (لو كان فيها ذرة من ذلك ، لكنا نتحدث اليوم عن النجاح الهندي والفشل الصيني) وثمة شيء ثان أكيد : صواب وعي قادة وبناة الحزب الشيوعي الصيني .

قد نلوم أو لا نلوم بناة وقادة الحزب الشيوعي الهندي على وعيهم وتجاربهم وفكرهم . قد يكونون ارتكبوا أخطاء صغيرة أو كبيرة . واستفادوا منهـــا بشكل ناقص قليلاً أو كثيراً ... ولكن لا بد من ان نرفع قـُبـَّعـَتـَنـَا لقـــادة وبناة الحزب الشيوعي الصيني ، وبشكل خاص لماوتسي تونغ والقيادة التاريخية التي تكونت حوله [١] ، وتغلبت بنضال طويل على الاخطاء والاتجـــاهات اليمينية و « اليسارية » ، واستطاعت اخيراً ان تستبعد اولئك « اليساريين »

---

(١) وأهم عناصرها : ليوشاوشي .

و « الطبقيين » « البروليتاريين » وانغ منــغ وبوكو ورفاقهما والمعروفين باسم « مجموعة التـــلاميذ التي عادت الى الوطن » (قادمة من مركز الكومنترن الستاليني) . واستمرت المسيرة الكبرى ، واستمر النضال المسلح، وثبتت خطة « الجبهة المتحدة » و « الاستقلال » داخـــل الجبهة المتحدة ، ضد الانقساميين اليمينيين ، واخذ الحزب على عاتقه القسط الأكبر مـن عبء النضال ضد الغزو الياباني ، ثم حَسَمَ التاريخ ، بعيداً عن خط « المفهوم العلمي الطبقي » ودرجة « نمو الطبقة العاملة »، وهو الخط الذي كان يشكّ في امكانية الانتصار (ستالين نفسه ، كما نعلم من اكثر من مرجع ، بل ومن التعليق الصيني الثاني في المناظرة الصينية – السوفياتية ، وموضوعه الدفاع عن ستالين والتنديد بخروشوف[1] .

لسوء الحظ ، ان الرفاق اللبنانيين ينسون دروس الثورة الصينية ، والثورة الصينية ومؤلفات ماتسي تونغ وليوشاوشي الكلاسيكية (لو كنا محل القـادة السوفيات ، لنشرنا هذه المؤلفات ، فهي جزء من تراث الماركسية، عظيم الفائدة لشعوب الشرق المكافحة ضد الامبرياليـة والاقطاعية والرأسمالية ولشيوعيي العالم . ما زلنا نحب أن نتصوّر ان المرء يستطيع ان يكون ضد الخط الحـالي للقـــادة الصينيين[2] دون ان يكون ضد مؤلفات من نوع « الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني » ، « حول الممارسة » ، « حول التناقض » ، « حول الحزب » ، « كيف نكون شيوعياً جيداً » ، « خط الجماهير » . وان يكون تصورنا خاطئاً لا يفيد الا في تأكيد عمق واتساع وقدم الاختـلاف والخلاف وهذا ينطوي على خطر كبير بالنسبة لمستقبل الانسانية الاشتراكية ، أكبر مما

---

(١) لا بأس من الاشارة الى ان خروشوف ، اذ قدم سجل ستالين غـــير الابيض في تاريخ الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي السوفياتي منذ ١٩٣٦ ، لم يتطرق الى موضوع اخطاء ستالين المحتملة في الحركة الشيوعية العالمية، ولا سيما في فرعها الصيني، وهو الفرع الثابت الاهم. بينما الصينيون دافعوا عن ستالين « المظلوم » دفاعا طويلا ، ولكنهم ضمنوا دفاعهم فقرة صغيرة هي بمثابة سجل مختصر لمواقف ستالين الخاطئة في تاريخ الثورة الصينية بصورة مباشرة او غير مباشرة .

(٢) وبالاحرى ضد مسؤولية الصينيين في حوادث الحدود الاخيرة، حتى اذا ايدتها مظاهرات صينية تضم ٣٥٠ مليون شخصاً (خصوصاً اذا أيدتها ....)

رآه انجلز في رسالته إلى كاوتسكي، ولينين في تعليقاته الكثيرة على هذه الرسالة).

الرفاق اللبنـانيون نسوا الثورة الصينية وغـاصوا إلى أعلى آذانهم في غمار النضال ضد انحراف القادة الصينيين فأصلوهم وابـلاً من النعوت : الانحراف القومي والشرقي والجغرافي والعرقي عن المفهوم العلمي الطبقي، باعتباره انحرافاً برجوازياً صغيراً شوفينيا وذاتياً مهووساً.

فهل المبادىء الأساسية في أقوال الصينيين عن سير الثورة العالمية هي بمثابة انحراف عن اللينينية ؟

نادراً ما نجد في أدبيات الرفاق اللبنانيين . هذه التهمة . والتهمة الأساسية فيما يتعلق بـ « التحليلات والاستنتاجات النظرية المزعومة » للقادة الصينيين هي الانحراف عن « التحليل العلمي التـاريخي والطبقي » إلى « العوامل العرقيـة والجغرافية » مما لا يتفق مع الماركسية ـ اللينينية [1]. و« المفهوم العلمي الطبقي» يملؤ صفحات « الوضع العالمي » .

فلنؤكد السؤال : « هل ما يقوله الصينيون في ١٩٦٠ و ١٩٦٣ و ١٩٦٨ حول منظورات الثورة العالمية يتناقض مع ما يقوله لينين في ١٩١٦ و ١٩١٩ و ١٩٢٣؟ الصينيون متهمون بانحراف ما ، يمكن ان نسميه (انتم تسمّونه) جغرافياً، شرقياً ، آسيويا ، قومياً ، لا طبقياً الخ ...

ان سلسلة النصوص التي نقلناها عن لينين (وهي ليست سلسلة كاملة لا تقبل زيادة ، وهي ليست نصوصاً ثانوية وردت في خطب عابرة وظرفية ألقاها لينين أمام وفود من جمهورية باشكيريا السوفياتية أو من ايران والهند ، وقصد منها « التشجيع » أو دغدغة العواطف الثورية لمثقفين شرقيين متحمسين . وقد ذكرنا ردّ لينين على روي وتبريدَه له . لا شيء في شخصية لينين وكل مؤلفـاته يوحي بوجود عنصر من هذا الطراز في شخصية مؤسس مـاركسية العصر ـ بل هي نصوص أساسية ألقيت أمام مؤتمرات الكومنترن ، وأخطرها ورد دائماً في « المختارات » لأنه كان بمثابة الوصية قبل الوداع) ، أن سلسلة النصوص التي

---

(١) وكأن اللينينية رديف لفظي لـ « الماركسية » و « مفهومها العام » !

نقلناها عن لينين تبيّن ان هذا الاتجاه « الجغرافي » ، « الشرقي » ، « الآسيوي » « القومي » « اللاطبقي » (!!) — سمّوه كما تشاؤون ! — موجود عند لينين ، وهو يسير صعوداً عند لينين منذ ١٩٠٨ وحتى المؤتمر الكومنترني الثاني في ١٩٢٠ ، وبعد هذا المؤتمر في ١٩٢١ وفي آذار ١٩٢٣ .

والسؤال : ١ — هل الصينيون اليوم « يتخطّون » لينين ١٩٠٨ — ١٩٢٣ ، في هذا الاتجاه نفسه ، أي « جغرافياً ، شرقياً ، قومياً الخ ... » ؟

٢ — واذا كانوا « يتخطون » ، فهل التاريخ اللاحق (١٩٢٣ — ١٩٦٨) يبرر هذا التخطي ؟

المسألة محلولة منذ البند الأول . ان أقوال الصينيين اليوم لا تتخطى أقوال لينين قبل خمسين عاماً . وأقوال لينين أصلا لا تقبل التخطّي . الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية ... « روسيا ، الهند ، الصين ، الخ » . « الصدام القادم بين الشرق الثوري والقومي والغرب الامبريالي المعادي للثورة » . هل من مزيد ؟

وهذه ليست محض أقوال أساسية ، بل هي أساسية على وجه التحديد لأنها جزء لا يتجزأ من كل « المفهوم العلمي التاريخي والطبقي » للينين : الامبريالية العالمية ، الاستغلال والاستنزاف الامبريالي ، تلوث الطبقة العاملة الأوروبية ونمو الانتهازية في حركة العمال ، موقع روسيا وثورة أوكتوبر ، الاجتماع والتحول ، المسألة القومية ، « صرف » الكتاب التعليمي الموضوع طبقاً لكاوتسكي ، أي أعادة النظر في المرآة الكاوتسكية لسبل الثورة الاشتراكية ولعِلم المادية التاريخية ، أهميّة الوعي (وعي هذا كله) والحزب .

أما بخصوص البند الثاني ، فان التاريخ اللاحق قد برر منظورات لينين وأكد اتجاهه « الشرقي الخ » .

وأما « المفهوم العلمي الطبقي » للرفاق اللبنانيين فهو اولاً يناقض أقوال وخط لينين وكل منهجه الفكري ، وهو ثانياً لا يزن مثقال ذرة في حساب التجارب التاريخية لنيف ونصف قرن . أنـــه مفهوم نظيف ، نظيف من كل شيء سوى

وعي الذات الذاتي . ليس وعياً هذا الوعي الشاخص باعجاب واكتفاء إلى « سرّته » الطبقية يستنبط منها الحق والحقائق ، ويستلهم منها « وحدة التاريخ العالمي . . »

ولكن أليس في آراء ومواقف الصين أخطاء ؟ نحن لا نشك في ذلك. في آراء ومواقف الصينين أخطاء ، ونرجح كبيرة وكذلك في آراء ومواقف الآخرين: السوفياتيين والتشيكوسلوفاكيين (قديمهم وجديدهم) ، والفرنسيين والطليان ، والكوبيين ، والهنود ، والاندونيسيين الخ . ذلك هو رأينا ، وهو قابل للخطأ والصواب . وليست اخطاء الصينيين موضوعنا الا بقدر ما يغطي البرنامج اللبناني هذه القضية كاشفاً جوهر تفكيره ونهاجيته . ولكن حتى لا يلتبس الأمر على الرفاق اللبنانيين الذين ألفوا التبسيط ، نبدي بعض الملاحظات والتساؤلات على مواقف الصينيين ، لا سيما وان هذه الملاحظات تنصب على نقاشنا الحالي مع اللبنانيين ، وعلى مفهومنا ومفهومهم للماركسية !

١٧ – أخطاء الصينيين ، الخلاف الصيني السوفياتي من وجهة نظر نهاجية الماركسية ، اليمين واليسار . الخاصة العربية النوعية ومستقبل العملية الثورية العالمية .

ليس الصينيون منحرفين عن اللينينية والتحليل العلمي والتاريخي والطبقي حين يقولون « ريح الشرق » و « ريح الغرب » ، أو حين يقولون « منطقة العواصف الثورية » الخ . . . .

هذه الصيغ من حيث أنها مبادىء عامة تتفق مع واقع العصر وتتفق مع منظورات لينين في الفترة الأخيرة من حياته . ومن يعتقد بأن هذه الأقوال هي بذاتها ابتعاد عن الماركسية – اللينينية لا يعرف ماذا تعني الأقوال . هذه الأقوال في أقصى حال (ولا نقول في أسوأ حال) تعني ان الثورة الاشتراكية ليست بصورة رئيسية نضال البروليتاريا ضد برجوازيتها في كل بلد ، بل هي

نضال جميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية ... أي أنها تعني ، في جملة أشياء، وجوب الانطلاق من « العالمية ». وبعد ، فإن المسائل كثيرة – أما حل المسائل بتأكيد وتكرار أن انقسام العالم إلى طبقات أعمق من انقسامه إلى أمم فمعناه تفضيل غليزرمن [1] على لينين .

ان أخطاء الصينيين وأخطاء غيرهم يجب ان تعالج أولاً من وجهة كل تعاليم ونهاجية اللينينية ، كما عرفناها . والمبادىء « العامـــة » الصينية المذكورة آنفاً ليست الا جزءًا (الجزء الصحيح) من تعاليم ومواقف ونهاجية الصينيين. ويتوجه نظرنا بشكل خاص إلى موضوعة الاجتماع والتحول **كحقيقة عيانية ملموسة** وإلى المسألة القومية **كحقيقة عيانية ملموسة** ، وإلى الجمـــع الماركسي المرموق « للصفاء العلمي الكامل في تحليل الحالة الموضوعية والتطور الموضوعي ، مع الاعتراف الأشد حزماً بدور الطاقة والابداع والمبادرة الثورية للجماهير وبالتالي وبالطبع للأفراد والجماعات والمنظمات والأحزاب التي تستطيع اكتشاف وتحقيق الارتباط مع هذه الطبقات أو تلك » . هذا ما يقوله لينين في مقاله « ضد المقاطعة » ، ١٩٠٧ . وهذا المقال الشهير موّجه ضد الذين ينادون بمقاطعة الدوما القيصرية ، أي ضد معارضين للينين من « اليسار » ، أي ضد أكثرية القادة البولشفيك آنذاك ، ولكن لينين وجه هذه الموضوعة الأساسية المتعلقة بمنهج الماركسية ذاته ، أي بما « يميز » الماركسية عن كل النظريات الاشتراكية الأخرى ، ضد « اليسار » « الارادي » واليمين « الموضوعي » في آن واحد .

وليس من شك في أن آراء الصينيين في مبدأ الاجتماع والتحول ، وفي المسألة القومية ، أفضل مرتين من مواقف الرفاق اللبنانيين ، وأفضل أربع مرات من مواقف « دار ابن سينا » [2] ومحرري فلسطين بالثورة الثقافية البروليتارية . لقد نبذ الصينيون النهج الستاليني اليميني الاخير ، وهم يؤيدون الوحدة العربية

---

(١) صاحب كتاب « الطبقة والأمة »، وهو من أفضل الكتب التعليمية لزمن ستالين الأخير . ولكنه من الكتب (القليلة) التي « بمكتبتنا » دون مبرر كاف .

(٢) وهي التي تنشر مؤلفات ماوتسي تونغ ومؤلفات ستالين .

القومية ويثمنّون قيمتها الثورية ، مبدئياً .

ومن الاجحاف – والانحراف عن « جوهر العصر » – اتهـــام الصينيين بالقطيعة مع « التحليل الموضوعي » ، والسقوط في « الارادية » و « الذاتية » . وهنا ايضاً ، المسافة كبيرة بين الصينيين وبين اولئـك الذين علمّونا في أعقاب النكسة ومن أجل الرد الفوري الساحق والاشعال العام ، أن لينين مـــا كان ليكون شيئـاً لولا الارادة الثورية (– ولولا وعيـــه كفرد وجماعة وحزب لـ « تفاصيل » (!) الحالة الموضوعية والتطور الموضوعي ، واكتشافه وتحقيقه الارتباط مع الطبقة والجماهير !!) .

وبصدد مواقف الصينيين (وبالأحرى «أنصارهم» الجدد في بلادنا) ، نقول: مبدئياً لا يكفي. المبادىء العامه (حتى حين تكون أكثر تشخيصاً وعيانية من « المفهوم العلمي الطبقي » لـــبرنامج الرفاق اللبنانيين) لا تكفي بأي حال . والتشخيص العياني يجب أن يسير الى نهاية الشوط ، كتشخيص عياني .

تسير الأمور وكأن الرفاق الصينيين حللوا التطور العـــام ، فتبينوا ان الرأسمالية العالمية في تدهور، وهي تتدهور في « العالم الثالث »، في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . المجاعة « مستقرة » في الهند وهي تشتد بين وقت وآخر ، وقد تسير الأوضاع قدماً نحو الهاوية . وافريقيا تتخبط . والعـدوان الاميركي يتقدم و« يغوص ». في كل مكان « الوضع الثوري العالمي ممتـاز » . والمهم تبني شعار « اليسار » ، اقصى اليسار ، ونبذ الحلول الوسطية الحقيقية والمفترضة . النصر يلوح في الأفق . وعلى أي حال فهو آت آجلا أن لم يكن عاجلاً . وفيهذا المنظور ، تبدو « التحريفية السوفياتية » قوة وسطية تخفـّف الصدام الكبير ، وتخدم العدو ، وتتراجع عن الاشتراكية نحو مجتمع برجوازي من طراز مـا . وفي هذا المنظور العالمي ، وعلى أساس اوضاع الصين التاريخية والهدف الشيوعي للصين ، تبدأ « الثورة الثقافية البروليتارية » ، ويؤكد أن هذا الصراع الداخلي سيتوالى أجيالاً وقروناً ، منعاً للانتكاس وتجديداً للانسان الذي عاش ألوف السنين في ظل علاقات الملكية الخاصة والأنانية ...

والحال ، هذا الوعي لتـدهور الرأسمالية العالمية ، حتى اذا قرن بوعي ان السقوط لن يأتي مـن حتمية القوانين الموضوعية التي تفرض حـدوث أزمة اقتصادية هائلة في العالم الرأسمالي الصناعي الغربي (كان هـذا تصوّر ستالين في السنوات الاخيرة من حياته ، والصينيون يعون خطأه) بل سيأتي من النضال الثوري العالمي ، ومن العواصف الثورية في القارات الثلاث بشكل خاص ، هذا الوعي لا يكفي . نحتاج إلى اكثر من ذلك ، ولينين كان دائماً يحتاج الى اكثر من ذلك ، وليس ما يبرر ان نتخلى اليوم من حاجة لينين . لا يكفي ان تنحدر الهند الى الهاوية حتى ترتفع الى الثورة الاشتراكية البروليتارية . ولا يكفي ان تتخبط افريقيا وان « يغوص » الاميركيون في كل مكان ، حتى تقوم الاحزاب الثورية والبؤر الثورية ، وتنجح . لقد انحدرت المانيا الى الهاوية في ١٩٣٠ – ١٩٣٣ وأدى ذلك الى انتصار الفاشيستية (وخطأ الرفيق الشهيد تايلمـــان وستالين كان خطأ يسارياً لا يمينياً ، ١٩٣١ – ١٩٣٣) [1] . والقول بأن هـذا الانتصار للفاشستيه قاد ، في نهاية المطاف، الى توسع رقعة الاشتراكية العالمية ، عبر الحرب العالمية الثانية ، ليس حجة مقبولة : انه حكم على الطريق الآخر (بدون انتصار الفاشستية ، وبدون هذه الحرب) ، يصدر غيابياً . ومفـاده الاعلان بان طريق الثورة البروليتارية كان مسدوداً في حوض الرور وهامبورغ وفرنسا وبلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا الخ ، بالأصل . ومآله « دفع الامور نحو الأسوأ » ، وفي هذا السبيل ارتكاب الخطأ خدمة لسبل التـاريخ الملتوية ، لـ « خِدَع التاريخ » les ruses de l'Histoire . ولقد كانت الحربُ العالمية الثانية محتومة في منظورات لينين ١٩٢٣ .ولكن ليس بالضرورة هـــذه الحرب العالمية (لينين لا يتوقـّع تحوّل المانيا الى النـــازية) . وكانت الحرب العالمية الأولى محتومة أكثر . ومن هذه الحروب العالمية الأولى ، نبعت الثورة الدائمة الاشتراكية في روسيا . وحتى اذا اعتبرنا ان هذه الحرب العالمية الأولى كانت

---

(١) هل نقول ان الوضع الثوري ممتاز في المانيا ١٩٣٢ : ملايين العاطلين عن العمل ، بل وحزب شيوعي قوي ... ؟

ضرورية تماماً لقيام وانتصار هذه الثورة (النهوض الثوري البروليتاري والفلاحي في روسيا ١٩١٢ – ١٩١٤ سار قدماً ، وفاق مرحلة ما قبل انفجار ١٩٠٥) ، فان النضال ضد هذه الحرب بعد نشوبها وقبله ، كان هو طريق التقدم والنصر . لنتصور لحظة لو أن لينين وروزا وكاوتسكي وجوريس وقفوا في ١٩١٢ ليقولوا: الرأسماليه تحمل معها الحرب ، والحرب تحمل معها الثورة الاشتراكية ، ونحن بالتالي نؤيد قيام الحرب ، لأنها الجسر الذي يقود إلى الاشتراكية ! كلا لم يقولوا ذلك ، بل قالوا عكسه : الرأسمالية تحمل معها الحرب . ونحن ضد الحرب وحاملتها . نناضل ضد الجريمة من الآن ، ونعبىء الجماهير الشعبية ، وعند وقوع الجريمة ، سيتواصل نضالنا الشعبي وسيتطور إلى نضال مباشر من أجل الاشتراكية . ولقد ذكرنا ان النهوض الثوري البرليتاري والشعبي الروسي وصل في ١٩١٢ – ١٩١٤ إلى مستوى أرقى مما وصل اليه قبيل انفجار ثورة ١٩٠٥ . ويجب ان نضيف ان هذا النهوض الثوري بلغ ذروته في النضال ضد خطر الحرب الداهمة المحتومة في صيف ١٩١٤ (عند زيارة الرئيس الفرنسي لبطرسبرغ) .

لا يكفي ان تتدهور أوضاع الرأسمالية العالمية حتى تنتصر الثورة الاشتراكية العالمية . ان أوضاع الرأسمالية تتدهور منذ ١٩١٧ . ولكن الثورة تنتصر هنا ، وتفشل هناك ... ان الثورة الاشتراكية العالمية تنبع من الرأسمالية العالمية وتدهورها . ولكن هذا ليس أكثر من قانون عام . ويمكن ان تسقط « حلول وسطية » ويأتي « بديل » شرّ منها . وقد نعتبر حلاً وسطياً حلاً ليس وسطياً، في نهاية المطاف . و« البديل » الأسوأ قد لا يكون جسراً إلى عودة موجة الثورة البروليتارية ، بل جسراً إلى شيء جديد . تلك هي أيضاً سبل التاريخ الملتوية . الانتصار « المقبل » (متى؟) للاشتراكية شيء وسبل هذا الانتصار شيء آخر .

ان صيغة من نوع « الوضع الثوري ممتاز » يمكن ان تشجع وقتياً المناضلين هنا أو هناك ، ولكنها لا يمكن ان تكون اساساً لنهاجية الفكر والعمل . وريح الشرق لا « تغلب » بالضرورة ريح الغرب . « والامبرياليون والرجعيون كافة » ليسوا دائماً « نموراً من ورق » . ان ريح الشرق ستغلب ريح الغرب ،

والامبرياليون والرجعيون سيصبحون نموراً من ورق، حين ستتحق وحدة النظام الاشتراكي العالمي ، وحين ستتخذ قوى الثورة الاشتراكية العالمية ليس فقط ستراتيجية « عامة » هجومية بل موقفاً صحيحاً من كل القضايا العيانية . ان « الستراتيجية الهجومية العامة » لا تكفي وقد تغطي محلياً تطبيقات تاكتيكية تخريبية ، والايضاح الصيني حول تمييز الستراتيجية الهجومية والتاكتيك [1] ، ايضاح ثمين ولكنه لا يكفي [2] . ان تطور احداث السنوات الأربع الأخيرة لا يوحي لنا بأن « الوضع الثوري ممتاز » .

ان أحد وجوه التبسيط الصيني للوضع الحاضر هو فكرة انقسام الحركة الشيوعية العالمية إلى « يمين » و « يسار » ، إلى « ثورية » و « تحريفية » . ويتكرر لفظا « اليمين » و « واليسار » في مقالات الصينيين ، وبالاحرى في مقالات وعلى ألسن المقلدين الصغار . وليس « العالم » فقط ينظر اليه في رؤيا « أبيض » و « أسود » ، بل « الحركة الشيوعية العالمية » ذاتها . ولا نعتقد بصحة رأي الرفيق الصيني « التحريفي » الذي علّم كوادر الحزب ان الواحد والواحد يجتمعان في واحد جديداً أعلى ، وهذا جوهر الديالكتيك [3] . ولكننا لا نعتقد ايضاً بصحة الرأي الصيني الصراعي الثوري المعاكس الذي يقول ان الواحد ينقسم إلى واحد وواحد ، وأن أحد الواحدين يتغلب على الآخر ، ثم ينقسم المنتصر من جديد إلى واحد وواحد ، يتغلب أحدهما على الآخر ، وهكذا دواليك ، وهذا هو جوهر الديالكتيك : الانقسام والصراع ، والنمو والتقدم بالانقسام والصراع . واذا كان المنطق الديالكتيكي لا يستطيع ان يستغني عن مقولة «الانقسام» ، (ولا عن مقولة « الوحدة ») ، إلا أنه لا يستطيع ان « يُطلق » هذه المقولة أو تلك ، أي ان يجعلها « مطلقة » . ان اضفاء صفة الاطلاقية على « الانقسام »

---

(١) الذي ليس بالضرورة هجوماً في كل مكان .

(٢) أما « الجماعات الصينية » المنشقة في بيروت أو دمشق فلم تسمع به . ديدنها بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ محاربة عبد الناصر و « التحريفيين » « عملائه » (ونحن منهم) .

(٣) كان الرفيق مسؤولاً عن مدرسة الحزب ، قبل خمس سنوات . وقد ردت عليه « مجلة بيكين » . والأرجح انه اخرج من مركزه بعد قليل .

لا يفيد في تأكيد شمولية مبدأ التناقض ، وقد يؤدي إلى تشويه صفة هـذه الشمولية ، مثالياً وميتافيزيقيا ، في منطق ليس منطق الواقع المادي .

يكرر الصينيون لفظي « اليمين » و « اليسار » ، و « يسحبون » على الاوضاع الراهنة للحركة الشيوعية العالمية أوضاع حركة العمال الاوروبية في زمن الاممية الثانية والحرب العالمية الاولى . و« اليمين » و « اليسار » قد يحتاج الى « وسط » مضاف . ولكن هذه الاضافة الأخيرة لا « تقدمنا » كثيراً !

ان التعرف الماركسي على تاريخ النضالى الثوري الانقلابي لا يمكنه ان يستغني عن مقولات « اليسار » و « اليمين » و « الوسط » . وقد استعمل لينين هذه « الالفاظ » في تشخيصه وفهمه لحركة العمال في عصره ، بنجاح لا مثيل له . ميزّ « اليسار » و « اليمين » ، الجبل (اليعاقبة) والجيروند ، في حركة العمال الاوروبية والروسية . وميز « الوسط » (كاوتسكي ، هيلفردنغ، مارتوف في زمن الحرب الامبريالية العالمية) الذي غدا أسيراً وخادماً لليمين . ولو اقتصر عمل لينين على تبني موقف « اليسار » ضد موقف « اليمين » و« الوسط » ، لما كانت ثمة لينينية من قريب او بعيد . ان لينين لا يؤقنم « اليسار » و« اليمين » في ملكوت الديالكتيك الصراعي .

لقد أنشأ لينين ماركسية عصر الامبريالية ، من أجل الثورة الاشتراكية . ومقولات أو مصطلحات « اليسار » و « اليمين » و « الوسط » هي في خدمة هذه الماركسية وهذه الثورة . وهي لا تهيمن عليها مثة « يسار » لا يثني لينين عن التعرّف على الواقع الموضوعي ، من أجل تغييره . لينين لا يخضع لشانتاج « اليسار » ،وحزب البروليتاريا اللينيني لا يدّعي الوقوف في «اقصى اليسار» في كل ظروف وزمان ومكان ... ذلك لقب شرف يتركه لينين لسواه [1] .

---

(١) شانتاج اليسار يعطي ما يلي : اذا طلب أحد تأميم كل المعامل والمزارع التي فيها ثلاثة عمال أو اكثر يكون يساريا ، ولكن اذا طلب آخر تأميم كل المعامل والمزارع التي تشغل عاملاً واحداً يكون هذا الاخر يسارياً ، ويصبح الاول في نظره يمينياً . اذا رفع احد شعار اسقاط ملك الاردن كشرط لتحرير فلسطين (يرى بعيداً !) يكون « يسارياً » و « طبقياً » و «ثورياً»، ولكن اذا رفع آخر شعار اسقاط حكومات البرجوازية الصغيرة كشرط «لتحرير ←

لقد تكونت الماركسية الروسية في النضال ضد النارودية (« الشعبية ») ، ثم ضد « الماركسية الشرعيـــة » . ونستطيع ، اذا شئنا ، ان نطلق اصطلاح « اليمينية » على النارودية (دانيلسون ، ميخايلوفسكي الخ) وجماعاتها الارهابية (هذه التسمية لا تفيدنا كثيراً هنا . فالمهم معرفة ماهية النارودية ومحتواها ، وطبيعة النضال الماركسي ضدها) . ونستطيع ان نطلق اصطلاح « اليمينية » على « الماركسية الشرعية » (ستروفه ، توغهان – بارانوفسكي الخ) . وهـــذه التسمية صحيحة ومفيدة (فالماركسية الشرعية هي الشكل الروسي الاول للتحريفية الأوروبية) ، ولكن مع هذه الصحة والفائدة تبقى مسألة معرفـة ماهية الماركسية الشرعية والتحريفية ، وطبيعة النضال الماركسي ضدهما . ثم يجابه الماركسيون الروس بزعامـة لينين تيار « الاقتصاديـة » (مارتينوف ، اكيموف) ، ويمكن ان نسمي هـــذا التيار « يمينياً » ما دام هو الشكل الثاني للتحريفية ، ولكن تبقى مسألة معرفة « الاقتصادية » . ثم لماذا لا نسمي هذا التيار « يسارياً » فضلاً عن تسميته « يمينياً » ، ان مارتينوف وآكيموف ورفاقهما يرفعون شعارات « المفهوم العلمي الطبقي » « ونضال الطبقة العامـلة ضد البرجوازيـــة » ، ضد « المتخلفين » الذين لا يزالون يتكلمون عن السياسة والمسائل السياسية وقضايا الثورة الديمقراطية البرجوازية . « لقد انتصرت الرأسمالية في روسيا . لذا فان المسائل السياسية لم يعد لها شأن . والمهم هو

←ـــ فلسطين »(يرى بعيداً وأبعد !) يكون هو« اليساري » و « الطبقي »و« الثوري »ويصبح الاول في نظره « يمينيا » و « برجوازياً صغيراً » و « اصلاحياً »، حقاً ان « اليسار » (!?) ليس معياراً ومحكا الا في نظر اناس جهلة وكسولين ومخربين . حين كانت روزا لوكسمبورغ تقول للينين : انك تلتقي مع كاوتسكي اليميني في هذه النقطة (مثلا بصدد المسألة القومية) ، كان لينين يرد : كاوتسكي في هذه النقطة على حق وانت على باطل . وحين كان بياتاكوف (كيفسكي) يقول للينين : انك تتكلم مثل كاوتسكي والـــبرجوازية الصغيرة (عن المسألة القومية ايضاً) ،كان لينين يرد : كاوتسكي والبرجوارية الصغيرة على حق وانت تتكلم مثل المرحوم الكسنكي (الكسنكي البولشفي الاوتزوفي الذي كان يحل اكبر المسائل تعقيداً بهتاف من نوع « لنغرس خازوقاً في جسد البرجوازية الخفاق ». هذا الرمز العظيم لـ« اليسار العظيم انتهى يمينياً جداً »).

نضال البروليتاريا ضد البرجوازية .

هكذا يلخص لينين منطق الاقتصاديين القدامى ، وتكونت البولشفية في النضال ضد هذا التيار ، وفي النضال ضد المنشفيك والمنشفية والمصفين ، ثم فتحت النار على كاوتسكي والكاوتسكية . وكان هذا النضال نضال «اليسار» ضد «اليمين» أو ان شئت ، ضد اليمين والوسط في الماركسية الدولية . وبعد شباط ١٩١٧ جابه لينين آراء عدد من رفاقه البولشفيك المتخلفين عن ركب الاحداث والأفكار ، ودفع القطار نحو « أقصى اليسار » ، نحو اوكتوبر ، وبنى الكومنترن بالتمايز والقطيعة مع « اليمين » و« الوسط » ، مع الأممية الثانية والأممية الثانية والنصف. وعلى طول الخط ، أن هذا الوصف « اليميني » و « الوسطي » على أهميتـــه ، وأهميته البالغة فيما يتعلق بالمنشفية والكاوتسكية والتحريفية لا يغني عن تحديد محتوى هذه التيارات والردّ على منطقهـا ، ذلك الردّ الذي ليس رداً يسارياً وحسب بل هو لينيني على وجة التحديد .

غير انه من الواضح كل الوضوح ومن الهام كل الأهمية ان لينين (وماركس من قَبْله) قد كافح ايضاً وبضراوة على الجهـــة الاخرى ، ضد سلسلة من التيارات « اليسارية » . واذا تركنا جانباً الفوضوية والفوضوية النقابية ، يبقى معنا : نضال لينين ضد حملة شعار « حكومة عمالية » في ١٩٠٥ ، نضال لينين ضد انصار المقاطعة وضد البلاشفة الاوتزوفيين في فترة الرجعية الستوليبينية – (وفي البداية كان ثلاثة ارباع البلاشفة المعروفين « اوتزفيين » بدرجـــات متفاوتة يطالبون بسحب نواب الحزب من الدوما القيصرية) ، ونضال لينين ضد هذا التيار السياسي يرتبط ايضاً بنضاله ضد فلسفة « النقد التجريبي » من أجـــل المادية ، وقد كان بوغدانوف زعيم الاوتزوفيين وزعيم « النقد التجريبي » في آن واحد بين البلاشفة ، نضال لينين ضد روزا لوكسمبورغ اليسارية في المسألة القومية ، نضال لينين ضد تيار « الاقتصادية » الامبريالية (بياتاكوف ، بوخارين) الذي اتخذ شكل معارضة « يسارية » لأفكار لينين باسم الطهر البروليتاري ومفهوم « عصر الامبريالية » . وبعد اوكتوبر : نضال لينين ضد « الشيوعيين اليساريين »

انصار « الحرب الثورية » ضد الامبريالية الألمانيــة ، وللحقيقة « فرسان الجملة الثورية » (بوخارين ومعه نصف القيادة البولشفية . وتروتسكي ومــــعه ربــع القيادة في « الوسط » . ولينين ، من فضلكم في « اليمين ») ، نضال لينين ضد « اليسارية » مرض الطفولة في الشيوعية الاوربية الناشئة [1] ، وضدالاندفاعات « اليسارية » في المؤتمر الثالث للكومنترن ، نضال لينين من أجل التراجع عن نظام « شيوعية الحرب » الى « السياسية الاقتصادية الجديدة » .

لقد تكوّنت البولشفية ونمت بالنضال ضد الاقتصادية والمنشفية والتحريفية والكاوتسكية . ولكن البولشفية ما كان يمكن ان تنمو وأن تعيش لولا نضالها على الجهة الاخرى ايضاً ، وان فرسان « اليسار » في اوائل ١٩١٨ كان بإمكانهم لولا رد لينين ان يدفنوا جمهورية السوفيات والثورة الاشتراكية تحت مئة متر من التراب .

لينين الذي دفع القطار نحو أقصى اليسار في ١٩١٧ هو نفسه (هووحده !) الذي دفع القطار نحو « اليمين » في اوائل ١٩١٨ وفي ١٩٢١ . وصاحب كتاب « الثورة البروليتاية والمرتدكاوتسكي » هو أيضاً صاحب كتاب « اليسارية ، مرض الطفولة في الشيوعية » .

لأن اللينينية تتمسك بالتحليل الموضوعي لحركة التــاريخ (الصاعدة) ، وتؤمن بطاقة الجماهير والأفراد والأحزاب ، لذلك فان اللينينية هي استراتيجية ثورية مفتوحة نحو أقصى ما يمكن من الثورية في طريق تاريخي لا يحدّه حدّ ،

---

(١) الفصل الرابع من كتاب لينين « اليسارية ، مرض الطفولة في الشيوعية » (١٩٢٠) ، عنوانه : « في النضال ضد اي اعداء داخل حركة الطبقة العــاملة نمت البولشفية وتعززت وصقلت » . هؤلاء الاعداء هم اولا : التحريفية المنشفية ، الكاوتسكية . وثانيــا : الفوضوية الاوتزوفيون ، « الاشتراكيون – الثوريون » ، « الشيوعيون اليساريون » في اوائل ١٩١٨ . « الاشتراكيون الثوريون » (وهم اكبر الاحزاب الشعبية كانوا يتمتعون بعطف واسع من قبل الفــلاحين) « رفضوا أو عجزوا عن فهم ضرورة تقدير القوى » ، كانوا يعتبرون نفسهم « ثوريين جداً » و « يسار » وأقصى يسار الخ . وكل هذه التيارات « اليسارية » « القصوى » هي ، حسب لينين ، برجوازية – صغيرة .

وتاكتيك عياني يمكن ان يكون في اقصى « اليسار » او « في اقصى اليمين » ، بالمقارنة مع التيارات الاخرى في الماركسية الثورية . ولقد جاء حكم التاريـخ لصالح اللينينية ، ضد التيارات الاخرى : هذه التيارات (لوكسمبورجية ، تروتسكية) ليست اكثر من « سقطات » عبقرية في تاريخ الفكر الماركسي الثوري المتنامي ، ليست أكثر من نتاج أدنى des sous - produits رغم كل مآثر أصحابها .

ونحن نعتقد انه من الواجب علينا أن نأخذ اللينينية كلها ، الآن .

لقد شملت المناظرة الصينية – السوفياتية كل المسائل بالتأكيد : سبل الثورة الاشتراكية العالمية وتقييم فروعها ،قضية السلم والحرب والتعايش السلمي ،قضية ستالين، سبل البناء الاشتراكي وقضايا تطور المجتمعات الاشتراكية الخ ، وأصاب رذاذها الفلسفة والأدب الخ . ولا نعتقد ان هذه المسائل قـد حُلت ! وليس هدفنا في هذا البحث ان نقدم مساهمتنا في هذا الحل . ولكن لا بأس ان ننقل الى الرفاق اللبنانيين رأياً في الموضوع قد يستهجنه البعض ويستغربه البعض الآخر ، دون ان يمنعهم الاستهجان والاستغراب من الوقوف عنده .

استشهدنا سابقاً بقول للينين في تعريف منهج الماركسية :

أنها تجمع بشكل مرموق الصفاء العلمي الكامل في التحليل الموضوعي والايمان الحازم بطاقة الجماهير والأفراد والأحزاب . ولقد قال لينين ، منذ بداية عمله ، ضد « الماركسيين الشَرْعيين » والتحريفية عموماً ، ان الماركسية تجمع وتوّحد الصفة العلمية القصوى والصفة الثورية القصوى ، ليس فقط لأن ماركس وانجلز كانا عالمين وثوريين ، بل لأن هذا الجمع والتوحيد هـو في طبيعة الماركسية . أليست الماركسية في آن واحد منهجاً لتفسير العالم وتغيير العـالم ؟

هذا كله يبدو لنا بديهياً . وكونه بديهياً لا يقلل من شأنه ، بالعكس أنـه في نظرنا ألفباء الماركسية ، ألفباء منهجها ومادتها . بدونه ليس ثمة ماركسية . وبقدر ما نبتعد عنه ، نبتعد عن الماركسية ، وننسى الألفباء . هذا النسيان ليس حالة نادرة .

ولكن التطبيق أكثر صعوبة من المبدأ . « جمع » ، توحيد، « تركيب » ، أي جمع ، توحيد ، تركيب ، بين شيئين . لولا وجود شيئين لما قلنا جمع ، توحيد .... ولسنادائماً قادرين على تحقيق الجمع والتوحيد . هذه مسألة تتوقف على الوعي، على الشروط الموضوعية . ولينين هو المثل الأعلى لهذا الجمع والشاهد الأعلى على قدرة الماركسية كاملة .

وماركس ؟

ماركس لم يصنع ثورة اشتراكية . لقد تمتع ماركس بالخاصتين الثورية والعلمية مثل لينين . ومثل لينين ، ناضل على جبهين ، جبهة « الموضوعيين » و « الاقتصاديين » و « العلميين » ، بدون الايمان بالجماهير وطاقاتها وبدون الايمان بالجديد ، وجبهة « الثوريين » و « الاراديين » و « السياسيين » و «التآمريين» ،بدون علم وموضوعية وتحليل تاريخي– إقتصادي وسياسي عياني. ولكن ماركس لم يصنع ثورة . بل يمكن القول : الثورة الاشتراكية لم تكن ممكنة في زمن ماركس. « والمسؤول » ليس ماركس بل الشروط الموضوعية لتقدم التاريخ العالمي. هذه الشروط اتاحت الامكانية لظهور الماركسية على يد مؤسسيها العبقريين ، ولكنها لم تتح امكانية تحقيق رسالة الماركسية . وتبينت الماركسية في مسيرتها الصاعدة أن الطريق أطول وأعقد مما كان يظن المؤسسان ورفاقهما.

ولقد فعل ماركس ما في وسعه من أجل الثورة الاشتراكية . لم يكتف بتأليف « البيان الشيوعي »و« رأس المال »وعدد من المؤلفات النظرية والسياسية بل تزعم «رابطة الشيوعيين »(ومن أجلها كتب « البيان الشيوعي »)، وشارك في أحداث ١٨٤٨ ، وأسس وقاد الأممية الأولى ، وأشرف على الخطوات الأولى لحركة العمال الثورية الحديثة ، الماركسية ، وعمل المستحيل من أجل انجاح كومونة باريس التي قامت بقيادة البلانكيين والبرودونيين (١٨٧١) ....

وموقف ماركس من كومونة باريس جدير بالتأمل ، ذلك لأنه يبين لنا أن في صميم «المشروع» الماركسي الكبير **مشكلة** كبيرة : قبل انفجار الثورة ، حذر ماركس من هذا الـ « الجنون » . وحين قامت اندفع معها بكل قوة وأرسل

صهره لافارغ لمساعدتها بإثارة حركة مماثلة في أحد الاقاليم . ورد على صديقه كوجلمان (الذي كتب اليه مستغرباً) : من المستحيل أن تقوم الثورات بحظ في النجاح يعادل ١٠٠ ٪ . وقد انتقد ماركس أخطاء الكومونة وسعى إلى ارشاد رجالها ، ثم بَعْد سقوطها ، لخص تجربتها ، وأسهم في تخليد محاولة أولئك الذين « صعدوا يفتحون السماء » . تلك هي قصة ماركس وأول تجربة بروليتارية في التاريخ عاشت شهرين ، ثم سقطت . وفي كل عام يحتفل عمال باريس بذكرى شهدائهم الخالدين ، عند « جدار المتحدين » في مقبرة الأب لاشيز ، وقريباً سيحتفلون بالذكرى المئة ، ولم تتحقق بعد رسالة الكومونة في باريس . ولكن رسالة الكومونة تحققت لدى ثلث البشرية .

واذا عدنا إلى موقف ماركس قبل انفجار الثورة وبعده ، وجب علينا ان نقول مع لينين : لقد أعطانا ماركس درساً عظيماً في المبادرة الثورية . غير أننا لا نخون ماركس ولا لينين اذا قلنا ان ثمة مسافة بين ذلك « الجنون » (رأي ماركس في الثورة قبل قيامها) وبين « حظ في النجاح بمقدار ١٠٠ ٪ » (تبرير ماركس للثورة بعد قيامها) .

تلك هي حال ماركس وزمن ماركس [1] . ولينين محق حين يأخذ درس « المبادرة الثورية » عند ماركس والكومونة ، ضد بليخانوف ، بعد فشل ثورة ١٩٠٥ . وعلى طريق حركة الثورة الاشتراكية الطويل نكون واهمين لو تصورنا طريقاً آخر ، مستقيماً ، بسيطاً : تقوم البروليتاريا بثورتها الوحيدة في الموعد الصحيح وتنتصر بأقل كلفة ، ذلك عالم « موضوعي » قليل الجدلية ، عالم وعي « موضوعي » كاذب . والبولشفية الروسية تنتصر في ١٩١٧ . ثورة ١٩٠٥ كانت « المراجعة العامة » ، وثورات ١٨٤٨ و١٨٧١ و١٩١٨ – ١٩٢٣ الخ... تجارب ثمينة من السخف والحماقة وقلة الثورية والعلمية ان ندينها لفشلها ، ومن السخف والحماقة وقلة الثورية العلمية ان لا نستخلص دروسها كاملة .

وزمن لينين ليس زمن ماركس . انه زمن انتصار الرأسمالية (العالمية)

---

(١) بالطبع ، حديثنا هذا لا يستنفد موضوع ماركس وكومونة باريس .

وتحوّلها إلى امبريالية ، ونضج الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية. وفي هذا يحقق لينين « التوافق أو التطابق بين تغير الظروف وبين الفاعلية الانسانية » باعتباره « ممارسة ثورية » [1] .

هل نجد في الموقفين الصيني والسوفياتي امتداداً خاصاً انشطارياً لجدلية المبادرة الثورية والتحليل الموضوعي القائمة في صميم الماركسية ؟ هل يمثل الموقف الصيني قطب « المبادرة » والموقف السوفياتي قطب « التحليل الموضوعي » في انشطار مؤسف يناقض منهج ماركس ولينين ورسالة الماركسية ؟ ربما جزئياً! وهذا شيء خطير ، خطر !

لقد انطلقت الصين الشعبية في ١٩٥٠ من مستوى صناعي منخفض جداً ، بعد قرن كامل من الامتهان الامبريالي . وتجربة ثلاثين سنة علمت الشيوعيين الصينيين أن طريق الثورة هو الحرب الثورية الطويلة ، والاعتماد على القوى الذاتية للشعب والحزب . المجتمع السوفياتي في الستينات في وضع مختلف ، مجتمع صناعي متقدم ، مجتمع فنيين. القادة الفنيون السوفيات ينظرون إلى العالم على أنه عالم خاضع لقوانين موضوعية تحكم تطوره وتقرّر مراحل هذا التطور . في نظر القادة المحاربين الصينيين ، انه عالم صراع ، عالم دراما وبطولات ... « الثورة الثقافية البروليتارية » تنبع من وجوب منع اجهاض الثورة على يد الدولة البيروقراطية (في تاريخ الصين : كل الثورات الفلاحية « أجهضت » ، خدمت في تبديل سلالة بسلالة) ، وليس فقط من أجل تجديد الانسان بالكفاح ضد عقلية الملكية الخاصة والانانية .

ذلك أحد التفسيرات الممكنة والمعروفة ، وقد يكون هذا التفسير خاطئاً إلى حد كبير . ليس من شك في ان الخلاف الصيني السوفياتي يجب ان يُدرس ، أيضاً ، من وجهة نظر إشكالية تفسير العالم وتغييره ، والموقع الراهن للمجتمعين الصيني والسوفياتي في حركة التاريخ .

ومهما يكن من أمر فإنه لايمكن القبول بموقف الرفاق اللبنانيين .

---

(١) حسب منطوق أحدى موضوعات ماركس عن فويرباخ (١٨٤٥) .

أولاً – ان تشخيصهم لآراء الصينيين خاطىء في الأساس يكشف ويعزّز خطأ « مفهومهم العلمي والطبقي » وابتعادهم عـــن الماركسية وبالأحرى عن اللينينية .

ثانياً – ان الرفاق اللبنانيين قد طووا – فعلاً وقولاً – صفحة الثورة الصينية ، ثورة الثلاثين سنة (قبل الخلاف السوفياتي – الصيني الحاضر) ومئات الملايين من البشر ، طووا هذه التجربة الفريدة أو افكارها . تلك خسارة فريدة .

وهذا الطيّ يترك ثغرة ، هوّة ، في تسلسل منطق البرنامج . لقد أشرنا الى الثغرات : أحجم البرنامج عن تعداد الثورات الاشتراكية التي أعقبت أوكتوبر الروسي ، أحجم عن تحديد مكان ولادة « وليد الطبقة العاملة العالمية » ، نسي قانون تحوّل الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكيـة ، فشل في فهم الشكل الحاضر الرئيسي لتناقض قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وفشل في فهم «عالمية» الرأسمالية وما تستتبعه هذه العالمية ... بمعنى ما ، هذا كـــله ثغرة واحدة ، تتخذ اشكالاً متنوعة ، أو تتكرّر بأشكال متنوعة . وفي أساس هذه الثغرة الابتعاد عن الماركسية – اللينينيـــة ، والانتكاس الى الكاوتسكية ، بل الى كاوتسكية بالغة أقصى درجات التبسيط والابتذال (اسطوانة « المفهوم العلمي الطبقي ») ولا يخفي هذا الانتكاس الملحقُ المدعوّ « حركة التحرر الوطني » ، بل يكشفه مرة أخرى ، بشكل جديد وحاد .

لقد بدأ الرفاق اللبنانيون فقرتهم الطويلة عن « حركة التحرر الوطني » (ص ١٥ – ١٨) بالتحول النوعي في هذه الحركة ، وهو التحول الذي يثبت صحة موضوعة لينين : الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية نضال البروليتاريا ... ، بل ستكون نضال جميع المستعمرات والبلدان التابعة والبلدان التي تضطهدها الامبريالية .

ثم ، بدلاً من ان يلقوا ، ولـَوْ نظرة عابرة ، على تاريخ الاربعـين سنة التي

تعقب لينين ، قفزوا فوراً إلى ايامنا هذه . قالوا (فوراً) : لقد تحررت معظم شعوب الأرض سياسياً ، ولكن هناك التبعية الاقتصادية . والمهمات المطروحة على هذه البلدان المُتحررة سياسياً هي كذا وكذا . هذه المهام تشكل برنامجاً ديمقراطياً عاماً . ثم : أهمية العون السوفياتي والاشتراكي ، فنمو شعبية الافكار الاشتراكية ، وفقدان الثقة بطريق التطور الرأسمالي ، فوصول عناصر وطنية ثورية من البرجوازية الصغيرة الى الحكم في عدد من هذه البلدان بسبب كذا وكذا ، (ثم أهمية هذه الظاهرة ، ونقد العناصر المذكورة). هذا هو التسلسل كاملاً (لم نترك أي مقطع) .

والحال ان الرفاق اللبنانيين قد خفّضوا الموضوعة اللينينية وحصروا ما يسمونه التحول النوعي في حركة التحرّر في حدود ضيقة .

حين يقرأ الانسان موضوعة لينين : « الثورة الاشتراكية لن تكون ... بل ستكون نضال جميع المستعمرات والبلدان التابعة » ، فانه يرى كأول وأكبر وأكمل مثل على صحة الموضوعة اللينينية وعلى فكرة التحول ، الثورة الصينية وعدداً من الثورات الاخرى ، التي بدأت كحركة مناهضة للاستعمار ، وانطلقت من أرض النضال ضد الامبريالية والاقطاعية ، ووصل فيها حزب البروليتاريا الى القيادة ، وتحولت الى ثورة اشتراكية كاملة بعرفنا وعرف الرفاق اللبنانيين وعرف الشيوعيين في العالم (تأميم ، وتعاونيات ، والحزب وسلطة الحزب ، الماركسية – اللينينية ودكتاتورية البروليتاريا ...) . ايها الرفاق اللبنانيون ! ليس فقط مصر سوريا والجزائر وغينيا (ثم من تريدون أيضاً ، يا أنصار « دولة الديمقراطية الوطنية » « والطريق غير الرأسمالي » ؟ سوكارنو ؟ نكروما ؟ لنترك هذه القضية الآن) ، ليس فقط هذه « التجارب » تثبت صحة موضوعة لينين عن الثورة الاشتراكية ، بل تثبتها الصين ومنغوليا وكوريا الشمالية وفيتنام وبلغاريا وبولونيا ويوغسلافيا والبانيا الخ وكوبا ، وتثبتها على نحو أكمل : في عرفكم وعرفنا وعلى ما كنا نتصور في عرفكم أكثر مما في عرفنا . وهذا ما نسميه : « خَصْي » موضوعة لينين ، و « خَصْي » اللينينية ،

في برنامجكم (وتعبير « خَصْي » يستعمله لينين في مناسبات مماثلة) . وهذا ما يدفعنا الى تحذيركم من هذه الحملة على « القادة الصينيين » : هذه الحملة قرينة ومؤشر symptôme et indice . انها أحد أعراض الداء ولكنها أيضاً سبب في استفحاله. وقد وصل مرَضكم الى حد إخراج الصين وكوريا وفيتنام وكوبا في نصف القرن الأخير مما تسمونه « حركة التحرر الوطني » ، لمجرّد أنها اليوم من «المنظومة الاشتراكية العالمية » ؟! (أليست هذه المنظومة « بحكم التعريف» « وليدة الطبقة العاملة العالمية » ؟!).وهذا يكشف في جملة ما يكشف سخفَ مفهومكم عن « حركة التحرر الوطني » ، اذ انكم مضطرون أن تدخلوا فيه ، في سنة ١٩٢٠ (سنة الموضوعة اللينينية التي أحببتموها ولم تفهموها) ، الهند واندونيسيا ومصر الخ ، وان لا تدخلوا فيها الصين وكوريا وفيتنام وكوبا (و « الطبقة العاملة العالمية » تكشف مرة أخرى عن كونها الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة ، في هذا المنهج الميتافيزي الأشد ابتذالاً) . والحال، إقرؤوا مرّة رابعة وخامسة وسادسة موضوعتكم اللينينية ، تجدوا أنها لا تشمل الصين وكوريا وحسب بل أيضاً بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ، وأيضاً فرنسا وايطاليا والدانمارك فيما لو انتصرت فيها الثورة الاشتراكية في ١٩٤٤ — ١٩٤٨ ، ان الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية ... بل ستكون نضال **جميع البلدان التي تضطهدها الامبريالية** . بتعبير آخر: الموضوعة اللينينية تدين منهج « حركة التحرر الوطني » الميتافيزي.

ان انتصار الثورة الاشتراكية في الصين وسلسلةمن بلدان شرقي اوروبا وشرقي آسيا هو الاثبات الاول والأكمل لصحّة الموضوعة اللينينية المعنية ، ولصحّة اللينينية كلها بوجه عام، ضد الكاوتسكية ، وبالتمايز مع سائر الماركسيات غير اللينينية . في كل هذه البلدان ، كانت الثورة الاشتراكية ، في أساسها وانطلاقها ونموها ، نضالاً ضد الامبريالية والاضطهاد القومي الامبريالي. ولم تكن في أي من هذه البلدان ، لا فقط ولا بصورة رئيسية ولا بصورة شبه رئيسية ، نضال بروليتاريا هذا البلد ضد برجوازيتها .

ان سير الثورة القومية والاجتماعية - « التحول النوعي » لـ « حركة التحرر الوطني » - في عدد من البلدان العربية وسواه، هو الاثبات الثاني والجديد لصحة الموضوعات اللينينية. ولا نقول ان الجديد في هذا السير (« وصول عناصر وطنية ثورية » غير بروليتارية) فيه ما يناقض هذه الموضوعات، ما يناقض منهج لينين : « سيكون لها من السمات الخاصة أكثر مما كان للثورة الروسية بكثير »، « الشرق الثوري والقومي » الخ. لا ريب ان هذا الجديد يناقض منهج تروتسكي (حيث تظهر « الثورة الدائمة » بقيادة البروليتاريا منذ البداية، وحيث تكرر « الثورات القادمة في الشرق » نمط الثورة الروسية على هذا النحو) وبالاحرى منهج التروتسكية الحاضرة [1] ولكنه لا يناقض منهج لينين. ولا نقول انه يثبت قولاً ما للينين.

ولو كان الرفاق اللبنانيون « اشطر » منا في « النصوص »، لكان بامكانهم ان يستخرجوا من المؤلفات الكاملة، المجلد س، الطبعة الروسية، موضوعة لينينية تشهد نوعاً ما وبشيء من التحديد على تجربة ٢٣ يوليو و٨ آذار أو ٢٣ شباط. هذا ليس بإمكاننا.

ونحن لا نستَبْعد ان يكون هناك في مؤلفات لينين ما يمكن استخدامه لتسويغ يوليو وآذار وشباط، ولا نستبعد ان يكون فيها ما يمكن استخدامه لتسويغ العكس. ليس من وظائف ماركس ولينين إضفاء الشرعية على ثورات المستقبل أو حجبها عنها، لا سيما « الثورات القادمة في بلدان الشرق ».

ورُبّ سائل يسأل : هل نقصد ان عند لينين أفكاراً متناقضة ؟ ونجيب،

---

(١) بالنسبة لهؤلاء، كل تجربة التاريخ لا تفعل شيئاً سوى « اظهار » صواب الثورة الدائمة التروتسكية، وخطأ « الستالينية - المنشفية ». وعلى هذا الاساس، توقعوا سقوط قاسم وسوكارنو ونكروما وفاجأهم عدم سقوط عبد الناصر في ٨ - ٩ حزيران. يضعون علامة التعادل بين هذه « الانظمة البونابرتية ». يعزون سوريا (شكراً !) وطن « الميليشيا العمالية »، رأس حربة الثورة الدائمة الشرق - أوسطية وعند أحد أجنحتهم، مركز إشعاع الثورة العالمية، ونقطة توحيد لفروعها وعملياتها (من الصين الى كوبا مروراً بـ ... «تحرك» وارصو وبراغ !).

استفزازاً ودفعاً للالتباس الاسوأ : نعَم . هذا ما نقصد . وبعـــد أن دفعنا الالتباس الاسوأ (أي الالتباس الذي يتصوّر ان النصوص اللينينية أو الماركسية هي الانسجامُ المطلق) ، نضيف : ليس عند لينين افكار متناقضة بل أفكار تناقضيّة . الماركسية كلها هي صورة جدلية لواقع تناقضي ، لعالم قوامـــه التناقض والصراع والترابط والتحول الخ . والاعتقاد بأن هـــذه الصورة هي مجموعة « جمل مرصوفة » تعكس هذا العالم اعتقاد قليل الجدلية . تلك ماركسية جاهزة منتهية حلت كل المشاكل ، لاهوت التطور الانساني « المـــادي » (!) ، ولاهوت الثورة الاشتراكية « الجدلي » (!) ، والماركسية عكس اللاهوت حتى اذا صُبِـغ بالمادية والجدلية . ولأن الماركسية عكس اللاهوت ، فالماركسية لم تحل المشاكل وحسب ، بل هي ايضاً طرحت المشاكل دون ان تحلها . ولهذا نقول مع انجلز أن الماركسية نظرية التطور المتطورة ابدا ، ومـع لينين أن الماركسية علم التطور الأوسع والأكثر شمولاً وكمالاً وعمقاً ، وفي هـذا العِلـْم ، ماركس وانجلز وضعا حجر الأساس ، ليس الا (على حد تعبير لينين) .

ان ماركس وانجلز ولينين ومعهم خيرة الماركسيين كانوا بعيدين كل البعد عن تحويل المذهب – « الدليل » الى دوغما (أي إلى عقيدة جامدة ثبوتية لا تقبل زيادة ولا نقصانا ، كعقيدة اللاهوت) ، « وان مذهبنا ليس عقيدة لاهوتية ، انه دليل للعمل » على حد ما يقول انجلز ولينين . ولقد كان لينين أكثر انخراطـاً في العمل من ماركس وانجلز ، ومن أي ماركسي آخر . ولهذا السبب فقد كان ، كمفكر ماركسي ، اكثر تركيزاً وتحديداً وتشخيصاً . واذا كان التشخيص الحسّي أعلى مراتب النهاجية الماركسية (وهو كذلك) ، فان اللينينية هي الماركسية بالغة كمالها كماركسية . وهذا معروف . ولكن ، في هـــذا التركيز والتحديد والتشخيص ومن اجل بلوغ هذا التركيز والتحديد والتشخيص ، الفكرُ اللينيني هو ، في سيره ، اقتراب أو تلمّس تناقضي لواقع تناقضي . ان جوهر الماركسية أو روحها الحية ، كما يقول لينين ، التحليل الملموس لوضع ملموس . بيد أن فكر لينين ، في هذا السبيل ولهـــذا المآل ، فكر اختباري وسوسيولوجي ،

وبعض صيغه الجبرية (جبرية)[1] أي « رمزية » . من المعروف مثلاً إلى أي مدى كانت صيغة لينين « الدكتاتورية الديمقراطية الثورية للعمال والفلاحين » صيغة هامة في نظره في سنة ١٩٠٥ وفي كل مرحلة الثورة الديمقراطية . ويمكن القول أن المآل العملي لهذا الشعار هو حكم يشترك فيه حزب العمال الاشتراكي – الديمقراطي الروسي (البولشفيك والمنشفيك والكتل الأخرى) وأحزاب الفلاحين والبرجوازية الصغيرة (الاشتراكيون الثوريون ، الشغيليون ، بقايا الشعبيين ...) . ومع ذلك لا يمكن القول ان لينين كان بالضرورة ودائماً يتصوّر المضمون السياسي للشعار على هذا النحو بالذات . ونرى أحياناً عند لينين صيغاً أخرى غير هذه الصيغة الأساسية فعلاً « دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية » . ان لينين يعطي صيغَه الواضحة والمحددة ، قيمة جبرية أي رمزية ، إلى حد كبير ، تاركاً للممارسة الواقعية ان تملأها أو أن تكمل ملأها . وهذا هو الفرق بين النبوّة والعلم الثوري .

وستالين يقوم منذ البداية بعملية تبسيط . يحذف ، في اللينينية ، الصيغ المغايرة للصيغ الأساسية ، أي كل ما يوحي بتناقض . الفكر الجبري يتحوّل إلى حاصل حسابي لمعلومات مدرسية ، ابتدائية وناقصة . والعلم الاختباري يتحول إلى مجموعة نبوءات . والنظرية تؤلّه على حساب الممارسة ، باسم « الموضوعية » الزائفة التي تغطي ذاتية الوعي . (وإحدى مآثر ماوتسي‌تونغ ورفاقه رد الاعتبار لمفهوم « الممارسة ») .

ستالين وشراحه يطهرون اللينينية من صفتها التناقضية ، يحذفون كل ما « يربك » « العلم » الذي غدا علماً استنتاجياً . يجري تأييد الأمم المضطهَدة ضد الأمم الامبريالية المضطهِدة ، ولكن الناسيوناليزم (النزعة القومية) يدان ، بلا استثناء ويضحى بالتمييز اللينيني بين ناسيوناليزم الأمة المضطهِدة وناسيوناليزم الأمة المضطهَدة ، على مذبح المبدأ الماركسي – اللينيني الأساسي عن الصفة البرجوازية للناسيوناليزم . يُبتر من اطاره تعليم لينين عن نقطة تركيز دعاية الماركسية

---

(١) نسبة إلى علم الجبر .

الأممية في الأمة المضطهَدة وفي الأمة المضطهِدة (عند الأولين حرية الاتحاد ، وعند الاخيرين حرية الانفصال) ، وتحول الثورة في الأمة المضطهَدة إلى ذيل للثورة في المتروبول [1] ... على طول الخط تفقد الماركسية صفتها الواقعية العيانية ، التي هي «روح الماركسية» ، وتفقد معها خاصيتها الرمزية والاختبارية. هذا الذي يميز الانسان ولغته وعِلمه و عَمله ، والذي يرفعه ماركس ولينين إلى الذروة ، تعيده الستالينية أشواطاً إلى الوراء .

يمكن إذن أن ننبش من نصوص لينين (المبتورة ، المصنفة في دروج ، أي الميتة) ما يبرر «شرعية» ثورات يوليو وآذار وشباط ، أو ما يسقط «شرعيتها». والأرجح ، أننا من أجل إسقاط «الشرعية» نستطيع ان نستشهد بصيغ أساسية (بالمعنى الستاليني الذي أوضحناه) . ولكن ذلك لا يدفعنا إلى الأمام بل إلى الوراء . والرفاق اللبنانيون محقون اليوم في عدم ذهابهم هذا المذهب وفي تأكيدهم ان الظاهرة الجديدة (وصول عناصر وطنية ثورية الخ) ظاهرة تاريخية اساسية وإيجابية ، وفي ربطهم هذه الظاهرة بالموضوعة اللينينية ، مبدئياً .

وعلينا ، قبل دراسة تقييم الرفاق اللبنانيين الايجابي والنقدي للظاهرة الجديدة ، ان نلقي نظرة أخيرة تكميلية على تعليلهم اياها ..

لقد عقدنا مقارنة أساسية بين الصين والهند ، بينت بشكل قاطع ان محاولة تعليل اختلاف سير « حركة التحرر الوطني » في البلدين بمسائل من نوع اختلاف « نمو الطبقة العاملة » ، وبحجم وأهمية الفلاحين والبرجوازية الصغيرة ، انما تسدل ستاراً من الدخان على كل تجربة الثورة الاشتراكية العالمية ، بعد اوكتوبر الروسي . وقد نعطي للشروط الموضوعية ٨٠ ٪ وقد لا نعطي للظروف الذاتية اكثر من ٢٠ ٪ ، في تعليل اختلاف النتيجتين الصينية والهندية . ولكننا لا نرى بين هذه الشروط الموضوعية شيئاً من نوع درجة نمو الطبقة العاملة وحجم الفلاحين ... فما هي الحال بالنسبة للظاهرة الجديدة التي تخرج عن اطار التجربتين الصينية والهندية ؟ كيف نعلل وصول عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين الى الحكم في مصر وسوريا والجزائر (الخ) ؟

---

(١) أي الدولة المستعمِرة .

هنا ايضاً لا يمكن التحدث عن ضعف نمو الطبقة العاملة ولا عن كون الفلاحين (والبرجوازية الصغيرة ؟) يشكلون غالبية السكان العظمى . بالبداهة : مصر والصين هما من نموذج واحد في تصنيف ستالين العـائد لعام ١٩٢٥ ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي ان معدل نمو الصناعة والطبقة العاملة في الصين كان أكبر منه في مصر ، خلال ربع القرن التالي (والعكس أقرب الى الصواب). امـــا ضعف « النفوذ السياسي » للطبقة العاملة فهو ليس العـلة بل المعلول ، ليس السبب بل النتيجة المطلوب تفسيرها وتعليلها . ولكن هل نقول بالنسبة للبـلدان العربية المذكورة ما قلناه بالنسبة للهند : الشروط الموضوعية تؤلف ٨٠ ٪ والظروف الذاتية (وعي وخطّ ونشاط الاحزاب الشيوعية الناطقة بلسان الطبقة العاملة) ٢٠ ٪ في عدم وصول « البروليتاريا وحزبها » الى « قيادة النضال التحرري » وإلى « الحكم » ؟ والجواب على هذا السؤال متضمّن وبصورة مباشرة ، وإلى حد كبير ، في واقع انه ليس فقط « البروليتاريا وحزبها » لم تصل إلى القيادة والحـكم ، بل ان « عناصر وطنية ثورية » اخرى وصلت الى القيادة والحكم ، أي انه متضمن في الظاهرة الجديدة ذاتها المطلوب تفسيرها . هذا التطور العربي ليس التطور الصيني ، ولكنه ايضاً ليس التطور الهندي أو الباكستاني . انه تطور ثوري . وهذا معناه ان الشروط الموضوعية متوفرة مبدئيـاً ، ومتوفرة الى درجة انها دفعت الى هذا التطور « الثوري » ، رغم أو خارج « الحزب البروليتاري » ، دفعت اليه عناصر غير بروليتارية وغير ماركسية .

بتعبير آخر : حين يسجل الرفاق اللبنانيون وصول عناصر وطنية ثورية من الضباط والمثقفين الى الحكم في مصر وسوريا والجزائر الـخ ، فنحن نقول لهم : « الفضل لكم ، ايها الرفاق » . السبب أنتم وليس الشروط الموضوعية . السبب هو تخلّفكم ، وتخلفكم عن الظروف الموضوعية ، فساد وعيكم وخطـــكم الفكري والستراتيجي والسياسي ، وبشكل أدق : يمكن ان نترك للشروط الموضوعية نسبة ما في تقرير هذه النتيجة ، ولكنها بالتأكيد نسبة صغـــيرة بالمقارنة مع دور الظروف الذاتية ، مع دور أحزابكم ووعيها ونشاطها .

قد لا نكون على اطلاع كاف وجدّي على تاريخ الحزب الشيوعي الهندي . ولكننا وانتم على اطـلاع جدّي وكاف تمامـاً على تاريخ الحزب الشيوعي السوري – اللبنـاني والحركة الشيوعية في مصر وفلسطين والجزائر والعراق الخ.. لو تمسكت الحركة الشيوعية في البلاد العربية بالخط الوحدوي لعام ١٩٣١ وبخط مناهضة الصهيونية ، لو لم تنتكس في ١٩٣٦ – ١٩٣٩ انتكاسها المخيف في مضمار « المسألة القومية » وافكارها الماركسية اللينينية ، لو لم يتبنَّ الحزب الشيوعي السوري – اللبناني في ١٩٤٤ برنامجاً برجوازياً متطرفاً ،خاليـاً من الاصلاح الزراعي ومن الاشتراكية ومن « الطبقات » ، لو لم يتحوّل في ١٩٤٨ تحوّلا حاداً نحو تكتل يساري صبياني ونحـو الاسوأ في قضية فلسطين ، لو لم « تُصفَّ » منظمات الحزب من فوق من قبل الامين العام ، لو لم يحقق الخـط الفكري والسياسي للأمين العام السوري– اللبناني هيمنته على الاحزاب الشيوعية المجاورة على نحو متصاعد ، الخ ، لو لم تتبنَّ هذه الاحزاب موقفاً انفصاليـاً مكافحاً في فترة الوحدة والانفصال ملتقية مع الاديين والكزبريين ، لو لم تتبنَّ هذه الاحزاب نظرية وستراتيجية « مرحلة » « الثورة البرجوازية » غـير الديمقراطية الخ ، لو كان لهذه الاحزاب خطة ماركسية – لينينية آخـذة في النمو والتكامل، لكانت تمكنت «من تحقيق قيادتها للنضال التحرري الوطني» منذ زمن غير قصير ،ووصلت إلى الحكم . ولقد تبينتم ، بما فيه الكفاية ، نصف هذه الأخطاء على الأقل، وأنتم في طريق تبيّن الباقي.

وبعيدٌ عنا ان نتصوّر أن حزب البروليتاريا (وخطته ونظريته وتنظيمه وسياسته) يهبط جاهزاً وكاملاً من بطن الكومنترن اللينيني (هذا التصوّر أبعد عنا منه عنكم). بالعكس إنه ينمو ويتكامل ،يتدّرج في طريق النمو والتكامل هذا النمو المتدرج لم يحدث في البلاد العربية . بالعكس حدث انتكاس كبير ،سلسلة من الانتكاسات الكبيرة بدأت في الثلاثينات ، وتواصلت خلال ثلاثين عاماً (رغم تحسنات جزئية محدودة وعابرة) ، و « توجّها » الانتكاس الأخير ، **الأكبر** ، في زمن بداية الثورة العربية الوحدوية الاشتراكية . والانتكاس ليس فقط ولا

بصورة رئيسية وأحياناً ليس مطلقاً ، انتكاس القوة الشعبية للحزب ، أو عدد اعضائه أو مقدار ما يتلقاه من ثناءات (قد تأتي أيضاً من العدو) ، انما هو بالدرجة الأولى انتكاس الوعي ، والفكر ، والخطة ، والتكوّن التنظيمي الذي لا ينفصل عن الوعي والفكر والخطة .

في بداية كل مرحلة من مراحل تاريخكم طوال الثلاثين سنة انطلقتم انطلاقاً جديداً ، انطلاقاً سياسياً . طويتم صفحة الماضي (حتى حين كنتم تنتقدونها [1]) وتصورتم وأعلنتم أنكم تحملون الحقيقة ، « علم قوانين تطور المجتمعات » أو « التحليل العلمي التاريخي والطبقي » أو الماركسية الصحيحة المعادية للجمود و « الانتقائية » ، تحملون الحقيقة خارجة من رأس آلهة الحكمة الجدد ماركس وانيين وستالين و « ستالين العرب » أو « لينين العرب » . ولم تثنكم عن هذا التصور والاعلان صفحة الماضي ومناقضة صفحة الحاضر لصفحة الماضي . وفي كل مرحلة خضتم النضال ضد « المخربين » و « الانشقاقيين » و « الجواسيس » . وما من مرة خضتم النضال ضد آراء « المخربين » ، ضد اتجاهات فكرية معلومة . تاريخكم الصراعي الداخلي تاريخ نضال نور ساطع ضد ظلام دامس . ولكنه نور « باهر » يعادل الظلام . وفي هذه الحال ، لم يكن هناك أي نمو متدرّج متكامل في الوعي ، أي تقدّم نحو إحكام الرمي . بالعكس ، ابتعدت نيران مدفعيتكم عن الهدف مسافات فوق مسافات . ونسيتم في جملة ما نسيتم أحد « الشروط الأساسية لنجاح البولشفيك » ، [2] أحد الشروط الاساسية لانضباط الحزب وللحزب كله : قيادة سياسية صحيحة ، خطة صحيحة تتكون وتنمو وتتكامل بالارتباط مع حركة جماهيرية حقاً ، على أساس نظرية صحيحة ، هي أيضاً لا تهبط جاهزة بل « تتكون بالارتباط مع حركة جماهيرية حقاً وثورية حقاً » .

هذا ، ونكاد نقول هذا وحده ، هو سبب عدم تمكّنكم « من قيادة النضال الوطني التحرري » ، ووصول غيركم الى « الحكم » . وليس فقط لا تسجّلون هذه

---

(١) نصف نقد ، أو نقداً ونصف .

(٢) الفصل الثاني من كتاب لينين « اليسارية » ، « مرض الشيوعية الطفولي » .

الحقيقة الاساسية في تحليلكم البرنامجي بل تقولون ضمنـا عكسه : « ضعف نمو الطبقة العاملة » (حماقة) و « نفوذها السياسي » (لفلفـة سريعة وخجولة ، وتكرار توتولوجي : فسّر الماء بعد قصر الجهد بالماء) .

وبعد ،فإننا نوافق على ان وصول « عناصر ثورية وطنية من الضباط والمثقفين الى الحكم » « في عدد من هذه البلدان » هو « أحدى الظاهرات الرئيسية » لزمننا : ان التاريخ لم ينتظر «حزب البروليتاريا» ، والارجح ان هذا «الحزب» في بلادنا عرقلَ مسيرة التاريخ .

« وقد دفع تصدّي هؤلاء القادة لعملية البناء الداخلي الى إجراء جملة من التحويلات الاقتصادية والاجتماعية لضرب مواقع الرأسمال الاحتكاري الاجنبي ، والحد من مجال نشاطه ونمو الرأسمال الخاص الاستثمار الرأسمالي ، وضرب الملكية الرأسمالية الكبيرة ، ووضع الاسس لسير البلاد في طريق للتطور غير الرأسمالي . أن تحوّل عدد من الدول الفتيـة الى طريق غير رأسما لي للتطور ونضال الجماهير الشعبية في العديد من البلدان الأخرى في هذا الاتجاه ، يشكل إحـدى الظاهرات الرئيسية والبعيدة الأثر في حركة التحرر الوطني ، وفي العملية الثورية العالمية » (ص ١٧) .

هذا صحيح ، ومما يؤسف له ان الرفاق اللبنانيين لم يسموا البلدان التي وصل فيها هؤلاء القادة غير البروليتاريين الى الحكم . فلوا فعلو لسهّلوا علينا البحث والفهم . والمعروف ان قائمة البلدان التي شملت في بيـانات صدرت عن الحركة الشيوعية العالمية (مثلا بيان عام ١٩٦٠) تحت اسم «دول الديمقراطية الوطنية» كانت تضم (بالدرجة الاولى وفي المرتبة الأولى) « اندونيسيا سوكارنو ، وغانا نكروما ». ولا يتصورنّ القارىء اننا نريد هنا ان نحمل على سوكارنو ونكروما رحمهما الله ورحمنا معهم . ولكنّ هناك شيئاً لا بد من التذكير به .

لقد جاء في التقرير اللبناني ان الحزب السوري اللبناني إبان الوحـدة والانفصال ، تبنى خطاً مخالفاً أو مناقضاً لخط الحركة الشيوعية العالميـة في موضوع « حركة التحرر الوطني» وقضاياها، وقد وافقنا على هذا القول وأبدينا

تحفظاً حياله . ان « الحركة الشيوعية العالمية » لم تدخل في حرب مع الوحدة ومن أجل الانفصال وتثبيته وادامته [1] . وخط « الحركة الشيوعية العالمية » كان مع التأميم لا ضده . ولكن « الحركة الشيوعية العالمية » لم تقدر الوحدة العربية ، كانعطاف ثوري هائل ضد الامبريالية وعلاقاتها. وبصراحة ، لانستطيع ان نضع الجمهورية العربية المتحدة واندونيسيا وغانا في سلة واحدة ، وتحت « قارمة » واحدة ، حتى اذا كانت ايجابية . وبالاحرى لا نستطيع ان نعطي الأفضلية لسوكارنو ونكروما على عبد الناصر في هذه المسألة . والحال في ذلك الزمن ، كان الرفاق السوريون واللبنانيون والعراقيون الخ يخرجون عبد الناصر من السلة كتفاحة عفنة ويصبغون التفاحتين الأخريين بلون أحمر جميل ، وفي أحسن احتمال كانوا يتخذون من الديمقراطية الموجهة لموحد ثالوث الناساكوم ضد ثالوث النيكوليم (سوكارنو) وللزعيم « الخالد الذي لا يموت » (نكروما) درسا يلقونه على عبد الناصر . كان ذلك الزمن الذي يذهب فيه عبد الناصر إلى بلغراد وهيئة الأمم ويطيل شرح مبادىء الحياد الأيجابي والتعايش السلمي والتعايش الايجابي (وفي سوريا : « الاتحاد القومي » و « التعاون » واللاطبقية و « لا يسار ولا يمين ») ، بينما كان سوكارنو يؤكد ثالوث الناساكوم (قومية ، اسلام ، شيوعية) ضد ثالوث نيكوليم (استعمار جديد ، استعمار ، امبريالية)

---

(١) في « المجلة الدولية الجديدة » – « الوقت » (وهي الناطقة بلسان « الحركة الشيوعية العالمية » تصدر في براغ بعشرين لغة) ، عدد تشرين الثاني ١٩٦٠ ، مقال عن الصومال بقلم محمد ياسين (ص ١٠١ – ١٠٤) . وفي تلك الفترة بدأت الحركة العمالية في التطور . وأخذت تظهر في الميدان السياسي احزاب جديدة . وفي عام ١٩٥٨ ، انشقت رابطة الشبيبة الصومالية فقد أسس المناضلون الاكثر جذرية ، وعلى رأسهم ناهي محمد حسين ، رئيس الرابطة السابق ، قد أسسوا رابطة الصومال الكبير . والرابطة الجديدة قد برهنت عن صلابة أكبر ضد الدولة الاستعمارية ،وبالدرجة الاولى ضد ايطاليا وأعلنت تأييدها للتحالف الوثيق مع الجمهورية العربية والدول الاخرى الافريقية والآسيوية . ذلك كان موقف الشيوعيين الصوماليين، في الوقت الذي كان فيه الرفاق السوريون واللبنانيون ، « يعلنون » ان الجمهورية العربية المتحدة قاعدة للاستعمار الاميركي . لقد تحطمت اسطورة « عصا موسكو » منذ زمن غير قصير .

ونكروما يصطاف على شواطىء شبه جزيرة القرم ، في وطن الاشتراكيــة الأعظم . ولقد حَكَـم الرفاق ، من خلال هذه الاشياء ايضاً . وحكم التاريخ على حكم الرفاق ومنطلقاتهم في المحاكمة . ولا نقصد بحكم التاريخ ان سوكارنو ونكروما سقطا وان عبد الناصر لا يزال موجوداً . وانما نقصد ان احــداً في غانا لم يتحرك من أجل نكروما (ولا نعتقد أن كثيرين تحركوا في اندونيسيا من أجل سوكارنو نفسه) بينما تحرك ملايين الحفاة والعراة في مصر من اجــل عبد الناصر ، وفي اكبر هزيمة) وعاد عبد الناصر يحدّث هؤلاء ويخطب في عمال حلوان : « نحن مش عاوزين صراع طبقات » ، ولا نشك في ان غالبية عمــال حلوان الاكثر من ساحقــة ، غالبية الحفاة العراة ، سيتحركون ايضاً من أجل عبد الناصر ، رغم هذا البعد الساطع عن الماركسية (ونقول عن الماركسية بلا مزدوجين) ، وأن الناطقين الأبديين بلسان البروليتــاريا سيبقون معزولين عن البروليتاريا ، ما لم يغيروا كليــاً وعيهم ومنهجهم ومعاييرهم في الحكم على الاشياء [١] .

يقول الرفاق اللبنانيون : « ان تحول عدد من الدول الفتية إلى طريق غير رأسمالي للتطور ونضال الجماهير الشعبية في العديد من البلدان الأخرى في هــذا

---

(٢) سنعود الى هذا الموضوع . ولكن لا بأس ان نذكر هنا ان جيرار شاليان الذي يضع هذه الدول تحت عنوان « الوطنية » لا يمتنع عن رؤية فوارق . « اجل ، هناك فوارق . من وجهة نظر موضوعية ، العلاقات الطبقية السابقة يمكن ان تتعدل كثيراً أو قليلا ، ولكن ليس ابداً بصورة جذرية . من وجهة نظر ذاتية ، بعض القــادة يمكن ان يكونوا قوميين شرفاء راغبين في توطيد الاستقلال الوطني (عبد الناصر) او مناورين لا يريدون قبــل أي شيء ان يحسموا موقفاً ، مجازفين بوضع سلطتهم في خطر (بن بلا) . واخيراً ، أوغاد (canailles كلاب) يعون ان وجودهم مرهون ببقاء الوضع القائم (سوكارنو) » . (مجلة بارتيزان ، عدد ايار – حزيران ١٩٦٦) ... في مكان سابق من المقال نفسه ، اعرب شاليان عن اعتقادهبأن النظام الاكثر استهدافاً من قبل هجوم الامبريالية الاميركية « على نطاق افريقيا والشرق الاوسط هو نظام عبد الناصر » . شاليان يرعى اليوم الجبهة الشعبية الديمقراطية !

الاتجاه ، يشكل أحدى الظاهرات الرئيسية ... » .

ونحن نقول : موافقون بلا تحفظ على الشطر الأول من الموضوع (المبتدأ أو اسم إن) . وموافقون بتحفظ على الشطر الثاني منه . ان تكون مصر وبعض « الدول الفتية » قد سلكت هذا الطريق الذي ليس طريق الصين ولا طريق الهند هذا شيء إيجابي هام . أما أن نضع « للعديد من البلدان الأخرى » هذا الأفق ذاته فهذا يثير في ذهننا تساؤلاً كبيراً .

لا نستبعد ان تسلك بلدان اخرى الطريق « المصري » . ولقد ذكرت جريدة لوموند وغيرها ، في سنوات مختلفة ، وجود جماعات « ناصرية » في الارجنتين ودول أخرى من اميركا اللاتينية ، وفي اليونان ، أو غيرها . والجماعات المعنية مسماة « ناصرية » لا لأنها على صلة بعبد الناصر [1] أو لأنها متعاطفة مع عبد الناصر بل لأنها تفكر بسلوك الطريق « الناصري » (ضباط احرار ، انقلاب تآمري ، ضباط عمال ونقابات ، تأميم الرأسمال الامبريالي ، تفجير المد الجماهيري الخ ، ومواصلة الطريق) . هذا أحد الاحتمالات الممكنة . والاعتقاد بأن ماركس وانجلز ولينين كانوا ضد « الانقلاب » و « التآمر » جهل بماركس وانجلز ولينين . بدون عنصر « التآمر » وإحكام « فن » الانقلاب المسلح ، تبقى ثورة أوكتوبر محلقة في سماء قوانين التاريخ ونمو البروليتاريا وحركتها « الموضوعية » . ولينين قال مراراً ومنذ التسعينات ، ان الماركسية بعيدة بدرجة متساوية عن تعظيم « السياسة » وعنصر « التآمر » والبلانكية وعن الموقف المعاكس – . وفي زمننا ، زمن الثورة الاشتراكية العالمية والهجوم الاميركي ، والانقسام الصيني السوفياتي ، وجمود عدد كبير من الاحزاب الشيوعية ، وضعف نمو الطبقة العاملة في كل البلدان النامية وضعف « نفوذها السياسي » في كثير من البلدان ، وكثرة خصائص « الثورات القادمة في بلدان الشرق » ، الاعتقاد بأن كل ثورة اشتراكية كحركة تاريخية وكديناميكية ثورية ، يجب ان تكرر النموذج الروسي أو النموذج الصيني (وربما مضافاً اليهما نموذج « البؤرة الثورية »)

---

(١) ليست كذلك .

هو بمثابة سفسطة كلامية .

ولكن ان نتصور ان النماذج السابقة ، الروسي والصيني والكوبي والباريسي (١٨٧١) ، قد فات أوانها ليس أقل من تخلّ عن الثورة الاشتراكية.

والسؤال الذي يثيره قول الرفاق اللبنانيين في ذهننا هو الآتي : هل نعتقد أن الأحزاب الشيوعية في باقي البلدان النامية باتت عاجزة ؟ هل أصبح الطريق الوحيد أمام « العديد من البلدان الأخرى » هـــو طريق دول « الديمقراطية الوطنية » الذائعة الصيت ؟ هل المستقبل بالنسبة لشعوب العالم المتخلف محفور في « حركة التحرر الوطني » وتحولها النوعي كما يفهمها الرفـــاق اللبنانيون ؟ والجواب على هذا السؤال بالنفي .

ولا بأس ان نبدي الآن ملاحظة بصدد اصطلاح « العملية الثورية العالمية » الذي يتكرر هنـــا مرة أخرى (« احدى الظاهرات الرئيسية ... في العملية الثورية العالمية ») .

لقد قرأنا هذا الاصطلاح « العملية الثورية العالمية » مراراً في برنامج الرفاق اللبنانيين . وقرأنا مراراً اصطلاح « الثورة العالمية » في النصوص التي نقلناها عن لينين .

والرفاق اللبنانيون محقون في استخدامهم الاصطلاح الأول ، وغير محقين في عدم استخدامهم الاصطلاح الآخر .

ان الثورة العالمية هي ، في أساسها التاريخي ، « عملية » ، قطعاً وبالتأكيد . ويتصوّر القارىء الذي لا يعرف اللغة الاجنبية ان « العملية » ليست هنا عملية الحساب أو عملية الجراحة ، وان هذا الاصطلاح الماركسي انمـــا هو مترجم عن اللغة الاجنبية .تلك هي الحال فعلاً.« العملية »هي processus أي سير وتطور ونمو وتحول وانبساط جدلي ومادي . وبهذا المعنى يقول ماركس أنه درس نشوء وتطور رأس المال على أنه « عملية » تاريخطبيعي ، أيسير وتطور تاريخطبيعي ، مؤكداً موضوعية هذا السير الجدلي ، بعيـــداً عن الذات والوعي والعواطف والنوايا والارادة الخ ... التشكيل البرجوازي الرأسمالي ينشأ وينمو ويتحول

كما تنشأ وتنمو وتتحول الأنواع النباتية والحيوانية عند صاحب كتاب « أصل الأنواع » (داروين) . وكذلك التشكيلات الأخرى السابقة للرأسمالية .

ان تعبير « عملية » ، إذ يطلق على الثورة ، إنمـا يؤكـد موضوعيتـها ، موضوعيةَ اساسها . وهذا جيّد ، وجيد تماماً وبشكل مطلق . لسوء الحظ ، أن هذا التعبير حين يُعتَمد دائماً ، وبدون الاصطلاح الآخر اللينيني (« الثورة العالمية ») ، إنما يحمل معه حتّى إذا قُرن بالصفة الثورية (« العمليه الثورية العالمية ») خطر التضحية بجانب الذات والوعي والسياسة ، والنضال الواعي ، أي كل تلك الأشياء التي ابرزها لينين وأكدها مخالفاً غالبية ماركسيي عصره .

ومرة أخرى نقول : هذا الاصطلاح « العملية الثورية العالمية » صحيـح وصحيح تماماً . ولكن الاصطلاح الآخر « الثورة العالمية » هو أيضاً صحيح ، ولا غنى عنه في تشخيص العصر الحاضر .

وبمناسبة المصطلحات ، لقد أكثر البرنامج اللبناني من « الطبقة العامـلة » و « الفلاحين » و « الفئات الفلاحية » و « البرجوازية الصغيرة » .. ولكنه تجنب « البروليتاريا » و « البروليتاريا الثورية » و« الجماهير شبه البروليتارية »، وهو على حق فيما استخدم ، وعلى غير حق فيما لم يستخدم .

١٨ ـ نقد القادة الثوريين العسكريين والبرجوازيين الصغار .

الصفحة ١٨ مكرّسة لنقد « هؤلاء القادة » . وكونهم من الفئات الوسطى، ترددهم وعدم ثباتهم ، عدم جذرية أغلب الاجراءات، سعيهم للتفرد بالسلطة، أفكار العداء للشيوعية ، فقدان النظرية العلمية المتكاملة ، الانتقائية ، البعد عن المفهوم العلمي الطبقي ، إبقاؤهم على جهاز الدولة القديم ، نهجهم التجريبي ، محاولات لايجاد نظريات اشتراكية اقليمية ودينية وقومية تـُغفل وحدة التاريخ العالمي ووحدة الحركة الثورية العالمية والقوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تحدّد المجرى العام للتطور البشري « وتَـسْـتَـصْـغِر دور الطبقة العاملة والجماهير

الشعبية . وفي هذا السياق يجري أحياناً الترويج لنظرية التناقض بين الدول « الغنية والفقيرة » دونما تمييز في طبيعة النظام الاجتماعي للبلدان المتقدمة » .

ذلك هو نقد البرنامج اللبناني لـ « هؤلاء القادة » ، لـ « العناصر المتقدمة من هذه الفئات غير البروليتارية » الخ .

ونحن قد نوافق على هذه الانتقادات العشرة او العشرين ، وقد نضيف اليها عشرة أو عشرين انتقاد آخر . ليس الرفاق اللبنانيون قساة . لسوء الحظ ، ليس من السهل أن نتبع منطقهم ، ما داموا لا يسمون « هؤلاء القادة » و « هذه العناصر » . هل المقصود : سوكارنو ، نكرومـا ، عبد الكريم قاسم ، عبد الناصر ، احمد بن بلا ، هواري بومدين ، البعث ، قادة تنزانيا ، او برازافيل ، سيكوتوريه ، موديبو كيتا ؟ القائمة طويلة... حين نقرأ «وجاءت محاولاتهم لانشاء أحزاب لقيادة عمليّة التحويل صورة عن مفهومهم المشوّه الغامض عن التطور الاجتماعي وبعيدة عن المفهوم العلمي الطبقي للحزب الطليعي » ، نندفـع الى تركيز نظرنا على عبد الناصر ولعل المقصود بالحملة على فكرة « الدول الغنيـة والفقيرة « الخ هو كمال الدين رفعت ... لا ندرى . وهـذه خسارة لنا ، وعلى الأرجح للرفاق اللبنانيين وبرنامجهم . ليت الرفاق اللبنانيين يناقشون الأمور ، بالوقائع والاسماء والنصوص والاعمال ، وليتهم يتركون اندونيسيا وتانزانيا وغانا ويكتفون بالدول العربية التقدمية ! لحسن الحظ ، لقد خصص البرنامج في اطار الفصل الثاني « حركة التحرر العربية » خمس صفحات لتقييم ونقد الانظمـة التقدمية العربية .سوف ندرس اذن هذا الموضوع بشكل أكثر وضوحاً (بقليل هنا ايضاً ، يبقى الحديث في اطار العموميات ، ولا تحدد البلدان العربية التقدمية بالاسماء) .

ومع ذلك ، يمكن القول ان هذه الانتقادات الواردة في الصفحة ١٨ تنطبق على الدول العربية التقدمية ، بوجه عام ، وهي **صحيحة** . وهي ، كما ألمحنا ، تنطبق على هذه الدول بدَرجات متفاوتة ، مثلاً ، أنها تصيب مصر وعبدالناصر أكثر مما تصيب سوريا والبعث ، « نظريات اشتراكية مشبعـة بالتأثيرات

القومية والدينية وبالتقاليد » ، « محاولاتهم لانشاء احزاب الخ » ، « ابقاؤهم على جهاز الدولة القديم » ، « نهجهم التجريبي » . من الانصاف للحقيقة ان هذه الانتقادات تصيب عبد الناصر أكثر مما تصيب البعث في سوريا . بل نذهب إلى أكثر من ذلك ونقول : بين جميع القوى المعتبرة تقدمية وثورية في الوطن العربي (في بغداد وبيروت ودمشق والجزائر والجنوب اليمني الخ. . .) ، انأبعد هذه القوى –في المواقف الفكرية المعلنة – عن الماركسية هو عبدالناصر ،فهو من وقت إلى آخر يبدي معارضته لـ« صراع الطبقات » ويتحدث عن« الرأسمال المستغِل » ويذكر « البرجوازية الصغيرة » و « البرجوازية الوطنية » بين القوى الثورية ، ويتحدث عن الدين والتقاليد الخ ... الجو الفكري لخطب عبد الناصر يختلف تماماً عن الجو الفكري لعدد من قادة و كتاب البعث ،وللقوميين العرب «اليساريين» ، وللجبهة القومية في الجنوب العربي ، وجماعة لبنان الاشتراكي ، ولشراذم « اليسار » في الوطن العربي الكبير .

وهذا ما يدفع شراذم « اليسار » الى « تفضيل » البعث على عبد الناصر . لنأخذ مثلاً كتّاب جريدة « الحرية »و« القوميين العرب اليساريين» .في نظرهم ، سوريا ، مصر ، الجزائر ، هي دول « برحوازية صغيرة »،والبرجوازية الصغيرة أفلست ويجب ان تسقط. ولكن أكثر هذه الدول وأكثر هؤلاء القادة«برجوازية صغيرة » مصر وعبد الناصر . في مفردات مشابهة ، ذلك هو أيضاً مضمون منشورات الجماعات « الصينية » المحلية في بيروت ودمشق . والأمر لا يختلف كثيراً في سلسلة من مقالات مجلة « دراسات عربية » : البعث ليس فقط قريباً من الماركسية ، بل هو فوق ذلك متمسك بالوحدة العربية واكثر من ذلك : انه يقول ان هذه الوحدة العربية يجب ان تقوم بقيادة الطبقة العاملة، فضلاً عن ان البعث اعطى لتجربة الثورة العربية مفهوم « الحزب » والحزب .

وبين شراذم « اليسار » ، نكاد نكون منفردين في معارضة هذا النهج كليا . ان برنامج الحزب الشيوعي اللبناني لا يقول انه يفضل البعث وغيره على عبد الناصر . ولكن هذا التفضيل متضمن في الصفحة ١٨ التي تعدّد نقاط

الضعف في العناصر الوطنية الثورية البرجوازية الصغيرة. ولعل الرفاق اللبنانيين، حين لا يذهبون صراحة الى النتيجة التفضيلية، انما لا يذهبون اليها، لأنهم تعلموا شيئاً ما من تجربة الماضي: الحملة على عبد الناصر قادت الى لقاء مع الاديين والكتائبيين. والى جانب سوكارنو كان هناك حزب شيوعي عملاق (ومن فضلكم قريب بعض الشيء من آراء الصين الثورية) الـخ. ولعلهم ايضاً يتحسّسون موقع مصر وحجمها وأهميتها وأهمية عبد الناصر ويفهمون نوعاً ما محور ضغط وهجوم الامبريالية واسرائيل. ولعلهم مساقون على نحو ما غامض، (تدفعهم مواقفهم المبدئية الراهنة من قضية الوحـدة العربية [1]) إلى تلمس الصفة «المعيارية» لمصر وعبد الناصر في هذه القضية. غير انّ هذا كله لا يزال عندهم في حدود «عموميات».

لنحاول «التصريح» بما يخالج الرفاق اللبنانيين، «لندخل في جلدهم» لكي نَفهم ونُفهِم منطقهم وخطأه:

من جهة، الآخرون أفضل من عبد الناصر. (معايير الصفحة ١٨).

من جهة ثانية، من الصعب، رغم ذلك، القول بأن الآخرين افضل من عبد الناصر. هذا sans doute منطق الرفاق اللبنانيين. وهو أفضل من منطق سواهم. في منطق سواهم، المسألة محلولة، وتفضيلهم عليه أمر طبيعي، بديهي (حتى حين يجمعون الجميع تحت أقنوم «البرجوازية الصغيرة» [2] في معارضة ذاتهم البروليتارية التي لا يفتأون يكشفونها بشكل متكرر ومتقلب). ان الرفاق الشيوعيين اللبنانيين يتحسسون ان البند الاول لا يكفي لتقرير البند الثاني، وان ثمة مسألة لا تزال قائمة.

ولكن لماذا؟

المسألة لا تزال قائمة، بل هي قائمة بشكل مشدد بعد حلنا البند الاول: سلسلة معايير البند الاول و «أفضلية» الآخرين على عبد الناصر.

---

(١) وتقييمهم للدور العربي لثورة ٢٣ يوليو. هذا ما سنراه في الفصل الثاني من البرنامج.

(٢) وفي هذه الحال، يكون الآخرون سيئين وعبد الناصر أسوأ.

كيف ، اذا كان عبد الناصر اكثر بعداً عن « المفهوم العلمي الطبقي » وأكثر تأثراً بالتقاليد الدينية ، وربما أكثر تجريبية الخ، لا يكون الآخرون افضل منه ، ولا نتبنى الآخرين ضده ، ولا سيما اولئك الذين يرفعون « شعارات » الماركسية – اللينينية ليل نهار ؟ ثم نقول نحن ماركسيون لينينيون !.

ألسنا نحن ، أي ناقدو هذا البرنامج اللبناني والمعترضون على كل هـــذا « اليسار » البروليتاري الخ الخ ، ألسنا نحن من المنتفعين بالناصرية ! على الأقل من « الذاتيين » أو العاطفيين حملة الأوهام عن « مصر الاشتراكية الرائدة » ؟

كلا . لا مجال لهذا النوع من الأوهام في منطقنا . في رأينا ، ان مصر على حافة الجوع ، أنها تنزف . في رأينا ، أن مصر التي كانت قبل ١٧ سنة « مجتمع النصف بالمئة » لم تصبح مجتمع المئة بالمئة ، بل فقط مجتمع العشرين بالمئة . وأكثر من ذلك ، لا نعتقد ان جيش مصر غداً أو بعد غد سيحرر فلسطين ، ونعتقد ان هزيمة مصر في حزيران ١٩٦٧ كانت أمراً محتوماً ليس فقط بسبب قيادة البرجوازية الصغيرة الخ [١] بل أيضاً بسبب التخلف ، بسبب بنى التخلف ، وبسبب عدم وجود وحدة عربية ، بسبب وجود عكس الوحدة العربية ...

---

(١) غريب أمر الذات « البروليتارية » الجديدة . هؤلاء أصلوا نارهم على البرجوازية الصغيرة والبيروقراطية والأوضاع المصرية منذ ١٩٦٦ (اكتشافهم لمقولة البرجوازية الصغيرة قـــديم بعض الشيء ، أو بالأحرى نقلهم هذه المقولة عن غيرهم وتشويههم اياها) . ومع ذلك فقد دفعوا بقوة نحو حرب التحرير والنصر الكاسح قبل حزيران ١٩٦٧ . وحين جاءت الهزيمة قرروا ان البرجوازية الصغيرة هي المسؤولة وطالبوا بتنحيتها . ماكيافيلية من الدرجة الخامسة ، أم مسيرة من المواقف المتناقضة ؟.

ويقول هؤلاء انهم أخطأوا حين تصوروا أن البرجوازية الصغيرة في سوريا وغيرها قادرة على توجيه ضربة جيدة للامبريالية والصهيونية (قبل حزيران ١٩٦٧، وهم يعودون الآن عـــن خطأهم الخ الخ) .

والحال ، أن خطأهم الأول كونهم لم يروا ولا يرون في الامبريالية والصهيونية الا موضوعاً للضرب ، لم يروا ان الامبريالية ايضـــاً ، وليس فقط هم وبرجوازيتهم الصغيرة ، تضرب ، ولم يروا اتجاه هذه الضربة، ولم يقدروا ان اتجاه الضربة لا تقرره تصوراتهم ومعاييرهم « الايديولوجية »، بل القوى الموضوعية .....

لماذا ، اذن ، لا نفضل الآخرين على عبد الناصر ؟ ترى هل لاننا نعتقد أن الآخرين لم يحققوا سوى مجتمع العشرة بالمئة ؟.

كلا ! لعلهم حققوا مجتمع الثلاثين بالمئة . ولعلهم (لعل بعضهم) في « الوعي العام » أقرب إلى الماركسية من عبد الناصر . هذا آخر همومنا ومشاغلنا .

ليس فقط لا نفضل الآخرين على عبد الناصر بل أكثر من ذلك ، نرفض كل منهج المفاضلة والمقارنة المذكور .

لو كانت التصريحات « الايديولوجية » هي المعيار لكان أقرب الناس إلى الماركسية تشانغ كاي شك وجماعته في ١٩٢٥ . هؤلاء كانوا في حركة ذهاب واياب إلى موسكو ، يصرّحون في موسكو وفي كانتون ووهان أنهم تلامذة لينين العظيم وأن ثورتهم جزء من الثورة البروليتارية العالمية وصحفُ الكومنترن تنشر تصريحاتهم . ولقد كانوا أعضاء شرف في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية الخ.

لماذا نرفض كل منهج المفاضلة والمقارنة ؟

لأن « الثورة الاشتراكية لن تكون فقط ولا بصورة رئيسية ... » .

لأن لينين قد أدان جوهريـاً المنظور القطري ، الذي يرتبط بـ « المفهوم العلمي الطبقي » المزعوم ، وأرسى تعاليمه على الامبريالية لا كمفهوم وحسب بل كواقع حي ، وعلى عالمية الرأسمالية وعالمية الثورة الاشتراكية .

وبتعبير آخر : لأن مصر عبد الناصر تمثل القوة الانفجارية للوحدة العربية (والتحولات الاجتماعية – الصغيرة أو الكبيرة – لعام ١٩٥٢ و ١٩٥٨ و١٩٦١ الخ – « في خدمة » هذه القوة الانفجارية الثورية ، وبداية ضاربة للتحول الاجتماعي [1]) .

ونحن في ذلك على طرفي نقيض مع الآخرين . حَسْبُنا أننا ملتقون على هذا

(١) دور مصر في الجزائر واليمن، وجود تحولات اجتماعية في مصر واشعاعها، وتراجع الامبريالية الاضطراري والمدروس في هذا المجال ، اشعاع الوحدة المصرية السورية الذي لا يطفأ، انسحاق مصر العسكري في يومين(الانسحاق المخجل يكشف في جملة ما يكشف وفي أول ما يكشف من أمور ماذا تريد اسرائيل وأميركا ويقود إلى يقظة الوعي (الوجدان) العربي ، والتفاف عشرات الملايين من جديد حول مصر ، رغم شراذم اليسار .

التشخيص مع الامبريالية ومع اسرائيل . ومع نهج لينين .. في نظر مؤسس ماركسية العصر ، لا أممية بدون الأساس . وأساس الأممية البروليتارية ، عالمية الرأسمالية !.

وفي الوطن العربي لا أممية بروليتارية بدون الوحدة العربية المناهضة للتجزئة الامبريالية وآليتها المتنامية في الاقتصاد ، وفي السياسة ، بما فيها سياسة « البرجوازيين الصغار » الذين نصبوا أنفسهم ممثلين للبروليتاريا العربية ضد « الناصرية » (بعد أن كانوا منظريها) .

ورجوعاً إلى الماركسية والاعلانات ، نقول : ليس المهم القرب والبعد الاعلاني ولا الفكري الذاتي عن الماركسية ، بل الآفاق التاريخية . هذا ما يحدد في آخر تحليل قرب وبعد الآخرين وعبد الناصر عن الماركسية موضوعياً . والآفاق التاريخية تتضمن بالنسبة لكل الآخرين شيئاً مميزاً : موقفهم من عبد الناصر ومصر .

والآخرون بوجه الاجمال ومع بعض الاستثناءات – أقرب إلى الماركسية بقدر ما هم لا يتشدقون بالماركسية . ذلك لأنهم ليسوا ماركسيين . هذا ثانياً . وأولاً لأنهم لم يكلفوا نفسهم عناء دراسة الماركسية رغم اعلانهم لها منذ سنوات.

ونتوجه الآن الى الرفاق الشيوعيين اللبنانيين ، قادة وكوادر وأعضاء ، ونقول لهم :

أنتم تملكون تجربة وتجربة تشمل هذه المواضيع : الماركسية والاعلان والواقع . وانتم – بخلاف الشراذم اليسارية المحدثة – تحبون وتحترمون لينين . لم تفهموه في الماضي ولكنكم الآن مستعدون لدراسة مؤلفاته ، مستعدّون لتخصيص تسعة أعشار تثقفكم النظري الماركسي لمؤلفات لينين . ولهذا السبب نحن واثقون انكم في مستقبل نريده قريباً ستدركون ان « المفهوم العلمي الطبقي » الذي تتبنونه اليوم ليس مفهوماً تاريخياً ، وان تحليلكم العلمي الطبقي « الراهن » ما هو الا تطبيق و « سحب » للمفهوم المذكور التجريدي ، على الاقطار ، أي انه قطري ، مناقض لمفهوم « العالمية » ومفهوم « التاريخ » اللينينيين .

اننا ندين بلا أدنى تحفظ تلك « المحاولات لإيجاد نظريات اشتراكية اقليمية دينية وقومية تغفل وحدة التاريخ العالمي » ، ندينها مثلكم وأكثر منكم ولكن بخلافكم .

اذ ما هو المقصود بـ « وحدة التاريخ العالمي » ؟

هل المقصود أن كل المجتمعات الانسانية مرت وتمر في مراحل تاريخية اجتماعية واحدة (المجتمع الشيوعي ، مجتمع الرق ، المجتمع الاقطاعي ، المجتمع البرجوازي ، المجتمع الاشتراكي [1]) ؟ هذا كان رأينا (رأيكم) الصريح قبل سنوات قليلة ! وهذا التصوّر خاطىء لا علاقة له بماركس ، وان كان « تطبيقاً » لـ « مخطط » و « قوانين » المادية التاريخية . (لأنه « تطبيق » و « سحب » لهذا المخطط وهذه القوانين !) . ان تاريخ آسيا وافريقيا وأميركا قبل الفتح الاستعماري ليس له صلة كبيرة بهذا المخطط ، رغم وجود تشكيلات الرق والاقطاعية و « التجارة » (!) على نحو وآخر في كل مكان تقريباً ... ان تاريخ آسيا قبل الفتح الاستعماري وتاريخ أوروبا الغربية شيئان مختلفان جوهرياً . و « وحدة التاريخ العالمي » تبدأ مع الرأسمالية والاستعمار وتتنامى مع الرأسمالية والاستعمار وتبلغ مداها الكامل في عصر الامبريالية . بتعبير آخر : هذه الوحدة ليست التعادل والتساوي والتماثل . بالعكس . لسوء الحظ ، حين تنددون بـ « الجغرافيا » وتستبعدون مفاهيم « الشرق » و « الغرب » . وتلتزمون الطهر الطبقي ، فانكم تقطعون الصلة مع « وحدة التاريخ العالمي » الحقيقية ، وترسون « وحدة الحركة الثورية العالمية » لا على « القوانين الاقتصادية والاجتماعية التي تحدد المجرى العام للتطور البشري » (ص ١٨) ، بل على وَهْم القوانين العامة والمخطط العام « المـــادي التاريخي » والمادي الجدلي ، المنسوب لكارل ماركس .

في رأينا وحسب نظرنا ، ليس هناك مادية تاريخية ولا مادية جـدلية ولا « وحدة تاريخ عالمي » ماركسية ، ولا «رأسمالية عالمية » ، ولا ثورة اشتراكية عالمية . ولا أممية بروليتارية بدون : مفهوم الاسلوب الآسيوي الانتاجي ومفهوم

---

[1] (١) كما يقول ستالين في كتابه « المادية الجدلية والمادية التاريخية » ، ١٩٣٨ .

« الركود » الشرقي الماركسي وتحليلات ماركس وانجلز العالميـــة والشرقية ، وملاحظات لينين «ضد» ومع « آسيا» ،ضد الركود والجهل والبربرية الآسيوية ومع اليقظة الديمقراطية والبروليتارية الآسيوية ، وتحليل لينين للامبرياليـــة ، ولحركة العمال الاوربية ، ولتحول الثور الديمقراطيـــة وحركة التحرر ضد الرأسمالية والامبريالية ،ومنظورات لينين ١٩٢١–١٩٢٣ الستراتيجية والنظرية .

نقول: بدون ذلك لا تسقط اللينينية فقط ،بل الماركسية كلها ،لا استراتيجية الثورة فقط ، بل ايضاً المادية التاريخية ، وايضاً المادية الجدلية ، (تسقط المادية الديالكتية كلها ،واذا شئتم ترتفع إلى سماء علم الفيزياء الفلكي ، وهذا شيءواحد) .

هذا ايضاً ما نقوله ، حين نقرأ الجملة الأخيرة المكملة : « وفي هذا السياق ، يجري احياناً الترويج لنظرية التناقض بين الدول « الغنية والفقيرة » دونما تمييز في طبيعة النظام الاجتماعي للبلدان المتقدمة » (ص ١٨) . جملة صحيحة :يجري الترويج ... دونما تمييز ... » ومع التمييز ؟ ما رأيكم ؟

وهذا يقودنا إلى المقطع الأخير « الاستعمار الجديد » (ص ١٩) .

١٩ – الاستعمار الجديد : ما يراه وما لا يراه البرنامج اللبناني . وحدة الثورة العالمية .

يقول البرنامج اللبناني :

« ان زوال السيطرة الاستعمارية المباشرة للامبريالية لا يزيل التبعية تلقائياً. فالاستعمار يتكيف مع الظروف الجديدة ويتخذ شكلاً جديداً ، ويصبح استعماراً دون امبراطوريات . انه الاستعمار الجديد ، والولايات المتحدة الاميركيـــة هي دعامته ومحرّكه الأساسي . والمرتكز الرئيسي للاستعمار الجديد هو بقاء مواقع الاحتكارات الامبريالية في البلدان المتحررة حديثاً والاحتفاظ ، مـــن حيث الأساس ، بالعلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي ، وتوظيف الرساميل والمشاركة . ان كل هذا يؤدي إلى استمرار تبعية هـذه البلدان لنظام الاستثمار

الرأسمالي العالمي . واستناداً الى هذه المواقع يعمل الاستعمار الجديد بالتوغـل الاقتصادي وتقوية مواقع احتكاراته في هذه البلدان » (ص ١٩) – المقطـع التالي يضع الرد : سبل تحقيق الاستقلال الاقتصادي وصيانة الاستقلال السياسي: تعاون هذه البلدان ، دعم الاتحاد السوفياتي لها .

هل تعريف الرفاق اللبنانيين للاستعمار الجديد تعريف صحيح ؟

– نعَم بالتأكيد .

هل هو كامل الوضوح والتحديد ؟ (نقلنا المقطع كاملاً) .

– لا بالتأكيد .

ما الذي ينقصه وأين موضع النقص ؟

نرجو القارىء أن يقرأ مرة ثانية المقطع المنقول أعلاه ، وأن يتوقف عند الجملة الآتية :«والمرتكز الرئيسي للاستعمار الجديدهو بقاء مواقع الاحتكارات الامبريالية في البلدان المتحررة حديثاً والاحتفاظ من حيث الاساس بالعلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي وتوظيف الرساميل والمشاركة ».

هذه الجملة هي الجملة المِحْوَرية . ما يسبقهـا يسجل تكيّف الاستعمار واتخاذه شكلاً جديداً ، بزعامة الولايات المتحدة . وما يعقبها يؤكد النتيجة : استمرار التبعية ، وعمل الاستعمار الجديد على تقوية مواقعه . أما الجملة الوسطى المنقولة ثانية فهي تعريف الظاهرة الجديدة ، الاستعمار الجديد ، أي بوجـه التقريب ومع بعض التبسيط الاوضاع الحاضرة للسيطرة الامبريالية والاستنزاف الامبريالي . علينا اذن ان نطلب من القارىء ان يقرأها مرة ثالثة ، سيجد فيها أقساماً ثلاثة :

١ – « بقاء مواقع الاحتكارات الامبريالية في البلدان المتحررة حديثاً » .

٢ – « الاحتفاظ من حيث الاساس بالعلاقات القديمـة لتقسيم العمل على النطاق العالمي » .

٣ – « توظيف الرساميل والمشاركة » .

ذلك هو فعلاً « المرتكز الاساسي » للاستعمار الجديد . البند الاول هـام

جداً ، ولكنه « عام » بعض الشيء. هل ينطبق مثلاً على سوريا ومصر والبلدان التي دخلت مضمار « التحول النوعي» الذي ذكره البرنامج اللبناني؟على الأرجح، لا ، اذا كان المقصود وجود هذه الاحتكارات الامبريالية داخل البلدان المذكورة، أي اذا كان لهذا البند الاول معنى ما غير معنى البند الثاني . أما البند الثالث « توظيف الرساميل والمشاركة » فهو واضح كل الوضوح ، ومحدد كل التحديد ، ولكنه لا ينطبق على بلد كسوريا مثلاً ، أو ينطبق عليها بشكل محدود جداً . (ومن الانصاف للحقيقة القول بان سوريا تتعامل في هذا المضمار مع فرنسا والدول الاشتراكية وتختار العرض الأفضل . ولا يعترض لا الرفاق اللبنانيون ولا الدول الاشتراكية ولا نحن على هذا الاختيار) .

اذن ، لزاماً علينا ان نبرز البند الثاني . « الاحتفاظ من حيث الاساس بالعلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي » .

ذلك هو فعلاً الوضعُ العام ، : من اندونيسيا وماليزيا والهند الى البرازيل وشيلي وبوليفيا ، مروراً بايران وسوريا ومصر والسنغال وساحل العاج ، أي القاسمُ المشترك الاعظم الذي يشمل البلدان التي تسير في ركاب الامبريالية والاستعمار الجديد (والقديم) والبلدان الأخرى التقدمية التي وجهت ضربات ثورية للامبريالية والتي أفلتت (تحاول أن تفلت) من حبال وأصفاد الامبريالية.

من المؤسف أن هذا البند الثاني لم يخصص له البرنامج اللبناني سوى نصف جملة او ثلث جملة « والاحتفاظ من حيث الاساس بالعلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي » .

ويزداد أسف القارىء حين يعرف مستوى « مناضل الصف » في الحزب الشيوعي اللبناني . هل يفهم مناضل الصف مضامين العبارة الآنفة ، لا سيما وانها محصورة بين عبارتين في جملة واحدة ؟ ولا سيما وانه ، قبل قليل ، قرأ الحَمْلة على نظرية التناقض بين الدول الغنية والفقيرة ، وحملةً على « العوامل » الجغرافية ، وحديثاً مكروراً عن « المفهوم الطبقي » « ودور الطبقة العاملة » الخ الخ .

ما هو « تقسيم العمل على النطاق العـالمي » ، هذا التقسيم الذي تكوّن في زمن الامبريالية (وزمن الرأسمالية قبل مرحلتها الامبريالية) والذي لا يزال « محتفظـاً به من حيث الاساس » ، بوصفه « المرتكز الرئيسي » أو أحد المرتكزات الرئيسية « للاستعمار الجديد » ؟

انه ، بالطبع ، انقسام العالم في زمن الرأسمالية (= الرأسمالية والاستعمار) والامبريالية الى مجموعة من الدول الصناعية المتقدمة (اوروبا الغربية وامتدادها الاميركي الشمالي + اليابان) وثلاث قارات من المجتمعات المنتجـــة والمصدرة للخامات الزراعية والمعدنية (آسيا، افريقيا، اميركا اللاتينية + قبل ربع قرن بلدان شرقي اوروبا) . هذا الانقسام والتخصص والتوزع في العمل والانتاج ، على نطاق العالم هو ابن « وحدة التاريخ العالمي » ، ابن الرأسمالية ، بَدَأَ منذ عهد الرأسمالية التجارية والمركانتلية ونَـمَا في زمن الانقلاب الصناعي الاوروبي (تدمير صناعات النسيج الهندي القروية اليدوية ، اختفاء منسوجات الهند من السوق الاوروبية ، وإغراق السوق الهندية بالغزل ثم النسيج الانكليزي ...) وبلغ أبعاداً جديدة مع تباشير زمن الامبريالية وفي هذا الزمن (تدمير الصناعة المصرية الحديثة في عهد كرومر ، وكذلك الصناعة اليدوية والآليـــة في لبنان وسوريا) .

هذا الانقسام و « التخصص » و« التوزع » العالمي واضح تماماً عند ماركس وبالأحرى عند لينين (ومفهوم الامبريالية والصفة العالمية لا يحجب هذا الوضوح، الا في نظر ذلك الذي لا يستطيع ان يرى بعينيه الاثنتين أكثر من شيء واحد) .

واليوم ، ليست هذه « العلاقات القديمة » « محتفظـاً بها » وحسب ، بل هي إلى حد ما آخـــذة في الاستفحال : معدلات النمو الصناعي هي في البلدان الصناعية الرأسمالية الامبريالية أكبر منها في « البلدان المتحررة حديثـاً » من السيطرة الاستعمارية المباشرة . وهذه مشكلة كبيرة ، خطيرة ، في حـــاضر البشرية ومستقبلها ، في « وحدة التاريخ العالمي » الراهنة والمنشودة . وجملة أو نصف جملة عن هـذا الموضوع لا تكفي ، خصوصاً اذا أغرقت في بحر « المفهوم

العلمي الطبقي » والموجات التنديدية التي يقذفها ضد « العوامـــل الجغرافية » ونظرية « الدول الغنية والفقيرة » .

وأحد أهم وجوه هـذه المشكلة الكبيرة والخطيرة الظاهرة المعروفة بأسم تدهور **شروط التبادل** ، أو حدود التبادل (حـدّي التبادل) ، أي اسعار التبادل في السوق العالمية : ان أسعار« مواد الأساس» (الخامات) آخـــذة في التدهور ، وأسعار المصنوعات آخذة في الارتفاع ، هذه حقيقة أساسية نجدهافي مؤلفات الاقتصاديين الماركسيين وغير الماركسيين وفيتقارير هيئةالأمم المتحدة. وفي سوريا نعلمها لطلاب المدارس الثـانوية بين صفي الكفاءة والبكالوريا ، وفي أكثر من كتاب ، ومنذ زمن غير قصير . لن نستشهد بكتبنا المدرسية . ولن نستشهد بمؤلف بيار جاليه « نهب العالم الثالث » او مؤلفات بتلهـايم وماندل ، فقـد يتصور بعض الرفاق اللبنانيين ان هؤلاء العلماء الماركسيين مدسوسون من قبل القادة الصينيين ، سنستشهد ، مرة اخري ، بكتاب فارغـا « رأسمالية القرن العشرين » .

ننقل عن الصفحة ٩٠ (الطبعة الفرنسية ، موسكو) الجدول الآتي :

السنوات	مؤشرات الأسعار (مؤشر ١٩٥٣ = ١٠٠)	
	مواد الاساس	المصنوعات
١٩٥٢	١٠٤	١٠٤
١٩٥٨	٩٦	١٠٦
١٩٥٩	٩٤	١٠٦
١٩٦٠ (الثلث الثالث من العام)	٩٣	١٠٩

ويشرح فارغا اسباب هذا التدهور في الصفحتين ٨٩و٩٠:قوة الاحتكارات تجعلها لا تخفـّض أسعارها رغم أزمة فائض الانتاج ، اما البلدان المتخلفة فهي كما في الماضي مصدّرة مواد أوليـة وغذائية بأسعار « حرة » ، الاستعاضة عن المواد الاولية الطبيعية بمواد تركيبية (المطاط ، الحرير ، الاليـــاف) ، مكننة

الزراعة في البلدان المتطورة . « ليس هناك مجال لأن نتوقع تبدل الأسعار لصالح البلدان المتخلفة » . . .

هذه الظاهرة – تدهور حدود التبادل – ليست بنت اليوم – (انها ميل قديم ، وان كان ينقطع وينقلب في فترات محدودة – مثلاً ، الحروب ، حرب كوريا ، والحاجة الى المواد الاولية –) ولكنها اليوم (في الخمسة عشر سنة الاخيرة) آخذة في الظهور والبروز والاستفحال .

بتعبير آخر : في الوقت الذي انحسرت فيه الامبراطوريات الكولونيالية ، ونالت غالبية بلدان آسيا وافريقيا (كلها تقريباً) استقلالها السياسي ، في هذا الوقت بالذات ، الاستغلالُ الامبريالي بدلا من ان يختفي أو ينخفض ، زاد وتفاقم . في العالم العربي ، ليس فقط انتاج البترول (أي نهب البترول) يتقدّم عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم ، بل كذلك النهب المقنّع أو شبه المقنع على أساس آلية السوق العالمية ، آلية البيع والشراء بأسعار التبادل . وهذا يعلل إلى حد كبير ، ازدهار « الغرب » وتخبّط « الشرق » ، رغم زوال التبعية السياسية.

ولا نقول ان تدهور حدود التبادل هو الحرف الأول والأخير في الاستغلال الامبريالي ، وبالأحري لا نقول ان هذا التدهور هو الحرف الأول والأخير في مشاكل العالم المتخلف . كلا ! ولكننا نقول : هذه مشكلة كبيرة خطيرة . وكل برنامج لا يسجلها بأقصى ما يمكن من الوضوح ليس برنامجاً ماركسياً – لينينياً .

لما كان ثمة ماركسية لولا تحليل ماركس لـ « رأس المال » . ولما كان ثمة لينينية لولا تحليل لينين لـ « الامبريالية » . وليس اليوم ثمة ماركسية – لينينية ، بدون التحليل العلمي الاقتصادي للزمن الراهن وعلاقاته الموضوعية الواقعية . هذه العلاقات معقدة و « تبسيطُها » « اصالح » (؟!) « الشرق » ليس موقفاً لينينياً . ولكن ليس موقفاً لينينياً ان نتجاهل قضية خطيرة وواضحة كهذه ، خشية الانسياق وراء « استنتاجات القاده الصينيين » أو طائفة من « الثوار » « الشرقيين » و « القوميين » و « الريفيين » غير الماركسيين . والذين لا يرون هذه الحقيقة الكبيرة ، خوفاً من التبسيط ، نقول لهم ما قاله الماركسيون الروس

لخصومهم الاوائل ، ناقلين عبارة شهيرة من الأدب الروسي : « ولكنكم ، يا سادة ، لا ترون الفيل » . حقاً ، انتدهور حدود التبادل هو الفيل. وهذا الفيل ليس بديلاً عن المفهوم العلمي الطبقي ، بل هو أحد أشكاله ومضامينه الرئيسية.

ولقد ذكرنا في مكان سابق تعليق مصطفى أمين وغيورغي ميرسكي على كتاب سوفياتي . وقد ذهب أمين وميرسكي في ردهما على تفاؤل الزميل السوفياتي (أو على زلاته المتفائلة) إلى تسجيل « التقسيم العالمي للعمل ، مصدر اللامساواة » ، والتنويه بفكرة « الريف العالمي الوارد ذكره في برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » . (مجلة الوقت ، ديسمبر ١٩٦٢) .

نعم ، أيها الرفاق ، ليس المارشال لين بياو وحده يتكلم عن « ريف العالم » . بل البرنامج الذي أقره الحزب الشيوعي السوفياتي في مؤتمره الثاني والعشرين [١] . والفوارق كبيرة بين السوفياتيين والصينيين ولكن هناك ايضاً بعض الفوارق بين اللبنانيين والسوفياتيين . ولعلّ ميرسكي وأمين يدفعان القضية في اتجاه، ولكن وليس من شك في ان اللبنانيين يدفعونها في اتجاه معاكس. وكأن خوفهم من التلوث الصيني ، يعيدهم إلى الوراء ، اشواطاً ، ويحذف من ذهنهم أشياء موجودة عند الماركسيين السوفيات واليوغوسلاف والايطاليين .

ان نصف جملة عن بقاء العلاقات القديمة لتقسيم العمل على النطاق العالمي لا تكفي أبداً ، تحت عنوان « الاستعمار الجديد » ، أو في مكان هذا المقطع عن « الاستعمار الجديد » ، يحتاج البرنامج الشيوعي اللبناني ، إلى تحليل أكثر تحديداً لاقتصاد العالم والعالم المتخلف كما يظهر اليوم ، تحليل يسجل النقاط الآتية :

أ – في الانتاج :

١ – بين ١٩٥٣ و ١٩٦٥ ، ارتفع الناتج القومي للفرد من السكان في البلدان المتخلفة ولكن بشكل بطيء، بالمقارنة مع الدول المتقدمة (الرأسمالية وبالأحرى

---

(١) أنظر « نحو الشيوعية » مجموعة وثائق المؤتمر الثاني والعشرين لا ح. ش. ا. س. ، طبع موسكو بالفرنسية ، ص ٥٢٣ .

الاشتراكية) . ان المسافة التي تفصل العالم المتخلف عن العالم المتقدم تزداد .

٢ – ان انتاج الصناعات **الاستخراجية** في بلدان العالم الثالث يتقدم بسرعة كبيرة ، خصوصاً فيما يتعلق بالبترول وعدد من الفلزات المعدنية (كالنحاس ، المنغانيز ، الكوبالت ، الكروم ، البوكسيت ، الرصاص) والفوسفات الطبيعي.

٣ – ان نصيب العالم الثالث من الصناعات التحويلية يراوح في مكانه ، وهو ، محسوباً على أساس الفرد من السكان ، آخذ في انخفاض . ويشتد هذا الضعف في قطاع الصناعة الثقيلة .

٤ – في الانتاج الزراعي للعالم الثالث ، ان انتاج المحاصيل الزراعية المعدة للتصدير – مواد أولية للصناعة (قطن) وأغذية (كاكاو ، بن ، شاي ، فول سوداني) يتقدم بشكل أسرع من انتاج المحاصيل الغذائية المخصصة للاستهلاك المحلي (مع استثناء وحيد : المطاط) . أي ان المحرك الرئيسي للانتاج هو طلب السوق العالمية .

٥ – من ٢ و ٣ و ٤ ، نستخلص ما يلي :

ان التقسيم الدولي للعمل ، هدف وواقع الامبريالية ، آخذ في الاستفحال.

ب – في المبادلات :

١ – **اذا صنفنا دول العالم الى ثلاث مجموعات** (رأسمالية متقدمة ، عالم ثالث ، اشتراكية) ، يتبين معنا : ان تجارة الدول الرأسمالية المتقدمة تشكل $\frac{٢}{٣}$ التجارة العالمية كلها (أي أنها تعادل ضعف تجارة المجموعتين الاخريين) وهي تتاجر بالدرجة الاولى فيما بينها .

٢ – ان حجم المبادلات السنوي بين المجموعتين الرأسمالية **المتقدمة والمتخلفة** يبلغ حوالي ٢١ مليار دولار وهذا الرقم يمثل ربع حجم تجارة الدول الامبريالية داخل منطقة العالم غير الاشتراكي ، وثلاثة أرباع حجم تجارة الدول المتخلفة داخل هذه المنطقة . وهذا يكشف تفاوت القوى في السوق العالمية الرأسمالية بين المجموعتين .

٣ – أ – ان تجارة الدول الامبريالية تنمو بسرعة أكبر من نمو تجارة الدول المتخلفة .

ب – الدول الامبريالية تتاجر أكثر فأكثر فيما بينها وأقل فأقل مع الدول المتخلفة [١] .

ج – والدول المتخلفة تتاجر أقل فأقل فيما بينها وأكثر فأكثر مع الدول الامبريالية . تبعيتها تزداد .

٤ – صادرات الدول المتخلفة تتألف بنسبة ٨٥ – ٩٠٪ من « مواد اساس »، محدودة التنوع . صادرات الدول الامبريالية الى العالم الثالث تشمل بالدرجة الأولى مصنوعات كثيرة التنوع .

٥ – أسعار المصنوعات في ارتفاع ، وأسعار مواد الاساس في هبوط. هناك اذن بالنسبة للبلدان المتخلفة تدهور في حدود التبادل ، وتدهور في الميزان التجاري .

ان الاستغلال الامبريالي لبلدان العالم الثالث آخذ في التفاقم .

تلك هي حقائق الاقتصاد العالمي الراهن، كما تظهر في تطور العقدين الاخيرين. ولا بأس ان نقدم للرفاق اللبنانيين بعض الملاحظات الاضافية .

اولاً – قلنا في آ / ٥: ان التقسيم الدولي للعمل، هدف وواقع الامبريالية... ونضيف انه ايضاً واقع الرأسمالية منذ ظهورها وبالأحرى منذ زمن الانقلاب الصناعي الأوروبي . بتعبير آخر : انه واقع الامبريالية مأخوذة بمعنى أوسع من المعنى اللينيني الكلاسيكي (« مرحلة الرأسمالية الاحتكارية والمالية ، أعلى مراحل

---

(١) التجارة فيما بين الدول الرأسمالية الصناعية تنمو بشكل أسرع ، ولكنها تشمل بشكل متزايد مصنوعات متشابهة جرى تنويعها ترفياً (مثلاً ألبسة فرنسية مقابل البسة ايطالية وانكليزية ، سيارات سياحية فرنسية مقابل سيارات سياحية ايطالية او اميركية تختلف عنها في بعض المواصفات الثانوية الترفية) . والفائدة الاقتصادية لهذا النوع من المبادلات تعادل الصفر . أما المبادلات بين مجموعتي عالم السوق الرأسمالية العالمية فهي تلبي حاجات اقتصادية اساسية : الاوائل والمصنوعات مقابل الخامات المعدنية والزراعية . الدول الرأسمالية الامبريالية لا تسير اذن نحو فك ترابطها مع العالم الثالث (بل تسير نحو إحكام ربط العالم الثالث بها) .

الرأسمالية ») . وهذا واضح عند ماركس منذ أوائل ١٨٤٨ (خطابه عن نظام التبادل الحر) وعند انجلز . ولا يمتنع لينين عن استخدام تعبير « الامبريالية » في غير المعنى اللينيني الكلاسيكي المحدد آنفاً (ويفعل ذلك بعد اكتشافه وتحليله « الامبريالية ») .

ثانياً قلنا في ب / ٣ – ج : الدول المتخلفة تتاجر أقل فأقل فيما بينها واكثر فأكثر مع الدول الامبريالية ، تبعيتها تزداد . ونضيف « تتاجر أقـل فأقل فيما بينها » معناه ان تجزؤها يزداد . الامبريالية أخضعت وجزأت ، وهي لا تزال تجزىء وتخضع . لم تجزىء فقط حين بلغت القـــارة السوداء وبلاد الشام حين سطرت (بالمسطرة) حدود الدول الافريقية وحدود إمارة شرقي الاردن الخ ، بل هي تـُجزّىء اليوم بواسطة آلية التجارة والسوق . وهذا واضح في شكل خاص في العالم العربي . الأردن يتحول أكثر فأكثر إلى كيان اقتصادي ، ينتج ويصدّر الفوسفات إلى « العالم » وينخفض نصيب الجارات العربيات في تجارته الاجمالية . وتنخفض حصة العالم العربي في تجارة سوريا والعراق وسائر الدول العربية التقدمية والرجعية ونصف التقدمية (والاستثناء الوحيد هو مصر حيث تراوح هذه الحصة في مكانها) . سنرى ذلك بالأرقام . ولكننا نريد أن نسجل من الآن اننا حين نقول ان الاقليمية والقطرية والانفصالية جزء من ايديولوجية البرجوازية والامبرياليـــة ، والقومية العربية جزء من ايديولوجية وعقيدة البروليتاريا الاشتراكية ، فاننا لا نفعل ذلك مسايرة لميشيل عفلق أو « الجمهور » ، بل نفعل ذلك لأنه بدون ذلك نكون قاصرين في ميدان التحليل الاقتصادي الماركسي – اللينيني لزمن الامبريالية (و « الاستعمار الجـــديد ») ، بين جملة ميادين .

ولقد أحدثت سوريا ومصر (والعراق والجزائر الخ) عدداً من التغييرات التحررية والتقدمية في تجارتها الخارجية (التحول الجغرافي نحو الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية خصوصاً بالنسبة للدول المشرقية الثلاث) . ولكن تقدماً واحداً لم يحدث في مضمار العلاقات بين العرب (وحدث العكس !) . ولهذا السبب نقول

لكم : لا نقبل ان تتجرجروا ، في ميـدان الفكر والاكتشاف النظري ، وراء أفضل الماركسيين السوفيات والأجانب . أن موقعنا التاريخي و « الجغرافي » يفرض علينا ان نتلمس هذه الأمور بقوانا العقلية الذاتية ، وان نقطع نهائياً مع التصور الاحمق الذي أراد أن تأتي الوحدة العربية من التطور الموضوعي للاقتصاد العربي البرجوازي المستقل المتحرر أو الذي يريد اليوم ان تأتي الوحدة العربية من الاقتصاد العربي « الاشتراكي » (!) المتحرر (!) !.

ثالثاً – لقد أدرك القارىء بالبداهة انآلية التجزئة الامبريالية في العـالم المتخلف – آلية التناثر : كون هذه البلدان المتخلفة تتاجر فيما بينها أقل فأقل – تعزّز ظاهرة تدهور حدود التبادل ، بتقريرها ميزان القوى في السوق العالميـة الرأسمالية لصالح الدول الامبريالية ، على ظهر بلدان العالم الثالث [1] .

وهذه الحقائق ظلت غائبة أو تقريباً من برنامج الحزب الشيوعي اللبناني : ان المقطع المكرّس لوصف « الاستعمار الجديـد » (عشرة أسطر) لا يفي

---

(١) نقول : « العالم الثالث » . وهذا الاصطلاح غير وارد في البرنامج اللبناني . هناك من يرفض هذا الاصطلاح لأنه ، على حد تصوره ، يوحي بـ « طريق ثالث » غير الاشتراكية وغـير الرأسمالية . ولكن ما معنى « يوحي » ؟ وكيف ؟ ان اصطلاح « العالم الثالث » يوحي بطريق ثالث لمن يؤمن بطريق ثالث،ليس الا . تلك ليست حال صاحب كتاب « نهب العـالم الثالث» وعشرات من الاقتصاديين الماركسيين . ان « العالم الثالث » اصطلاح جديد ، يؤكد وجود عالم ثالث ، غير عالم البلدان الرأسمالية الصناعية الامبرياليةوغيرعالمالبلدانالاشتراكية المتقدمة.ورسالة الاشتراكية اخراج الشعوب المنكوبة من وضع « عالم ثالث » ، وتوحيد العالم على أساس التعاون والمساواة.هناك مواصفاتاساسية جوهرية مشتركة تجمع الهند واندونيسيا وسيلانومصروالمغرب والكونغو والبرازيل وبوليفيا الخ وتميزها عن فرنسا والولاياتالمتحدةوسويسرا والدنمارك وعن الاتحاد السوفياتي وبولونيا وبلغاريا .

ويقول سوسلوف في تقريره المذكور في مكان سابق : « ان الغالبية الساحقة من بلدان مـا يسمى العالم الثالث قد انتزعت استقلالها السياسي » (ص ٣٢) ، ما يسمى العالم الثالث بدون مزدوجين . الرفاق اللبنانيون يستطيعون ان يعتمدوا هذا الاصطلاح دون ان يخالفوا « الخط العام للحركة الشيوعية العالمية » .

بالحاجة . والسطر المكرّس لتقسيم العالم على النطاق العـــالمي بقى دون خط «الحركةالشيوعية العالمية » .

لننظر الآن إلى المقطع الثاني والاخير ، المخصص للعلاج .

يتحدث الرفاق اللبنانيون عن« التعاون » «والدعم المتبادل بين هذه البلدان النامية » (أي المتخلفة) ، « الدعم القوي والثابت من قبل الاتحاد السوفياتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية ». ذلك « كفيل بإفشال مخططات الامبريالية وسحق عدوانها وإنزال الهزيمة بها » .

« ومجرى التاريخ المعاصر يؤكد ان نجاحات حركة التحرر الوطني وثيقة الارتباط بنجاحات الاشتراكيةالعالمية والطبقة العاملة العالمية . والتحالف المتين والوطيد الدعائم بين هذه القوى الثورية العظيمة هو ضمانة النصر النهائي لقضية تحرر الشعوب الوطني والاجتماعي » (ص ١٩) .

وهكذا نعود مرة أخرى الى من حيث بدأنا : من جهة – ١ – « حركـة التحرر الوطني » ، ومن جهة ثانية – ٢ – « الاشتراكية العالمية والطبقة العاملة العالمية » .

جملتان : الأولى عن « ارتباط » ١ بـ ٢

والثانية عن « التحالف » بـين ١ و ٢

ينقص : جملة ثالثة عن « ارتباط » ٢ بـ ١

أن الهزائم التي تمنى بها « حركة التحرّر الوطني » تنعكس على حركة العمال الثورية في الغرب وفي المنظومة الاشتراكية العالمية ايضاً .

وينتهي الفصل الأول من برنامج الشيوعيين اللبنانين بالخاتمة الآتية :

« ان ضمان التطور العام وازاحة نظام الاستثمار الامبريالي والرأسمالي يتطلبان توثيق وحدة القوى الثورية : بلدان المنظومةالاشتراكية وحركة التحرر الوطني والحركة العمالية الثورية في البلدان الرأسمالية والأساس الموضوعي لهذه الوحدة

هو مصالحها وأهـدافها المشتركة في صيانة السلم والنضال في سبيل الديمقراطية والحرية، وفي مجابهة القوى الامبريالية والتصدى لعدوانها، ولحلّ مهـــام التقدم الاجتماعي للبشرية بأقل ما يمكن من التضحيات والآلام » . (ص ١٩—٢٠) .

التصنيف الوارد في الجملة الأولى أفضل من التصنيف الثابت الذي درج عليه الفصل . ولقد أصاب الرفاق اللبنانيون في عبارة « الحركة العماليـة الثورية في البلدان الرأسمالية » . كما أصابوا في تحديد الأساس الموضوعي للوحدة : المصالح والأهداف المشتركة ، التصدي للعـــدوان الامبريالي ... ونحن نشاطر الرفاق اللبنانيين حرصهم على حل المهام « بأقل ما يمكن من التضحيات والآلام ». لسنا من أنصار الثورات الدامية التي من شأنها أن تطهر المجتمع القديم (رغم انّ هذه الفكرة واردة في نص معروف لماركس . وماركس قال مرة أو مرتين بالطريق البرلماني لانكلترة والولايات المتحدة وربما هولندة . تنبيه لمحبي « الانسجـــام » و « كارهي » « التناقضات » في نصوص ماركس ولينـين) . لسوء الحظ ، — ويوافق الرفاق اللبنانيون على ما نقوله — القضية لا تتوقـّف علينا بقدر مـا تتوقف على العدو . ولا نعتقد ان اختتام الفصل بهذه العبارة شيء مستحب . انها كثيرة أو قليلة . نافلة أو ناقصة . c'est trop ou trop peu : اذا لم تتحقق الوحدة بحد أدنى من الوحدة ، واذا استمر واستفحل الانقسام لسنا واثقين تماماً من أن « القوى الثورية » ستحلّ المهام بكثير من التضحيات والآلام . ان وحدة القوى الثورية هي أكثر من التحالف بين « حركة التحرر الوطني » وبين « الحركة العمالية » و « الاتحاد السوفياتي وسائر بلدان المنظومة الاشتراكية » . أن احدى المسائل الكبرى هي ، على وجه التحديد ، هنا ، في هذه النقطة : ... وسائر بلدان المنظومة . انها مشكلة الانشقاق بين الصين الشعبية والاتحـــاد السوفياتي . أما كلمة « وسائر » فلا تروي الظمأ .

٢٠ — خلاصة

هكذا ننتهي من عرض ونقد الفصل الأول في برنامج الشيوعيين اللبنانيين :

الوضع العالمي ، محتوى عصرنا وجوهره ، الازمة العامة للرأسمالية ، اشتداد عدوانية الامبريالية ، كتلة ماوتسي تونغ ، الطبقة العاملة : المنظومة الاشتراكية والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة ، حركة التحرر الوطني والاستعمار الجديد .

لقد درسنا جميع الأفكار وعرضنا أهم المقاطع بنصّها الحرفي وفي اطارها ذاته ، وقلّبنا الأمور على كل وجوهها ، وكثيراً ما نقلنا الجمل مرتين وثلاث مرات . في سعينا الى الوضوح والدقة والأمانة وفي عزمنا على الاحاطة بالتفاصيل والجزئيات ، اعتمدنا على صبر القارىء ورحابة صدره . ولنا على ذلك عدة أعذار لا يجهلها القارىء :

اولاً . نفضل ان يتّهمنا الرفاق اللبنانيين وجمهور القراء بالتكرار الممل على ان نتخلى عن الدقة هنا أو هناك ، أو أن نترك مقاطع دون ان نبدي رأينا فيها .

ثانياً . ان الحزب الشيوعي اللبناني هو اليوم في بداية انعطاف عظيم ، فريد ، استثنائي ، في تاريخه الطويل وفي تاريخ غيره من الاحزاب الشيوعية وسواها . ولا يمكن ان نتخلف عن واجبنا المطلق في عرض ونقد وتفنيد منظوراته ، وعرض وتبرير منظوراتنا . نقول تفنيد . هذا ما كان يدعو اليه لينين . دعا اليه حتى بالنسبة لماركس ! « حين كان على الماركسيين المستقيمين ان يكافحوا بعض المفاهيم التي شاخت لماركس (وهذا ما فعله فرانتس مهرنغ تجاه بعض التأكيدات التاريخية لماركس) ، فعلوا ذلك دائماً بكل الوضوح وكل المستندات اللازمة مما لم يترك لأحد إمكانية كشف أي التباس في أعمالهم » . أما « التحريفيون » فهم يدورون حول المسائل ، يتهربون ، ويحاولون « اخفاء تهربهم » ! . « لقد نالوا شهرة كئيبة » وهم يعون تماماً عجزهم عن « تصفية حساب الأفكار التي تخلوا عنها ، تصفية ، صريحة ، واضحة ، حازمة ، ودقيقة » . هذا ما يقوله لينين في مقدمة « المادية والنقد التجريبي » (١٩٠٨) ، ضد بوغدانوف وبازاروف وطائفة من « الماركسيين » الذين تخلوا عن الماركسية وجنحوا نحو هذا التيار المثالي المعاصر . ولقد حاولنا ان نسير وراء منهج لينين وفرانتس

مهرنغ ، أي ان «نفنـّد» تفصيلياً وبالنصوص الأفكار الخاطئة التي نراها عند الرفاق اللبنانيين ، أنْ « نصفي حساب » هـذه الأفكار « تصفية صريحة ، واضحة ، حازمة ، ودقيقة » .

ثالثاً : ان دراسة « الوضع العالمي »، « محتوى عصرنا وجوهره » ، «العملية الثورية العالمية» وفروعها الخ، هي، تحديداً ، **الماركسية** ، **الماركسية-اللينينية.** أنها ، نوعاً ما ، كل الماركسية مطبقة على« عصرنا » و « وثورتنا » . واذا كانت اللينينية هي ماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، واذا كانت اللينينية هي نظرية الثورة الاشتراكية العالمية ، فإن هذا الفصل الأول في برنامج الرفاق اللبنانيين هو **لينينيتهم** ، ونقدنا للفصل الأول هو **لينينيتنا** . والمسافة بين اللينينيين كبيرة . وللقارىء ان يحكم على المفهومين . وعلى واضعي البرنامج ان يدخلوا في الحوار ، وان يردوا على التفنيد بالتفنيد .

وتسهيلاً لعملهم ، نقدم آراءنا وانتقاداتنا في خلاصة تكميلية :

١ – ان ثورة أوكتوبر هي في ديناميكيتها تحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية ، في عصر الامبريالية والحرب الامبريالية العالميـــة . واللينينية ، ماركسية عصر الامبريالية والثورة العالمية ، هي بنت روسيا البروليتاريـــة والمتخلفة .

٢ – لقد فتح اوكتوبر الروسي الثورة الاشتراكية العالمية ، التي انتصرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، في الصين وكوريا الشمالية والبانيا ويوغسلافيـــا وبلغاريا ورومانيا وبولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والمـانيا الشرقية وفيتنام الشمالية وكوبا .

٣ – لم تنتصر الثوره الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الصناعية المتقدمة . ولا يزال أكثر هذه البلدان حتى هذه اللحظة بـــدون حزب بروليتاري ثوري جماهيري، رغم كون « الطبقة العاملة » تشكل فيها أكثرية السكان .

٤ – ان كل سير الثورة الاشتراكية خلال نصف القرن الأخير يثبت بشكل حادّ أن الثورة الاشتراكية البروليتارية هي تحول الثورة الديمقراطية القومية إلى ثورة اشتراكية ، في عصر الامبريالية والفاشستية والصهيونية ....

لم تحدث أي ثورة اشتراكية خارج اطار ديناميكية التحول المذكوة . ولا نرى ان هذه الحالة يمكن ان تتبدل في مستقبل قريب .

٥ – هذه الحقيقة لم تهبط من فلسفة ما متعالية transcendante حتى وإن اتخذت شكل فلسفة « بنيانية » عقدية « ديالكتية » ، ولكنها نبتت وتنبت من أرض الواقع التاريخي المادي والبشري . ان « حالة » اجتماع الثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية والدفاع القومي الخ تخلق القاعدة الشعبية الواسعة للعملية الثورية . وسير هذه الديناميكية يتوقف على الجماهير .

٦ – هذه الحقيقة التي تتثبت على نحو كامل في نصف القرن الأخير ، تجـد بذورها في سير أحـداث وتطورات القرن الماضي . والماركسية هي أولاً بنت المانيا المتخلفة . وفكرة « الثورة الدائمة » تنشأ مع نشوء الماركسية وكجزء لا يتجزأ منها . واللينينية تطبـق الماركسية على روسيا المتخلفة ، وتطورها ، فتقتح لها أبواب الشرق والعالم . ان الخطوط الأساسية في اللينينية هي : تحليل الامبريالية ، وتناقضاتها ، تفاوت النمو الاقتصادي والسياسي ، الانقسام في حركة العمال ، المسألة الفلاحية ، المسألة القومية والكولونيالية ، نظريـة الوعي البروليتاري والحزب البروليتاري ، ديناميكية الثورة الدائمة العالمية ، قضايا الستراتيجية والتاكتيك . وتطور اللينينية بعد لينين يتوقف على تطوير هذه المحاور كلها .

٧ – الامبريالية –الركن الأول في اللينينية– تظهر اليوم في أشكال متعددة، من أهمها تدهور حدود التبادل في السوق العالمية الرأسمالية وآلية تعميق تجزئـة العالم المتخلف باعتبارها وسيلة حيوية لإدامة التبعية والاستغلال . وهكذا ، فإن المسألة القومية ليست اليوم – بل ولم تكن في زمن لينين وعند لينين – مسألة من مسائل الثورة الديمقراطية وقضية من قضايا « العصر السابق » المتروكة للعصر الجديد ، وحسب ، بل هي فوق ذلك ترتبط مباشرة بالعصر الجديد وبالثورة البروليتارية الاشتراكية المناهضة للامبريالية .

ان سير الأحداث والنكسات الأخيرة (ولا سيا النكسات العربية) يبين ان

الامبريالية بزعامة الولايات المتحدة (ومخابراتها وايديولوجيتها) تعي الحقائق اللينينية الآنفة أكثر بكثير مما يعيها واضعو البرنامج الشيوعي اللبناني ، وأيضاً وبالأحرى أكثر مما تعيها شراذم اليسار العربي المنادي بالماركسية - اللينينية أو بـ « الاشتراكية العلمية » غير الماركسية .

كيف تجري الأمور في برنامج الرفاق اللبنانيين ؟

١ - ان الرفاق اللبنانيين لا يرون هذه الحقائق . وهم غالباً ، لا يرونها أبداً : في نظرهم « المنظومة الاشتراكية العالمية » هي وليدة « الطبقة العاملة العالمية » عامة وحسب . وهناك أيضاً ، «حركة التحرر الوطني » . وفي بعض بلدان هذه الحركة ، وصلت إلى القيادة والحكم عناصر وطنية من الضباط والمثقفين . أنهم لا يرون اذن ان **المنظومة** الاشتراكية العالمية هي ، حتى الآن ، وليدة **حركة العمال الثورية في البلدان المتخلفة والمستعمرة والتابعة** (روسيا ثم الصين ، كوريا وفيتنام ، سلسلة من بلدان أوروبا الشرقية) ، على أساس **الثورة الديمقراطية** والشيء المدعو « **حركة التحرر الوطني** » . وهذه الرؤية واللارؤية هي « مفهومهم العلمي والطبقي » بل و « التاريخي » ! ولو كانت تلك رؤية شيوعيي الصين ويوغوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا وروسيا ، لما قامت أية ثورة اشتراكية بروليتارية حتى الآن ، ولكنا حتى الآن في انتظار « الطبقة العاملة العالمية » عامة ، والطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة تحديداً ! لكانت روسيا تحوّلت ، مع بعض الحظ ، إلى مجتمع برجوازي عصري يشارك في وليمة الامبريالية ، أو بشكل أقرب إلى المعقول ، إلى بلد متخلف من بلدان « العالم الثالث » .

٢ - ان الرفاق اللبنانيين يُكثرون من ألفاظ « العالم » و « العالمي » و « التاريخ » و « التاريخي » و « الطبقي » و « العلمي » . ولكن « عالمهم » ليس سوى توسيع لقطر تجريدي وهمي ، وتعميم لـ « نموذج » قطري برجوازي لا وجود له في العالم الواقعي . و « تاريخُ » هُم ليس سوى تفتح « ديناميكية » هذا النموذج المثالي ، وانبساط لِ « قانون » « جوهري » ليس له علاقة حقيقية بعالم

الظاهرات الظاهرية. و « الطبقة العاملة » أقنوم اقتصادي اجتماعي لا « ينزل » إلى مستوى واقع سياسي. والطبقات الأخرى المجاورة (« الفئات الفلاحية والبرجوازية الصغيرة) تظهر بالدرجة الأولى كمصدر تلوّث وعامل انحراف عن الدرب الأمثل.

٣ – هذا « المفهوم العلمي الطبقي » يقود الرفاق اللبنانيين إلى سلسلة من الأخطاء والنقائص :

في ثورة أوكتوبر و « المنظومة الاشتراكية العالمية » ، تجاهلوا تماماً مكان ولادة الوليد وكيفية الولادة والنمو . تجاهلوا آلية الثورة الروسية ، وتجاهلوا آلية وأسماء الثورات الاشتراكية اللاحقة .

في « الأزمة العامة للرأسمالية » ، لم يروا ان الدول الرأسمالية المتطورة هي في المرحلة الثانية من عهد الأزمة (بعد ١٩٤٥) أفضل ، اقتصادياً ، مما كانت في المرحلة الأولى (١٩١٨ – ١٩٣٩) ، وفشلوا في تمييز الوجه السياسي والوجه الاقتصاد للأمور .

في « الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية المتطورة » ، احجموا عن تقديم صورة حقيقية لاوضاع الطبقة العاملة وحركة العمال في هذه البلدان (الولايات المتحدة ، بريطانيا ، المانيا الغربية ، فرنسا ، ايطاليا ، الخ) .

« حركة التحرر الوطني » تبقى لفترة طويلة حركة التحرر الوطني ، و « تحولها النوعي » يبدأ منذ برهة قصيرة في ظاهرة صعود عناصر من البرجوازية الصغيرة الى القيادة والحكم في بعض البلدان . ليس هناك ، على ما يبدو « حركة تحرر وطني » في صين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ . ولكن هناك « حركة تحرر وطني » في هند ١٩٧٠ . وبالطبع ليس هناك « حركة تحرر وطني » في يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا المنكوبة بالاحتلال الالماني النازي . وهذا يجري تحت لواء موضوعة لينينية تقول **العكس** .

هذه النقائص والاخطاء والتناقضات تشكل منظومة فكرية ، كاملة ، ومنسجمة ، قوامها « ماركسية » دارجة « طبقية (!؟) » « عمالية » « اقتصادية » ! هذه الماركسية دون ماركسية كساوتسكي وبليخانوف ، وعلاقتها واهية

بماركسية ماركس ولينين . واللجوء ، في لحظة أخيرة ، الى لينين وموضوعته ، و « الانفتاح » النظري على « حركة التحرر الوطني » المتحولة ، لا يغيّران من واقع هذه «الماركسية» المشوّهة ، بل يكشفان حقيقتها على نحو جديد ومشدّد. اللينينية كتعاليم وكمنهج تبقى خارج منظور الرفاق اللبنانيين ومشاغلهم .

هذا ما نقوله بصدد الفصل الأول من برنامج الحزب الشيوعي اللبناني . وهو في نظرنا أسوأ فصول البرنامج ان تلمّس الرفاق اللبنانيين لقضايا حركة التحرر العربية ، وقضايا لبنان ، أفضل بشكل مرموق من تلمّسهم لقضايا العالم .

وبسبب هذه الأفضلية المرموقة ، ندخل معهم في هذا الحوار الطويل . في رأينا الشيء الأهم والأكثر إلحاحاً أن يتخذ الماركسيون مواقف سليمة من القضايا القومية والقطرية ! ما هي الرابطة التي يمكن أن تربطنا بأناس يشاطروننا بعض الأفكار « العامة » و « العالمية » اذا كان هؤلاء الناس يسيرون في خط معارض ومعاد لخطّنا في القضايا العربية الراهنة ؟ هكذا تتحول الايديولوجيا العلمية الى ايديولوجيا ايديولوجية مثالية وزائفة !

ولا نشك في أن التطور الكبير الحاصل في منظورات الحزب الشيوعي اللبناني العربية والقطرية ، وهو التطور الذي يظهر جلياً واضحاً في تقرير اللجنة المركزية وفي الفصل الثاني والفصول التالية من برنامج الحزب ، يفتح الطريق لتطور موازٍ على صعيد فهم « العالم » ، أي على صعيد النظرية الماركسية — اللينينية كلها .

وبالمقابل ، فان التطور الكبير الحاصل في المضمارين العربي واللبناني يبقى مهدداً بالانتكاس والتبخّر ما لم يستند على أرض الفهم الماركسي — اللينيني الصحيح .

ان الوضع الفكري والسياسي الحالي للرفاق اللبنانيين هو وضع توازن تناقضي تعارضي ، عابر ، بين الجوانب الايجابية والجوانب السلبية ، وبشكل خاص بين الجوانب الايجابية الجديدة النامية في مواقفهم العربية واللبنانية والجوانب السلبية الهرمة البالية في مواقفهم النظرية العامة .

وفي دراستنا المستفيضة **للفصل الاول** ، أردنا أن نزن بثقل لينين ونصوص لينين ، ضد الجوانب السلبية . ومرة أخرى : يَتَبَيَّن أن لا غنى لنا اليوم عن النصوص و « حرب النصوص » . ذلك لأننا جهلة متخلفون وبرابرة ومساكين . حتى نصوص لينين الأساسية وعدد من نصوص ماركس الكلاسيكية يجهلها رفاقنا اللبنانيون ، وكنا نجهل معظمها قبل عشر سنوات .

ان دراستنا للفصل الثاني ستكون أقصر .

الفصل الثاني

حركة التحرّر العربيّة

الفصل الثاني من برنامج الحزب الشيوعي اللبناني أفضل بكثير من الفصل الأول . ان الرفاق اللبنانيين يقدمون لنا في عشرين صفحة عرضاً جيـداً عن حركة التحرر العربية : سماتها وتطورهـا ، الانظمة التقدمية العربية ، قضية الوحدة العربية ، قضية فلسطين ، وضرورة وحدة القوى الثورية العربية ، إلى جانب عدد من الاخطاء والنقائص والعيوب. ان الخط العام لهذا الفصل بحسناته (وعيوبه) يذكرنا بالخط العام للتقرير السياسي الصادر عن المؤتمر ذاته (المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني) : انه تحول كبير ، وانقلاب ، وثورة ، واسعة المدى ، بالمقارنة مع الخط التقليدي الذي سار عليه الحزب قبل خمس أو عشر سنوات أو عشرين وثلاثين سنة .

ومعنى ذلك ان هناك في البرنامج تناقضاً جوهرياً بين الفصل الأول والفصل الثاني، بين الفهم الماركسي للوضع العالمي والتطور العالمي والثورة العالمية ، والفهم الماركسي للوضع العربي والثورة العربية . وأن يسير الرفاق اللبنانيون اليوم

في اتجاه الصواب من خلال تجربتهم العربية، تحت وطأة تعارض التجربة العربية وأفكارهم العربية ، وان يتقدموا أولا نحو الصواب العربي تحت أثر هذه الصدمة بين الممارسة العربية ونظريتهم العربية ، قبل أن يحققوا تقدماً جدّياً في فهمهم الماركسي « العام » ليس بحد ذاته عيباً ، ويمكن أن يكون مزية كبيرة . حتى يكملوا الطريق نحو الحقيقة الماركسية كلها ، يكفي ان يتقدموا أكثر في فهم الحقيقة العربية ذاتها ، وان يفتحوا أعينهم قليلاً على العالم الكبير - شرقاً وغربا وشمالا ، وان يدرسوا لينين. هذا الوضع الحاضر لأفكار الشيوعيين اللبنانيين - هذا التوازن الوقتي الانتقالي بين اتجاه صائب واتجاه خاطىء - هو نقيض الوضع الحاضر للماركسية المحدثة لشبان اليسار بين الخليج والمحيط . هؤلاء « يعرفون » كثيراً من الحقائق « العامّة » ، من الصيغ « العــــامة » ، يرفضون المنظورات البرجوازية والبرلمانية ، يعيشون تحت جناح « الماركسية اليسارية » ، يمجدون الصين وفيتنام وكوبا ، يؤكدون مبدأ « التجاوز » ، يؤكدون ان البرجوازية الصغيرة ستسقط ، يكررون بعض التحليلات العالمية عن الامبريالية والتخلف ، وعن « منطقة العواصف الثورية » ... ولكن ما داموا عاجزين جوهرياً عن فهم التجربة العربية الخاصة ، فإن هذا « العلم » كله لا يساري شيئاً ، وهـــو يتحـّول فوراً وعيانياً إلى علم لفظي ، فيه يختلط الصواب والخطأ، ويموّه الصواب الخطأ ، وتتحول البديهيات إلى بديهيات كاذبة ، ويَحُول دون النشوء التــاريخي للحزب البروليتاري العربي الماركسي اللينيني الشعبي الجماهيري ، في الوقت الذي تصبح فيه الماركسية العقيدة السائدة (لفظياً) في الساحة التقدمية العربية ، العقيدة الرسمية المعلنة لمئة تنظيم وحزب وجماعة وجناح ، بين الخليج والمحيط .

سندرس هذا الفصل الثاني ، فقرة فقرة .

١ - « السمات الرئيسية لحركة التحرر الوطني للشعوب العربية »

الفقرة الأولى وعنوانها « السمات الرئيسية لحركة التحرر الوطني للشعوب

العربية » تقول :

« ان حصول أكثرية البلدان العربية على استقلالها السياسي اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدهـــا كان انتصاراً كبيراً لحركة التحرر العربية . الا ان تسلم تحالف الاقطاع والفئات العليا من البرجوازية ، المرتبطة مصلحياً بالرأسمالية العالمية ، السلطة السياسية وسيطرته على جهـــاز الدولة ، وتوجيهــــه في الطريق الذي يخدم مصالحها ، منع تحرير اقتصاد هـــذه البـــلدان من التبعية للأمبريالية ، فبقيت بمجملهـــا جزءاً من الاقتصاد الامـــبريالي ، وبقيت العلاقات الاقطاعية وشبه الاقطاعية سائدة فيها . وقد أدّى ذلك إلى إعاقة تطورها ومنعها من الخروج من حالة التخلف التي أورثتها اياها السيطرة العثمانية الاقطاعية خلال مئات السنين ثم السيطرة الاستعمارية . ودفـع هذا الوضع الجماهير التي خاضت معركة الاستقلال الى مواصلة النضال وتعميقه . وقد تجسد نضالها في مقاومة المشاريع الاستعمارية والمعاهدات والأحلاف العسكرية وفي معارضتها الاتفاقات الاقتصادية المجحفة ، وفي اصرارها على تقليص مواقع الرأسمـال الاحتكاري الاجنبي واسترداد الثروات الوطنية وتحقيق الاصلاح الزراعي .

والجماهير الشعبية التي اصطدمت خلال هذه النضالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بتحالف الاقطاع والفئات العليا من البرجوازية ، اصطدمت وتصطدم بهؤلاء الأعداء أنفسهم وهي تناضل في سبيل قضاياها القومية الكبرى . وقد جاء تآمر الاستعمار والتحالف الرجعي على هذه القضايا ليكرس القطيعـــة النهائية والتامة بين الجبهتين وليعطي لنضال الجماهير العربية محتوى اجتماعيـاً جديداً وطابعاً جذرياً .

وفي هذه الظروف ، وفي الوضع العالمي الراهن ، انتفت عملياً الامكانية امام البرجوازية العربية ، برغم وجود تناقضات بين مصالحها ومصالح الاحتكارات الأجنبية ، للاستقلال عن الاحتكارات العالمية وانشاء دول برجوازية مستقلة اقتصادياً عن سيطرة هذه الاحتكارات . وقد أدى ذلك الى فضح البرجوازية

وعزل فئاتها العليا وكذلك الاقطاعية وافلاس أحزابها ، مما فتح مرحلة جديدة أعلى في تطور حركة التحرر الوطني العربية ، وفجر إمكانيات كبرى وبدايات هامة لعمليّة ثورية متكاملة .

ويغتني مضمون هذه الحركة ويتحدّد محتواها الجديد المعادي للامبريالية والرأسمالية معاً ، باستنادها أساساً من الناحية الاجتماعية على الطبقات والفئات ذات المصلحة بتطورها واستمرارها ، أي على جماهير العمال والفلاحين والفئات الوسطى وفئات المثقفين الثوريين » (ص ٢١ – ٢٢) .

لقد حرصنا على أخذ هذه الفقرة بنصها الكامل . ان الحزب الشيوعي اللبناني يتخلى نهائياً عن المنظور البرجوازي السابق، يقطع الصلة مع أسطورة الطريق الرأسمالي الوطني للتطور : « البرجوازية العربية ، برغم وجود تناقضات بين مصالحها ومصالح الاحتكارات الأجنبية ، لا تستطيع « الاستقلال عن الاحتكارات العالمية وانشاء دول مستقله اقتصادياً » . لقد انفضحت أو أفلست احزابها .

في ١٩٥٦ أو ١٩٥٨ أو ١٩٦١ أو ١٩٦٣ ، كان أقل من هذا الكلام يُعتَبَر هرطقة منافية « للمفهوم العلمي الطبقي » . والجدير بالملاحظة ان المنظور الرأسمالي الوطني كان في تلك الحقبة السابقة أحد مستندات الحملة على وحدة ١٩٥٨ عند شيوعيي سوريا ولبنان والعراق وسواهم . ان مقالات عزيز الحاج الصادرة في ١٩٥٨ و ١٩٥٩ تعرض ذلك المنظور بوضوح ساطع، تسوّغه. بالنسبة لها ، ان التاريخ الحاضر للعراق ولكل قطر عربي يكرر التاريخ الماضي لفرنسا والمجتمعات الأوروبية : كل المجتمعات تمرّ ، يجب أن تمرّ ، بـ « مرحلة » المجتمع البرجوازي الديمقراطي الخ (والاصلاح الزراعي : نعَمْ ، التأميم : لا !.) . وفي الوقت نفسه ، العراق والبلدان العربية تكرر الطريق الصيني (!) ... الطبقة العاملة (وحزبها) هي القائدة . — لأي شيء ؟ لهذه الثورة البرجوازية الرأسمالية الوطنية المسماة وطنية ديمقراطية وحركة تحرر وطني ! وهنا استحالة، استحالة توفيق بين نقيضين واستحالة على طول الخط . خطأ + خطأ لا يساوي

صواباً. استراتيجية يمينية + تاكتيك « يساري » مثالي ذاتي واهم ليس لينينية، بل عكسها .

واليوم ، ينبذ نقولا شاوي وعزيز الحاج وخالد بكداش وسلسلة طويلة من الأسماء منظورهم السابق ، نهائياً . وهذا تقدّم . وتقدّم جدّي عند نقولا شاوي ورفاقه اللبنانيين . انهم اكتشفوا فعلاً المرتكزات الواقعية الموضوعية لنظرية التحول اللينينية في واقع النضال العربي ، الوطني والاجتماعي : الاستعمار والامبريالية ، الحركة الوطنية وظفرها بالاستقلال السياسي ، اصطدامها بالسيطرة الاقتصادية الامبريالية وبتحالف الاقطاعية والرأسمالية ،تقدّمها ونموها وتحولها ، على اساس الجماهير العمالية والفلاحية والبرجوازية الصغيرة : اصلاح زراعي ، تأميم الرأسمال الاجنبي والرأسمال الوطني الكبير الخ . وهذا السير ، هذه العمليّة processus تتضمن كحلقة رئيسية محورية حاسمة سقوط البرجوازية ، انكشاف عجزها وتخلفها وحدودها التاريخية وارتباطاتها الواقعية ونواياها واهدافها ، انفضاح طبيعتها .

والرفاق اللبنانيون يصيبون كبد الحقيقة حين يرسون هذا النمو – التحول على هذه القاعدة التاريخية الواقعية : الامبريالية والمسألة القومية والبنى الاقطاعية والتخلفية وحاجات التقدم – أي بعيداً عن « الثورة الدائمة » لبارفوس وتروتسكي في ١٩٠٥ حيث التحول يرتكز على ميزان القوى الطبقية في الساحة الروسية (قوة البروليتاريا ، حدود البرجوازية وضعفها ، ضعف البرجوازية الصغيرة – بخلاف الثورات البرجوازية الماضية في الغرب ، ١٧٨٩ ، ١٨٤٨ – وكنتيجة : دكتاتورية البروليتاريا كهدف مباشر فوري وكبداية جوهرية – للثورة الديمقراطية) . ويفهم القارىء لماذا نفضل هذا الموقف للرفاق اللبنانيين على مواقف الماركسية « اليسارية » المستحدثة التي تفكر بمفردات (نعَمْ : بمفردات !) « الطبقات » واصلة دون جهد إلى قيادتها « البروليتارية » ! ان منطق الرفاق اللبنانيين يتفق مع تحليلاتنا السابقة والمعروفة (مثلاً : كتابنا : « موضوعات إلى مؤتمر اشتراكي عربي » ، أو « الماركسية في عصرنا ») . وهو

المنطق العلمي الطبقي الصحيح .

إن ديناميكية الثورة الدائمة العربية لا تنبع من قـــوة « الطبقة العاملة » وضعف البرجوازية ، وضعف البرجوازية الصغيرة ، في الدراما التي تلعبها هـذه الاطراف العربية الثلاث ، بل هي تنبع بالدرجة الأولى من دراما اخرى ، عالمية ، تاريخية ، قومية . الامبريالية والاستعمار ووجوب نزع الاستعمار واقتلاع بني التخلف والقضاء إلى النهاية ليس فقط على وجود الامبريالية داخل الاقطار بل على وجودها العالمي فوق الاقطار وفي جملة هذا الوجود التجزئة العربية الخ . وأحد فصول هذه الدارما التاريخية الهائلة والتي تتضمن صراع القوى في الساحة المحلية العربية هو سقوط البرجوازية العربية .

مرة أخرى ، الرفاق اللبنانيون محقون ١٠٠٪ اذ يرسون المسألة — مسألة النمو والتحول – على ما يسمونه ونسميه حركة التحرر الوطني العربية . غـير أننا نطالبهم بأن يرسوها ، بالاضافة إلى ذلك وفي ضوء ذلك ، على المفهـــوم الماركسي — اللينيني للثورة ذاته ككل ، وأن يعطوا تحليلهم (وتحليلنا) قيمة القانون: عدم وجود ثورة اشتراكية خارج اجتماع الثورتين الديمقراطية والاشتراكية ، عدم وجود ثورة اجتماعية خالصة ، تجربة الثورة العالمية خلال قرن وربع ، تحليل لينين للامبريالية ، تعريفه للثورة الاشتراكية الخ ، تجربة الصين وأوروبا الشرقية . بل نطالبهم أيضاً بأن يرسوا القضية على المفهوم الماركسي **للتاريخ** ذاته وككل ، المفهوم الماركسي المادي التاريخي ، الذي ليس مفهوماً « اقتصادياً » ، في ضوء ملاحظات ماركس وانجلز ضد التلاميذ الدوغمائيين المذهبيين ، وفي ضوء نضالات لينين الفكرية ، وتعديله الأخير « للكتاب التعليمي الصادر حسب كاوتسكي » .

ويفهمنا الرفاق اللبنانيون حين يلقون معنا نظرة على موضوع « **الطبقـــة البرجوازية عبر التاريخ** » . **فرنسا** وبرجوازيتها شيء . **المانيا** وبرجوازيتها شيء ثان . **روسيا** وبرجوازيتها شيء ثالث . **الشرق** المستعمر وبرجوازيته شيء رابع . الشرق **العربي** وبرجوازيته من هذا الشيء الرابع ، أحد اشكاله ، شكله العربي .

البرجوازية الفرنسية تقود **الأمة** الفرنسية ضد الاقطاعية والعصور الوسطى

والكنيسة الخ ، خلال قرون ، وتتوّج هذا النضال في ثورة ١٧٨٩ التي تقتلـع اوضاع الاقطاعية والاستبداد الملكي من جذورها وتختم حركة الوحدة القومية التاريخية . خلال قرون (نهاية العصر الوسيط والازمنة الحـــديثة) ، فرنسا بلد من غربي اوروبا ، متقدم برجوازي – صاعد فعلاً وبقوة ، كثير السكان ، موحّد جوهرياً ، في المملكة الاقطاعية ، ومستعمر . إنه في الطليعة ، جنباً إلى جنب مع انكلترة وهولندة . البرجوازية قبل ان تصبح قائدة ١٧٨٩ ومجتمع القرن التاسع عشر ، كانت قائدة حركة برجوازية صاعدة عمرها عدة قرون . انها نوعاً ما تنشيء الأمة ، اقتصادها ، دولتها ، ثقـافتها ، ايديولوجيتهـــا . البرجوازية الغربية (الفرنسية والانكليزية ، وما حولها : هولندة ، ثم الولايات المتحدة ، وبدرجة أقل في الأمم المجاورة) هي صاحبـة طور تاريخي كامل ، يسمى باسمها الطور البرجوازي وهو طور عالمي . وهـذا هو نوعـــاً ما مادة النظرية الماركسية (المفهوم الماركسي للتاريخ ، تحليل الرأسمالية والمجتمـــع البرجوازي ، وصراع طبقتيه ...) . هـــذا هو ان صح التعبير ، النموذج الماركسي الكلاسيكي (الكلاسيكي في كل المجالات والمستويات: المجتمع، الاقتصاد، المسألة القومية) . ولكن « العالم » ليس النموذج . هناك نماذج أخرى للمجتمع، للبرجوازية ، لطريق الرأسمالية ، للأمة والمسألة القومية الخ . وعالميـة الطور البرجوازي تعني بالضبط -ماركسياً وبالأحرى لينينيا- ان العـالم ليس نموذجه، وان العالم « البرجوازي » الكبير الذي خلقته البرجوازية ، ليس فرنسا (أو انكلترا) المتقدمة المسيطرة المستعمرة الديمقراطية المثقفة المتمدنة الخ .

الاختلاف يبدأ من ألمانيا . ويتواصل ويشتد كل ما ذهبنا شرقاً وجنوباً .

المانيا ، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا وانكلترة وهولندة تصعد صعودها البرجوازي القومي التقدمي التوسعي ، المانيا مجزأة في مئات الدول ، مبعثرة ، مشطورة إلى شمال وجنوب وإلى لوثرية وكاثوليكية ، بعيدة في أكثرهـــا عن النشاط التجاري العالمي ، وعن النهوض المانيفكتوري ، قليـلة السكان بالمقارنة مع فرنسا ، مستباحة من قبل الأجانب (السويد، بولونيا ، فرنسا، وأخـــيراً

روسيا) تنوء بعبء القنانة والبلاطات المئات وسماسرة الأجنبي ، بعيدة عن حركة التاريخ الاجتماعي (رغم مشاركتها الفكرية الثمينة : الماركسية)، كانت آخر مآثرها في هذا المضمار حرب الفلاحين في القرن السادس عشر . على هذه القاعدة التاريخية ، البرجوازية الألمانية في ١٨٠٧ و١٨٤٨ متأخرة عن البرجوازية الفرنسية في ١٧٨٩ ، لا تقود نضالاً ثورياً ضد الاقطاعية . والثورة البرجوازية الألمانية تتحقق تدريجياً بالطريق البسماركي [1] ، وأهم حلقات هذا التحول الطويل وحدة ١٨٦٦ و١٨٧٠ . وفي النهاية ، المانيا تصبح من حيث الجوهر مجتمعاً قومياً بورجوازياً رغم النقائص ، وتصبح في ١٩١٣ أرقى أمم أوروبا من حيث درجة التطور الرأسمالي .

والبرجوازية الروسية في ١٩١٣ متأخرة عن البرجوازية المانية في ١٨٤٨ . البرجوازية الليبرالية ضيقة ، مقطوعة من جهتين ، من جهة الرأسمالية الأجنبية ومن جهة الاقطاعية الروسية (ملكية الأرض الكبيرة) . على يمين حزب الكاديت ، ممثل البرجوازية الليبرالية ، حزب الاوكتوبريين ، ممثل فئة كبار ملاكي الارض الذين انتقلوا إلى الأسلوب الرأسمالي الحديث وإلى الصناعة الرأسمالية الضخمة . لينين يميز الطريق الفرنسي — الثوري ، الجذري — للتحول البرجوازي والطريق البروسي النمساوي ، يميز الرأسمال الديمقراطي والرأسمال «الاوكتوبري» ، يكافح من أجل الطريق الفرنسي في شكل جديد ، بقيادة البروليتاريا وحزبها ، وفي ١٩١٧ يحول الثورة الديمقراطية إلى ثورة اشتراكية . لقد انتصرت الرأسمالية في روسيا منذ أواخر القرن التاسع عشر بأشكال وسبل متنوعة وملتوية . ولكن روسيا لم تصبح مجتمعاً برجوازياً من النمط الفرنسي أو الانكليزي أو الألماني . وفي غضون ثمانية أشهر ، انتقلت من حكم نقولا الثاني إلى حكم لينين . وستوليبين

---

(١) وقراءة رسائل ماركس وانجلز لعامي ١٨٦٦ و١٨٧٠ حول المانيا وبسمارك والبرجوازية ، تبين ان الطريق الالماني هو déja « انحراف » عن « الخط العام » الذي ليس سوى خط التطور السابق للجارات التي تقع غرب المانيا .

لم يكن بسمارك روسيا بل شبه بسمارك quasi - Bismarck ! روسيا ليست المانيا.

آسيا وأفريقيا، في العصور الحديثة، في طور الرأسمالية العالمية الصاعدة، تنتقل من أوضاعها التاريخية الخاصة، من أوضاع الركود والحضارة العريقة، والانحطاط الشرقي إلى تحت سلطة الاستعمار وهذه الرأسمالية العالميـة، تخضع خصوصاً في القرن التاسع عشر، وبالأخص في زمن الامبرياليـة، لتحولات كولونيالية عميقة. التشكيلات المشاعية، البطريكية، «الآسيوية»، شبه الاقطاعية، تدمّر أو تُخضع. هذه المجتمعات لم تأت إلى الرأسمالية بتطـور «ذاتي» الا بشكل محدود جداً، الرأسمالية أتت اليها من الخارج غازية مقتحمة متسلطة، بالسلع والأفيون والمدافع والرساميل مجتمعات الشرق في القرن العشرين مجتمعات كولونيالية ونصف كولونيالية ونصف اقطاعية (العصر الرأسمالي العالمي والامبريالي لا يضرب الاقطاعية المحلية، بل كثيراً ما ينشئها، يحـول المستبدين المحليين وشيوخ العشائر الى اقطاعيين في الهند والعراق وسوريا الخ). التطور البرجوازي الصاعد الحاصل بالتأكيد خلال عشرات السنين يختلف تماماً عن شقيقه الروسي بله الالماني والفرنسي. يصل إلى نهايات مسدودة، سبـله المتنوعة لا تذهب في الاتجاه المنشود – مثلاً: الصناعية الثقيلة، الاصـلاح الزراعي، الوحدة القومية.. وهي تذهب غالباً في عكس هذا الاتجاه. والسعي وراء انشاء المجتمع البرجوازي القومي العصري العلمي الديمقراطي الصناعي المستقل الموّحد الخ، ينكشف بسرعة عن كونه وهماً وخرافة. البرجوازية الوطنية الليبرالية تكاد تكون لا شيء: إنها عاجزة عن تحقيق المهمات البرجوازية التاريخية الكبرى – الاستقلال الكامل، الديمقراطية السياسية والاقتصادية، الوحدة القومية، العلمانية الخ. ان محور الطور «السابق» (والذي يتواصل الآن أيضاً) ليس التحويل البرجوازي (على النمط الأوروبي الغربي) لمجتمعات الشرق بل تحويلها الكولونيالي الاستعماري في ظل الرأسمالية العالمية ومحورُ الطور الحاضر (والذي بدأ منذ عقود) ليس التحويل البرجوازي (على النمط الاوروبي الغربي) لهذه المجتمعات بل نزع الاستعمار décolonisation وصدّ التغلغل الامبريالي وملاحقة السيطرة الامبريالية إلى النهائية. التحول البرجوازي الأكيد في كلا الطورين «مأخوذ»

في كل طور تحت جناح المحور المذكور . والبروليتاريا الواعية (أي = الحزب) تأخذ على عاتقها المهمات التاريخية - بما فيها التحولات « البرجوازية » التقدمية (ذات القيمة الكونية) ولكن في شكل جديد - وتضعها في اتجاه الاشتراكية، والثورة الاشتراكية العالمية ، باعتبار أنه بدون هذا المنظور التاريخي يستحيل تحقيق المهمات المذكورة ، وباعتبار ان الاشتراكية هي هدف البشرية جمعاء ، وعلى أساس ان الاشتراكية العالمية تتولد من الرأسمالية العالمية . بتعبير آخر : النضال ضد الامبريالية ، ضد السيطرة الأجنبية ، ومن أجل المهمات التقليدية « القديمة » ، يبقى على طول الخط قاعدة العملية ، قاعدة السير التاريخي والنضال الشعبي العريض وسقوط البرجوازية نتاج أدنى لهذا السير ، حتمي لا مفر منه .

واذا قصرنا نظرنا على التجربة العربية ، وجب علينا القول : هذه البرجوازية العربية لا تنجب لا كرمويل وجورج واشنطن ولا ميرابو وروبسبيير ولا حتى سبتوليبين . تحكم سوريا المستقلة خلال ثلاثة عشر سنة (١٩٤٥ - ١٩٥٨) ولا تفكّر بأدنى اصلاح زراعي ، بأدنى تغيير في العلاقات الزراعية البطريكية والعثمانية والفرنسية . بالعكس في عصرها ، الملكية الكبرى تتنامى على حساب الفلاح وهي اقطاعية رأسمالية ، التحول « البرجوازي » يسير قدماً ، ولكن هكذا بهذا الشكل السوري ، الذي ليس فرنسياً ولا بسماركياً ولا حتى ستوليبينياً بل تحول برجوازي اقطاعي وامبريالي. الرأسمال السوري اوكتوبري ونيف. «الكاديت » اضعف منهم في سوريا منهم في روسيا. الحكم ليس بيد البرجوازية ولا بيد الاحزاب القيصرية، الاقطاعية الرأسمالية. ولكن على كل حال بيد الطبقة الاقطاعية - الرأسمالية ، الكومبرادورية والوطنية. وهذه الطبقة (أو الطبقتان أو الثلاث طبقات) لا تتوزع سياسياً إلى حزب ليبرالي وحزب ديمقراطي راديكالي وحزب اوكتوبري رجعي ، بل إلى حزب وطني وحزب شعب وكتلة عشائر وكتلة خالد العظم . ومن يحاول ان يصنف هذه الاحزاب الاربعة بين ديمقراطية ورجعية عبر ليبرالية ، بين يسار ويمين عبر وسط ، انما يقوم بعمل عقيم ، وكل تقلبات وتشنجنات « الماركسيين »

التاكتيكية في الخمسينات تشهد على هذا العقم . ان مصر في ١٩٥٢ لا تنتقل من حكم « الاقطاعية » الى حكم « البرجوازية » ، بل من حكم فاروق والبلاط والانكليز والرأسمالية المصرفية والزراعية والصناعية والتجارية والوفد والاحزاب إلى حكم « الضباط الأحرار » . التحول « البرجوازي » السابق يتواصل وينقطع ، يحاول ان يسير في اتجاه آخر ويسير فعلاً في اتجاه آخر – جلاء ، إصلاح زراعي ،تأميم الرأسمال الأجنبي والرأسمال الوطني الكبير . . . – متخطياً المنظور البرجوازي . في الجزائر المستعمرة ، الحكم ليس بيد برجوازية عربية غير موجودة ولا اقطاعية أو شيوخ العشائر ، بل بيد الفرنسيين ، حكومتهم وجيشهم ومستوطنيهم وشركاتهم ، الحكم السياسي والعسكري والثقافي والقومي وأجود الاراضي . والجزائر المستباحة تستأنف في ١٩٥٤ الحرب الوطنية ضد الغزو ، على قاعدة تاريخية جديدة . ولا تنتقل البلاد من يد البرجوازية الاجنبية الى يد البرجوازية الوطنية أو الاقطاعية – البرجوازية العربية ، بل من يد الاجانب الى يد القيادة التي قادت الحرب القومية الطويلة ضد الامتهان الطويل . وفي كل مكان من الوطن العربي ، في عصر قيام المعسكر الاشتراكي العالمي ، وفي ظروف تخلّف وعي الحزب المنادي « بالبروليتاريا » و « بالماركسية » ، تتقدم الثورة العربية وتتخطى الاطار البرجوازي التقليدي حتى بدون القيادة البروليتارية والحزب البروليتاري . كان هذا السير محتوماً ، الامر الذي لا يلغي بل يؤكد مأثرة الذين وعوا هذه الحتمية ، أياً كانت أخطاؤهم وعيوبهم وبعدهم عن المفهوم العلمي الطبقي ، بمزدوجين أو بدونها وأياً كان قصورهم . ويتصدّى هؤلاء لمهمة الوحدة القومية خلال هذا الصراع . وتحمل الوحدة القومية الى سوريا أول تحويلات اجتماعية ، محطّمة بذلك قالباً آخر من القوالب « التقليدية » (« الاقتصادية ») في فهم الماركسيين المحليين . وتتحطم الوحدة القومية الأولى - تُحطم وتُسحق – ولكن تبقى التحولات الاجتماعية ، وتتقدم في أقطار شتى . وتجابه الثورة العربية زخم الامبريالية الصهيوني . وتبقى مسألة دور البروليتاريا العربية وإنشاء حزبها الحقيقي مسألة قائمة .

وهذا يقودنا الى الفقرة التالية في برنامج الرفاق اللبنانيين وموضوعها « الانظمة التقدمية » العربية .

ولكن قبل ذلك ، نريد أن نخلص من عرضنا السابق الى خاتمه « نظرية » ان صح التعبير .

إن ما يقوله الرفاق اللبنانيون تحت عنوان « السمات الرئيسية لحركة التحرر الوطني للشعوب العربية » يجب أن يدفعهم الى إعادة النظر في « النظرية » ذاتها، في المفهوم المادي التاريخي ، كما درجوا على فهمه :

البرجوازية خلال التاريخ طبقة ثورية ، بالغة الثورية . كما يقول ماركس وانجلز في الصفحات الاولى من « البيان الشيوعي » : ضربت الاقطاعية والاستبدادية ، ضربت العلاقات البطريكية والشاعرية ، أنشأت التجارة الحديثة ، أنشأت الصناعة الآلية ، خلقت الامم ، وهي تُحدث ثورة يومية في الانتاج، وأدواته وأساليبه . خلقت الامة ناسفة تبعثر العصر الوسيط ، وتجاوزت الامّة . خلقت وحدة العالم على أساس إخضاع أمم الغرب لأمم الشرق . . وخلقت حافر قبرها ، البروليتاريا ، انها وضعت العالم على عتبة الاشتراكية . وضعت الانسانية على عتبة تاريخها الحقيقي . خلقت آخر ، أعلى ، أرقى ، أعظم انظمة الملكية الخاصة والاستغلال الطبقي .

ولكن أية برجوازية ؟ واقعياً ! – البرجوازية الغربية وبدرجة أقل ، البرجوازية « بشكل عام » ، وبدرجة أقل **بكثير** برجوازية الشرق المخضع !

لعل « البرجوازية » العربية ، إذا أخذنا هذا المصطلح بمعنى واسع (مع التساهل والتجاوز) ، أي برجوازية التجارة والصناعة والمهن الحرة والمثقفين ، لعبت دوراً كبيراً في النضال من أجل الاستقلال السياسي (ولنقل أنها كانت قيادته) . لعلها بالمعنى الواسع لعبت دوراً كبيراً في عصر « النهضة العربية » في القرنين التاسع عشر والعشرين الذي هو أيضاً عصر السقوط الاستعماري والامبريالي ، (ولعله من الأفضل بدلاً من أن نقول : البرجوازية العربية لعبت دوراً كبيراً في النهضة ، ان نسمي هذه النهضة العظيمة فعلاً النهضة البرجوازية – ولكنها

في اواسط القرن العشرين لا تستطيع أن تذهب، في أحسن حال ، الى أبعد من الاستقلال السياسي المجرّد « العاري » (بدون اصلاح زراعي ، بدون أيـة تعديلات اجتماعية)، وهذا في هذا العصر يكاد لا يساوي شيئاً . لعله من الممكن ان نجمع الطهطاوي والافغاني والبستاني وقاسم امين والكواكبي ، والقوتلي والنحاس وبشارة الخوري ، في مقولة واحدة « برجوازية » . غير أن هـذه المقولة تتعادل في الحالة الأولى مع النهضة ، نهضة حقيقية كبيرة – « استيقاظ الشرق ، « البعث » – . ويختلف الامر في الحالة الثانية اختلافاً ناجماً عن اختلاف العصر عربياً وعالمياً . عـَملُ الاولين موجّه ضد الركود الشرقي ، ضد الانحطاط والجمود العربي العثماني الاسلامي الشرقي، وضد الاستعمار ، ومن أجل الأمة والتقدم . موقع الثانين موقع آخر ، مطامحهم محدودة . انهم مدجّنون ، متكيّفون مع « الشرق » (والاقطاعية القديمة والجديدة) ، ومع الامبريالية (وبنى التخلف ، وعلاقات وارتباطات عصر الامبريالية . الاولون مثقفون مفكرون . الثانون ملاكون كبار ورجال أعمال وقادة أحزاب وحكومات الملاكين الكبار ورجال الاعمال . الاولون عبروا عن التقدم الوحيد الممكن ، الثانون يعبرون في البداية عن تقـدم صغير ، يأخذ في التقلص ، وينقلب الى العكس .

في المفهوم المادي للتاريخ ، في نظرية المادية التاريخية والجدلية ، نقول : ان تشكيلات الأسلوب المشاعي والأسلوب الآسيوي ، واسلوب الرق ، والاسلوب الاقطاعي والاسلوب البرجوازي الحديث، هي المراحل المتعاقبة المتدرجة في تاريخ البشرية. ولكن هذا التعاقب ليس التاريخ العياني لأي مجتمع من المجتمعات أو قطر من الأقطار أو أمة من الأمم. ان تعاقب وصراع التشكيلات - المشاع ، والرق، والاقطاعي والبرجوازي الحديث – هي النموذج التجريدي العـام للتاريخ الأوروبي بداءاً من اليونان الكلاسيكية إلى العصور الحديثة عـبر الامبراطورية الرومانية والعصور الوسطى الأوروبية الغربية ، مع مراعاة ما يتضمنه هـذا النموذج من تغيُّر وانتقال في « المركز » الجغرافي للاختمارات والصراعـات

والتحولات ، ومع مراعاة ما يتضمنه هذا النموذج ذاته من « تداخـــلات » خارجية وعالمية ، في كل التحوّلات .

ان تاريخ روسيا يختلف إلى حد كبير . وتاريخ آسيا وافريقيا يختلف بشكل اكبر بكثير . « في كل مكان » او ربما في كل مكان ، عند كل امة شرقية ، نجد الرق ونجد التشكيل الاقطاعي أو شبه الاقطاعي ونجد ما يشبه مقدمـــات برجوازية . ولكننا لا نجد عند أي أمة من أمم الشرق هذا الصراع والتعاقب بين التشكيلات الذي نجده في المنظور « العام » لتاريخ « البشرية » ، أي عيانيا في التاريخ الأوروبي الغربي . والتشكيلات المتعاقبة في التاريخ الاوروبي الغربي هي في الشرق (في الهند ، في الصين ، في المشرق العربي الخ) تشكيلات «شرقية» خاصة متواجدة في أغلب الاحيان : ما يشبه الاقطاعية + رق محدود + مـا يشبه من بعيد البرجوازية + المشاعية ، في ظل دولة استبدادية صغيرة أو كبيرة « آسيوية » ، وعلى أساس حدود الاقتصادية السلعي (نظام الاكتفاء الذاتي للقرية) وأعمال الري وصرف المياه والمنشآت الاقتصادية الكبرى .

ان اول مرحلة عالمية ، كونية ، واقعياً ، في تاريخ البشرية ، هي المرحـلة البرجوازية أي الرأسمالية والاستعمار . ان عالمية المرحلة البرجوازية الرأسمالية تعني في جملة ما تعني إنقسام العالم بين مستعمِر ومستعمَر ، بين غرب وشرق . من لا وحدة البشرية – الاقتصاد ، المجتمع – الى وحدة انقسام ، إلى وحـدة لا مساواة وتناحر . وحدث هذا الانتقال ابتداء من العصور الحديثة وتقدم في القرن التاسع عشر وبلغ كل أبعاده في القرن العشرين. تلك هي عالمية الرأسمالية ، وعالمية الامبريالية ، التي تضع على صعيد النظرية حدا نهائياً للمفهوم «الاقتصادي» للتاريخ ، الذي ليس هو المفهوم المادي التاريخ .

المفهوم الاقتصادي للتاريخ يحاكم الأمور بمعـــايير التشكيل والتشكيلات الاقتصادية – الاجتماعية (صراع وتعاقب هـــذه التشكيلات ، تطور وتغيّر التشكيل الاقتصادي – الاجتماعي بالتدرج والثورة على أساس نمو أدوات وقوى الانتاج) ويكتفي بذلك . يستطيع هذا المفهوم ان يذهب إلى أبعد حد ، وان

يصل إلى فكرة تراكب تشكيلين مختلفين متواجدين (برجوازي وإقطاعي) وثورة متراكبة قوامها تحالف القطبين المستغَلين المضطهَدين في كل من التشكيلين (أي تحالف طبقة العمال وطبقة الفلاحين) تحت زعامة القطب المرتبط بالتشكيل الارقى (العمال) ، وان يمضي قدماً في التعرف على « التداخلات » ... ، دون ان يبارح ارض المفهوم ذاتها ، الأرض « الاقتصادية » ، أي دون ان ينتقل من المجتمع إلى « العالم » ، لأن « العالم » في نظره ، ليس سوى « المجتمع » أي « المجتمع الاقتصادي » مهما تقدّم في معرفة تعقيده .

المفهوم المادي للتاريخ يستند على ذلك ، يستند على القاعدة المتينة التي هي التشكيل الاجتماعي – الاقتصادي ، لكنه لا يكتفي بذلك . وعلى طول الخط يفهم ان « العالم » ليس « المجتمع » . وان الرأسمالية عالمية – عالمية بهذا المعنى . ان ماركس وانجلز ولينين بلوَروا (أو أنشأوا مفهوم التشكيل الاقتصادي – – الاجتماعي [1] ، ومفهوم الطبقة والطبقات وصراع الطبقات . ولكنهم لو لم يروا ايضاً ، « العالم » أي الاقطار ، الامم ، المجتمعات ، لكانوا ارتكبوا هفوة تشل وتقتل الثورة العلمية والعملية التي حققوها . وعلى طول الخط ، كافح ماركس وانجلز ولينين ضد التلاميذ الذين لم يفهموا ذلك . وبلغ هذا الكفاح ذروته عند لينين وبشكل متصاعد دوماً ، بين ١٨٩٩ و ١٩٠٨ و ١٩١٤ و١٩١٦ و ١٩٢١ و ١٩٢٣ ....

لقد اضطلعت البروليتاريا الروسية ، بفضل وعي لينين وحزبه ، بمهمة اكمال وتسديد الجانب الصحيح والكوني في التحويل البرجوازي الكوني (الديمقراطية ، العلم ، الصناعة ، التنظيم) وكذلك فعلت البروليتاريا الصينية بفضل وعي ماوتسي تونغ وحزبه ، مع الفارق (الأمة ، الاستعمار) ... البرجوازية في الشرق عاجزة . الخروج من الاطار البرجوازي محتوم . وفي الظرف التاريخي والسياسي العربي ، ومع عدم توفر وعي وحزب لينين وماوتسي تونغ ، وفي زمن استفحال الامبريالية وأوضاعها العالمية ، وظهور المعسكر الاشتراكي العالمي ،

---

(١) وفي هذا تابعوا عمل علماء الاقتصاد الكلاسيكيين الانكليز .

هذا الخروج بدأ في ظلّ قيادات غير ماركسية ، برجوازية ـ صغيرة .

فلننتقل الآن إلى « الأنظمة التقدمية العربية .

٢ – « الأنظمة التقدمية » العربية .

يقول برنامج الرفاق اللبنانيين :

« ان النضال العام لحركة التحرر العربية ، أدى إلى قيام أنظمة تقدمية معادية للامبريالية في بعض البلدان العربية أعلنت عن تصميمها على بناء الاشتراكية » (ص ٢٢) .

وهذا صحيح . بل يمكن القول ان هذه الأنظمة تشمل اليوم ما يقرب من ٣/٤ الوطن العربي من حيث السكان : مصر ، سوريا ، الجزائر ، العراق ، اليمن الجنوبي ، السودان ، ليبيا ، (لبنان ، الاردن ، السعودية ، الكويت ، البحرين ، تونس ، المغرب ، موريتانيا ، تضم أكثر من الربع بقليل) . وهذا واقع بالغ الأهمية على صعيد الأمة والعالم .

ويقول البرنامج :

« لقد رجحت في السلطة تأثيرات الفئات الثورية من البرجوازية الصغيرة خلال عملية تمايز طويلة اتسمت بصراعات مستترة ومكشوفة ضد البرجوازية الكبرى والاجنحة المحافظة والرجعية من البرجوازية الصغيرة والفئات الوسطى» (ص ٢٢) .

وهذا إلى حد كبير تشخيص صائب . وبصدد التمايز داخل البرجوازية الصغيرة ، نفضل أسلوب الرفاق اللبنانيين على أسلوب غيرهم . ان الرفاق اللبنانيين يجمعون الصفات « السياسية » مع الصفات « الاجتماعية » فيقولون : الفئات الثورية ، والاجنحة المحافظة والرجعية من البرجوازية الصغيرة . وهم على حق . ان آخرين « يساريين » (بالحقيقة « اقتصاديين ») يميزون فئات عليا وفئات دنيا داخل البرجوازية الصغيرة ، (ويميزون برجوازية صغيرة مدينية

وبرجوازية صغيرة ريفية يؤكدون انها أكثر انفتاحاً على البروليتاريا ، لأنها أكثر انسحاقاً . بالنسبة لهؤلاء الآخرين ، السياسة والأفكار تنبثق من الطبقات والمراتب جملة وتفصيلاً كما ينبثق الابن من الأب ، ويحصل الانبثاق داخل منظور المجتمع الطبقي ، « الاقتصادي » ، القطري ، أي على أساس تصفية موضوع الخطوط السياسية للبشر ، للافراد والاتجاهات والاحزاب[1]. الرفاق اللبنانيون يتخطون هذا المفهوم ، يفهمون ان هناك شيئاً اسمه السياسة والمواقف السياسية. وبالطبع ، ان صفات « الثورية » و « المحافظة » و « الرجعية » يجب ان تتحدد على أساس الخطوط !

ويواصل البرنامج عرضه للانظمة التقدمية العربية ، مع النقد : تدخل الجماهير ومساندتها للاجنحة الثورية ، التدابير السياسية والاقتصادية والاجتماعية ضد الاقطاع (الاصلاح الزراعي) وضد البرجوازية الكبرى (التأميمات والاصلاحات الاجتماعية) وضد مواقع الرأسمال الأجنبي (تأميم قناة السويس والبنوك والشركات الأجنبية) ، إسهام الجيش في إنجاز بعض هذه المهمات . النقد : انفراد ممثلي البرجوازية الصغيرة بالسلطة وعدم الوضوح الفكري لديهم ، الطبيعة المزدوجة للبرجوازية الصغيرة ، وتحول عناصر منهم الى فئة بروقراطية مدنية وعسكرية تتناقض مصالحها الضيقة مع مصالح وحاجات تطور المجتمع ... « لقد اعتقدت هذه القوى ان مجرد وجودها على رأس السلطة يكفي لاستخدام جهاز الدولة القديم الذي ورثته من الأنظمة السابقة » ... والحال ، « ان ضمان توجه الانظمة التقدمية نحو الاشتراكية ينطلق من حقيقة أساسية هي ان السلطة المؤهلة لقيادة عملية بناء الاشتراكية هي سلطة العمال والفلاحين وسائر الكادحين بأيديهم وأدمغتهم الذين يسترشدون بالنظرية الاشتراكية العلمية » . « وفي المرحلة الراهنة ، تقف الأنظمة التقدمية أمام منعطف ، ولم يبق من الممكن الاستمرار بعملية التحويل الاجتماعي وتعميقها ودفعها إلى الأمام ، بالوسائل القديمة

(١) كثيراً ما يكون برجوازيوهم الصغار الريفيون أكثر من برجوازيين صغار بقدر لا بأس به أو سليلي وجاهات وزعامات المجتمع الشرقي المتحولين « ايديولوجياً » في عصر الايديولوجيا.

التجريبية والتدابير الفوقية ، ان المراوحة في هذا الوضع تهـدّد مصير الانظمة التقدمية بخطر مباشر » . (ص ٢٢ - ٢٦) .

هذا بوجه الاجمال يقوله الرفاق اللبنانيون بشكل جيد ، وأحياناً ممتاز . عيبه الأول « والعام » هو نقص التحـديد والتعيين . وكأنهم يتكلمون عن بلد عربي تقدمي برجوازي صغير مجرد ليس له اسم . والحـال ان الستراتيجية الامبريالية في سياستها الآنية وفي تأثيرها العياني على «القوانين الموضوعية للتطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي » هي استراتيجية مشخصة ، تأخذ بعـين الاعتبار ان هذه الانظمة التقدمية العربية هي « عالم » من « الاقطار » العربية وسياسات أنظمتها .

وهذا العيب الاول والعام - نقص التحديد والتعيين - يظهر ويبرز في عدد من النقاط .

حين يقول الرفاق اللبنانيون « وقد ساعد في ذلك (أي في ترجيح تأثير الفئات الثورية من البرجوازية الصغيرة على الأجنحة المحافظة والرجعية) تدخّل الجماهير ومساندتها للأجنحة الثورية نتيجة لتعاظم الوعي السياسي الذي لعبت فيـه دوراً هاماً الأحزاب الشيوعية والمنظمات التقـدمية الأخرى » (ص ٢٢) ، فاننا نقول :

١ - نعم . ولكن .

٢ - خذوا بعين الاعتبار ان أكبر تدخل للجماهير في الآونة الأخيرة ، في الخمس سنوات الأخيرة ، كان تدخل الجماهير الكادحة المصرية في ٩ و١٠ حزيران ١٩٦٧ . وان عشرة صراعات أخرى داخل ساحة الأنظمة التقدمية أي داخل « البرجوازية الصغيرة » ، ظلت الجماهير غائبة عنها ، لا تتدخل . واستنتجوا شيئاً ما من هذه الحقيقة المرئية !

٣ - « المنظمات التقدمية الأخرى » صيغة غامضة الى حد ما . لا سيما وانكم تتحدثون عن الصراع داخل « البرجوازية الصغيرة » . أليست هذه « المنظمات التقدمية الأخرى » في عرفكم - هي منظمات « البرجوازية الصغيرة » الحاكمة في

« الانظمة التقدمية » ؟ تتساوقون ، تتسابون مع تقليد عمومي كلامي : « دور الأحزاب الشيوعية » ، المعدّل واقعياً بصيغة « والمنظمات التقدمية الاخرى » .

٤ – لا ريب ان اكثر الأحزاب الشيوعية في السنوات الثلاث الاخيرة - لعبت وتلعب دوراً ، هو في بعض الحالات دور هام . ليس دائماً البتة . ولا ريب انه انه لو اتخذت الاحزاب الشيوعية ، منـــذ عشر سنوات ، أو سبع سنوات أو اثنتي عشر سنه ، مواقف سياسية وفكرية صائبة مبدئياً ، صائبة صواباً أولياً ، معقولة ، مقبولة ، مفيدة ، مجدية للعبت آنذاك دوراً هاماً في الاتجاه الايجابي ، وللعبت الآن دوراً ايجابياً أكبر .

ومن الطبيعي ان نعتبر الآن بما يلي : عند الجرد الحسابي ، يتبين أنه ليس كل ما قالته الاحزاب الشيوعية في ١٩٥٨ أو ١٩٥٩ أو ١٩٦١ أو ١٩٦٣ الـــخ خاطئاً . بالعكس وربما عند الجرد الحسابي ، تكون تسعة أعشار أقوال الحزب الشيوعي السوري – اللبناني في ١٩٥٩ أو ١٩٦٢ ، صحيحة ! ومع ذلك ، ان الخط خاطىء جوهرياً مبدئياً ، كمنطلقات واتجاه . هذا ما يعرفه ويعلنه اليوم الرفاق اللبنانيون بصدق في تقريرهم السياسي. وهذا ما يتحايل عليه ويلعب به الرفاق السوريون . علينا اذن ان نعتبر بهـذه الحقيقة ، نهائياً . يمكن ان يأتي حزب من الاحزاب أو قائد من القوادبثلاث عشرة حقيقة ، وبأكذوبة واحدة ، وان تكون الاكذوبة أهم من الحقائق المئة والثلاثين . وهناك ما يقال ومـــا لا يقال ، ما يعرف أو يعلن ، وما لا يعرف أو لا يعلن أو ينسى . وهناك اجتماع سوء النية والجهل .

وحين يقول الرفاق اللبنانيون : « ان بلوغ حركة التحرر العربية هـــذه المرحلة من تطورها أخذ يقضي على الإنعزالية والانكماش اللذين حاولت فرضهما السيطرة الاستعمارية بصورة مصطنعة خلال عشرات السنين ، لاضعاف الروابط القومية بين أجزاء العـــالم العربي وتقسيم حركة التحرر العربية « (ص ٢٧) . حين يقولون هذا الكلام الصحيح كخاتمة لموضوع الانظمة التقدمية » تمهد لموضوع « الوحدة العربية » في الفصل الثاني ، فاننا نقول :

١ – نعم . ولكن .

٢ – ليس هدف الامبريالية فرض الانعزالية والانكماش وإضعاف الروابط القومية بل هو يتخطى ذلك إلى ضرب الاقطار التقدمية بعضها ببعض ، وعلى وجه التحديد ، ضرب الجمهورية العربية المتحدة ، هذا ليس تجزئة وحسب ، ولا انفصالية وحسب ، بل انفصالية متقدمة كفاحياً .

وحين يقول الرفاق اللبنانيون ان التجريبية لم تعد مقبولة وأنه يجب ان تؤخذ القوانين الموضوعية للتطور بكامل الاعتبار ، فاننا نقول :

بكامل الاعتبار ونيف ! يبقى ان القوانين الموضوعية ليست هي « المفهوم العلمي الطبقي » الذي يسير الفصل الأول . ويبقى ان بين «القوانين الموضوعية» العامة والتطور الواقعي ونتائجه ، هذا الصراع كله ، الذي نسمّيه سياسياً .

بتعبير آخر : في عرفنا القائم على سير « التطور » العربي ، نرتكب خطأ فادحاً ، حين لا نري ان هذا السير هو سير الصراع القائم بين الثورة العربية (وحركة التحرر العربية ووجود الأمة العربية ومستقبلها وبين الامبريالية والصهيونية والرجعية ، وحين لا نرى انالعالم « العربي هو فعلاً عالم عربي مؤلف من أقطار ، من أقطار ومجتمعات ودول – ، وليس فقط وَطناً عربياً أو أمة عربية أو مجتمعاً عربياً مؤلفاً من « طبقات » – ثلاث طبقات (برجوازية ، عمال ، برجوازية صغيرة) ، أو خمس طبقات (أي...+اقطاعيون ، وفلاحون) ، أو ست طبقات (+ الرأسمالية الكومبرادورية) [1] لها ثلاثة احزاب أو خمسة احزاب أو ستة أحزاب ! ان تسعة اعشار ماركسي الوطن العربي يتغافلون عن هذه الحقيقة التي لا تتغافل عنها الامبريالية واسرائيل . انهم « يسحبون » تحليل ماوتسي تونغ للمجتمع الصيني نصف الكولونيالي نصف الاقطاعي (مع

---

(١) أو مع أخذ « الامبريالية » والصفة « الشرقية » بعين الاعتبار : أربعة قوى أولها : تحالف الاقطاعية والرأسمالية الكومبرادورية ، ثانيها البرجوازية ، ثالثها البرجوازية الصغيرة ، رابعها: جماهير العمال والفلاحين . وهو تصنيف صحيح مبدئياً في الواقع . لا نزال بعيدين عنه ، من ناحية التمييز بين القوتين الاخيرتين .

دَفْعِه « يسارياً » طبقاً لزمننا المتقدّم) . واذ يسجلون تحليل ماوتسي تونغ ، يتصورون انهم صاروا ماوتسي تونغ ، وانهم قاب قوسين أو ادنى من الحزب البروليتاري القائد للثورة العربية .

ولقد درجت الاحزاب الشيوعية على تعبير « **العالم العربي** » ، كاصطلاح معارض لاصطلاح « الوطن العربي » ، الذي اتخذه الفكر القومي التقدمي رمزاً لاتجاهه الوحدوي . وتعبير « العـــالم العربي » عند الشيوعيين المحليـين (وفي الماركسية العالمية) قـُصِد منه تأكيد الاختلاف بين الاقطار العربية ، بين الشعوب العربية . وبقدر ما يذهب هذا التأكيد ضد « الوحدة العربية » و « الامـــة العربية » و « الوطن العربي » ، فهو خاطيء ولكنه في الوقت نفسه وكاصطلاح علمي صائب ، يبقى صوابه قاصراً ، مقصراً عن جانب الاختلاف ، **السياسي** . ان الوطن العربي هو فعلاً عالم عربي (مؤلف من أقطار عربية) . الأمة العربية هي فعلاً عدد من الشعوب العربية . هناك دول عربية . وامبرياليـة — ومسألة وعي ثوري ، لينينية **مضاعفة** .

وفي هذه الحال ، لم يكن ولن يكون هنـاك في الامة العربية ، أربعـــة « أحزاب » بل أكثر وأكثر بكثير . البروليتاريا العربية تمتاز ، **نظرياً ومبدئياً** ، بقدرتها على بلوغ مستوى بروليتاريا عربية واحدة وعياً وتنظيماً . ان إغفال « العالم » العربي لدى الفكر التقدمي القومي غير الماركسي خطيئة . وأغفـال « العـــالم » العربي كحقيقة سياسية من منظورات الاحزاب الشيوعية المكيّمة خطيئة اخرى ، تعرقل الوعي البروليتاري . حتى تصل الجماهير الكادحة العربية إلى الامة العربية ، إلى الوحدة العربية ، عليها ان : تعي « العـــالم » العربي ، ان تعي الاقطار والدول والامبريالية والخطوط السياسية .

ان احدى أهم نقائص هذه الفقرة في برنامج الرفاق اللبنانيين — الانظمـــة التقدمية — هي في تلمسهم لظاهرة دور العسكريين ومثالب هذه الظاهرة .

في اوائل ١٩٥٨ ، تطرقنا إلى هذه الظاهرة . في فقرة من مقـدمة ترجمتنا لمحاضرة اوسكارلانجه «الطريق البولوني إلى الاشتراكية »،دار دمشق،خصصناها لتجربة العرب في النضال الوطني والاجتماعي ، « أكدنا تجاوز الفصل السابق بين ثورة ديمقراطية وثورة اشتراكية وحدودودور الاحزاب و « الجبهة الوطنية » ، وأكدنا دور العسكريين وتلمسنا أسبابه الخ ، وأهمية مصر وحتمية التحولات الاجتماعية المقبلة ، ودور الجماهير في تقرير مصير الوحدة وحركة التحرر .. تحدثنا عن ثورة ٢٣ يوليو المصرية وعن دور العسكريـين في ضرب الاحتلال الاجنبي وتسلط الملك والاقطاع ، ومضينـا نقول : « ليس مستبعداً ان يلعب الجيش الدور نفسه في اقطار عربية أخرى » . (- بالطبع لو كان علينا الآن ان نعيد كتابة تلك الصفحات الثلاث لعدّلنا فيها وأضفنا اليها . ولكننا نقرأها الآن بفخر واعتزاز وتواضع : لم نكتشف اميركا ، بل عرضنا بديهيات .وجاء ١٤ تموز العراقي وأخذ عزيز الحاج وزكي خيري مهمـــة الرد الايديولوجي : ثبتـــا المنظور الوطني البرجوازي ، وجهـــا الينا تهمـــة التيتوية والتروسسكية الـــخ .. وعقب ١٤ تموز مباشرة وضعت جريدة الحزب الشيوعي السوري (« النور ») الثورة بقيادة « الجبهـــة الوطنية » المؤلفة من أربعـــة احزاب : الوطني الديمقراطي ، البعث، الشيوعي ، الاستقلال. ثم تمزقت مجموعة الضباط الاحرار . وبعد قليل تمزقت وأقتتلت أحزاب « الجبهة الوطنية » الخ الخ .. وبقي المنظور البرجوازي الوطني سائـــداً في الاحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان والعراق حتى سنة ١٩٦٤ . وبعد تلك السنوات التي لم تكن سوى سنوات عجاف ، تغيّرت المفاهيم. دفن الطريق البرجوازي والطريق البرلماني وذكر الدور التقدمي للانتليجنتسيا العسكرية ، على يـد نقولا شاوي في لبنان ، وخالد بكداش في سوريا ، وآخرين في العراق... وبعد صدور برنامج الرفاق اللبنانيين ،وقعت ثورتان عسكريتان تقدميتان: في السودان، حيث يوجد حزب شيوعي جيد ، كوعي أولي وكجماهير ، وفي ليبيا حيث لا يوجد حزب كهذا . وكان أول رد فعل لدى «الايديولوجيين» الثائرين المشرقيين ان الانقلاب

العسكري الليبي ما هو الا مظهر عسكري قوامه البعث والقوميون العرب ، أو يسار هؤلاء وهؤلاء . ثم تبين ان الأمر ليس كذلك .

ويفهم القارىء أهمية مسألة دور العسكريين في التطـــور العربي المعاصر ، التطور الذي يحب رفاقنا اللبنانيون ونحب معهم « قوانينه » التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار . من جهة ، هذه بحد ذاتها ظاهرة بالغة الأهمية . وبالطبع يمكن ان تتعدى حدود الوطن العربي ، لنقل انهـــا كظاهرة « انقلاب عسكري » وحسب ، ظاهرة اميركية لاتينية ، ولكنها في التجربة العربية ظاهرة انقلاب عسكري تقدمي . وهي كانقلاب عسكري وتقدمي يمكن ان تتخطى اطـار الوطن العربي ، وستتخطاه فعلاً ، في ظروف معينة ، خاصة ، استثنائية ، في هذا المـكان أو ذاك من القارات الثلاث (آسيا ، افريقيا ، اميركا اللاتينية) . الماركسي الذي يرفض « البؤرة الثورية » ماركسي غبي ، لا يزال عند « قوانين التطور الموضوعي » أو ربما عند اوهام الطريق البرلماني في اميركا اللاتينية وآسيا وافريقيا . ولكن الماركسي الذي يؤله البؤرة الثورية ويضع لها الضوء الأخضر في كل ظروف الزمان والمكان ، وينبذ الانقلاب العسكري التقدمي ويضع له الضوء الأحمر ، هو ايضاً ماركسي غبي ، ينطح التاريخ برأس فارغ. هذهالظاهرة العسكرية التقدمية هي اذن ظاهرة كونية أو يمكن ان تكون كذلك في عصر أصبحت فيه الاشتراكية نظام مليار ونيف من البشر ، وانقسم فيه معسكرها بين عملاقين ، وفي زمن يستفحل فيه الاستغلال والاضطهاد الامـــبريالي المتنوع الاشكال ، وتستفحل فيه الازمة والتخبط بالنسبة لمئات الملايين من البشر ، وبعد تأخر طويل في وعي « الحركة الشيوعية العالميـــة » ، لا يمكن ان يسير التطور العالمي والثورة العالمية على نحو آخر ، لا يمكن ان تسير وأن تتقدمالثورة العالمية الا بعدد من السبل والطرق البالغةالتنوع والالتواءات القريبة منالنموذج السوفياتي أو الصيني او الكوبي أو التشيكوسلوفاكي او الفيتنامي او ...... المصري ، وربما البعيدة جوهرياً عن كل هذه النماذج ، أي الجديدة غير المعلومة . الماركسية لا تُسقط صفة الشرعية عن هذا النوع . بالعكس ،

ومع ذلك يجب القول ان هذه الظاهرة – الانقلاب العسكري الثوري – هي بالدرجة الاولى ظاهرة عَرَبيَّة ، ظهرت وبرزت في الوطن العربي ، على أساس ظروفه التاريخية والسياسية و « الجغرافية » . حركة أحمد عرابي كانت آخر وأكبر مقاومة قبل السقوط في مصر . السبعون سنة التالية تشهد نهضة كبيرة وسقوطاً كبيراً متواصلاً . ونصل في اوائل الخمسينات الى : مصر مستقلة رسمياً منتسبة الى هيئة الامم المتحدة ، مع احتلال وملك « واحزاب » واقتصاد كولونيالي كامل وتضخم سكاني وفقر مدقع، وبلهارسيا وحشيش. (« الاحزاب » : الوفد ، احزاب القصر ، الاخوان المسلمون، حزب احمد حسين، وبضعة « احزاب » شيوعية صغيرة بعيدة عن الوعي التاريخي وعن جماهير العمال والفلاحين) . في العراق سلسلة من الانقلابات العسكرية (بكر صدقي ، الصباغ والكيلاني ... واخيراً ١٤ تموز ١٩٥٨ اسقاط الملكية وحلف بغداد وقاعدة الحبانية) . سلسلة من الانقلابات العسكرية في سوريا بعد حرب فلسطين (الزعيم ، الحناوي ، الشيشكلي) .

انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المصري ينتصر ويسير في درب تقدمي صاعد (خلع الملك ، اول اصلاح زراعي ، اعلان الجمهورية ، انهاء الوجود البريطاني في القناة ، تأميم السويس ، الوحدة ، التأميمات .) ليس انقلاباً عسكرياً تقليدياً . في اوائل ١٩٥٨ ، الوحدة .

وفي اواسط ١٩٥٨ ، انقلاب ١٤ تموز العراقي. لنقل ان في الانقلاب شقين: عسكري ومدني ، ضباط واحزاب . لن نقول ان الشق الاول جميل والثاني قبيح . ولكن الاول ليس اقبح من الثاني .

ثم انقلاب اليمن . وحسب الرواية ، في ٢٧ ايلول ١٩٦٢ الضباط انفسهم ضربوا . حجزوا الجنود وضربوا . تلك هي ظروف اليمن .

ثم في السودان « انقلاب عسكري رجعي ونهايته ، ومدّ شعبي ، وتوقف أو تراجع وحكم رجعي مطوّر ، وازمته وازمة الطريق السوداني، فانقلاب عسكري تقدمي . لو سألت ايديولوجيا تقدمياً سودانياً أو مشرقياً ومغربياً (شيوعياً

أو قومياً عربياً أو بعثياً او هلمجرا) قبل وقوع هـــذا الانقلاب العسكري التقدمي بشهر واحد عن احتمال مثل هذا الانقلاب ومثل هذا الطريق، لأجابك بلغة العارفين (سألنا ونلنا الجواب) : هذا مستحيل . الضباط السودانيون لهم امتيازات ، تربّوا انكليزياً ، انهم اولاد عائلات ، مرتبطون بالأنصار أو أو الختمية . على أي حال الجيش السوداني ليس كالجيش السوري او العراقي أو المصري ، تعداده قليل (عشرة آلاف كما قال لنا أحدهم ، مثل تعداد الشرطة عندكم) . والتنظيم الشعبي قوي كاسح (اذا كان المحدث شيوعياً سودانياً ، قصد حزبه وهو محق في أنه قوي جماهيري . هـــذا لا يكفي : الحزب الشيوعي الاندونيسي كان اكثر كسحاً . واذا كان المحدّث من تنظيم آخر، كانت مصيبتنا معه أفدح) ... أجل ! أجل ! أجل ! ولكن هذا كله ليس كل شيء . نتصور أنه، في هذا العصر ، خصوصاً في هذا العصر ، يمكن ان يكون كولونيل أو حق جنرال له امتيازات وابن عائلة وابن طائفة، تربي في لندن أو باريس ، وقريب من البلاط الملكي ، وان لا يكون هذا هو كل وصفه . لا ماركس ولا لينين ولا ماوتسي تونغ ولا غيفارا ولا عبد الناصر ولا النميري والسلال والقذافي ولا القادمون، قادة أحزاب أو قادة فصائل وكتائب وألوية عسكرية، هم بالضرورة ابناء الشعب الكادح المسحوق ، ابناء الطبقات التي ليس لها امتيازات ..

بتعبير آخر : هذه الظاهرة العربية العسكرية التقدمية بالغة الاهمية في حد ذاتها وبالغة الاهمية في مناقشاتنا كماركسيين . كانت ولا تزال كمسألة على صلة بنقاط أخرى عديدة ، كانت ولا تزال في تداخل مع منظورات الثورة وقضايا التطور . فالرفاق اللبنانيون قد تجاوزوا الآن تماماً منظورهم القديم . انهم على حق في تأكيد دور الجيش ، « اسهامه » . وهم على حق في تلمّس سلبيات هذه الظاهرة . غير ان المسألة لا تزال بعدُ أهم مما يظنّون .

أولاً – ليست مسألة دور الجيش جزءاً فقط من مسألة دور البرجوازيـة الصغيرة – قيادتها، حكمها ، نظامها التقدمي – بل هي نوعاً ما كل هـذه المسألة . في ظروف حتمية تقدم حركة التحرر الوطني العربية ، وحتميـــة

اسقاطها لتحالف الاقطاع والرأسمال ، وتخلف (او بالاصح عدم وجود) حزب البروليتاريا اللينيني ، وفي ظروف الوطن العربي الخاصة ، « الجغرافيـة » التاريخية – السياسية ، ليست البرجوازية – الصغيرة كمقولة واسعة وفضفاضة هي التي تسنمت القيادة ووصلت الى الحكم ، بل العسكريون ، فريق من الضباط وصلوا الى الحكم وتسنموا القيادة : عبد الناصر ، قاسم وعارف ، والسلال والنميري الخ . سواء مع وجود حزب تقدمي سابق أو بدونه . وغالباً ، في حال وجود الحزب وحكمه ، الحزبُ او حكمه يبدو مستحيلاً بدون هذا . الثورة الجزائرية (١٩٥٤) سارت في طريق مختلف . ولكن انقلاب ١٩٦٥ قربها من الطريق المشرقي ، في الأحسن والأسوأ .

حين يقول الرفاق اللبنانيون : « وقد أسهم الجيش ، وبحكم وجود عناصر وطنية معادية للاستعمار على رأس قطاعات هامة منه ، في عملية انجاز بعض هذه المهمات الوطنية وتسهيل اتخاذ بعض الخطوات الاولية من التدابير الاقتصادية والاجتماعية ذات المحتوى التقدمي » (ص ٢٣) .

نريد ان نقول لهم : كل هذه التطورات التقدمية (ومثالبها) في المشرق العربي ، كل مرحلة « البرجوازية الصغيرة » مستحيلة ، لولا العَسْكَريون . ان الجيش أو فريق منه هو الذي قام بثورة ٢٣ يوليو ، التي هي انقلاب عسكري أوّلاً والشيوعيون المصريون لم يلعبوا أي دور في التوجه نحو تأميمات تموز ١٩٦١ الحاسمة . كانوا في السجون . وكانوا في الغالب اما ضدها ، وامّا لا يفكّرون بها اطلاقاً . مقالات جريدة « المساء » في ١٩٥٧ و ١٩٥٨ كانت في اتجاه آخر تتبنى المنظور البرجوازي التقليدي الذي يمتدحه أنور عبد الملك [١] تحت اسم « الماركسية الديمقراطية » (المتمثلة في خالد بكداش وعزيز الحاج ورئيف خوري) أي الماركسية البرجوازية الليبرالية واللاديمقراطية .

في مصر ١٩٥٢ ، اكتوبر ١٩١٧ مستحيلة ، وشباط ١٩١٧ مستحيل .

---

(١) في كتابه « مصر مجتمع عسكري » وخصوصاً في كتابه « مختارات الادب العربي المعاصر . البحوث السياسية » ، بالفرنسية ، طبع باريس .

وحركة فلاحي هونان وقاعدة حدود هوتان – كيانغ سي مستحيلة . الجبهة الوطنية التي يريدها خالد بكداش ونقولا شاوي وانور عبد الملك (ونحن وراءهم) اسطورة وخدعة . في سوريا ، منذ ١٩٢٧ ، انتهى طور الكفاح المسلح المتمركز على الجبال وبعض الارياف الاخرى . فرنسا تُدَجّن زعماء المجتمع الشرقي . ولا يتكوّن حزب لينيني شعبي قادر على القيام بمحاولة من النموذج الروسي او على السير في اتجـــاه ما يقود نحو ثورة من طراز ما . والعراق ، بعد المرحلة الفهدية ، يصل في ١٩٥٨ الى وضع لا يختلف من هذه الناحية . اليمن؟ ليبيا ؟! الجزائرُ في ١٩٥٤ ، قامت بمعجزة بفضـــل وعي الواعـين . لو سار الوطنيون بمنطق العربي بوهالي او موريس توريز ، لكانت الجزائر اليوم في أحسن حال ، مستعمَرَةً محسّنة ، تحت انتداب فرنسا ووصاية المستوطنين ، في أحسن حال ومع التفاؤل . (وافريقيا السوداء الفرنسية كانت تكون ، على الأرجح ، متأخرة خطوة عما هي عليه اليوم) . هـذا التطور العربي كله – « انحرافه » (كما يقول لينين في ١٩٢٣ حول الثورة الروسية في تعليقه على مذكرات المنشفي الطيّب ن. سوخانوف) « عن خط التاريخ العام » – تطور موضوعي وجزئياً محتوم . ولا يغير موضوعيته وحتميته الجزئية كونـُه ناجماً جزئياً عن قصور وعي القادة « العِلـْميين الطبقيين » العرب. إن ما ينجم جوهرياً عن القصور المعني هو عدم تسنـّم « حزب البروليتاريا » القيادة ، ولو جزئياً (وبالاحرى عدم تكوّن حزب البروليتاريا) وصعود « عناصر البرجوازية الصغيرة » الى السلطة والقيادة [٢]. ولكن حتى لو صعدت البروليتاريا – نقصد الماركسية – اللينينية وحزبها – الى القيادة ، لبقيت عدد من الصفحات وعناصر التطور المذكور معدّلة . وحتى تصعد ، كان ينبغي (وينبغي اليوم وغداً) ان نفهم هذه الحقيقة ذاتها ، وان تـُكوّن منظوراً تاريخياً عربيـاً صحيحاً ، اساساً نظرياً صحيحاً ، يستوعب فعلاً التطور العربي . ان الوطن العربي (أو أي قطر من أقطاره) بين ١٩٢٠ و١٩٥٠ ليس روسيا ١٨٩٠ – ١٩١٧ ، بل

---

(٢) وغالباً الى السلطة ثم القيادة .

وليس صين ١٩٢٠ - ١٩٥٠ . الماركسيون الروس في ١٨٨٠ - ١٩٠٠ طرحو على انفسهم مسأله تطور روسيا ، (مسألة مستقبل الرأسمالية في روسيا) وحلوها . ماركسيو بلادنا لم يطرحوا على انفسهم هذه المسألة . وماتت ومضاتهم العبقرية العابرة على الطريق .

ان الرفاق اللبنانيين محقون حين يقولون : « ان انفراد ممثلي البرجوازية الصغيرة بالسلطة ، وعدم الوضوح الفكري لديهم لآفاق التطور المقبله ، والطبيعة المزدوجة المتناقضة للبرجوازية الصغيرة ، أوجد الامكانيات لتحول عناصر منهم إلى فئة بيروقراطية مدنية وعسكرية فقدت بذلك صفتها كممثلة لمصالح الفئات الواسعة من البرجوازية الصغيرة والجماهير الكادحة عموماً » (ص ٢٣) .

وهم على حق حين يقولون : « وقد غاب عن هذه القوى (العناصر التقدمية القائدة) ان الجيش ليس كلاً منسجماً بل تنعكس في داخله الانقسامات الطبقية القائمة في المجتمع . وهو بوصفه أحد الاجهزة الرئيسية للدولة ، تربى لخدمة الطبقات الاجتماعية المستثمرة ولم تحدث القوى التقدمية التي جاءت إلى السلطة تغييراً أساسياً في تركيبه ، وذلك فسح المجال أمام عناصر موجودة قائمة على رأس قطاعات هامة منه لاستغلال سمعته الوطنية والاستفادة من مراكزها للحصول على امتيازات جديدة ، وجني مداخيل غير مشروعة . وتكونت بذلك فئة عسكرية لها مصالحها وامتيازاتها الخاصة على حساب المجتمع ووقفت بوجه تطور الثورة . وفي المرحلة الحاسمة من تطور هذه البلدان السياسي والاقتصادي والاجتماعي كانت هذه الفئة تلجأ إلى تنظيم محاولات انقلابية رجعية » . (ص ٢٥ - ٢٦) .

نحب ان لا ينسى الرفاق اللبنانيون الفئة البروقراطية المدنية التي ذكروها مع العسكريين في الصفحة ٢٣ . ذلك لأنه على هذه الأرض الشرقية والعسكرية والايديولوجية بدون حزب البروليتاريا وبدون العشرات الملايين من الناس

الفاعلين ، نبتت وتنبت كالفطر فئة بروقراطية مستفيدة ذات امتيازات ماديـة ومعنوية ، تسرق ، وتزني ، وتقتل وتكذب وتشهد بالزور ، هي بروقراطية مدنية ، وايديولوجية ، وعقائدية ، وحزبية ، و « عمالية »، وتقدمية ، وثورية ، وما شئت من ألقاب النبالة ، ليست أقل من الفئة البروقراطية العسكرية خطراً على « تطور المجتمع » ، وبعداً عن « مصالح الفئات الواسعة من البرجوازية الصغيرة والجماهير الكادحة عموماً » . وأن لا يسجل برنامج حزب الطبقة العاملة هـذه الحقيقة نقص فادح يفتح الباب على مصراعيه « للبرجوازية » الجديدة المدنيـــة «الثورية » ، فضلاً عن ان بعض قطاعات من هذه البرجوازية ذاتها تتبنى بسرور وسعادة هذا النقد في اتجاه واحد ، وتجد فيه مبرراً لسعيها إلى صرف « الجيوش » في زمن الاحتلال الاسرائيلي لاراضي ثلاث دول عربية فضلاً عن فلسطين .

وحين يقول الرفاق اللبنانيون : « ان الجيش في ظل الانظمة التقدميـــة الثورية لا يمكن ان يكون له دور قيـــادي في المجتمع ، فمهمته الأساسية حماية المكتسبات التقدمية والدفاع عنها . ولكي يستطيع القيام بهذه المهمة لا بد ان يطهر من العناصر المعادية للثـــورة وان يرتبط ايديولوجياً ، وسياسياً بالجماهير وبمصالحها وبالقوى التقدمية » (ص ٢٦) .

فاننا نقول : ان دور « الجيش » أكبر مما تظنون. والقيادة هي ، لينينياً ، في آخر تحليل ، لطبقة واحدة هي البروليتاريا . وهـــذا هو مفهوم الحزب . ولكن ما دمتم قد قلتم وبحق « ان السلطة المؤهلة لقيادة عملية بناء الاشتراكية هي سلطة العمال والفلاحين وسائر الكادحين بأيديهم وادمغتهم » (ص ٢٥) ، فـلا تنسوا الجيش ، خصوصاً في الوضع العربي : ليس الجنود والضباط « كادحين بايديهم وأدمغتهم » وموجودين في « عملية بناء الاشتراكية » ، ولكنهم مقاتلون في الصف الأول ، مقاتلون في طليعة كل الثوره العربية . وليكن تركيزنا النقدي على هذه النقطة . ان « المهمة الأساسية » للجيش – لا نتحدث عن جيش المريخ ، بل عن الجيوش العربية – ليس فقط حماية المكتسبات التقدمية والدفاع عنها « بل الدفاع عن الأمة ووجودها ، اخراج العدو من أرض الوطن – تلك هي حال لا « الانظمة التقدمية

الثورية » بشكل عام، بل البلاد العربية بالذات أيضاً . وفي هذه الحال ، سيكون للجيش « دور قيادي في المجتمع » العربي ، لفترة غير قصيرة . وهذا يضاعف من مسألة البيروقراطية العسكرية ومصالحها وانقطاعها عن الشعب ، كمسألة كبيرة. وأحد وجوه هذه المسألة ان الجيش هو إلى حد ما يمثّل الفلاحين ، جماهير ومراتب أو طبقات الفلاحين ، والخطر الأكبر والواقع هو ان يصبح – في الظروف العربية التاريخية والحاضرة – بديلاً عنهم ومعطّلَ دورهم ، معطل نهوضهم السياسي والذهني ، بعد فترة دوره الايجابي . ونعتقد ان برنامج الحزب البروليتاري العربي في مضمار الجيش والبيروقراطية العسكرية يجب ان يتمركز لا على الغاء كل دور قيادي للجيش ، بل على إنشاء مجالس الجنود الديمقراطية المنتخبة . وهذا الموقف موقف مبدئي ، وليس دواء عميم النفع أو وصفه كاملة وقاطعة .

٣ – « الوحدة العربية »

يقول البرنامج اللبناني :

« ان طموح الجماهير العربية الواسعة إلى الوحدة هو وليد الواقع الموضوعي لتطور العالم العربي وللروابط التاريخية بين مختلف أجزائه .

ثم يلقي نظرة على تاريخ فكرة الوحدة العربية : « لقد انطلقت مع بدء الحركة العربية المعادية للسيطرة الاجنبية ، وكان مفهومها يتطور مع تطور هذه الحركة في مختلف مراحلها » . . . ان كون الفكرة القومية نشأت في فترة الامبريالية ، « جعل لها منذ البداية طابعاً تقدمياً لم يكن تعبيراً عن مصالح البرجوازية الناشئة وحسب ، بل كذلك عن مصالح الجماهير الشعبية ومطامحها للتخلص من الاضطهاد الاجنبي » .

ويصل البرنامج الى الحرب العالمية الاولى : معاهدة سايكس – بيكو، تسلل الاقطاعيين وزعماء الأسرة الهاشمية إلى قيادة الحركة ، ورغم ذلك ورغم تبعية

تحالف الاقطاع ورأس المال للامبريالية ، ورغم العقبات والعوائق ، « أخذت الروابط القومية تتسع وتتعمق باتساع النضال السياسي وتعاظم الحركة الشعبية ضد الانتداب والسيطرة الاستعمارية » و « تجلى ذلك بالتضامن الكفاحي بين الحركات الوطنية في البلدان العربية » .

ثم يتحدث البرنامج عن أثر ثورة أوكتوبر ، ونشوء الاحزاب الماركسية — اللينينية في العديد من الاقطار العربية وتبني هذه الاحزاب لقضية الوحدة العربية .

وينتقل إلى الحرب العالمية الثانية ، والمشاريع الاتحادية المشبوهة الاستعمارية — الاقطاعية والموجهة ضد استقلال بعض الاقطار التي تحررت سياسياً . « وبسقوط هذه المشاريع حاولت البرجوازية الحاكمة في البلدان المستقلة حديثاً استقطاب التيار الشعبي والوحدوي والظهور بمظهر الرائد لتحقيق الوحدة العربية » . و « لقد كانت كارثة فلسطين عنصر تجمّع قومي للشعوب العربية في المشرق والمغرب » . وقامت عدد من الانتفاضات والثورات ، أهمها ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ « التي أدخلت الشعب المصري في مكانه الطبيعي في حركة التحرر الوطني العربية وفي حركة الوحدة العربية . وقد كان دعمُ الشعوب العربية في المشرق لثورة الجزائر والحركات الاستقلالية لشعوب المغرب عنصراً أساسياً في زيادة توثيق روابط شعوب المغرب بأشقائهم في المشرق ودليلاً ساطعاً على اتساع حركة الوحدة العربية . وقد أخاف ذلك كله الدول الامبريالية ودفعها إلى تصعيد مؤامراتها وإلى العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ » .

ويواصل البرنامج حديثه عن نهوض الحركة الوطنية ، مقاومة الشعب السوري ، اتساع الثورة الجزائرية ، الانتفاضة الشعبية في لبنان ، ثورة ١٤ تموز ، وحدة سوريا ومصر . « ان قيام الجمهورية العربية المتحدة قد حوّل فكرة الوحدة العربية من مطمح لدى الجماهير إلى واقع » . وكان الردّ الاستعماري الاول هو اصطناع الاتحاد الهاشمي بين العراق والاردن ، ولكن أسس الوحدة السورية — المصرية لم تكن متينة . وقد اظهرت تجربة الوحدة ان الرغبة والارادة

لا تكفيان . و « ان تجاهل واغفال الفوارق الموضوعية وعـدم السعي للتغلب عليها في اطار الوحدة وبالاساليب الديمقراطية أدى إلى اصطدام الحكم بجملة من العقبات » . « ومع تطور حركة التحرر الوطني ، واتخـاذ القادة الوطنيين الثوريين لتدابير التأميم عام ١٩٦٠ – ١٩٦١ ، كشفت البرجوازية وجه العداء السافر للوحدة وتآمرت عليها بالتحالف مع الاقطاع وكرّست نفسها نهائيـاً عدواً للوحدة العربية » . « في حين ان الجماهـير الشعبية وفي طليعتها الطبقة العاملة زادت من تمسكها بها ... وبرهنت على أنها حاملة راية الاماني والمصالح القومية العليا إلى جانب حملها رسالة التحرر السياسي والاشتراكية » . « وقد جاء فشل الوحـدة صدمة عنيفة للمنظمات القومية وامتحاناً عسيراً لمفاهيمها عن الوحدة والقومية ... وقد أدى ذلك بالكثير من اعضاء هذه المنظمات إلى اعادة النظر بمفاهيمهم وساعد على انعطافهم نحو افكار الاشتراكية » .

وقد برهنت تجربة الوحدة أيضاً أن لا وحدة عربية راسخة بدون وحدة القوى التقدمية العربية ، فان تفكّك صفوف هذه القوى والتصادم الذي حصل بينها نتيجة تقديرات غير صائبة من كل منها لمواقف الآخرين في تلك المرحلة سهّل على الرجعية والاستعمار توجيهَ ضربتها الى الوحدة وتقويضها .

« ان الوحدة العربية تعبّر عن تطلـّعات جميع الفئات الشعبية الطامحـة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي التي تنعطف أكثر فأكثر نحو الاشتراكية . وهذه القوى أخذت تصبح العنصرَ الاساسي المحدّد لعمليّة تطور العالم العربي باتجـاه الاشتراكية والوحدة . وان ظهور دول عربية تقدمية وتوطـّد الاتجاهـات المعادية للرأسمالية فيها وتعمّقها يخلق القاعدة الأكثر انسجاماً لقيام وحـدة عربية على أسس اشتراكية » . (ص ٢٧ – ٣٢) .

هذا هو تحليل الرفاق اللبنانيين لقضيّة الوحدة العربية . وهو ينسف نهائياً المنظور السابق الذي هَيْمَنَ على الحركة الشيوعية في العالم العربي خلال ثلاثين عاماً . والرفاق اللبنانيون محقـّون حين يذكرون أن « الاحزاب الماركسية – اللينينية التي نشأت في العديد من الاقطـار العربية » ، بعد ثورة اوكتوبر الروسية « تبنت قضية الوحدة العربية ووضعتها على اسس علميـة وناضلت في

سبيل تحقيقها » . تلك هي الحال فعلاً ، على الأقل بالنسبة لفترة ١٩٢٨ - ١٩٣٥، أي للطور الثاني في تاريخ هذه الاحزاب. وهذا ما يشهد به قرار صدر في عام ١٩٣١، عن اجتماع عقده شيوعيو سوريا وفلسطين في موسكو ، تحت عنوان « مهمات الشيوعيين في الحركة القومية العربية ». غير أنّ هذا المنظور الوحدوي الثوري قد دُفِنَ نهائياً بعد سنوات قليلة . نقول دفن . ونقصد ان غالبية شيوعيي سوريا (وربما شيوعي لبنان أيضاً) لايزالون حتى هذه اللحظة يجهلون كلياً هذا القرار وهذا الموضوع « التاريخي » كله (وفي سوريا، هناك «شيوعيون» ينكرونه ويتنكرون له). مرة أخرى نقول : كان على الرفاق اللبنانيين ان يسجلوا في برنامجهم هذه الحقائق بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض ، وبالاحرى هنا وفي هذا المكان من برنامجهم : ما داموا حريصين على التفاخر بهذه المأثرة الفكرية الحقيقية ، عليهم ان يسجّلوا ان هذه المأثرة الحقيقة قد دُفِنَتْ عندهم تحت أمتار من التراب[1] . ولا نشك لو أن القضية (قضية الوعي الماركسي) سارت عند حملته وسدنته الخالدين على نحو آخر ، لسار التاريخ العربي (الطبقات والاحزاب) على نحو آخر ، في قليل او كثير . لعلّنا ما كنا نجد في الاربعينات والخمسينات أحزاباً أخرى تظهر تحت كنف شعار الوحدة القومية العظيم .. والمؤسف ان سدَنة الوعي الماركسي الخالدين قد استمروا على منظورهم المعادي للوحدة[2] حتى سنة ١٩٥٥ . وفي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، عادوا الى الوحدة ولكن ليصيغوا منظوراً وحدوياً برجوازياً « موضوعياً » : الوحدة العربية تأتي من التطور الموضوعي للاقتصاد العربي الرأسمالي الوطني . وفي ١٩٥٨ — ١٩٦١ ، عارضوا أو حاربوا أول وحدة عربية ، واستمروا على هذه الحرب الى ما بعد «فشل» الوحدة بسنوات، ولا سيما في الفترة التي كانت فيها عودة الوحدة في أمر اليوم اي في ١٩٦٣ .

ان برنامج الرفاق اللبنانيين (لا يتطرق الى هذه المنظورات السابقة ولكنه

---

(١) نقول عندهم: بكداش ، شاوي، رضا ... = الجيل الذي انضم إلى الحزب بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ ، وأصبح قيادته السرمدية بين ١٩٣٣ و ١٩٣٧ .

(٢) والتجاهل ذروة العداء .

يقطع الصلة معها جذرياً . وهذا تقدّم كبير وتحوّل حاسم ، يضع قادة الحزب الشيوعي اللبناني في مرتبة متقدمة ، أمام أربعة أخماس الماركسيين العرب والتقدميين العرب ، في مضمار الوعي العلمي والثوري لقضية الوحدة العربية . ونريد ان ندفعهم الى الأمام اكثر ، ليس نحو مزيــد من « الوحدوية » و « القومية » ، بل نحو « مزيد » من الوعي العلمي والثوري ، نحو مزيـد من الماركسية – اللينينية . وسنرى ان هذا يعني ايضاً « مزيداً » من الوحدوية.

سنتتبع هذه الصفحات الخمس ،ونقدّم بعض الملاحظات التكميلية والنقدية ، آملين بأن الرفاق اللبنانيين سيولونها انتباههم (ونقدهم وتفنيدهم التفصيـــلي الصريح ، إذا لم يكونوا موافقين عليها) .

أولاً : ليس من شك في ان فكرة الوحدة العربية قد « انطلقت مع بدء الحركة العربية المعادية للسيطرة الاجنبية » (الغربية والعثمانية) وان« مفهومها كان يتطور مع تطور هذه الحركة في مختلف مراحلها » ، وان هذه الفكرة لم تتبلور ، مبدئياً وأولياً إلا في أواخر القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين ، كما يشرح الرفاق اللبنانيون (النوادي والجمعيات ، المثقفون والضباط العرب في اسطمبول ودمشق وبيروت وباريس والقاهرة) . . .

ولكن من المفيد (ومن الواجب في ظرف تاريـخ الفكر « الماركسي » العربي الزائف) ان نذكر الوجود القومي العربي الموضوعي ، الأمة العربيـة الموضوعية ، القديمة والآخذة في تكوّن طويل بحركة الاستعراب التاريخية لأقطار وسكان وشعوب الوطن القوميالعربي التاريخي من «الخليج الى المحيط ». ان انجلز ، في رسائل ١٨٥٣ ، ذكر وحدة شعوب الشرق الادنى العربي قبـل الاسلام منوهاً بمثلث اليمن – مصر – بابل ، واعرب عن اعتقاده بان الـكلدان ما هم سوى قبيلة بني خالد . . . وذكر أن الشعور القومي العربي او الوعي القومي العربي arab national consciousness قد برز في الرد على الفرس

والاحباش ، وان الثورة الدينية المحمدية ترتبط بهذا أيضاً بين جملة أشياء الخ . وقدّم ماركس وانجلز في هذه الرسائل لعام ١٨٥٣ ، وفي « مناسبات » لاحقة ، ملاحظات ثمينة عن هذه البيئة العربية (من الخليج الى المحيط) وتاريخها (جمعناها بنصها الحرفي في كتابنـا « الماركسية والشرق ») ملاحظات هامشية (على هامش عمل ماركس وانجلز قائدي البروليتاريا الالمانية والاوروبية) . أما قادتنا الماركسيون العرب الذين لم يؤلـّفوا لا « البيان الشيوعي » ولا « رأس المال » ، فقد ظلوا يجهلون هذه الملاحظات ، وكانت آراؤهم « التاريخيـة » الجوهرية متعارضة مع الماركسية كلها ومع هذه الملاحظات العربية الهامشية لانجلز وماركس .

وبالطبع ، وكما بيّنـا في « الماركسية والشرق » هذه ، الملاحظات لانجلز وماركس عن العرب ترتبط بجمل تحليلات ماركس الشرقية (عن الهند ، الصين ...) ، وبمفهوم الأسلوب الآسيوي للانتاج « ومفهوم »الركود«الشرقي» . ان العرب لم يعرفوا في تاريخهم ذلك النمو والتكون والصراع والتعاقب الذي قاد اوروبا من المشاعية إلى الرق إلى الاقطاعية إلى الرأسمالية . التـاريخ العربي خلال ثلاثة عشر قرناً بعد الاسلام (ومع تمهيد طويل قبل الاسلام) هو سير التكون التاريخي للامة العربية بحركة الاستعراب الثابتة الدائمة في عصور الامويين والعباسيين والفاطميين والمماليك والعثمانيين ، في ظل حكم العرب وحكم جيرانهم واخوانهم واعـداثهم الفرس والكرد والترك والشركس ، في زمن الازدهار (نمو القوى المنتجة المادية والبشرية) وزمن الانحـدار والانحطاط (تدهور القوى المنتجة المـادية والبشرية) بل وفي زمن الاستعمار الغربي [1] .

---

(١) في مقال كتبه علي يعته منذ حوالي ١٥ سنة ، ذكر رئيس الحزب الشيوعي المغربي ، ان حركة الاستعراب تقدمت في مراكش الواقعة تحت النير الفرنسي : الاستثمار الفرنسي الحديث (مثلا المناجم) اعتمد على عمال من قبائل وارياف مختلفة (بربرية وعربية) وفي التجمعـات الانتاجية الجديدة تنتشر اللغة العربية على حساب الالسن الأخرى ، ويسير الاندماج اللغوي ـ القومي قدماً .

ان الموقف الحالي للحزب الشيوعي المغربي(فترة ١٩٦٤ – ١٩٦٩) ، موقفه العربي ←

لقد تنـــامى الوجود القومي العربي ، كوجود موضوعي ، وبشكل ثابت وراسخ ونهائي خلال ثلاثة عشر قرن [1] والوعي القومي العربي دخل في مـــد وجزر خلال هذا التاريخ الطويل ، دون ان يبلغ في فترات المدّ مستوى « وعي قومي حديث » (ليس هنا موضعه وموضوعه) . ولا شك أن هـــذا الوعي العربي القومي قـــد ذاب واختفى ، او تقريباً ، في ظل دولة المـــل العثمانية ودرك الانحدار .

ولكن بذوراً اولى الهذ الوعي ظهرت باشكال شتى – احياناً متضاربة – منذ اواخر القرن الثامن عشر . وتقدمت هذه البذور خلال القرن التاسع عشر ، وتبلورت كفكرة قومية حديثة في اواخر القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين وخلال القرن العشرين. لقد تحدثنا عن هذا الموضوع بشكل مفصل في عدد من مؤلفاتنا. وكما يقول الرفاق اللبنانيون : هذه الفكرة ذاتها تطورت مع تطور الحركة ، مع تطور حركة التاريخ الموضوعية. ولنذكر بعض حلقات هذا التطور «الموضوعي» : انتقال التجارة « العالمية » (المحدودة) في حلب من أيدي الجالية الايطالية إلى أيدي مسيحيي حلب ، والتفات هؤلاء إلى اللغة العربية ، ثم انتقال مركز هذا العمل التاريخي الجبار إلى لبنان وإحرازه تقدماً حاسماً على يد عائلات البستاني واليازجي والشدياق ، ودور روّاد البعث الاسلامي (الافغاني ، عبده) في هذا المجال اللغوي ذاته ، وقبل ذلك حملة ابراهيم باشا في سوريا ، وما خلفته (في فلسطين على الأقل) من مطامح عربية قومية راسخة عند جمهور الناس (شهد بها الرحّالة الاجانب) . وفي الربع الاخير من القرن التـاسع عشر ، **الفكرة**

← والفلسطيني، له بعض البذور القديمة في وعي زعماء الحزب. في مقال كتبته في اواخر ١٩٦٤ في مجلة « الجندي » مجلة (الجيش السوري) عن نضال الشعب المغربي ، اعتمدت على ذلك المقال إملي يعتة . وأجد الآن مناسبة لتسجيل هذه الحقيقة .

(١) وهذا التنامي لا يمكن بأي حال أن ندخله في قالب ما من نوع نمو المجتمع البرجوازي وتراجع المجتمع الاقطاعي . ذلك تاريخ فرنسا ... وفي اقصى احتمال تاريخ « اوروبا » . نمـــو الامة العربية متعدد العوامل والمظاهر والاشكال : اللغة ، الدين ، الدولة ، الاقتصاد ، الخ الخ ليس هنا مجال هذا الحديث .

القومية العربية واضحة وسليمة مبدئيـاً عند رواد النهضة اللبنانيين، عند جيل المفكرين العظام. ولا يلبث ان يظهر « منظـّرون » يبلورون الفكرة في « نظرية قومية » يختلط فيها الصواب والخطأ، والخطأ قبـل الصواب (نجيب عازوري : حضره الامـة العربية في آسيا العربية ، اعتماده على فرنسا ضد العثمانيين ، حملته على الوطنيين المصريين) ، في الوقت الذي ينحرف فيه بعض المفكرين السوريين واللبنانيين نحو فكرة الامة السورية والامـة اللبنانية ، بمساعدة وزارة الخارجية الفرنسية . وبينما يجري تعريب الكنائس العربيـة ، تلفظ افكار الأمة العثمانية والامة الاسلامية أنفاسها الأخيرة ، تاريخيـاً على الاقل . وفي الفترة اللاحقة ، يشهد المشرق العربي صراعاً متنوعاً بـين فكرة الأمة العربية وافكار الأمة السورية واللبنانية والمصرية (وقد أخطأ الماركسيون حين وقفوا على هامش هذا الصراع ، حين لم يلتزموا كلياً بفكرة الامةالعربية). وتحرز « الأمة العربية » انتصاراً باهراً على صعيد الافكار ، في الربع الثالث من القرن العشرين .

ثانياً - يلاحظ الرفاق اللبنانيون « ان كون الفكرة القومية في البلدان العربية قد نشأت في الفترة التاريخية التي بلغت فيها الرأسمالية مرحلة الامبريالية ، وفي بلدان ترزح بالسيطرة والاستثمار الاجنبيين ، جعل لها منذ البداية طابعاً تقدمياً لم يكن تعبيراً عن مصالح البرجوازية الناشئة وحسب ، بل كذلك عن مصالح الجماهير الشعبية ومطامحها للتخلص من الاضطهاد الاجنبي » (ص ٢٧) .

وهذه ملاحظة صحيحة . ولقـد درجنا منذ نيف وعشر سنوات - وضد المنظور التقليدي السائد في أوساط « الماركسيين » المحليين - على تمييز هـذه الحركة القوميه العربية وفكرتها عن الحركات القومية الأوروبية (الفرنسية ... ثم الالمانية والايطالية) في أزمنة غابرة . ولقد سعينا في السنوات الأخيرة إلى أقصى ما يمكن من التحديد ، في اتجاه التمييز ، وفي اتجاه فهم موضوع الحركة

القومية ككل (بقواسمها المشتركة ، أوروبا الغابرة ، وعرب القرنين التاسع عشر والعشرين) .

ونحب ان نقول تعليقاً على الفقرة التي نقلناها عن الرفاق اللبنانيين :

١ – بوجه الاجمال ، الحركات القومية الأوروبية كانت هي أيضاً ذات طابع تقدمي . فهي موجهة ضد الاقطاعية والكنيسة وتبعثر العصر الوسيط ... وفي مثال ألمانيا ، أنها لم تكن خالية من المطمح إلى النخاص من الاضطهاد الاجنبي ! وهذا واضح كل الوضوح في تحليلات ماركس وانجلز ، وخصوصاً في تحليلات لينين [1] . ولا ننسى تأكيدات لينين المتكررة (لا سيا في ١٩١٤ ، في مجادلته ضد روزا لوكسموغ ، قبل تحليل لينين للامبريالية) والتي مضمونها ان تلك الحركات القومية الأوروبية كانت دائماً ، في البداية ، « منذ البداية » (على حد تعبير البرنامج اللبناني) وطالما ان أمامها مهمة تاريخية (حقيقية تقدمية هائلة) ، هي مهمة وحدة الامة وتحررها ، حركات جماهيرية . اننا نخشى ان يتبنى اليوم الرفاق اللبنانيون بعض مواقفنا لفترة سابقة ، هي مواقف صحيحة تماماً في مواجهة وبالمقارنة مع مواقف « الماركسية » المحلية المزامنة السائدة (والتي ليس لها صلة بماركسية ماركس ولينين) ، ولكنها مواقف ناقصة بالمقارنة مع ماركسية ماركس ولينين .

٢ – وبعد . فان رفاقنا مصيبون حين يضعون مفهوم الامبريالية كركيزة أساسية لتحاليلهم ، وهذا الموقف هو موقفنا في الحقبة السابقة والحقبة الحاضرة معاً . إن كون الحركة والفكرة القومية العربية تتبلور في مرحلة الامبريالية يقيم بينها وبين الحركات القومية في عصر الرأسمالية الصاعدة هوة حقيقية .

في الحالة العربية أيضاً ، عنصر صعود الرأسمالية العربية ليس غائباً بنسبة ١٠٠٪ . ولكنه غائب بنسبة ٩٠٪ . في الحالتين ، طابع تقدمي وجماهيري ، ولكنه في الحالة العربية أكبر بعدة مرات ، ومن نوع آخر ونحو آفاق أخرى

---

(١) أنظر كتابنا : « الماركسية والمسألة القومية » – حوار مع الزميل بسام طيبي ، دار الطليعة .

الحركة القومية العربية تجري وتتطور وتنسبط في عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية ، وكجزء - خطير بالغ الخطوره – من الثورة الاشتراكية العربية .

في الحالة الأوروبية ، التحرر القومي والوحدات القومية للشعوب الكبرى ، أي تكوّن الدول القومية للفرنسيين والألمان والطليان وغيرهم كان جزءًا خطيراً وبالغ الخطورة من التقدم التاريخي الكوني ، من التحوّل البرجوازي العظيم ، من الثورة الديمقراطية العظيمة . وفي الحالة العربية ، **يتكرر هذا مع التعديل** : جزء خطير الخ ... من الثورة الاشتراكية العالمية التي تتضمن نزع الاستعمار والامبريالية والتخلف . وكما قلنا مراراً : عنصر النمو البرجوازي (بمعنى نمو **الطبقة** البرجوازية العربية) ليس غائباً في الحركة القومية العربية في المئة سنة الأخيرة ، ولكنه ثانوي . العنصر الأساسي هو الصراع مع الاستعمار الغربي ، ومع الاستعمار التركي ، مع الامبريالية العالمية ومع الصهيونية والاستعمار السكاني في الأطراف العربية . وهذا الصراع الكبير ، الشعبي ، المتأخر والمتقدم ، الذي انبسط وتطور خلال نيف ومئة عام ، لا نستطيع أن نضعه تحت قيادة مقولة « البرجوازية العربية » كما نضع الحركات القومية الفرنسية واليونانية والألمانية ، حتى وان وضعنا النضال ضد الانتداب الفرنسي في قطر ما ، وفي فترة ما تحت « قيادة برجوازية » هذا القطر : بتعبير آخر اننا ندعو رفاقنا اللبنانيين إلى مزيد من التقدم نحو فهم القيمة التاريخية **الكونية** universelle للحركة القومية (في أوروبا الماضية أيضاً) ، وإلى وضع حد لميلهم القليدي نحو مقولة « الطبقة البرجوازية » في الحالة العربية (وجزئياً في بعض الحالات الأوروبية) .

ثالثاً – ان ما يقوله الرفاق اللبنانيون عن تسلّل الاقطاعيين وزعماء الاسرة الهاشمية والمشاريع الاتحادية الانكلو – هاشمية المشبوهة ثم عن «محاولة البرجوازية الحاكمة في البلدان المستقلة حديثا استقطاب التيار الشعبي والوحدوي

والظهور بمظهر الرائد لتحقيق الوحدة العربية » بعد سقوط تلك المشاريع الانكلو – هاشمية ، صحيح إلى حد كبير .

وهو صحيح في انه يكشف زيف تلك المشاريع وهذه المحاولة . بل نتصور أن الرفاق اللبنانيين لا يخالفوننا اذا قلنا ان تلك المشاريع الانكلو – هاشمية كانت محدودة ومستحيلة بل وغير جدّية من وجهة نظر اقامة « الوحدة العربية ». جدّيتها الممكنة تنحصر في الرغبة في أقامة اتحاد اردني سوري عراقي ، تحت الوصاية الانكليزية ، مع استبعاد الفرنسيين وسواهم (الاميركيين) . حين مات الملك عبدالله أو حين تنحّي ابنه طلال ، لم يّضم الانكليز الاردن إلى العراق وعرش العراق .. ومهما يكن من أمر ، فان تلك المشاريع الوحدوية الانكلو – هاشمية لم تكن ممكنة وجدّية كمشروع لإقامة الوحدة العربية : سير الاستغلال الامبريالي للوطن العربي يذهب في اتجاه التجزئة وتعميقها ، وبريطانيا ليست وحدها في الساحة والتجزئة ضرورية للوجود والنمو الاسرائيلي ، والتصور بأن الامبريالية يمكن ان تقيم الوحدة العربية « لكي تحكم بشكل أفضل » تصور أحمق مفاده ان الامبريالية ليست الامبريالية . لحسن الحظ ، ان الرفاق اللبنانيين نبذوا كلياً هذا المنظور .

غير اننا نرى في هذا التشخيص التاريخي للرفاق اللبنانيين تحديداً للطبقات الاجتماعية و « المراحل » ، فيه شيء من القسر و « السحب » التقليدي : « تسلل الاقطاعيون إلى قيادة الحركة القومية » وبعد « سقوط المشاريع الاقطاعية – الهاشمية حاولت البرجوازية الحاكمة في البلدان المستقلة حديثاً الظهور بمظهر الرائد لتحقيق الوحدة العربية » . ليس البرجوازية اللبنانية على كل حال وليس البرجوازية المصرية (قبل عام ١٩٥٢ وبعدها) . وان قطاعات من البرجوازية (مثلاً في سوريا) حاولت الخ .. ولنقل ارادات أو رغبت فعلاً تحقيق وحدة عربية . ولكن مطامحها كطبقة ، وبالاحرى مطامحها القومية الوحدوية كانت محدودة دائماً . رغم ان مثال الوحدات القومية الاوروبية (بسمارك مثلاً ، أو ما تزيني وغاريبالدي وأسرة ساردينيا الخ ...) قد راود

دائماً (وقبل سقوط المشاريع الانكلو هاشمية)،قطاعات من هذهالبرجوازية ، ولنقل قطاعات من المثقفين والطلاب والشعب والاقطاعيين والأمراء وهلمجرا .

ان كون البرجوازية السورية (وجزئياً العراقية) كانت أكثر تعاطفاً مع « الفكرة العربية » ومع فكرة الوحدةالعربية،من البرجوازية المصرية،خاصةً قطرية تظهر بقوة في الطبقات الشعبية ، وتجد تعليلها في اوضاع القطر،في اوضاع « سوريا الصغرى » و « سوريا الكبرى» : لا يوجد كيان سياسي سوري عبر التاريخ (على غرار كيان مصر ، أو جزئياً العراق ، أو المغرب) . وفي ١٩١٨ وبعدها ، جزئت المنطقة السورية الى دول رُسمت حدودها احياناً بالمسطرة . وبالطبع ، فان البرجوازية السورية متقدمة على البرجوازيةالعراقية وميولها « القومية » « الوحدوية » أكبر . وتأتي الوحدة الحقيقية في ١٩٥٨ — ١٩٦١ لتكشف حدود وزيف هذه الميول .

رابعاً — ان ما يقوله الرفاق اللبنانيون عن القضية الفلسطينية صائب وثمين. حقاً « كانت كارثة فلسطين عنصر تجمع قومي للشعوب العربية في المشرق والمغرب ، التي ادركت ان المسببين الحقيقيين لهذه الكارثةهم الاستعمار وعملاؤه الحكام الرجعيون الذين خانوا قضية شعوبهم الوطنية والقومية » . ورداً على تآمر الاستعمار والرجعية والصهيونية في فلسطين ومقاومة للاحلاف والهجوم الامبريالي بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ، شددت الشعوب العربية نضالها ، فقامت الانتفاضات الشعبية العارمة في العراق والاردن ولبنان ، واطاحت ثورة تموز بالملكية في مصر وأسقطت القوى التقدمية الوطنية دكتاتورية الشيشكلي في سوريا ، واندلعت الثورة المسلحةفي الجزائر . »

لا نعتقد انه موقف سليم ذلك الذي يجمع هذه الانتفاضات والثورات في جملة واحدة ، يضع في سطر منها اسقاط الشيشكلي ، بين ثورة مصر وثورة الجزائر . صحيح ان هذا هو التسلسل التاريخي : تموز ١٩٥٢ ، شباط ١٩٥٤ ، تشرين ١٩٥٤ . ولكن ليس اسقاط

الشيشكلي الذي يأخذ سطراً كاملاً بقيمة ومرتبة تلك الثورتين المصرية والجزائرية.
ولنتذكر بالمناسبة ، أن الحزب الشيوعي السوري – اللبناني في الشهور الأخيرة من حكم الشيشكلي (في أواخر ١٩٥٣ واوائل ١٩٥٤ حتى يوم سقوطه وما بعد هذا اليوم باسابيع) كان ينظر إلى موضوع الشيشكلي بمنظار آخر . لقد أخطأ الحزب الشيوعي آنذاك لأنه لم ينظر الى الموضوع الا من زاوية تصارع الاستعماريين، وبالأصح من زاوية محاربــة الانكلو ـ هاشميين وعملائهم السوريين لحاكم سوريا العسكري (الذي لم يتـّهمه الحزب الشيوعي في تلك الشهور الاخيرة بالعمالة ، ولم يسجل عليه في بيان شهير لرئيس الحزب انه أعطى شيئاً ما للاجانب ، بل والذي اعتبر في تلك الشهور ممثلاً للبرجوازية الوطنية في مواجهة اقطاعيي حزبي الشعب والوطني اللذين جروا ورائهم حزب البرجوازية الصغيرة – البعث – في مؤتمر حمص لصيف ١٩٥٣ [1] .

هل نسينا كل ذلك ؟ ولن يعارضنا الرفاق اللبنانيون في هذا التذكير (في تقريرهم السياسي ذكـّروا بأخطاء أكبر وأخطر بكثير) . ولكننا نرجوهم ان لا يتسرعوا ، ان لا ينسابوا لفظياً ، ان لا يجرّوا الاقطار ويسلسلوها ، ان لا يرصفوا الحوادث بهذا الشكل الزائف ، وان يتذكروا ان المؤتمر (مؤتمر حمص) الذي وضع خطة اسقاط الشيشكلي قــد ضم غالبية ساحقة من الحزبين الاقطاعيين – البورجوازيين السوريين – وان بينهم أناساً ضالعين مع الانكليز ، وان أناساً آخرين وفدوا من بغداد الى سوريا عقب او ابان سقوط الشيشكلي ، وان الذين لعبوا الدور الحاسم في صدّ هؤلاء هم عدنان المالكي والضباط البعثيون الاشتراكيون الذين كانوا متجاوبين مع المقاومة الشعبية والطلابية والبرجوازية والعمالية ضد دكتاتورية الشيشكلي وضد المشاريع الاجنبية الاستعمارية ، وان الشيشكلي كان يملك قدرة عسكرية لا بأس بها تمكنـّه من المقاومة لولا أنه أدرك أن ايامه قد

(١) مع سحب مشوه ومقلوب من قبل رئيس الحزب خالد بكداش لمنطق لينــين « ضد المقاطعة » في ١٩٠٧ في مقال نشرته نضال الشعب ونشرت جزءاً منه جريدة الكومنفورم ، كتبه بكداش تسويغاً للاشتراك في انتخابات اول تشرين ١٩٥٣ أي قبــل سقوط الشيشكلي بخمسة شهور !

انتهت وأن أحداً من أصحاب القوة الدولية في المنطقة لن يؤيّده (وان أحد ضباطه قد فكـّر في اليوم التالي لتنحـّي رئيسه بالاتفاق « مع الشيوعيين ومـع موسكو » ضد الانـكليز ، أو مع عدنان المالـكي . اسألوا عن هذه الحادثة الرفيق نصوح الغفري) . ومهما يكن من أمر هذه الملابسات فان جملة تقول « اسقطت القوى الوطنية والتقدمية دكتاتورية الشيشكلي في سوريا » ليست لائحة كاملة عن القوى التي اسقطته . هذا كثير أو قليـل . c'est trop ou trop peu . رحم الله الاموات والاحياء . وما يهمّنا الاحياء ، واتعاظهم ، ودقة كلامهم .

خامساً – الفقرة المتعلقة بثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ فقرة جيدة . لقد مضى إلى غير رجعـــة ذلك الزمن الذي كانت فيه قيادة الحزب الشيوعي السوري – اللبناني (في اوائل ١٩٥٨) تصدر قراراً عن « الاتحاد بين سوريا ومصر » تضمّنه عرضاً طويلاً لتاريخ حركة التحرير العربية السورية والمصرية ، يذكر (بطبل وزمر) جلاء القوات الفرنسية والانـكليزية عن سوريا ، وعدّة أشياء سورية ، وعدة أشياء مصرية (جلاء ، تأميم السويس) ، ويتجاهل هذا الذي بدونه لما كانت هذه الاشياء المصرية ألا وهو ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ . حقاً ان هذه الثورة « لم تكن بداية عهد جديد في تطور مصر الداخـلي ، السياسي والاجتماعي فقط ، بل كانت أيضاً نقطـــة انعطاف كبرى » في مضـمار الحركة العربية القومية . هذا ما كتبناه دائماً . ان البعض يرى غير ذلك لأن انقلابيي ٢٣ تموز لم يعلنوا في ٢٤ تموز ان مصر جزء من الأمة العربية ، أو لأن عبد الناصر في كتاب « فلسفة الثورة » لم يقتصر على الدائرة العربية بل ذكر أيضاً الدائرة الافريقية والدائرة الاسلامية (ولو أنـّه وضع الدائرة العربيـة تصريحاً في المرتبة الاولى ، والاعلى) . الرفاق اللبنانيون على حـق كل الحق . ولـكن تتمة الفقرة تحتاج الى مزيد من الدقة : « نقطة انعطاف كبرى ضربت قيود الانعزالية التي كانت حتى ذلك الحين قوية ، تفصل مصر عن العالم العربي ،

وأدخلت الشعب المصري في مكانه الطبيعي في حركة التحرر الوطني العربية وفي حركة الوحدة العربية » . هذا صحيح بالطبع ولكن ! إن قيود الانعزالية كانت قوية . ولكن مصر لم تكن منفصلة عن العالم العربي كل هذا الانفصال . كانت مركزاً لجامعة الدول العربية وكانت تتعاطف مع جيرانها العرب في المشرق والمغرب ، وتفكر في وحدة وادي النيل ، ان وضع مصر ازاء الفكرة العربية والوحدة العربية لم يكن أسوأ كثيراً من وضع الآخرين . ولا يمكن ان نقيم التعادل بين الفكرة والواقع . أنّ كونْ أفكار ساطع الحصري وميشيل عفلق وآخرين ذات نفوذ قوي في دمشق وبغداد وبيروت وعمان وربما في تونس ومحدودة الأثر في مصر لا يغيّر شيئاً من واقع الموضوع : نضال الشعب المصري كان جزءاً « طبيعياً » من « حركة التحرر الوطني العربية » ومن « حركة الوحدة العربية » . وان رجلاً كالزعيم الوفدي مكرم عبيد لم يكن بعيداً عن الفكرة العربية كما يفهمها السوريون . ويبقى ان ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ كانت تطوراً حاسماً ، كانت انعطافاً لا مثيل له في تاريخ الحركة القومية العربية : مصر وثورة الجزائر ، مصر وحلف بغداد ، مصر وقضية فلسطين ، مصر والوحدة السورية المصرية ، مصر واليمن الخ ... ولقد وضعت الشعب المصري في مكانه الطبيعي ، وضعت مصر كقطر عربي في مكانها الطبيعي : **زعيمة للوحدة العربية .**

وهنا قد نختلف جوهرياً مع الرفاق اللبنانيين وقد لا نختلف جوهرياً معهم . والأرجح اننا نختلف أكثر مع طوائف أخرى من « الماركسيين » ومن « التقدميين » .

ان « الماركسيين ـ المضاعفين » ، « الماركسويين » ،« الطبقيين» ، (لنقل: الاقتصاديين) يعتبرون هذا الكلام هرطقة ضد ماركس ولينين . تصوّروا : قطر زعيم ! شعب زعيم ؟! اليست الزعامة لطبقة ! اليست الزعامة في الثورة البرجوازية للطبقة البرجوازية (وفي روسيا لينين للبروليتاريا) ؟ أليست الزعامة في الثورة الاشتراكية للطبقة البروليتارية ؟ أليست الزعامة في الوحدات

القومية الاوروبية للبورجوازية ؟ وفي الوحدة القومية العربيـة للبروليتاريا العربيـة .

نعَمْ في الوحدات القومية أيضاً ، الزعامة لطبقة ! ولكنها في الوحدات القومية يمكن ان تكون أيضاً لقطر ، لاقليم ، لدولة . ما دامت وحدة قومية ، وحركة توحيد لأقطار وأقاليم ودول وامارات فرنسية والمانيـة ومشيخات عربية ومُدن وهلجمرا ، يمكن ان تكون الزعامة أيضاً لقطر ، لدولة الخ ... في روسيا ، الثورةُ البروليتارية وسابقتُها الديمقراطية عرفت شيئـاً من هذا : زعامـة البروليتاريا هي ايضاً زعامـة بطرسبورغ وموسكو وايفانوفو وريفا واوديسا وتفليس والمدن الصناعية ،وزعامة « المركز » الروسي على « الاطراف » بما فيها الاطراف القومية (الاقطار القوميـة : اوكرانيا ، القوقاس ...) هذا واضح في سير الثورة الديمقراطية واوكتوبر الروسي وفي كل سير البناء الاشتراكي ذاته خـلال ربع قرن او نصف قرن . اما في الوحدات القومية الاوروبية – الغربية (فرنسا الخ) (بَدْءَ تاريخ تكوّن الأمم) ، فان هذا الشيء الذي نسميه زعامة اقليـم ظاهرة بديهية نجدها في نصوص الماركسيين : في تاريخ الأمة الفرنسية ودولتها القومية ، في تاريخ الأمة الروسية ودولتها القومية ، الخ الخ ، هناك دائماً اقليم زعيم قائد ، مركز تجمّع مهيمن مسيطر الخ الخ (لا نضنّ بلفظ ،خصوصاً اذا كان لفظاً رجيماً: زعامة، قيادة ، هيمنة ، سيادة ، المصطلح الماركسي الاجنبي الشهير hégémonie .

ولا نعتقد انه سيأتي يوم فيه تـَأمُرُ مصر الاقاليم الأخرى فتـُطاع ، ولكن حتى البروليتاريا في الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكي لا تأمر فتطـاع . وبالطبـع ان زعامة الاقليم ليست كزعامة الطبقة،وزعامة الاقليم لا تنفي تعدّد مراكز التجميع في الوطن العربي الكبير المتفاوت وأحياناً المتناثر . ولكن آن لنا ان نفهم هذه النقطة ، وان نقطع نهائياً مع المنظور الذي يساوي كل شيء ، أي جدلياً يضحي بكل شيء ، على مذبح « الطبقات » الاقتصادي . علينا ان نتعظ بدروس التاريخ ، وتاريخ الآخرين . وبقدر ما نفهم ونتعظ ، يمكننا ان

تمنع الزعامة الواقعية والمنشودة والطبيعية من ان تتحول إلى استغلال واستبداد وتصارعات منزفة لصالح العدو .

سادساً : الرفاق اللبنانيون لا يصلون إلى «زعامة مصر» . ولكنهم يركزون بحق على مصر : « ان دعم الشعوب العربيـــة في المشرق لثورة الجزائر وتوثيق الروابط بين عرب المشرق والمغرب واتساع حركة الوحدة، كل ذلك دفع الدول الامبريالية إلى تصعيد مؤامراتها واعمالها العدوانية لتجزئة النضال العربي وتوجيه ضرباتها على جهات مختلفة كانت قمتها محاولة تحطيم النظام الوطني التقدمي في مصر عن طريق العدوان المكشوف الذي قامت به بريطانيا وفرنسا واسرائيل في سنة ١٩٥٦ » . (ص ٢٩ - ٣٠) .

هذا كله يقوله الرفاق اللبنانيون بوضوح وتسلسل .

« لقد أدى صمود الشعوب العربية ومواجهتها الكفاحية الموحدة لهـــذه المؤامرات ، واستنادها الدعم الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية ، إلى إحباط العدوان الثلاثي على مصر ، ومقاومة الشعب السوري للضغوط واتساع الثورة الوطنية في الجزائر ، والانتفاضة الشعبية في لبنان ، وأسهمت في إنضاج الظروف الموضوعية لقيام ثورة ١٤ تموز في العراق التي ضربت ركيزة أساسية للاستعمار والرجعية في العالم العربي وحطمت حلف بغداد العدواني . كل ذلك مهد سياسياً وفكرياً ، لقيام وحدة سوريا ومصر عام ١٩٥٨» (ص ٣٠) .

وهذا ايضاً قاله الرفاق اللبنانيون بوضوح . ولكن التسلسل خانهم في هــذه المرة . وخانهم جوهرياً .

كلاّ : « الانتفاضة الشعبية في لبنان وثورة ١٤ تموز في العراق التي ضربت ركيزة أساسية للاستعمار والرجعية في العالم العربي وحطمت حلف بغداد » ، ليس «كل ذلك» « مهد سياسياً وفكرياً ، لقيام وحدة سوريا ومصر عام ١٩٥٨»

ان وحدة سوريا ومصر قامت في شباط ١٩٥٨ ، والانتفاضـــة الشعبية في

لبنان قامت في ربيع ١٩٥٨ ، وثورة ١٤ تموز في العراق التي ضربت . . . وحطمت ... قامت في ١٤ تموز ١٩٥٨ .

تلك زلة ! زلة جديرة بأن يتأملها رفاقنا اللبنانيون طويلاً . وان يفهموا أسبابها ، آليتها ، ماهيتها ، منطقها ، مغزاها .

بالنسبة اليهم ، الوحدة القومية جاءت تتويجاً لحركة صعود ، لحركة نضال وطني ، لحركة التحرر الوطني العربية ، في مصر وسوريا والجزائر ولبنان والعراق . هذه النضالات الوطنية الديمقراطية ، المصرية ، السورية ، اللبنانية ، العراقية ، الجزائرية ، الخ تمهّد للوحدة القومية ، والوحدة القومية لا تمهد لهذه النضالات الوطنية الديمقراطية . (ليس بعدَها في نص الرفاق اللبنانيين نضالات مشابهة ، انتفاضات ، ثورات ، الخ . بعدها : تجاوب ، ردّ استعماري – الاتحاد الهاشمي – ثم أزمة الوحدة ، اغفال الفوارق الموضوعية الخ والتأميمات ...)

والحال ، هنا النقطة – المسألة ! مقاومة العدوان الثلاثي واحباطه من قبل مصر والعرب والسوفيات ، مقاومة الشعب السوري للضغوط واتساع الثورة الجزائرية [1] ، كل ذلك مهّد للوحدة (ومهّد لها ودفع اليها تحكم شمعون وضغوط نوري السعيد والاتراك ومبدأ ايزنهاور ولعب السعودية الخ الخ والوحدة ردّ على هذا) .ولكن الوحدة مهدت للانتفاضة اللبنانية ، ولثورة ١٤ تموز العراقية التي حطمت الملكية وحلف بغداد ، ولاتساع الثورة الجزائرية (بتأليف الحكومة الموقتة للجمهورية الجزائرية) . الوحدة القومية تتويج وبداية ، حلقة حاسمة في السير ، في « العمليّة » ، في المدّ الثوري .

في مفهوم « اقتصادي » للتاريخ (« ماركسي » – زائف) ، الوحدة القومية هي بالضرورة خاتمة . في تاريخ الأمم الاوروبية مثلا ، انها حسب هذا المفهوم خاتمة لصعود البرجوازية وقضائها على الاقطاعية والاستبدادية والملكية .

---

(١) واشتداد نضال الشعب العراقي (بما فيهم شيوعيو العراق) ضد الحكم السعيدي الانكليزي لا سيا في فترة العدوان الثلاثي على مصر (وانتفاضة كوت الحي بقيادة شيوعية حقيقية في اثناء العدوان) ...

تلك لم تكن الحال في يوم من الأيام. لا في تاريخ الامة الفرنسية ودولتها القومية. ولا في تاريخ الوحدة الالمانية. واليوم ايضاً لن تكون الوحدة العربية خاتمة لصعود البروليتاريا، خاتمة للثورة الاشتراكية، أو خاتمة لعملية «الثورة الديمقراطية والاشتراكية وسقوط الامبريالية والاقطاعية والرأسمالية والتخلف. الحمقى وحدهم يتصوّرون ان الوحدات القومية خاتمة، محض نتيجة، ظاهرة ملحقة، عديمة الفعل épiphénoméne، كالنفس بالنسبة للجسد في المفهوم المادي المبتذل، الميكانيكي، في مدارس علم النفس القديم، كالسياسة بالنسبة للمجتمع (بالنسبة للاقتصاد!) في عدد من التيارات «الماركسية» عندنا. الحمقى وحدهم. أي ثلاثة ارباع «ماركسيينا». ليس الرفاق اللبنانيون من الحمقى. لم يقولوا ولن يقولوا ان الوحدة محض تتويج وخاتمة لسير التحويل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الوطني والديمقراطي والاشتراكي. ولكنهم، في عرض تسلسل احداث ١٩٥٦ – ١٩٥٨ الثورية الهائلة، وضعوا الوحدة في الخاتمة. كل الباقي مهد لها. وهي لم تمهد لشيء من هذا الباقي. ظاهراً، هذا التاج الوحدوي جميل واقعياً، انه مزوّر (محسَّن)، مزيف، خاطىء، قبيح، يقود إلى منظور الوحدة القومية – الخاتمة، خاتمة المد، أو خاتمة العملية، أو خاتمة أي شيء آخر.

والحقيقة التاريخية هي كما يلي: احباط العدوان الثلاثي، مقاومة مبدأ ايزنهاور وضغوط شمعون – سعود وانقلاب الاردن والضغوط التركية، وانقسام حلف الدول الأربع: القاهرة – دمشق – الرياض – عمان، واحتدام الصراع بين حركة التحرر والامبريالية وخطر سقوط سوريا (لا سيما بتفكك وانقسام القوى التقدمية وتآمرها على بعضها البعض، واستعداداتها السخيفة البغيضة) وبقاء جذوة النضال الشعبي الاساسي ضد الامبرياليه ومشاريعها وإمكان ووجوب إحراز تقدم جديد ← وحدة سوريا ومصر في الجمهورية العربيه المتحدة، أول وحدة قومية في تاريخ العرب في عصر الامبريالية (شباط ١٩٥٨) اتحاد هاشمي، واستمرار واشتداد مؤامرات العدو، الانتفاضة الشعبية في

لبنان ، ثورة ١٤ تموز في العراق وسقوط الملكية الانكلو - هاشمية ، واول ضربة للملكية الزراعية الاقطاعية الرأسمالية في سوريا والعراق، واشتداد الثورة الجزائرية (وتشكيل دولتها الرسمية) ، واحتمالات تونسية وأردنية الخ (صيف ١٩٥٨) ....

سابعاً : يقول البرنامج اللبناني عن موقف البرجوازية من الوحدة : «فخلافاً لما كانت تطمح اليه الجماهير الشعبية الواسعة في البلدين من تحقيق لامانيها القومية ، ومن تطور اقتصادي واجتماعي في ظل الوحدة ، كان للبرجوازية الكبرى في كل منهما مصالحها الطبقية الخاصة . فالبرجوازية الكبرى في مصر كانت تأمل ان تكون الوحدة طريقها إلى التوسع الاقتصادي ووسيلتها لحرف الحكم التقدمي في الداخل والسيطرة عليه . وكانت البرجوازية السورية تسعى لأن تكون الوحدة أداتها لضرب النهوض الشعبي الديمقراطي »[1] . (ص ٣٠ - ٣١) .

الجملة الأولى صحيحة تماماً . الثانية والثالثة صحيحتان مع التحفظ ، أو مع الاضافات الضرورية : الكبرى في مصر سعت لكي تجعل من الوحدة وسيلة أو مناسبة لتوسعها الاقتصادي ، بعد قيامها ، أو منذ قيامها - ولكن لا شيء يشير إلى ان هذه البرجوازية الكبرى المصرية (أو ممثليها الحقيقيين أو المحتملين في الحكومة المصرية ، في الزعامة العسكرية المصرية) قد دفعت إلى هـذه الوحدة لتكون طريقها ووسيلتها إلى التوسع الاقتصادي وغيره . ولا ننسى ان البرجوازية المصريـة - على حجمها وضخامتها النسبية - تشتهر نسبياً (أي بالمقارنة) بانعزاليتها السياسية . هـذا شيء يستغربه « الاقتصاديون » (أي « الماركسيون ») ولا ينساه ، الماركسيون غير « الاقتصاديين »[2] .

(١) ثم يتابع : « وقد وقفت هذه المصالح عقبة في وجه تطور الجمهوريـة العربية المتحدة وترسيخ الوحدة على أسس سليمة .

(٢) اشرنا إلى هذه النقطة سابقاً ، وعللناها جزئياً بالخاصة القطرية السورية ، والخاصـة القطرية المصرية ، على صعيد « الكيان » التاريخي : هزاله وإنعدامه في الحالة السورية ، قوتـه في الحالة المصرية .

وبالطبع ، لم يقل الرفاق اللبنانيون ان البرجوازية الكبرى دفعت إلى وحدة شباط ١٩٥٨ . (بل ان حديثهم عن هذه البرجوازية الكبرى وأملها جاء بعد وفي سياق نقد تجربة الوحدة) . وبذلك تجنبوا خطأً شائعاً في صفوف بعض « الماركسيين » القدامى والمستحدثين .

ان حديثهم عن البرجوازية السورية أقل صواباً بقدر ما : « وكانت البرجوزاية السورية تسعى لأن تكون الوحدة أداتها لضرب النهوض الشعبي الديمقراطي » .

هل كان في سوريا ١٩٥٧ واواخر ١٩٥٧ نهوض شعبي ديمقراطي ؟ نعَمْ ولا ! ولاقبل نعم ، وبالاحرى في المعايير « الحزبية » و « الجبهوية » التي درج عليها الرفاق :

ان الانتخابات الفرعية (في حمص : أحمد الحاج يونس ، وخصوصاً في دمشق رياض المالكي) ، في اواسط عام ١٩٥٧ قد أسفرت عن انتصار مرشح حزب البعث والشيوعيين وكتلة خالد العظم وجماعة هاني السباعي والقوتلي والعسلي وأكثرية الحزب الوطني والجيش والشعبة الثانية ، (مع تأييد مفتي الجمهورية والشيخ أحمد كفتارو ، ومع تأييد القاهرة أيضاً) ضد مرشح الاخوان المسلمين وحزب الشعب وأقلية الحزب الوطني ورابطة العلماء (في دمشق : مصطفى السباعي) بأكثرية ضئيلة (في دمشق : ٥٢٪ مقابل ٤٨٪ ، مع ٦٥٪ من المستنكفين حسب العادة). ترى ، بدون خالد العظم وأكثرية الحزب الوطني ... مـــاذا كانت النتيجة ؟ ٢٥٪ مقابل ٧٥٪ ؟ في ١٩٥٧ ، رغم النهوض الشعبي الديمقراطي المحدود كان الوضع السوري واقفاً على الجيش . وفي الجيش طيلة هـــذا العام ، انقسامات ومشاكل وتكتلات وتحولات ، واخيراً في صيف ١٩٥٧ ، تبلور كتلتين عسكريتين تقدميتين (أو شبه تقدميتين) متنازعتين ، وتربص كل منهما بالأخرى ، وانقسام وتبلور كتلتين داخل ما كان يسمي بالصف الوطني والتقدمي الذي ساند المالكي ضد السباعي في الانتخابات الفرعية : من جهة البعث والحزب الوطني ، ومن أخرى خالد العظم والشيوعيون . الجهة الأولى دفعت إلى الوحدة ومعها الضباط الاشتراكيون ، ومعها الضباط المعدودون على الجهة الأخرى . والجماهير الشعبية وجدت في ذلك تعبيراً مباشراً عن أعلى مطامحها وأكثرها إلحاحـــاً .

حين يعيد « الشيوعيون » السوريين (الذني عارضوا قيام الوحـدة ، ثم صفقوا لها مضطرين وتحفظوا ثم كافحوها) او « الاشتراكيون السوريون (الذين دفعوا إلى الوحدة مع الطبل والزمر ومـع المزاودات المتبادلة في المجلس العسكري الأعلى بين الكتلتين العسكريتين) ،حين يعيدون كتابة التـاريخ ، مثاليـاً ، « ايديولوجياً » ، « تزويرياً» ،أي تحسينياً (فعلوا ذلك في ألف مقال، فعـل ذلك اكرم الحوراني في ١٩٦٢ ، حاكماً على نفسه حكماً مميتـاً دونما وعي) ، فانهم مضطرون إلى اصطناع اسطورة : في صيف ١٩٥٧ ،الجماهير الشعبية السورية بقيادة الجبهة الوطنية الشيوعية - البعثية كانت تنقض على مواقـع الاستعمار والرجعية، مما أخاف اميركا ودفعها إلى اقامة الوحدة تحت زعامة عميلهـا الخفي عبد الناصر ، لكي يضرب هذا العميل القوي الوطنية ، لكي يضربهـا بنفسه ورجاله ويضرب بعضها ببعض . . منذ زمن طويل (منذ البداية ، منذ نيف وعشر سنوات) وضعنا الامور في نصابها :لم يكن هناك جبهة وطنية بل تحالف محدود من شيوعيين وبعث وأحزاب اقطاعية -رأسمالية وطنية و كومبرادورية ، وداخل هذا الحلف الهش تصادم حقيقي بـين كتلتين لم تكونا كتـلة يسار و كتلة يمين، بل كتلة بعث وقوى اقطاعية -رأسمالية و كتلة شيوعيين وقوى اقطاعية رأسماليـة . وطوال سنة ١٩٥٨ والنصف الاول الدامي من ١٩٥٩ (الدامي في سوريا وفي العراق) ، كان رأي الشيوعيـين بالبعث ورأي البعث بالشيوعيين غير هذا التزوير اللاحق : من مآخذ الشيوعيين على عبد النـاصر في صيف ١٩٥٨ انه يحوي في رئاسته اكرم الحوراني الذي كشفته على حـد قولهم محاكمات بغداد تموز والمهداوي ، ويسلم الحكم للبعث الذي (على حد قولهم) قبض المال من بغداد الملكية بدليل بيان صبري العسلي في تبرئة نفسه حين اضطر إلى الاستقالة والتنحي (جريدة النور ، الجريدة الحزبية الوحيدة التي استمرت في الصدور حتى اواخر ١٩٥٨ ، نشرت هذا البيان مع العناوين المناسبة)[١] .تلك

---

(١) وجزئياً حتى ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ظل رأي الشيوعيين بالبعث سلبيـاً : عميل ، فاشستي...في ١٩٥٩ حين كان ضابط مباحثي ما يبطش ويعذب ويزني ، كانت « النداء »←

اشياء يذكرها جيداً نقولا شاوي ورفاقة اللبنانيون ما دام مقرّهم كان في دمشق في جريدة النور حتى هذا الشهر الاخير من ١٩٥٨ ! [١] وقـــد يتصور الرفيق نقولا شاوي انه اليوم « خالص » quitte . ما دام نقده الذاتي أصاب الجوهر الاساسي فهذا يغنيه عن التفاصيل. لسوء الحظ، حين يتحدث عن النهوض الشعبي الديمقراطي في سوريا ١٩٥٧ وصيف١٩٥٧، ويسكت عن تفكك القوى السياسية الحزبية والعسكرية الوطنية – التقدمية ، فانه يفسح مجالاً للرجوع إلى خرافة سافلة ، على يد زملاء آخرين. وعن هذا النهوض الشعبي السوري لعام ١٩٥٧ورد في تقرير اللجنة المركزية اللبنانية وصف « الكاسح » ، وهنا يسوء الأمر حقاً ! ça ne va plus ! في هذا « الكاسح » ليس فقط يفسحون المجال للرجوع الى الخرافة بل يبقون عليها ، بعد تهذيبها « وحدوياً » .

رجوعاً الى البرجوازية السورية نقول : كانت همومها كثيرة ، ولا نعتقـد ان همها الاول كان ضرب النهوض الشيوعي – البعثي (المحـــدود والمفكّك والمتناحر) . من أهدافها ورغباتها وميولها وعواطفها : ضرب النهوض الشعبي ودور الجيش والخلاص من « الاحزاب » الموجودة والمحتملة (احزابها هي ليست خطيرة كأحزاب ، قوتها الاقتصادية كفيلة بزعامتها) بتحقيق هـــذه الوحدة القومية ، فتح باب تجاري إضافي لها في مصر (وربما مستقبلاً في العراق) ، منع مجيء الوحدة ضد ارادتها (ليست هي التي أتت بالوحدة بل الجماهير الشعبية ، الشعب السوري والشعوب العربية ، وآنياً الضباط والبعث وعبد الناصر) ،تأخير مجيء الاصلاح الزراعي .. وهذه الوحدة تمت في شباط ١٩٥٨ بدعم ٩٩ ٪ من عمال وفلاحي وشغيلة سوريا ، وتأييد غالبية البرجوازية المتوسطة وقسم لا بأس به من الاقطاعيين والبرجوازية الكبيرة ، وتأييد نيف وتسعة اعشار شعوب المشرق والمغرب العربيين . والمظاهرات الشعبية السورية التي استقبلت الوحدة

البيروتية تقول : الضابط المباحثي البعثي فلان حتى حين كان فلان لا صلة له بالبعث حـــاضراً وسابقاً ، أو كان له سابقاً بعض الصلة « بالتقدميين الوطنيين الشرفاء » أي بالشيوعيين .

(١) ثم انتقلوا الى « النداء » في بيروت ، خليفة « النور » فوراً .

ورئيسها ضمت من الجماهير الحقيقية عشرة أضعاف أو عشرين ضعف ما ضمته أية مناسبة سابقة . من يستغرب هـذا الاجتماع الآ ني بين طبقات المجتمع السوري يجب ان يستغرب أكثر الاجتماع الآني بين طبقات المانيا في ١٨٧٠ . المعارضون أو الكارهون أو المتحفظون « شلل » سياسية هامشية واصبحت اكثر هامشية نتيجة موقفها : القوميون السوريون، خالد العظم وهاني السباعي ، الشيوعيون، بعض المثقفين والمنظرين .

ثامناً – تغيرت الحال تدريجياً : عاد الشيوعيون إلى تحفظاتهم . بعد فترة من القبول والتأييد ، شددوا التحفظات ، ثم انتقلوا إلى العداء مع: جريدة « الرأي العام » لأحمد عسه ، طبقة ملاكي الأرض ، الطبقه الرأسمالية ، بعضُ الضباط ، ثم في اواسط ١٩٥٩ ، قسم من البعث ، ضباط آخرون ، كتل عسكرية مختلفة ، نقابيون . واصبحت الطبقة الاقطاعية – الرأسمالية ووراءها الامبريالية العالمية هي القوة الضاربة من وراء مستفيدة من العسف الحكومي والبيروقراطي والفضائح ، من الأزمة الزراعية والاقتصادية ، من الضياع الفكري والسياسي ، من شعارات « التعاون الطبقي » ولا يسار ولا يمين » و « إبعاد الجيش عن السياسة » و سخافة « الاتحاد القومي » و تذمر العسكريين السوريين ونقمتهم المشروعة وغير المشروعة ... أصحاب النوايا الطيبة والوعي الفاسد ما كانوا الا مطية وأداة ، فاعلة وفاعلة تماماً على طول الخط .

في تموز ١٩٥٨ ، أطاحت ثورة تموز بأقوى ركيزة للاستعمار التقليـــدي ، واشتعلت منطقة الشرق الاوسط (نزول القوات الانكلو– اميركية في الاردن والعراق) . والسوفيات والاميركان والعرب وهيئة الأمم أطفأوا الحريق . . في موسكو (في طريق العودة من بلغراد الى دمشق عبر موسكو في منتصف تموز) فهم عبد الناصر أشياء واشياء : عدم قبول السوفيات لاحتمال حرب عالمية على

الشرق الاوسط ، صدق خروشوف [1] . عراق تموز لن ينضم الى الوحدة . وفي ظرف السكوت عن الموقف الدولي ، تطغي في الكلام و « الايديولوجيا » ، اعتبارات ثانوية على الاعتبار الرئيسي في عقل بعض الطيبين ، الوحدة السورية — المصرية يجب أن تصبح نموذجاً طيباً ، ولتكن هناك مباراة طيبة بين الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة ، وليتعاونوا على البر والتقوى ، على « حركة التحرر الوطني » السرمدية . أنْ تصبح الوحدة السورية المصرية نموذجاً فهذه خرافة ! أنْ يُصبح قطر عربي ديمقراطي وطني تقدمي اشتراكي وهلجرا نموذجاً فهذه خرافة ! والشيء الذي ليس خرافة في هذا الزمن الامبريالي والصهيوني هو الصراع ، القتال ، وتخطيط كل شيء بما فيه « النموذج » المحدود على هذا الأساس.

حين تمّ الاتفاق في هيئة الامم ، وحين سحب الاميركيون والانكليز قواتهم من لبنان والاردن ، وعاد الهدوء ، وعادت المياه الى مجاريها ، الى قصور البعض ورذالة البعض الآخر . كان واضحاً لكل من يفتح عينيه ان الانكلو — اميركان تراجعوا لأنهم « ضامنون » هذا الذي سيحدث بعد قليل . ولكي يحدث فإنهم لا يحتاجون الى « عملاء » كثيرين ، يكفي عملاء قليلون وألوف من اصحاب النوايا الطيبة والاخلاص المطلق للحقيقة « المطلقة » والوعي الخاطىء والقاصر والفاسد والسافل . وبدأ التضارب ... الدبابات السوفياتية والانكليزية ظهرت

---

(١) وقد أشار حسنين هيكل الى هـــذا الموضوع في كتابه « ما الذي جرى في سوريا؟ » . وتحدثنا عنه في كتابنا « الماركسية في عصرنا » ، الطبعة الثانية ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ : مسألة القاهرة والبعث وانضمام العراق الى الوحدة ، الاختلاف بين بكين وموسكو وسفر خروشوف الى بكين وتلميحات بكين . لنكن صادقين، لا يمكن السكوت عن هذا الوجه الدولي. لقد دفعنا نحن ثمن هذا السكوت أيضاً. نقول ثمن السكوت والتجاهل والاغفال، ولا نقول ثمن السياسة السوفياتية ، سياسة تحاشي الصدام ، بل ثمن سكوتنا نحن ، تجاهلنا ، إغفالنا للجانب الدولي ، فتاوينـــا الايديولوجية والنظرية مع إغفال الجانب الدولي تحت صيغ من نوع «تأييد ودعم ومسانـــدة الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي لحركة التحرر العربية » وهي صيغ صحيحة ، وعامة تتحول الى عموميات — معميات . والثمن ليس صغيرا : فرج الله الحلو ورفعت الحاج سري ومحمد حسين ابو العيس ومئات من الشيوعيين والبعثيين والقوميين والوطنيين ، والوف من الجنود المصريين واراضي مصر وسوريا وفلسطين الخ ...

معاً في شوارع بغداد قاسم في ١٤ تموز ١٩٥٩ . بين ١٩٥٢ و ١٩٦٥ ، كان عسكريو القاهرة قد طرقوا طويلاً ابواب عواصم الغرب من اجل السلاح . كانوا قد أخبروا السفارة الاميركية بالانقلاب في ٢٣ يوليو . ثم قبلوا بمعاهدة جلاء حملنا عليهم بسببها ، ودافعنا عن الاخوان المسلمين . و « كافحوا الشيوعية » وكافحتهم ... ومع ذلك لا سلاح من الغرب ! وعراق ١٤ تموز ، والشيوعيون وشعاراتهم « الوطنية الديمقراطية » في الاذاعة والصحف ، ينال سلاحاً ثقيلاً من الغرب . تجارة ! ولكنّ تجارةً منعَها الغرب عن مصر في ظروف أقل ثورية بكثير ، ظاهراً ! وشيوعيو بغداد ودمشق وبيروت والقاهرة لا يستنتجون شيئاً من هذا .

حُصرت الوحدة في القطرين الاقليميين ، تمهيداً لقتلها . ورغم التعفّن ، لم تمت تلقائياً ، لم تمت نتيجة القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، بل قتلتها الامبريالية والرأسمالية والاقطاعية ، وبعض أصحاب النوايا الطيبة والسلاح . وقتلتها بعْدُ قوانين التأميم لتموز ١٩٦١ ، وبعد اختيار لتصحيح ما جزئي ومحتوم ودفعت اليه الوقائع . الجماهير (ولا سيما الجماهير البروليتارية السورية) التي وضعها الحكم الوحدوي خارج الفاعلية التاريخية هبت في يوم الانفصال لتدافع عن الوحدة ولتستأنف وتُطوّر المعركة العامة ضد الامبريالية والاقطاعية والرأسمالية بوعي متقدّم ، جزئي ، ناقص ، ولكنه صحيح مبدئياً وأولياً ، بينما دفع حزبَ البروليتاريا المزعوم فسادُ وعيه الى ذروة لم يبلغها فساد الوعي عند أي حزب تقدمي في تاريخ هذا العصر .

حقاً ، كما يقول البرنامج اللبناني : « كشفت البرجوازية وجه العداء السافر للوحدة وتآمرت عليها بالتحالف مع الاقطاع وكرست نفسها نهائياً عدوة للوحدة القومية . في حين ان الجماهير الشعبية وفي طليعتها الطبقة العاملة ، برهنت على انها حاملة راية الاماني والمصالح القومية العليا الى جانب حملها رسالة التحرر السياسي والاشتراكية » (ص ٣١) . غير ان الحزب الذي رفع « صيغ » « الجماهير الشعبية وفي طليعتها الطبقة العاملة » وقف بقوة مع تحالف البرجوازية

والاقطاع ، ضد الجماهير الشعبية .

تاسعاً : يقول البرنامج اللبناني «لقد جاء فشل الوحدة صدمة عنيفة للمنظمات القومية وامتحاناً عسيراً لمفاهيمها عن الوحدة والقومية التي صاغتها خارج الاطار التاريخي وبمعزل عن العمليّة الاجتماعية والنضال الطبقي الجاري في البلدان العربية وبمعزل عن ظروفها الموضوعية » . (ص ٣١) .

وهذا صحيح تماماً . والنقص فيه هو **موضوع الامبريالية** . والمفاهيم التي صاغها سدنة « الماركسية » المحليون كانت أكثر خطأ ، ولم تسهل بالتالي تبديد أوهام « القوميين » اللاطبقية .

وبهذا الصدد ، نكرر الآن ردّ لينين على رفاقه « اليساريين » في ١٩١٦ حول مسألة « حق الامم في تقرير مصيرها » . بياتكوف ، بوخارين ، راديك ، ومئة آخرون يقولون للينين : شعار برجوازي صغير يجب تركه ولينين يرد : نعم . ولكنه شعارنا أيضاً . صفته البرجوازية — الصغيرة هي في تجاهل صراع الطبقات والرأسمالية والامبريالية . ونحن لا نترك هذا الشعار بل نفنّد جانبه الرديء البرجوازي — الصغير ، ونتمسك به الى النهاية . وهذا ما نقوله نحن الآن بصدد « الوحدة العربية » وفكرها « القومي البرجوازي » . والشيوعيون اللبنانيون يقولون معنا : صراع الطبقات . ونحن نقول ايضاً : **الامبريالية** . انه خطأ قاتل ان ننسى صراع الطبقات والامبريالية ، خطأ يرتكبه الفكر « القومي ». ولكنه خطأ أشد قتلاً بكثير ان نقف ضد الوحدة العربية . ونقول الآن : ونسيان الامبريالية والنضال ضـد الامبريالية ، يعيدُنا مرة أخرى الى « المفهوم العلمي الطبقي » الاقتصادي . وحين يضيف الرفاق اللبنانيون : « وقد ادى ذلك بالكثير من أعضاء هذه المنظمات وانصارها ، خلال عمليـة تمايز واضحة ، الى اعادة النظر بمفاهيمهم ومواقفهم وساعد على انعطافهم نحو افكار الاشتراكية »(ص ٣١) . فإننا نقول:

هذا صحيح . ولكن يجب ان نتساءل : ما هي أفكار الاشتراكية تحديداً ؟ وهل الانعطاف المذكور كان فعلاً نحو الموقف الماركسي – اللينيني الصحيح من قضية الوحدة ومن قضية الثورة العربية ؟ لا ريب ان هذا الانعطاف حدث فعلاً بالنسبة لمئات وألوف المناضلين . ولكن مئات وألوفاً أخرى لم تفعل سوى اتخاذ « الماركسية » و « الاشتراكية العلمية » لافتة لتسويغ الحرب على الوحدة القومية . ان الرفاق اللبنانيين أصدروا برنامجهم في صيف ١٩٦٨ ، وبعد أقل من عام دخلوا في نضال كبير ضد أفكار وآراء القوميين العرب اليساريين (جريدة الحرية) الذين بزّوناجميعاً في رفع اللافتة الماركسية – اللينينية الطبقية البروليتارية اليسارية . .

والانعطاف صحيح بالنسبة لعشرات الألوف من خارج « المنظمات »، ولا ننسى ان غالبية الشعب السوري والشعوب العربية ليست ملتزمة بأي تنظيم وهي ملتزمة بقضية الوحدة. وان تقدمها الأولي نحو الماركسية تطور ايجابي كبير .

والنقطة الأهم والتي كان يجب ان لا تغيب عن برنامج الرفاق اللبنانيين ان قسماً كبيراً جداً من الجماهير اعتنق الاشتراكية (ولو بشكل ناقص ، ولكن بشكل – أولي معقول تماماً) بفضل الوحدة وبفضل ارتباط الاشتراكية بالوحدة فالشعب السوري في ١٩٦٢ غير ما كان في ١٩٥٧ (في ١٩٥٧ ، انتم كنتم لا تؤمنون باحتمال تطور لا رأسمالي ، لا تجرؤون على أي طرح من هذا النوع ، لا تريدون ، تجهلون الخ) ان أكبر تقدم للاشتراكية وأفكارها (كما يفهمها الرفاق اللبنانيون ونفهمها وإياهم) هو هذا التقدم لوعي الشعوب العربية ، ولوعي البروليتاريا العربية بشكل خاص ، والناجم عن التحولات الاجتماعية التي جاءت محمولة على جناح الوحدة القومية ، وعن كل سير الصراع بين الثورة العربية والامبريالية بانتصاراته وانتكاساته .

عاشراً : يقول برنامج الرفاق اللبنانيين: « ان تفكك صفوف هذه القوى والتصادم الذي حصل بينها نتيجة تقديرات غير صائبة من كل منها لمواقف الآخرين في تلك

المرحلة ، سهل على الرجعية والاستعمار توجيه ضربتهما إلى الوحدة وتقويضها » (ص ٣١) .

ونحن نقول : نعَمْ بالتأكيد . « تقديرات غير صائبة من كل منها لمواقف الآخرين » . ولكن ، بالاضافة إلى ذلك ، تقديرات جوهرية غير صائبة من قبل غالبية « الاحزاب الشيوعية » لموضوع الوحدة ذاته ، بقضه وقضيضه .

« سهل على الرجعية ، والاستعمار توجيه ضربتهما إلى الوحدة » ؟.

نعم بالتأكيد ! الوحدة ضربت على يد الرجعية والاستعمار. ولكنها ضُربت أيضاً من قبل «ماركسيين» ومن قبل قوى « تقدمية» ، خلال سنوات وسنوات ، بعد قيامها ، بعد « فشلها » . هذه القوى التقدمية العربية « المفككة » في الأقليم السوري كانت مفككة لدرجة أنها كانت تكيد لبعضها البعض . في بداية الوحدة كان بعضها يتهم الرئيس بمحاباة البعض الآخر على حسابها . ثم فيما بعد ، ألتقى البعض والبعض ضد « الطاغية » .

والمؤسف أكثر أن عرض موضوع الوحدة العربية ينتهي عند هذا الحد ، عند هذه السنة ١٩٦١ . مع انه عرض تاريخي انطلق من أواخر القرن التاسع عشر (ص ٢٧) ووصل إلى الحرب العالمية الأولى و « معاهدة سايكس بيكو التي فضحتها السلطة السوفياتية بعد ثورة اوكتوبر الاشتراكية » (ص ٢٨) ، إلى « الاحزاب الماركسية – اللينينية » ومأثرتها القديمة ... ، إلى وحدة ١٩٥٨ وفشلها(ص ٣٠ – ٣١). ماذا حدث بعد ١٩٦١ ، من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٨؟ هذا على ما يبدو يتركه الرفاق اللبنانيون للمستقبل ! وكأنهم الكاتب المؤرخ الذي يَطلب البعد الزمني حباً بالحياد العلمي . بئس علم ، أيها الرفاق والاشقاء ! الماركسية لماذا ؟ من أجل ماذا ؟ هذه السنوات ١٩٦٢ – ١٩٦٨ ، ماذا عنها ، وعلى الأقل ماذا فيها ؟.

بدلاً من وقائع ١٩٦٢ – ١٩٦٨ بصدد قضية الوحدة ، الرفاق اللبنانيون

ختموا الموضوع بما يلي : « ان الوحدة العربية تعبر عن تطلعات جميع الفئات الشعبية الطامحة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي التي تنعطف أكثر فأكثر نحو الاشتراكية . وهذه القوى أخذت تصبح العنصر الاساسي المحدد لعملية تطور العالم العربي باتجاه الاشتراكية والوحدة . وان ظهور دول عربية تقدمية وتوطد الاتجاهات المعادية للرأسمالية فيها وتعمقها يخلق القاعدة الأكثر انسجاماً لقيام وحدة عربية على أسس اشتراكية » . (ص ٣١ – ٣٢) .

نِعْم الخاتمة ! نحن نتصور أن هناك أحداثاً هائلة وقعت بين ١٩٦٢ و١٩٦٨ نسميها بأسماء الشهور العراقية والسورية والجزائرية والمصرية والعالمية : رمضان آذار ، نيسان ، جوان ، شباط ، وحزيران – يونيو ١٩٦٧ .

وحين نقرأ في سطر سابق – مهّد لحديث تصادم القوى التقدمية العربية الذي سهّل على الاستعمار ضربته الانفصالية – : « وقد برهنت تجربة الوحدة ايضاً ان لا وحدة عربية راسخة دون وحدة القوى التقدمية العربية » ، فاننا نقول : أجل بالتأكيد ، ولكن لا نتصور وحدة للقوى التقدمية العربية تقوم على أساس الاجماع على مبادىء عامة عمومية ، أي بدون اجماع اوّلي وأساسي على عرض وتقييم الوقائع بالحوار. لعلكم مثلاً على استعداد « للوحدة » مع قوى تقدمية تؤمن بان انفصال ٢٨ ايلول ١٩٦١ (على سبيل المثال) لا صلة له بكارثة حزيران ١٩٦٧ . ولعل هناك عشرين تنظيماً آخر على استعداد . ولعلّ الواحد والعشرين تنظيماً « يتوحّدون » هكذا ... ولكنه توحيد لواحد وعشرين إطاراً فارغاً ، يزداد فراغها ذاته بهذا التوحيد. ان جماهير عمال وفلاحي العراق الذين شهدوا وزُجوا أحياناً في أحداث دامية ، في نوبات دامية منزفة لحياة الناس واعصابهم وعقولهم ، لا يحترمون اولئك الذين لا يقولون لهم بالضبط وبالوقائع : لماذا حدث ذلك ؟ لماذا فعلوا ذلك ؟ ومن أجل ماذا « يتوحّدون » الآن ؟ ما الذي جرى في ١٩٥٨ و ١٩٥٩ و ١٩٦١ و ١٩٦٣ الخ وماذا يجب ان يحدث الآن وغداً ؟ ما هي تجربة الماضي بالوقائع ؟ وما هو الضوء الحقيقي

(لا العمومي) الذي يجب ان نسلطه على المستقبل ؟

احدى عشر : وحين نقرأ « عملية تطور العالم العربي باتجاه الاشتراكية والوحدة » و (في هذا التسلسل : « باتجاه الاشتراكية والوحدة ») ، وحين نقرأ « ان ظهور دول عربية تقدمية وتوطد الاتجاهات المعادية الرأسمالية فيها وتعمقها يخلق القاعدة الاكثر انسجاماً لقيام وحدة عربية على اسس اشتراكية» (« للرأسمالية » وبدون « الامبريالية » الوحدة أسُسها اشتراكية . تقدّموا ايها العرب ، تقدمي ايتها الاقطار التقدمية ، في مضمار « الاشتراكية » المعادية « للرأسمالية » ، الوحدة في نهاية الطريق !) : حين نقرأ هذا ، فاننا نقول : كلا ايها الرفاق ، انكم تسيرون على طريق خاطىء !

حين تقولون (ص ٣٠) : « لقد اظهرت تجربة الوحدة ان الرغبة والارادة وحدهما لا تكفيان لقيام وحدة متينة حتى ولو أقيم أطار دستوري حقوقي لها» ، فاننا نقول : هـذا صحيح وخطير . الرغبة والارادة لا تكفيان . ولكن لا وحدة بدون رغبة وارادة (حتى لو توفرت « الشروط الموضوعية ») . ولحسن الحظ ، نبذتم نهائياً تلك الفقرة التي وردت في قرار ١٩٥٦ حول الوحدة العربية والتي كرّرت في اوائل ١٩٥٨ والتي مفادها إلغاءُ الرغبة والارادة وجعلها ظاهرة ملحقة عديمة الفعل والأثر épiphénomène [١] . وفي حديث « الرغبة والارادة » و « الشروط الموضوعية » ، يضيع الوعي الانساني ، وعي الشروط الموضوعية الهادف ، وعي الشروط الموضوعية الذي يتقدّم على الشروط الموضوعية ، والذي يصبح عنصراً حاسماً فيها حين يستولي على الجماهير ، يضيع الوعي والنضال الواعي . يضيع التحرّك البشري الواعي الهادف ، بين موضوع تجريدي وبين فكرته الاقنومية . ونصل الى جملة من نوع كان ينبغي « السعي للتغلب » على « الفوارق الموضوعية ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية » « بين

---

(١) نقول : « نبذتم » ، اذ انكم الآن تقولون : « وحدهما » « لا تكفيان » .

اقليمي الجمهورية الناشئة » في « إطار الوحدة وبالأساليب الديمقراطية » . وكلمة « اقتصاديه » تأتي هكذا ، وليس عبثاً ، في أول التسلسل (– « الفوارق الموضوعية ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ») كما يجب ان يكون الأمر عند الماركسيين الماركسويين (الاقتصادية فالاجتماعية فالسياسية) . والحال إذا كان هدفنا ان نتغلب على الفوارق الاقتصادية بين اقليمي الجمهورية الناشئة آنذاك وبين الاقطار التقدمية في الوطن العربي اليوم السائرة نحو « الاشتراكية والوحدة » ونحو « وحدة على اسس اشتراكية » ، فلنطمئن تماماً : ان التماثل الاقتصادي سار قدماً في زمن الوحدة وخصوصاً في زمن الانفصال ، وهو يسير اليوم قدماً من العراق إلى الجزائر . الاقتصاد العالمي يتكفل بهذا ! ولكن هذا ذاته يعمق التجزئة العربية ، يقوض مستقبل قيامها ، يضاعف العقبات الاقتصادية المخيفة التي تعترض طريقها : في ١٩٥٧ كان القطن يشكل ربع صادرات سوريا ، وهو في ١٩٦٥ يشكل نصف صادرات سوريا مثلها مثل مصر ! والبترول والغاز أصبح في الجزائر نيف ونصف صادراتها ، وقد يصبح في مستقبل ما ٩٠٪ من صادراتها ، كما في العراق .

٤ – الامبريالية والاقتصاد العالمي وآلية التجزئة العربية

وهذا يقودنا إلى أكبر نقص في برنامج الرفاق اللبنانيين بصدد الوحدة العربية ، الا وهو موضوع **الامبريالية والاقتصاد العالمي وآلية التجزئة العربية** في الزمن الحاضر ذاته .

علينا ان نقدم للرفاق اللبنانيين تحليلنا لهذا الموضوع ، كما قدمناه في كتب سابقة ، وفي محاضرتنا في ندوة الجزائر ، وأخيراً (مع الارقام) في الطبعة الثانية من كتابنا « الماركسية في عصرنا » :

« لقد تدفق الاستعمار على الدول العربية في عصر الرأسمالية الصناعية

والمالية . استفاد من التخلف التاريخي للبنيان الاقتصادي – الاجتماعي ومن الضعف السياسي والعسكري للبلاد العربية ، فسلط عليها احتلاله العسكري وسيطرته السياسية والاقتصادية واستعماره الاسكاني ، وحول اقتصاد كل دولة عربية إلى اقتصاد كولونيالي « يكمل » اقتصاد الدولة المستعمِرة (بريطانيا أو ايطاليا . .) فيمدها بالمــواد الأولية (القطن ، خامات المعادن ، البترول . . .) ويشتري منتوجاتها الصناعية . وبذلك عمق تسلطه بتعميقه الجذور الاقتصادية للتجزئة العربية : كانت التجزئة تتصل بأسلوب الانتاج الاقطاعي والبدائي (وما يقال عن فواصل البيئة الجغرافية وضعف المواصلات بين الدول العربية . . . يدخل في اطار أسلوب الانتاج المذكور) فأصبحت تتصل ، على نحو رئيسي ، بالعلاقات الاقتصادية للعصر الامبريالي » (ص ٢١٦) .

هذا ما كتبناه في الطبعة الأولى من « الماركسية في عصرنا » . بتعبير آخر : التجارة بين الاقطار العربية خلال فترة النهضة والسقوط الكولونيالي والامبريالي قد نمت ، ولكن تجارة الاقطار العربية مع فرنسا وبريطانيا (واقطار أخرى من الغرب أو مستعمراته) نمت أكثر وأكثر بكثير . هــذا هو السقوط الكولونيالي . الاستعمار ، الامبريالية بمعنى واسع ، تضرب إمكانية التكامــل الاقتصادي بين العرب ، تربط كل قطر عربي كذيل مكمل باقتصاد الدولة المستعمِرة الصناعية وعمومــاً (في فـترة حديثة) بالاقتصاد الغربي الرأسمالي الصناعي ككل .

ان هذا النهوض - السقوط الكولونيالي خلال قرن وربع (١٨٣٠ – ١٩٥٠) – قد سار بخطى متدرجة بين حقبة وأخرى ، الأمر الذي لا ينفي الانقطاعات في سلسلة السير والاتجاهات المعارضة التي يقضى عليها من قبل الدول المستعمِرة ومن قبل الامبريالية واقتصادها العالمي . في زمن محمد علي وابراهيم باشا أزدهر التبادل الاقتصادي بين الاقطار العربية المشرقية (نسبياً) – وقـد شهدت مصر نهضة صناعية حقيقية ، حيث تقدمت مصر محمد علي على روسيا نقولا الأول صناعياً – وفي فترة ما لاحقه ، قبل الحرب العالمية الأولى ، لعب السوريون – اللبنانيون

دور وسيط في الشرق الادنى العربي (وهذا بالطبع ليس التكامل الاقتصادي المطلوب، وهو يذكر بزمن الفينيقيين والآراميين ورأي ماركس في هذا الموضوع). ولكن في زمن خلفاء محمد علي، سارت قدمـــاً عملية تحويل مصر إلى مزرعة للقطن المطلوب في انكلترة. وكرومر Cromer ضرب صناعة القاهرة ضرباً. وكذلك في لبنان وسوريا. وربطت سوريا ولبنان بفرنسا على نحو متزايد في زمن الانتداب، والعراق بانكلترة وسوقها العالمية (استيراد الشاي الهندي) وبدأ انتاج وتصدير البترول. في زمن الحرب العالمية الثانية، نشطت التجارة فيما بين الدول العربية المقطوعة عن دول المتروبول في أوروبا المتحاربة. ثم مرة أخرى سار التبادل مع الغرب قدماً. في سوريا المستقلة (في ١٩٤٥ – ١٩٥٤) تعددت اتجاهات التبادل الغربية (بدلاً من فرنسا، فرنسا وانكلترة وأميركا وغيرها) على طول الخط، جوهرياً، منــذ ١٨٣٠ حتى منتصف القرن العشرين، اقتصادات الاقطار والدول العربية تتحول إلى اقتصادات كولونيالية تصدر إلى الدولة المستعمِرة (اخيراً إلى الغرب عموماً) القطن والقمح والشعير والجلود والزيوت والمعادن والبترول وتستورد من الدولة المستعمِرة (وأخيراً من الغرب عموماً) المصنوعات ثم الآلات. العلاقات فيما بين أقطار ودول الامــة العربيــة تبدو في اوائل الخمسينات ضعيفة ومحدودة، بالمقارنة مع هذه المبادلات بين كل قطر عربي واسياد العالم غير المتوجين. من وجهــة نظر التكامل الاقتصادي، الوحدةُ العربية لا تقترب بل تبتعد. في ١٩٥٥ نشرت جريدة الحزب الشيوعي السوري محاضرة لأحد المفكرين الاقتصاديين البرجوازيين كان مديراً عــاماً للجمارك تقول العكس! . ولا شك ان المحــاضرة المذكورة تعتمد على قرائن ولكنها جزئية. كل هذا الموقف يقترن بالتفاؤل البرجوازي الوحدوي الذي مال اليه الشيوعيون في تلك الفترة. وخالد بكداش تكلم مراراً (ومئة آخرون، شيوعيون وغير شيوعيين) عن التكامل الاقتصادي العربي الآخذ في التطور بفضل الاستقلال الخ –.. وعلى الرفاق اللبنانيين ان يدرسوا تلك الأفــكار، ان يتبيّنوا اخطاءها، وأن يتحاشوا بعد المنظور البرجوازي اليميني المتفائل

لتلك الأيام المنظور « الاشتراكي » « اليساري » المتفائل لهذه الايام !

ماذا حدث بعد ١٩٥٤ ؟

ان دراستنا للفترة الممتدة بين ١٩٥٣ / ١٩٥٤ و ١٩٦٥ / ١٩٦٦ ، قادتنا إلى النتيجة الاساسية الآتية (ننقلها باختصار عن الطبعة الثانية من كتاب « الماركسية في عصرنا » ص ٣٤٨ – ٣٥٨) :

ان حصة العالم العربي من حجم التجارة الخارجية لكل دولة عربية آخذة في الانخفاض . آخذة في الانخفاض رغم الاستقلال السياسي والضربات الحقيقية التي وُجهت للامبريالية وكل الرغبات الوحدوية والتعليم الوحدوي الخ الخ.

فيما يلي بعض الارقام والحقائق :

١ – سوريا : ان نصيب البلاد العربية من مجمل التجارة الخارجية لسوريا هو في سنوات ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ : ٣٣ ، ٣٥ ، ٣١ ٪ للصادرات .
و ١٧ ، ١٥ ، ١٢ ٪ للواردات .

مقابل في سنوات ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ : ٣٩ ، ٣٥ ، ٤٠ ٪ للصادرات .
و ٢٠ ، ١٩ ، ٢٥ ٪ للواردات .

وهبوط حصة العالم العربي من صادرات سوريا يرتبط بارتفاع حصة القطن في تركيب الصادرات. وقد بلغت هذه الحصة في منتصف الستينات حوالي ٥٠٪.

٢ – العراق : نصيب البلاد العربية من صادرات العراق هو :
في ١٩٦٥ – ١٩٦٦ حوالي ٤ ٪ مقابل ٨ ٪ قبل ١٢ سنة .

وهذا الهبوط يرتبط بارتفاع حصة البترول في تركيب الصادرات (٩٣ ٪ الآن مقابل ٨٠ ٪ قبل ١٢ سنة) أما نصيب الدول العربية في واردات العراق فيتراوح بين ٣ و ٦ ٪ مع اتجاه إلى الثبات .

٣ – الاردن : في ١٩٦٥ ٦٨ ٪ للصادرات و ١٨ ٪ للواردات .
مقابل في ١٩٥٣ ٨٩ ٪ = و ٢٦ ٪ =

وهذا الهبوط في نصيب العالم العربي من صادرات الاردن يرتبط بارتفاع حصة الفوسفات في تركيب الصادرات (٣١ ٪ في ١٩٦٥) .

٤ – الاستثناء الوحيد : **مصر** : ثبات حول ٧ ٪ للصادرات والواردت . ويرتبط هذا الثبات بانخفاض حصة القطن في تركيب الصادرات (مـــن ٨٠ ٪ هبطت إلى ٥٠ ٪) .

٥ – المبادلات بين **المغرب والمشرق** معدومة .

٦ – العلاقات فيما بين **دول المغرب الثلاث** والتي رزحت تحت نير استعمار فرنسي واحد معدومة أو شبه معدومة .

٧ – خلاصة :

ان نداء السوق العالمية هو المحرّك الاساسي الفاعل: بترول العراق والسعودية والكويت والجزائر وليبيا ، وقطن مصر وسوريا ، فوسفات الاردن . هـذا المحرك الفاعل يعمق التجزئة العربية ، بالأرقام . ويضاف إلى هذا المحرك ،محرك آخر هو حاجات التصنيع في الدول العربية التقدمية والآخرى أيضاً (الحاجة إلى استيرادالاوائل والتجهيزات ، والحاجة إلى انتاج مزيد من الخامات للتبادل) أي ، الصنيع الجاري في إطار قطري ، المبتور ، المشلول ، الملغوم ، الواصل بسرعة إلى « عنق الزجاجة ».

٨ – أرقام **سوريا** –المتفوقة «عربياً» على مصر والجزائر والعراق (عربياً، نقصد في مضمار التبادل بين العرب) – لا تخدع الا الغبي ، ولا يفخر بها سوى « قومي عربي – سوري » !. **الاردن** ، **لبنان** ، ارقامها العربية متفوقة على أرقام سوريا ، انهما الدولتان الاكثر عروبة ... وغداً ، اذا فصلت محافظة حماه في دولة مستقلة سيدة جمهورية ديمقراطية تقدمية ، فانها ستكون عربية أكثر . الأمر مفهوم اذن . في أمس قريب ، كان الاردن وكان لبنان جزءاً من سوريا واقتصادها . واليوم ، ان القسم الأكبر من التجارة العربية لسوريا هو تجارة سوريا مع جزئيها الأردني واللبناني . ولكن في المستقبل، اذا تساهلت معنا أمنا الطبيعة وأطالت في عمرنا وعمر الاستقلالات (وعمر التقدم نحـو « الاشتراكية والوحدة » ، نحو « الوحدة على أساس الاشتراكية » !؟) تنخفض عروبة سوريا الاقتصادية الى ١٠٪ وعروبة الاردن الى ٢٠٪ (الاردن سيبقى حـــتما أكثرنا

« عروبة » اقتصاديـــة . الخضار لا تصدر بسهولة نحو لندن وباريس وبلغراد وموسكو ، والمنسوجات والألبسة السورية لا بأس بها وقريبة) .

٩ – لقد حققت مصر وسوريا والعرق (وجزئياً الاردن وغيرها) تحولاً كبيراً في الاتجـــاه الجغرافي لمبادلاتها العالمية خارج دائرة الوطن العربي : فهي تتوجه بالدرجة الأول نحو الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا والصين الشعبية ورومانيا وبلغاريا الخ أما المغرب العربي (بما فيه الجزائر) فلا تزال مبادلاته بالدرجة الأولى مع فرنسا ودول السوق الأوروبية المشتركة والولايات المتحدة وبريطانيا (رغم التقدم الجزائري خصوصاً والمغربي عموماً في مضمار التبادل مع الاتحـــاد السوفياتي والدول الاشتراكية) ، لكن لم يحصل تقدم واحد في اتجاه الترابط الاقتصادي بين الدول العربية ، لا سيما التقدمية . حصل بوجه الاجمال تراجع . (تراجع نسبي ، وهذا هو المعيار الحاسم) .

١٠ – انالماركسيين الحقيقيينيساندون كل تقدم في المبادلاتالاقتصادية بين العرب ، ولا سيما بين الاقطار التقدمية العربية . وقد حصل شيء من هـــذا في العامين الأخيرين (مصر ، السودان ، سوريا الـخ) . ولكنهم يضعون اصبعهم على حدود هذا التبادل ، على امكانيته المحدودة في ظروف الاقطار والدول ،وهم يندددون الآن بالمنظور « الوحدوي » الاقتصادي – الاشتراكي بأقصى ما يمكن من الشدة ، كما نددوا بالأمس بالمنظور « الوحدوي » الاقتصادي –البرجوازي.

١١ – ومن الطبيعي ان الذي لا يرى ظاهرة تدهور أسعار التبادل فيالسوق العالمية لا يرى أيضاً سير تعمق التجزئـــة الاقتصادية للوطن العربي خصوصاً وللعالم الثالث عموماً . ان العامل الرئيسي المقرر لاوضاع حدود التبادل هـو ميزان القوى في الاقتصاد العالمي والتجارة العالمية . هذا الميزان هو الآن لصالح الامبريالية ودولها . وسير التجزئة المتنامي (في العالم العربي خصوصاً ، وفيالعالم الثالث عموماً) يعزز هذا الوضع ذاته . ان ابقاء وتمكين التجزئة العربية حـتى المـُصْلحة تقدمياً أمر بالغ الخطورة في كل استراتيجية الهيمنة الامبريالية عموماً والاميريكية خصوصاً على العالم . نقول التجزئة العربية بالذات . لأن العرب

أمة ، (وليست أفريقيا أو الهند) ، ولأن هــذه الأمة العربية هي المفصلة الجغرافية – التاريخية بين الغرب والشرق ، والشمال والجنوب ، بين الاستعمار والمستعمرات ، بين أوروبا وافرو – آسيا ، بين البيض الأوروبين والملونين الخ الخ. وهذا ما نسميه الوجه السياسي العالمي للأمور ، السياسة المكثفة العليا والمتقدمة للاقتصاد . ان موضوع التجزئة العربية والوحــدة العربية يرتبط مباشرة بموضوع الامبريالية العالمية والثورة الاشتراكية العالمية [1] .

١٢ – وعلى وجه التحديد ، نقول ان الشروط الموضوعية – الاقتصادية التي يريدها الشيوعيون اللبنانيون للوحدة العربية ، حسب منظورات الأمس وجزئياً حسب منظورات اليوم ، ليست متوفرة اليوم ، ولن تكون متوفرة بعد عشر سنوات ولا بعــد مئة سنة . في السير الراهن الذي ينال تأييدهم وتسويغهم « الماركسي » ، لن تكون متوفرة أبداً . اذا استمر السير الراهن كما يباركونه ، فسيكون معنا بعد عشرين سنة : اقطار عربية « تقدمية » « اشتراكية » (!!) وتابعة ، متآخية ومجزأة بعمق ، في أمم « قطرية » مشتركة في اللغة ، وفي عدد من السخافات « التقدمية »، وتابعة ، ومتناثرة اقتصادياً ، ومرتبطة مع العالم ، مربوطة بالعالم ، وغير مترابطة فيما بينها ، سقط منها الرأسماليون والبرجوازيون – الصغار ، ونشأت فيها طبقات جديدة على أساس هـذه « الاشتراكية » ، وبترول دولها البترولية يذهب نهباً للكونسورسيوم الدولي ، مع اسرائيل راسخة ومتقدمة على ارض فلسطين وبضعة اراضي اخرى ، في عالم يسوده الاميركان ، وربما معهم آخرون تحت سلطتهم ، ومع صين معزولة أو مخنوقة .

ان الوحدة العربية لن تأتي من التطور الاقتصادي الموضوعي بل من النضال ضد الامبريالية والصهيونية . وسيرها القادم يمكن ان يكون متدرجاً في بعض جوانبه ولكنه سيكون ايضاً انفجارياً وانهيارياً . لن تكون الوحدة تتويجاً « عملية » ، بل تكون تتويجاً لمدّ وبداية لمدّ ، ستكون حلقة في سير التطور

---

(١) والباحثون السوفياتيون ، والماركسيون في العالم ، هم بوجه الاجمال بعيدون عن هذه الحقيقة ، لا يرونها ، يميلون الى النزعة « الاقتصادية » ...

الثوري ، وبالاصح سلسلة من الحلقات ،الصدامية ،الطبقية والسياسية . والوحدة القادمة ، كل وحدة قادمة ، كل حلقة قادمة ، في السير الوحدوي ، ستفتقر الى نيف وثلاثة ارباع « الشروط الموضوعية – الاقتصادية » ،وستعيش وتنمو بفضل الوعي (أي وعي كل الشروط الموضوعية ، وعي حاجات التـــاريخ والثورة والأمة ، حاجات المعركة مع اسرائيـــل والامبريالية ، وحاجات التطور الاقتصادي والتكامل الاقتصادي) ، وبفضل الجمـــاهير التي ستمتلك الوعي والقدرة على تحرّك واع ، ثوري لا حدّ له .

هذا هو فهمنا الماركسي لحاضر ومستقبل التجزئة العربية والوحدة العربية . التجزئة العربية في وضعها الحديث وليدة الامبريالية . وهي آخذة في التعمق ، اقتصادياً ، في الحقبة الاخيرة ، رغم الاستقلال ورغم الضربات الحقيقية الموجهة للامبريالية . ولعل شأنها في ذلك شأن تدهور حدود التبادل : كلاهما يشتد في الوقت الذي انحسر فيه سلطان الاستعمار القديم عن كوكبنا . تلك هي آلية الامبريالية في المرحلة الثانية من الأزمة العامة للرأسمالية ، او لعلنا هنا يجب ان نقول في المرحلة الثالثة من هذه الأزمة في فترة تفاقم الصراعـات الثورية في القارات الثلاث ...

ولكن ، حتى لا يخطىء الرفاق اللبنانيون في فهم فهمنا ، حتى لا يتصوروا ان فهمنا لموضوع الوحدة العربية التاريخي فهم « عربي » لا صـلة له بتجارب الوحدات القوميـــة عبر التاريخ الحديث ولا صلة له جوهرية بمفهوم الثورة الاشتراكية العالمية وبالمفهوم الماركسي للتاريخ ، نريد أن نعرض لهم فهمَنـا لتجارب الوحدات القومية السابقة ، وفهمنا المقارن لموضوع الوحدة العَرَبية الحاضر ، على أساس المفهوم الماركسي – اللينيني للتاريخ .

ان الوحدات القوميـــة الاوروبية البرجوازية – الفرنسية ، الانكليزية وبالاحرى الألمانية ، الايطالية ، البرجوازية مئة بالمئة – لم تكن نتاجاً أخيراً لسير نمو البرجوازية وانتصارها على الاقطاعية ، بل كانت سلسلة حلقات رافقت وأعقبت ومهّدت لحلقات النمو البرجوازي وانتصاره . والوحدة القوميـة

الفرنسية حملتها البرجوازية واقتصادها القومي خـــلال قرون ، ولكن هذه البرجوازية واقتصادها القومي وجدت بالمقابل وخلال قرون في الدولة القومية الفرنسية ، في الدولة الملـكية الاقطاعية الفرنسية ، أفضل اطار ممكن لنموها ونموه ولانتصارها وانتصاره. وثورة ١٧٨٩ ، خاتمة هذا النمو البرجوازي الطويل ، أكملت هذه الوحدة القومية بنسفها الاوضاع السابقة بما فيها الدولة القوميـة الناقصة التي باتت عقبة كبيرة . ان تسمية التطور القومي الوحدوي لعام ١٧٨٩ – ١٧٩٣ تطوراً سياسياً ، وتسمية التطور القومي الوحدوي لستة قرون سابقة تطوراً اقتصادياً صرفاً او تطوراً للامة الفرنسية وليس للدولة الفرنسية القومية ، معناه تجاهل ان فرنسا في القرن الخامس عشر والقرن السابع عشر ليست امارات اقطاعية ، بل هي مملكة اقطاعية ، دولة برئاسة ملك باريس وجهازها الحكومي القومي ، أياً كانت سلطة الأمراء واستقلال الامارات وما بينها من حواجز ، وان هؤلاء الأمراء على طول الطريق الطويـل أُخضعوا واخضعوا الملك ، أي للدولة الملكية الاقطاعية (الاقطاعية – البرجوازية) القوميـة بمساعدة البرجوازية واقتصادها ومساعدة الشعب . ولئن كان الفكر القومي لساطع الحصري يرتكب في هذه المسائـل سخافات ، فان الفكر الماركسي المحَلّي يرتكب سخافات أخرى معاكسة أكثر فتكاً بالوعي لأنها ترفع لافتة الماركسية وعلم الاقتصاد وعلم التاريخ ، وهي جاهلة لكل هذا (جاهلة لعـلم الاقتصاد ، و « اقتصادية » النزعة في آن معاً !) .

وألمانيا لم تتوفر لها هذه الدولة القومية الواحدة خلال القرون الطويلة للاختمار والنشوء والنمو والانتصار البرجوازي . وكان هذا الغياب أحـد الأسباب الرئيسية في تأخر وضعف الاختمار والنشوء والنمو والانتصار ... ومع الامتهان النابوليوني ومع الانقلاب الصناعي البادىء والمتقدم في انكلترة وفرنسا وبلجيكا ، اضحت الحاجة الى الوحدة الى الدولة القومية ، أكثر إلحاحاً . « الاتحاد الجمركي » علاج وقتي أولي . والدولة القومية لا غنى عنها . ثورة ١٨٤٨ تفشل . مصيبة . والمانيا تتوحد بالطريق البسماركي (١٨٦٦ – ١٨٧٠) في ١٨٨٠ – ١٨٨٥ ،

تسبق فرنسا صناعياً ، في ١٩٠٠ تسبق انكلترا ، في ١٩١٣ تصبح ثاني دولة صناعية رأسمالية في العالم ، قبل انكلترا بكثير [1] . الوحدة القومية لم تكن نتيجة وخاتمة وتتويج نمو المجتمع البرجوازي وانتصاره على المجتمع الاقطاعي . بالعكس انها رافقت هذا النمو خلال القرن التاسع عشر ، أعقبته وسبقته ومهدت له . قبل ١٨٦٦ – ١٨٧٠ ، المانيا الآخذة في التوحيد اقطاعية الى حد لا بأس به . في ١٩١٣ ، انها برجوازية رأسماليــة ديمقراطية بنسبة ٩٠٪ ، الفروق الاجتماعية بينها وبين فرنسا وانكلترا أصغر بكثير مما كانت قبل قرن او نصف قرن . لو لم تتوحّد وإن بالشكل البسماركي (الناقص ايضاً !) لكانت هذه الفروق اكبر بكثير .

ان تاريخ الوحدات القومية البرجوازية الاوروبية – فرنسا ، انكلترا ، المانيا ، ايطاليا – يتلخص في القانون التالي :

أ – الوحدة القومية جزء خطير من عملية الثورة البرجوازية او التحويل البرجوازي او التطور البرجوازي العظيم .

ب - هذا الجزء « القومي » لم يكن في أيــة حال جزءاً متمماً أخيراً يتوّج الثورة والتحويل والتطـــور البرجوازي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . بل كان جزءاً مرافقاً ، نتيجة وسبباً ، حلقة ، عدداً من الحلقات ، على طريق التحويل المذكور والثورة المذكورة . وكان سبباً اساسياً ، مساعداً خطير الأهمية ، بدونه يبقى التطور البرجوازي شيئاً غير مقبول ، شيئاً مستحيلاً .

وتاريخ الوحدة القومية العربية القادمة يتلخص في القانون التالي :

أ – الوحدة العربية جزء خطير من الثورة الاشتراكية العربية ، الديمقراطية والاشتراكية ، المناهضة للامبريالية والاستعمار والاقطاعية والرأسمالية والتخلف .

---

(١) والمركز العالمي المتقدم للطبقة العاملة والصراع الطبقي ...

ب- هـــذا الجزء « القومي » لن يكون ولا يمكن ان يكون جزءاً متمماً أخيراً يتوّج الثورة والتحويل والتطور الاشـــتراكي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. بل سيكون جزءاً مرافقاً، نتيجة وسبباً، حلقة، عدداً من الحلقات، على طريق التحويل المذكور والثورة المذكورة، التي هي الثورة العربية الوحدوية الاشتراكية، المعادية للامبريالية.

التحولات الثوريـــة في الاقطار تقود إلى الوحدة. والوحدة تقود إلى التحولات الثورية في الأقطار. سقوط الاستعمار والملك والأمـــير والشيخ والاقطاعي والرأسمالي يقود إلى الوحـــدة. والوحدة تقود إلى سقوط الاستعمار والملك والأمير والشيخ والاقطاعي والرأسمالي [1].

وسقوط الاستعمار والملك والأمـــير والشيخ والاقطاعي والرأسمالي و ... و.. لا يقود إلى الوحدة بدون عمل وحدوي، بدون ثورة وحدوية، بدون تحول وحدوي، بدون انعطاف وحـــدوي، بدون انقلاب وحدوي. وبدون هذا العمل الوحدوي قد ينتهي الملك والأمـــير والشيخ والاقطاعي والرأسمالي العربي إلى الأبد، وقـــد تنتهي القاعدة الاستعمارية والاحتلال العسكري الاستعماري الى الأبد (قد !!)، ولكن الأمبريالية ذاتها لا تنتهي من الوطـن ومن القطر، وهي قادرة ان تتعزز وتتطور وتتنامى في الوطن والعالم والقطر. الامبريالية اي تدهور حدود التبادل، ونهب البترول، واسرائيل، والتجزئة والتبعية المكروهة، والأقوى من الكره ومن « الايديولوجيا ».

وبعد. فعلا ان ظهور دول عربية تقدمية وتوطد الاتجاهات المعاديـــة

(١) عودة الى وحـــدة ١٨٤٨ البرجوازية الديمقراطية الالمانيـــة. ماركس وانجلز لا « يشترطان »(!!) البدء بخلع الامراء والملوك وسقوط الاقطاعية من أجل الوحدة والحرب ضد القيصرية، مع انهما يضمان هذه الثورة البرجوازية الديمقراطية الشعبية تحت زعامة البروليتاريا، ويفكران بتحويلها الى ثورة بروليتارية اشتراكية. وعلى وجه التحديد، هذه الزعامة البروليتارية تفترض هذا، تتضمن هذا المنظور، غير الاحادي الاتجاه، والاكثر حياة وحيوية وواقعية وتاريخية، الشعبي الديمقراطي القومي العالمي.

للرأسمالية فيها وتعمقها يخلق القاعدة الأكثر انسجاماً لقيام وحدة عربية ، على « اسس اشتراكية » . شريطة ان تكون تقدمية فعلاً ، ان تكون معادية للرأسمالية فعلاً ، للامبريالية العالمية وعلاقاتها وروابطها الموضوعية وسياستها في التجزئة ، وشريطة ان لا ننشر نحن الماركسيين منظوراً اقتصادياً «يسارياً» متفائلاً ، وان لا نسلح نحن أسياد الموقف التقدميين بهذا المنظور الخادع ، وان نرفع صوتنا بالحق وبالوعي اللينيني لموضوع « الامبريالية والوحدة » الاقتصادي والسياسي – امام التقدميين العرب وأمام الصديق العالمي الكبير .

٥ – قضية فلسطين

يكرّس برنامج الرفاق اللبنانيين سبع صفحات لهذه القضية (ص ٣٢-٣٩) هي من أفضل صفحات البرنامج :

ان قضية فلسطين جزء هام من حركة التحرر العربي . « اسرائيل وليدة تآمر الامبريالية وتخطيطها » . والصهيونية حركة عنصرية استعمارية قاومت الحركة الاشتراكية النامية في أوروبا ، باستغلالها مآسي اليهود ... ولقد ركّزت دعايتها على الشعارات العنصرية والدينية لتحويل الهجرة إلى فلسطين ، وعملت على كسب وتأييد جميع الدول الاستعمارية مؤكدة أنها سوف تدافع عن مصالح كل منها وانها حسب تصريح هرزل ستكون « بالنسبة لاوروبا في مكاننا هذا جزءاً من المتاريس ضد آسيا » .

وفي مطلع القرن الحالي تبلورت المشاعر والتطلعات القومية في العالم العربي . وقد رأت الامبريالية خطراً شديداً يتهدد مصالحها وراء هذه التطلعات ، يشهد على ذلك ما جاء في توجيهات المؤتمر الذي دعا اليه عام ١٩٠٧ بانرمان رئيس وزراء بريطانيا آنذاك وضم ممثلي الدول الاستعمارية العريقة (بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وايطاليا واسبانيا) .... (ص ٣٣) .

هكذا برزت الصهونية اداة لتنفيذ الخطة الاستعمارية ضد حركة التحرر

العربية .

ويعرض الرفاق اللبنانيون سير الوقائع : الحرب العالمية الأولى ، اتفاق سايكس – بيكو ، ونقض بريطانيا لهذا الاتفاق واحتفاظها فلسطين لنفسها ، وعد بلفور ، الانتداب البريطاني ، و « اشركهم اليهود في الادارة الفلسطينية » ، ومساعدتهم على تكوين الهاغانا وتغاضيهم عن الارغون وشتيرن ، « حق كوّن اليهود دولة ضمن الدولة » (ص ٣٤) ، مقاومة الشعب الفلسطيني العربي وانتفاضاته (١٩٢٠ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٦ و ١٩٣٧ – ١٩٣٨) ، صدور الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ التي وضعت فيه بريطانيا حداً لمشروع التقسيم وحددت الهجرة ووعدت بانهاء الانتداب خلال عشر سنوات ، وتصاعد الارهاب الصهيوني المتطرف وتعجيله بتنفيذ الوطن القومي اليهودي ، تجنيد بريطانيا في جيشها الثامن أكثر من ١٣٠ ألف يهودي ويهودية ، احتلال الولايات المتحدة مركز الزعامة في العالم الامبريالي وتصارعها مع المصالح البريطانية في الشرق الاوسط وتعهدها بإيصال المؤامرة الصهيونية إلى نهايتها ، موقف الاتحاد السوفياتي وتصريح غروميكو في جلسة ١٥ أيار ١٩٤٧ ، ثم تأييد الاتحاد السوفياتي مشروع التقسيم « ضمن شروط مبدئية » ، الحرب الفلسطينية وتآمر الرجعية العربية الحاكمة مع الاستعمار (ص ٣٥ – ٣٦) .

« هكذا قامت اسرائيل ، وعلى هذا الأساس يجب النظر اليها بوصفها جزءاً من حركة الامبريالية العالمية . وهي تحتل مكاناً خاصاً في الثورة العربية بوصفها كياناً غريباً قام على اغتصاب أرض عربية . فهي في مكانها عنصر تقسيم للعالم العربي وعائق في وجه الوحدة العربية ، قائم على العدوان والتوسع » (ص٣٧). ويواصل البرنامج تحليله لهذا الكيان الاسرائيلي . ان تصريحات بن غوريون وغيره وتصريحات قادة اسرائيل بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ تشهد بأن اسرائيل ليست الا جزءاً صغيراً من أرض اسرائيل التي هي على حد زعمهم من النيل إلى الفرات . وفي جملة مطامحهم مياه الليطاني في لبنان « مما يبرز الخطر الجسيم الذي تشكله اسرائيل على استقلال لبنان وسلامة حدوده واراضيه » (ص٣٧) .

واسرائيل هي هراوة ضد الانظمة التقدمية العربية ، وهي جسر للامبريالية تمارس بواسطته أساليب الاستعمار الجديد في آسيا وأفريقيا (ص ٢٧) . وهي « دولة رأسمالية دينية قائمة على اضطهاد الشغيلة وعلى التمييز العنصري ليس فقط ضد الاقلية العربية التي تعيش حياة اضطهاد في مناطق تحكم عسكرياً ، بل كذلك حيال اليهود الشرقيين » . « وقد أكد العدوان الاسرائيلي الأخير من جديد ان اسرائيل امتداد للامبريالية واداتها لتنفيذ استراتيجية الحروب المحلية » (ص ٣٧ – ٣٨) .

وينتهي البرنامج الى الخلاصة الآتية :

« وفي هذا الظرف يمكن وضع القضية الفلسطينية في اطار النضال العام بين قوى التحرر العربية التي هي جزء عضوي من الحركة الثورية العالمية ، وبين الامبريالية والحركة الصهيونية . وكل محاولة لعزل القضية عن الاطار ، والتطلع لحلها بمنأى عن القوى الثورية العالمية واغفال دور هذه القوى أو الدعوة المتسرّعة العاطفية لشن حرب التحرير الفورية « ولو ادت إلى تصفية انظمة الحكم التقدمية » ليست مجرد خطأ بل هي مغامرة بالثورة العربية وبالقضية الفلسطينية نفسها . ولا بد لأشكال النضال التي يجب اتباعها ان تخضع لمصالح الحركة الثورية العربية ككل .

ان الطريق الواقعي والصحيح الذي يفتح الامكانية الفعلية لحل القضية الفلسطينية يمر عبر العمل على توطيد الانظمة التقدمية العربية ، بوصفها القوة الاساسية التي ستسهم في حل القضية ، وعبر تحرير البلدان العربية التي لا تزال تحكمها الاقطاعية والرجعيات بوصفها حليفة الاستعمار والصهيونية وعقبة في طريق حل أية قضية في صالح تحرر العرب وتقدمهم ووحدتهم .

وحركة المقاومة الراهنة ، بما فيها المقاومة المسلحة التي يخوضها الشعب الفلسطيني داخل اسرائيل والاراضي المحتلة حركة ثورية لشعب اغتصبت أرضه وكامل حقوقه في وطنه ، تشارك فيها كل القوى الوطنية والتقدمية بما فيهم الشيوعيون وتحظى بتأييد قوى التقدم في العالم ودعمها وفي طليعة هذه القوى

البلدان الاشتراكية والحركة الشيوعية العالمية .

ان الحل النهائي للقضية الفلسطينية يجب ان يعتمد المواقف المبدئية وينطلق من الاعتراف بحق العرب الفلسطينيين الذي لا ينازع في ارضهم ووطنهم، وبالتالي بحقهم بالاعتراف بالعودة إلى هذه الأرض وحقهم بتقرير مصيرهم فيها . وما قام على القوة والاغتصاب لا يمكن تبريره ، ووجود اليهود في فلسطين اليوم لا يمكن أن ينال من حق عرب فلسطين الطبيعي والتاريخي في وطنهم » (ص ٣٨-٣٩)

ان تشخيص الرفاق اللبنانيين للقضية الفلسطينية ، تشخيص صحيح ، ماركسي – لينيني : الصهيونية ، طبيعتها ، ارتباطها بالاستعمار والامبريالية ، طبيعة اسرائيل ، الاطار العربي والاطار العالمي للقضية ، المقاومة المسلحة الفلسطينية ، حق العرب الفلسطينيين في ارضهم ووطنهم . ولقد رأينا أن ننقل تحليل الرفاق اللبنانيين بالتفصيل ، لأن العديد من قرائنا الماركسيين يفتقرون إلى هذا الصواب ويفتقرون إلى هذه المعلومات أو بعضها . وقد تركنا تعليقاتنا التكميلية أو النقدية ، إلى ما بعد أكمال هذا العرض .

وحين نقول أن هذا التشخيص صحيح جوهرياً ، فاننا نقصد ايضاً انه يشكل تحول على المنظورات التقليدية ، وفي بعض النقاط الدقيقة والحاسمة قطيعة معها . وسنكتفي بهذا الصدد بملاحظتين كبيرتين ، قبل الانتقال إلى تعليقاتنا التكميلية والنقدية .

الملاحظة الاولى – ان الرفاق اللبنانيين قد تخطوا الصيغ العمومية التي كانت تعتبر الصهيونية مجرّد أداة للانكليز أو الاميركان أو « الاستعمار » ، اداة تابعة ذيلية ليس لها فعل أو أثر مستقل autonome . لقد ذكروا من البداية انها حركة يهودية ، وأن كثيراً من اليهود في اوائل القرن العشرين لم يكونوا يتجاوبون معهم ، بل يرون «ان مشكلتهم جزء من مشكلة الكادحين في مجتمعاتهم فانضموا للحركات الديمقراطية والثورية للعمل على تغيير هذه المجتمعات ووجد آخرون الحل في الهجرة إلى اوروبا الغربية أو إلى اميركا » (من أوروبا الشرقية). وان الحركة الصهيونية حوّلت اتجاه الهجرة نحو فلسطين واتخذت بذلك الاتجاه ذاته

مكانها في حركة الامبريالية العالمية (مـــذكرة بانرمان ومؤتمر ممثلي الدول الاستعمارية) . كذلك لم يهمل الرفاق اللبنانيون تمرّد الجناح الصهيوني المتطرف ضد الانتداب البريطاني في اوائل الاربعينات ، مـع تأكيدهم الصحيح انه « لم يكن ثمة تعارض حقيقي بين الاستعمار البريطاني والصهيونية ، يشهد على ذلك تقرير الهاغانا امام اللجنة البريطانية الاميركية (ص ٣٥ – ٣٦) (وكما يشهد بذلك تصريح شهير أدلى به تشرشل بعد سنوات قليلة !) . وهـذا الموقف من الرفاق اللبنانيين صفعة لموقف معروف عند بعض الماركسيين العرب من خارج الأحزاب الشيوعية [1] وعند بعض المراجع الشيوعية في العالم [2] ، ومفاده انه في ١٩٤٨ كان الاميركان وشركاتهم البترولية وراء اليهود والانكليز وشركاتهم البترولية وراء العرب ! الرفاق اللبنانيون يصفعون هـــذه الحماقة ويحددون سير أمور ١٩٤٧ – ١٩٤٨ (وما قبـــل) : ليس الأمر بسيطـاً أحاديا . هناك انـكليز واميركان . وهناك متطرفون يهود ، منشقون جزئيـاً على الانـكليز . ولكن في الجوهر ، الانـكليز مـــع الصهيونية ومشروعها ضد العرب .

وببساطة : الزعامة العالمية في الامبريالية انتقلت إلى الاميركان ، والاميركان يَتَوَلّـون اكمال العمـــل التاريخي في فلسطين والشرق الادنى . هناك تصارع بين الزعيم الجديد والزعيم القديم ولكن في الأساس هناك اتفاق جوهري بـــين الاثنين ، مع الصهيونيـــة ، ضد العرب . وهم أيضاً مع الملك عبد الله وأولاده وأجداده ومع الاقطاعيين العرب ومع الشيوخ العرب ، ولكنهم عند اللزوم ضد عبد الله واولاده وأجداده وضد الاقطاعيين والشيوخ العرب ، مع اسرائيـــل والصهيونية . ولولا دفاع سكان القدس القديمة عن مدينتهم في ١٩٤٨ ، لولا دفاع شعب الأردن حالياً ، ما من لندن تشفع لا لشرق الاردن ولا حق لملكه ، وما

(١) مثلا في مقال قديم (١٩٦٤) صدر في مجـــلة « الثورة الافريقية » (ريفولوسيون افريكين) الجزائرية اليسارية .

(٢) مثلا كتاب الحزب الشيوعي الفرنسي .

من واشنطن تشفع لمياه الليطاني . وما من جميّل يشفع (في مستقبل الايام الذي قد لا يكون بعيداً) لعذراء حريصاً حامية الجبل والساحل . سبلُ العدوان والامتهان كثيرة ، وأشكالها اكثر .

الملاحظة الثانية : ان أكثر انتباهنا لدى مقارنة التحليل الحالي للرفاق اللبنانيين والتحليل « الماركسي » المحلي القديم ، **الاوصافُ** التي تحدد طبيعة اسرائيل .

في فترة ١٩٤٩ – ١٩٥٤ ، كانت الاوصاف الرجيمة تنصبّ على **حكومة تل ابيب** ، أو على **الصهيونية** . في ١٩٥٥ – ١٩٥٦ (مثلاً قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري – اللبناني عن قضية فلسطين في مجموعة قرارات « نحو آفاق جديدة » ، ووجـود هذا القرار كان بحد ذاته تقدماً ، ولكنه مبتور وملغوم) ، أُصيبت اسرائيل ذاتها بوصف رجيم . قيل « اسرائيل قاعـدة الاستعمار » . وصف صحيح وناقص وخادع . وفي فترة لاحقة (بعد اكتشاف اصطلاح « الامبريالية » ، قيل ايضاً : اسرائيل قاعدة للامبريالية) . ولكن تركيا ايضاً كانت ، في أوصاف تلك الفترة ، قاعـدة للاستعمار (وكثيراً ما كان يقال « تركيا واسرائيل قاعدتان للاستعمار » ، أو « اسرائيل وتركيـا قاعدتان للاستعمار ») ، وفي بعض سنوات ١٩٥٠ – ١٩٥٥ ، قاعدة أشد . مع ان المعلوم (وهنا بيت القصيد ومكمن الداء) أن احداً من الماركسيين لا يفكر بزوال تركيا ، وبزوال الدولة التركية ، الكيان التركي ، انما نفكر فقط حـين نقول « قاعدة للاستعمار » بازالة صفتها هذه كقاعدة للاستعمار ، ونؤمن بامكانية ومشروعية ووجوب ذلك مع بقاء ومشروعية الدولة التركية والكيان التركي .

الرفاق اللبنانيون يستخدمون اليـوم اوصافاً أخرى ، صائبة ، دقيقة ، ويعتمدون تحليلا آخر صائبـاً في جوهره ، متفقاً مع الماركسية – اللينينية والواقع . « اسرائيل وليدة تآمر الامبريالية وتخطيطها » . انها جزء من حركة الاسبريالية العالمية » « **كيان غريب** قام على اغتصاب أرض عربية ، « دركي »، « هراوة » ، « رأس جسر » ، « دولة رأسمالية دينية » ، « عنصرية » .

وصيغة اسرائيل جزء من « الامبريالية العالمية » تعني ، مـــا دام للكلام معنى ، ان هذا الكل (الامبريالية العالمية)لا وجود له ، أو على الأقل لا وجود له ككلّ ، بدون هـــذا الجزء . الامبريالية الاميركية جزء (وزعيم) ، الامبريالية الفرنسية جزء ، واسرائيـــل جزء (وهراوة ودركي ورأس جسر وقاعدة وترسانة الخ الخ) ، « اسرائيل » جزء . وليس حكومة تل ابيب أو طغمة بن غوريون – بيغن ، أو الصهيونية فقط . اسرائيل نفسها.

الصهيونية تبدأ كاختيار وبذور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أي في طور النمو الكاسح للرأسمالية الصناعية وطور تمهيد الامبرياليـــة الأوروبي والاستعماري (١٨٧٠ – ١٨٩٠). وزخمها الأول يرافق زخم الامبريالية (بين ١٨٩٦ و ١٩١٠) . وترتبط مع الدول الامبرياليـــة وخصوصاً مع الدولة الاستعمارية الاكبر ، مع زعيمة أكبر وأقوى حلف امبريالي الذي ينتصر في الحرب العالمية الأولى وتنتصر معه . وتتقدّم بخطى حثيثة نحو مشروع الوطن القومي في فلسطين ، في المرحلة الأولى من الأزمة العامة للرأسمالية التي فتحتها ثورة اوكتوبر ، أي بين الحربين العالميتين . وهذا التقدم الصراعي ضد الوجـود العربي يدخل في اطار استفحال التحـــكم والاضطهاد والنهب الامبريالي العالمي لشعوب آسيا وأفريقيا . وترتبط الصهيونية بالزعيمـــة الجديدة والوحيدة للامبريالية العالمية ، وتنتقل إلى تحقيق أو انجـاز المشروع التاريخي – الدولة الصهيونية – في بداية المرحلة الثانية من الأزمة العامة للرأسماليـة ، في أعقاب الحرب العالمية الثانية وخروج الاشتراكية من أطار قطر واحد ، وبداية تحولها إلى منظومة عالمية . وفي فترة تالية ، في زمن تقدم الثورة العربية والثورة العالمية وانقسام المعسكر الاشتراكي وتحطّم وتأجيل الوحدة العربية ، وهزائم الحركة الثورية في اندونيسيا وغانا وبلدان أخرى، وتأزم العلاقات الصينية–السوفياتية وعودة التناقض داخل المعسكر الامبريالي (فرنسا ضد اميركا) وتمكّن الثورة الكوبية ، وأزمة الثورة العالمية ، وبقاء الحرائق الثورية في أماكن شتى من آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، واحتمالات عودة المدّ الشعبي الثوري في بعض بلدان

اوروبا الخ ، تنتقل اسرائيل بالتحالف الوثيق مع الزعيم الاميركي إلى طورأرقى واوسع في العدوان العتيد ، بينما تكشف الصهيونية عن قواها في وارسو وبراغ وباريس وأماكن اخرى من العالمين الاشتراكي [1] والرأسمالي [2] ، ضد استقلال الشعوب وضد السيادة القومية في عصر الامبريالية الأشد انفلاتا من عقالها .

ولقد أصاب الرفاق اللبنانيون بقولهم أن دولة اسرائيل تقوم على اضطهاد الشغيلة وعلى التمييز العنصري ضد الأقلية العربية وحيـــال اليهود الشرقيين . وأصابوا أكثر حين ركزوا لا على هذا الاضطهاد الداخلي « الطبقي والعنصري والقومي » بل على كون اسرائيل جزءاً من حركة الامبريالية العالمية ، وكياناً غريبـــاً قام على الاغتصاب ، ودركياً ، رأس جسر للاستعمار الجـــديد في آسيا وافريقيا .

٦ – وقفة عند مذكرة بانرمان

وهكذا ننتقل إلى تعليقاتنا التكميلية والنقدية .

نريد اولاً التوقف عند بانرمان ومؤتمره في ١٩٠٧ . لقـــد كرّس الرفاق اللبنانيون ما يقرب من الصفحة لهذا الموضوع . وقد أصابوا . وننقل فيما يلي ما ورد في توصيات المؤتمر المذكور والتي صيغت في ما يعرف باسم « تقرير كامبل بانرمان »(ننقل عن برنامج الحزب الشيوعي اللبناني) (ص ٣٣) .

فقد أكدت هذه التوجيهات التي أقرها مؤتمر ممثـــلي الدول الاستعمارية (بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندة والبرتغال وايطاليا واسبانيا – أي جميع

---

(١) رومانيا . وحسب بعض الاخبار مدينة اوديسا ، اذاعة بكين ، + احدى الثورات العسكرية في اميركا اللاتينية .

(٢) في منطقة بروتانيا Bretagne الفرنسية. صاحب جريدة «كانار انشينيه» الهزلية اليسارية وهو بروتاني ومؤيد للحركة « القومية » البروتونية ، أعلن من اذاعة اسرائيل ان بروتانيا «اسرائيل في فرنسا ».

الدول التي لها مصالح مباشرة ووجود مباشر في الوطن العربي ، والتي تقع شماله مضافاً اليها هولنـــدة الموجودة في شركة رويال دتش شل وفي شركة الزيوت النباتية ، وباستثناء ألمانيا) .

« ان البحر الابيض المتوسط هو الشريان الحيوي للاستعمار ،لأنه الجسر الذي يصل الشرق بالغرب والممر الطبيعي إلى القارتين الاسيوية والأفريقية وملتقى طرق العالم ... ويكمن الخطر المهدد للعالم في هـذا البحر . ففي حوضه مهد الأديان والحضارات وعلى شواطئه الجنوبية والشرقية يعيش شعب واحـــد ، له من وحدة تاريخه ودينه ولغته وآماله كل مقومات التجمّع والترابط والاتحاد وتتوافر له في ثرواته الطبيعية وكثرة تناسله كل اسباب القوة والتحرر والنهوض. ويكمن الخطر على كيان الامبراطوريات الاستعمارية في تحرر هـــذه المنطقة وتثقيف شعوبها ، وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها وتجمعها واتحـادها حول عقيدة واحدة . ولذا فان على الدول ذات المصالح المشتركة ان تعمل على استمرار وضع هذه المنطقة ، الجزأ المتأخر ، وعلى ابقاء شعبها على مـــا هو عليه من تفكك وجهل وتأخر ». وأوصى التقرير كوسيلة اساسية مستعجلة لدرء الخطر «بضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي، عن طريق إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البرّي الذي يربط آسيا بافريقيا ، ويربطهما معاً بالبحر المتوسط ، بحيث تقوم في هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس ، قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة ».

هذا الموضوع الخطير الذي ندرّسه في سوريا لطلاب الباكالوريا (كتاب علم الاجتماع العربي – السياسة – ص ١٠٥ – ١٠٨) جدير بأن نتأمله . ان كونه يثبت عمق ارتباط الصهيونية واسرائيل بالاستعمار والامبرياليـة ، أي بمصالح استغلال أمم لأمم ، و « اوروبا » « لآسيا المستيقظة » ولافريقيـا التي بدأت هي ايضاً تستيقظ عن طريق إحكام السيطرة والتجزئة على الأمة العربية نهائياً بواسطة أمة مصطنعة ُتغرَس في قلبها، وأمة تصطنع وتكمل بواسطة دولة تخلق من العدم أو بالأصح من موجودات عالم الامبريالية ، أمر لا يحتـــاج الى تعليق

إضافي . نطلب من القارىء أن يقرأ هذا النص مراراً وتكراراً ، بدقة وتأن ، وأن يتوقف عند كل جملة وعبارة . واضعوا التقرير لم يكونوا قوماً من الاغبياء والجهلة . كانوا من العالمين ، الدارسين البـاحثين ، المستشرقين ، درسوا تاريخ الامبراطوريات (بدءاً من بابل وآشور والفراعنة والهند وروما ، سير نشوئها وانهيارها) ، ودرسوا الجغرافيا ، والاقتصاد العالمي ، وأوضاع الوطن العربي (وصولاً إلى الشريعة الاسلامية وتعدد الزوجات الخ) لكي ينتهوا إلى هـــذا التقرير . ولا نتردد في وصف هذا التقرير بأنه تقرير ماركسي – لينيني ، أقرب إلى فهم ماركس ولينين للكون والتاريخ (رغم بعض الشطحات المحتملة الفرعونية والهندية والرومانية . ربما ! ماركس في آخر شهور عمره أكبّ على (أو عاد إلى) دراسة مصر الفرعونيـة و « تاريخ الحضارات » ! ، مـن تسعة أعشار ماركسيي بلادنا ، ولا سيما اولئك الذين يستنبطون الحقـــائق استنتاجاً من « المفهوم العلمي الطبقي » الذي يصفونه خطأ بانه أيضاً « تاريخي » !

ورفاقنـا اللبنانيون الذين ركبوا « المفهوم العلمي الطبقي » أو ركبهم في الفصل الأول ، في مفهوم العالم وانشقاق كتلة ماوتسي تونغ وأخطاء «البرجوازية الصغيرة » ، لم يمتنعوا عن ان ينقلوا الينا بأمانة القسم الأساسي من تقرير بانرمان والذي تضمن: جغرافيا ، وجغرافيا ، وتاريخ ، واديان ، وحضارات ، ووحدة وتجزئة وسياسة وديموغرافيا .

سنتوقف فقط عند هذه النقطة الاخيرة : الديموغرافيا ، السكان ، تزايـد السكان ، عسى ان يتهمنا الرفاق اللبنانيون بالانحراف الديموغرافي فضـلاً عن الانحراف الجغرافي والعرقي والديني. في هذه الحال ، سنورد لهم عشرة انحرافات ديموغرافية لماركس وانجلز ولينين ، ليس اقلها شأناً حديث لينين عن « الثورات القادمة في بلدان الشرق ذات السكان الاكثر كثافة بكثير » (من روسيا) ... ولكن لندع هذه المداعبة الاخيرة ولنتوقف عند ظاهرة تزايد السكان في الوطن العربي ، على الاقل لانها تبين لنا أن العدو عالم يتفحص كل المجالات ، بينما نحن جاهلون نكتفي بالجمل .

ان ظاهرة نمو السكان العرب تلفت انتباه علماء العدو في هذا العام ١٩٠٧ ، وتلفت انتباههم بعد ثلاثين وأربعين سنة أيضاً. سنحدّد أولاً الاطار الديموغرافي العالمي لننتقل بعدها الى هذه الظاهرة العربية الملفتة للانتباه .

ان حركة نمو سكان العالم المرموقة تلازم العصر الحديث (او « الثورة الصناعية » بالمعنى الاوسع بدءا من اختراعات نهاية العصور الوسطى والاكتشافات الجغرافية والتجارة ثم طور الرأسمالية المانيفكتورية) ، وتتسارع في القرنين التاسع عشر والعشرين ثم تقفز من معدل ١ ٪ سنوياً حوالي عام ١٩٣٠ الى ٢ ٪ اوار ٢٪ حوالي سنة ١٩٦٠. وهذه الحركة كلها ولا سيما شطرها الاخير يعرف باسم التفجُّر السكاني (وهي ظاهرة لم تعرفها البشرية من قبل) .

ومن المعلوم أيضاً ان الشعوب والقارات لا تحتل موقعاً متساوياً في هـذه الحركة الممتدة على بضعة قرون : حتى فترة ١٩٢٠ - ١٩٤٠ كان النمو يصيب بالدرجة الاولى قارة اوروبا (او اوروبا وامتدادها الاميركي والاوسترالي). في ١٩٥٠ - ١٩٧٠ ، انه يصيب بالدرجة الاولى شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية .

في سنة ١٧٥٠ ، يقدر عدد سكان العالم بحوالي ٧٥٠ مليون ، منهم ١٢٠ مليون لقارة اوروبا بدون الاتحاد السوفياتي - اي ١٦ ٪ فقط ، وفي عام ١٨٥٠ ، يقدر سكان العالم بـ ١٢٠٠ مليون منهم ٢١٠ لقارة اوروبا ، اي ١٨ ٪ ، أو ١٩٪ اذا أضفنا سيل المهاجرين الى خارج اوروبا ، وفي عام ١٩٥٠ يبلغ عدد سكان العالم ٢٤٧٦ مليون ، بينهم ٣٩٣ لقارة اوروبا اي ١٦ ٪ مرة أخرى ، ولكن اذا اضفنا سيل المهاجرين الى اميركا وسواها ارتفعت هـذه النسبة كثيراً . (اذا أخذنا تبسيطاً اوروبا + اميركا الشمالية ، فان هذه النسبة ترتفع الى ٢٣ ٪ هذا بدون المهاجرين الاوروبيين الى اميركا الجنوبية) .

وبحساب آخر ، اذا أخذنا اوروبا + اميركا + اوقيانيا + الاتحاد السوفياتي من جهة ، وآسيا + افريقيا من جهة ثانية (وفي هذا التقسيم تبسيط لا بدّ منـه) وصلنا الى النسب الآتية :

	١٧٥٠	١٨٥٠	١٩٥٠
اوروبا + اميركا + اوقيانيا + الاتحاد السوفياتي	٢١ ٪	٣٠ ٪	٣٧ ٪
آسيا + افريقيا	٧٩ ٪	٧٠ ٪	٦٣ ٪

ان معدل زيادة سكان افريقيا خلال القرنين (١٧٥٠ – ١٩٥٠) - وافريقيا هي القارة المنكوبة بأفظع استعمار (صيد الرقيق حتى اوائل القرن التاسع عشر !) – هو × ٢ . ومعدل زيادة سكان آسيا هو × ٧ ر ٢ .

أما معدل زيادة سكان « اوروبا + اميركا + اوقيانيا + الاتحاد السوفياتي » فهو × ٥ , ٥ .

في فترة ما خلال النصف الاول من القرن العشرين ، تتساوى معـدلات الزيادة للعالمين . ثم يتفوّق معدل الزيادة الآفرو – الآسيوي على معدل الزيادة الاوروبي . الاول مع (اميركا اللاتينية) هو الآن حوالي ٣ ٪ . والثاني حوالي ١و١ ٪ .

نقلنا هذه الارقام بالدرجة الاولى عن كتاب كارلو شيبولا : «التاريخ الاقتصادي لسكان العالم » ، وهو استاذ في احدى جامعات الولايات المتحدة .

ما هو وضع الوطن العربي ؟ حتى نجيب على هذا السؤال ، ننقل الآن عن استاذ يهودي صهيوني ، هو ألفريد بونيه A. Bonné ، « مدير معهد البحوث الاقتصادية للوكالة اليهودية بفلسطين » ، صاحب كتاب « التطور الاقتصادي للشرق الاوسط » ، الصادر في ١٩٤٣ و ١٩٤٥ بالانكليزية .

لنتذكّر ، قبل ذلك ، الحقيقة الاساسية لعصر الانحدار والانحطاط العربي: تدهور تعداد السكان المتدرج بين القرن الرابع عشر واواخر القرن الثامن عشر في بلدان المشرق العربي على الأقل : سكان سوريا نزلوا إلى أقل من مليون، وسكان مصر إلى ٢ مليون أو ٥,٢ مليون حوالي سنة ١٨٠٠)، ثم بدأ الصعود ، طوال القرن التاسع عشر والقرن العشرين رغـم النكبات (نكبات الجزائر أولاً) .
ولنمض الآن الى جداول العالِم الصهيوني الكبير . سننقل أرقامه ، ونضيف اليها المؤشرات أو النسب المئوية التي تعطي فكرة واضحة عن معدلات نمو كل بـلد

بمقارنته مع نفسه في العمود السابق مباشرة .

	١٨٠٠	١٩٠٠		١٩٣٨	
	تعداد السكان (بالملايين)	تعداد السكان (بالملايين)	بالمقارنة مع عام ١٨٠٠=١٠٠	تعداد السكان (بالملايين)	بالمقارنة مع عام ١٩٠٠=١٠٠
أوروبا	١٨٧	٤٠١	٢١٤٪	٥٢٦	١٣٢٪
افريقيا	٩٠	١٢٠	١٣٣٪	١٧٢	١٤٣٪
آسيا	٦٠٠	٩٣٧	١٥٥٪	١١٦٢	١٢٤٪
أنكلترة وويلز	٨,٩	٣٢	٣٦٥٪	٤١	١٢٦٪
فرنسا	٢٧	٤٠	١٤٤٪	٤١	١٠٣٪
المانيا	٢٢	٥٠	٢٣٠٪	٦٩	١٣٧٪
مصر	٢,٥	٩,٧	٣٩٥٪	١٦	١٦٨٪
الجزائر (في ١٨٥٠)	٢,٥	٤,٧	١٨٩٪	٧	١٥١٪
العراق	١	٢	٢٠٠٪	٣،٥	١٧٥٪
سوريا (مع لبنان)	٠,٨	٢,٤	٣٠٠٪	٣,٥	١٤٥٪
فلسطين	٠,٣	٠,٦	٢٠٠٪	١,٥	٢٥٠٪
مجموع هذه الاقطار العربية الخمس تقريباً	٧	١٩	٢٧٠٪	٣٢	١٦٨٪

هناك فوارق بين آسيا وافريقيا ، وهناك فوارق داخل اوروبا ، وفوارق كبيرة بين فرنسا وانكلترة والمانيا ، وهناك فوارق بين الدول العربية الخ ... ولكن مع أخذ كل الفوارق ، تبقى حقائق اساسية كبيرة تتلخص كما يلي :

١ – بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ ، معدل نمو اوروبا اكبر بكثير من معدل نمو آسيا وافريقيا (المقصود باوروبا هنا اوروبا الجغرافية بالضبط) .

بين ١٩٠٠ و ١٩٣٨ ، يتساوى المعدّلان (في فترة أولى تفوّق صغير للمعدل الاوروبي ، في الفترة الاخيرة تفوق صغير للمعدل الافرو – آسيوي) .

٢ – العالم العربي يشذ عن هـــذه القاعدة العامة . رغم كونه جزءاً من

افريقيا وآسيا ، فان معدل نموه بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ ، اكبر من معدل نمو اوروبا ذاته ، وبالتالي اكبر بكثير من معدل نمو افرو - آسيا في تلك الفترة . انه ١٧٠٪ مقابل ١١٤ ٪ لاوروبا وحوالي ٥٠ ٪ لافرو - آسيا . وفي الفترة (١٩٠٠ - ١٩٣٨) ، انه يحافظ على هذا التفوق - حيث يبلغ ٦٨ ٪ - في الوقت الذي يتساوى فيه المعدلان الاوروبي والافرو آسيوي حول نصف هذا الرقم .

ان دراسة اسباب هذه الحركة الديموغرافية للعالم وقاراته وشعوبه ، وأسباب هذا الاستثناء العربي عن القاعدة العامة الذي يستمر خلال قرن ونصف - اعتدال المناخ وقلة الوفيات بالمقارنة مع المناطق الحارة ، كثرة الولادات نتيجة العوامل البطريكية والدينية ، ونتيجة التحول الكولونيالي لمصر وافقار الفلاح وزراعة القطن ، وجود نهضة صناعية تجارية في مصر محمد علي وحولها ، الخ - لا تدخل في اطار هذا البحث . لنلاحظ كاضافة لا بدّ منها ان المجاعة والحروب القمعية فتكت بالجزائر المنكوبة في القرن التاسع عشر . ولنلاحظ ان اكثر مفكري الاستعمار « تقدماً » في الروح الاستعمارية فكروا للجزائر ومصر وكل شمالي افريقيا العربي بالمصير الأسود الذي اصاب الهنود الحمر في اميركا المفتوحة ، أو الزنوج في اقصى جنوبي - افريقيا ، ووزعوا الأقطار العربية الافريقية سلفاً بين شعوب الاسبان والفرنسيين والطليان واليونان ، جيران العرب المباشرين شمال البحر الأبيض المتوسط . وقد حالت المقاومة الجزائرية الدامية دون هذا المصير الأسود ، واثبتت الشعوب العربية انها شعوب وأمة وليست محض قبائل ، ولكن الاستعمار السكاني الفرنسي - الاوروبي نجح في تحويل اقسام من الجزائر وجاراته الثلاث ونجح الاستعمار اليهودي في فلسطين . وبينما استطاع الجزائريون استرجاع الأرض السليبة والمعالم القومية لوطنهم لقاء مليون شهيد ، تمكن الاستعمار اليهودي من فلسطين ، واقام دولة قومية يهودية مفتوحة نحو توسع لا حد له . وفي الآونة ذاتها ، اشتد الزحف الايراني على منافذ الوطن الشرقية .

هذا كله نقوله من وحي وثيقة بانرمان : الامبريالية اقسمت على موت هذه الامة العربية التي تحتل مركز العالم ، بجميع الوسائل ، وفي رأسها الاستعمار

الاسكاني والماركسيون العرب هم حمقى ، يخونون امتهم عن غباء ، حين يتحاشون موضوع الزحف الشعوبي [1] على وطنهم خشية ان يُتّهموا بالشوفينية العربية والعنصرية العربية . انهم بهذا الخوف يحوّلون أنفسهم إلى شوفينيين بالعكس ، إلى شوفينيين أجانب ، إلى شوفينيين فرنسيين وطليان ويهود وايرانيين واتراك .

وبعد ، ورجوعاً إلى موضوع تزايد سكان العالم العربي ، نستطيع القول ان هذا التزايد القوي كان عاملاً رئيسياً في إحباط مخططات الابادة التي راودت غلاة الاستعماريين الاوروبيين . وهو اليوم أحد سبل النجاة لقضية فلسطين ، ولا بد ان يأخذ مكانه في حساب ومخططات المقاومة الفلسطينية والحركة الفدائية ..

لقد قدّر واضعو تقرير بانرمان تعداد الأمة العربية بـ ٣٥ مليون (سنة ١٩٠٧) وقدروا ان هذا الرقم سيبلغ ١٠٠ مليون في مدى قرن واحد . وها انه الآن قد بلغ هذا الرقم في مدى نصف قرن ، بينما اصبح معدل نمو العالم الثالث ضعفي معدل نمو البلدان الرأسمالية الغربية . وهذا يخلق مشاكل كبيرة لبلدان العالم الثالث ، ولكنه أيضاً يفرض عليها الكفاح الثوري كالسبيل الوحيد الى الخلاص .

اننا نستشهد اليوم بتقرير بانرمان . ليتنا فعلنا ذلك قبل عشر سنوات ، وقبل ٤٠ سنة ! وهذا درس لنا بليغ ! لا نعتقد ايها الرفاق أنكم اخذتم تقرير بانرمان عن مؤلف لماركس ولينين ولا عن مؤلف لصحفي سوفياتي . وفعلتم

---

(١) بلا مزدوجين = زحف شعوب اخرى . مسألة الشعوبية في زمن الامويين والعباسيين مسألة معقدة . ولا يمكن ان يعترض ماركسي على حق الامة الفارسية أو غيرها ، وصراع الشعوبية كان صراعاً بين الطبقات الحاكمة العربية والفارسية وكان محتوماً ان تتحول الدولة العربية - الاسلامية في المشرق ، (بعد انتقال المركز إلى اقصى الشرق ، وانفصال افريقيا العربية البربرية) إلى دولة لأممها الثلاث - العرب والفرس والترك - (وهذا ما حدث بوضوح في زمن السلاجقة) . وليس الماركسي لامع الأمين ضد المأمون ، ولا ضد ابن المقفع ، ولا ... ولكن في القرن العشرين ، الماركسي الذي يتجاهل الزحف الشعوبي الداخل في اطار مخطط الامبريالية ضد أمة العرب اسوأ من الاقطاعي العربي .

خيراً حين لجأتم إلى كتّاب برجوازيين. حين لا تكون بعض المعلومات والحقائق موجودة في مؤلفات ماركس وانجلز ولينين أو في كتابات المؤلفين والصحفيين السوفيات والشيوعيين الفرنسيين (وأكثرها بعيد عن مستوى مؤلفات ماركس وانجلز ولينين) ، لا يبقى لنا الا أن ننهل من العلم البرجوازي ، بل ومن العلم الصهيوني ايضاً ، نقدياً ... لو كان واضع « رأس المال » وواضع « آنتي – دوهرنغ » و واضع « الامبريالية ، على مراحل الاستعمار » ، لو كانوا يكتفون بالمؤلفات الماركسية لما أسسوا الماركسية ونحن حتى الآن لم نؤسس شيئاً . مرة اخرى ، ايها الرفاق : لنقرأ ، لنتعلم بانرمان وبونه ومئة بانرمان وبونه ... والا ، فنحن اغبياء وخونة .

والحال ، حتى هذه السنوات الاخيرة ،لم نقرأ لا ملاحظات انجلز عن العرب ، ولا مؤلفات المستشرقين ، ولا مؤلفات الكتاب العرب « البرجوازيين » ولا مؤلفات الصهيونيين ... لم نقرأ شيئاً ، لأن المقالات الظرفية لصحفيين سوفياتيين ليست شيئاً .

٧ – مسألة القيادات الاقطاعية ومسألة الاستعمار الاستيطاني

يعرض برنامج الحزب الشيوعي اللبناني سير القضية الفلسطينية في زمن الانتداب ، بعمق ونفاذ : وعد بلفور واتفاقيات الانتداب ، سياسة بريطانيا والهجرة والمنظمات الارهابية والنضال العربي (ص ٣٤) .

ثم يقول : « ولكن القيادات الاقطاعية والرجعية العربية حاولت تركيز مقاومة العرب بالاساس ضد اليهود وصرفها عن الاحتلال البريطاني الذي كان ينفذ مخططا الامبريالية والصهيونية في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، مما كان يلقي بعض الظلال على شرعية المقاومة العربية ويبرزها في إطار الصراع الديني والعنصري امام الرأي العام العالمي » (ص ٣٥) .

ان أحداً لن يدافع عن هذه « القيادات الاقطاعية والرجعية » ولكن الدفاع

عن الحقيقة ، السعي وراء الحقيقة ، كاملة ، واجب على الجميع ، وبالأحرى على اولئك الذين تنصحهم الماركسية ضد التسرع والديماغوجيا .

لقد بات شائعاً في زمن انفلات « الماركسية » المستحدثة ، على يد أناس كانوا قبل سنوات قليلة يصابون بنوبة هيستيرية حين يشمّون رائحة « الشعوبية » (!!) ان يُقسّم النضال العربي الفلسطيني ومنذ ١٩٢٠ « طبقياً » بين الجماهير الكادحة والطبقة الاقطاعية او الاقطاعية الرأسمالية ، وأن تُستنتج الحقائق والوقائع من هذه القِسْمة . ونحن نعترض على هـذا الموقف المثالي الذي لا نعتقد ان الرفاق اللبنانيين يتبنونه . حقاً إنهم يدركون ان الأمور اكثر تعقيداً ، ويدركون انه لا فائدة من القاء كل المسؤوليات على ظهر الاقطاعية العربية الفلسطينية . هذه العملية « فائدتها » أن توحد « فهم » القوى التقدمية ... على أرض الخطأ ! الخطأ القائم على تجاهل طبيعة النضال الفلسطيني القومي ، وتجاهل تركيب المجتمع العربي الفلسطيني ، وتجاهل الوضع الدولي والسياسة الدولية .

ودفعاً للالتباس والخطأ ، نقول :

اولاً – ان تركيب المجتمع الفلسطيني في ١٩٢٠ ليس تركيب المجتمع الاقطاعي الفيودالي الاوروبي الملكية الاقطاعيـة موجودة والملكية الصغيرة موجودة وواسعة ، والتكوين العشيري والعائلي البطريكي الشرقي صفة قوية . زعماء المجتمع التقليدي (ملاكون – رجال دين – رؤساء العـائلات) المتحوّلون بأشكال ما ، وبتأثر ما ، وفي حدود ما ، إلى ملاكين اقطاعيين رأسماليين ، يتصدّرون ويقودون النضال . كما تزعم الشيخ صالح العلي وسلطان الاطرش والامير عبد الكريم والامير عبد القادر وشيوخ العشائر العراقية هذه المرحلة الأولى في الكفاح الوطني ، كذلك في فلسطين يترأسها أسياد المجتمع .

ثانيـاً – النضال العربي الفلسطيني نضال قومي ، ليس فقط نضال « تحرير وطـني » بل نضال قومي ، ونضال قومي مضاعف أضعافاً . في ١٩٢٠ و ١٩٣٠ و ١٩٣٦ ليس ضرورياً ان يكون الانسان الفلسطيني بالغ الذكاء والاطلاع (مطلعاً على مذكرة بانرمان او على مذكرات وايزمن وبن غوريون) حتى

يعرف المصير الأسود الذي ينتظره وينتظر فلسطين أرضاً وشعباً ... يكفي ان يفتح نصف عين على ما يجري أمامه . وفي هذه الحال ، في هذا المجتمع الفلسطيني الآخذ في تحول تاريخي تحت عوامـــل شتى أهمها الاستعمار والامبريالية ، من الطبيعي تماماً ان يجمع النضال القومي بالاضافة إلى الفلاحين والعمال والبرجوازية الصغيرة القسم الأكبر من البرجوازية وقسما لا بأس به من رجال الدين والملاكين. ووجود هؤلاء يدفع الماركسيين (واحياناً خيرة الماركسيين الذين فهموا الموقف وعارضوا الصهيونية بصدق كما في الوثائق الشيوعية الصادرة في ١٩٣١) الى إلقاء الظلال على الحركة الوطنية . وهذا خطأ ، كان يمكن تجنّبه ، فيما لو درسنا جيداً لينين وتشخيصه للعصر الامبريالي وللثورة الاشتراكية العالمية في هـذا العصر . وفيما لو تجنبناه ، لكنا ساعدنا على تحويل وتغيير قيادة النضال نحو الأفضل .

ثالثاً – ان الوضع الدولي والموقف الدولي للاتحاد السوفياتي لعب دوراً لا يمكن اغفاله. وهذا الوضع الدولي هو سعي الاتحاد السوفياتي الحثيث الى الاتفاق مع الدول الرأسمالية الغربية الديمقراطية ضد المانيا النازية – ولا شك ان نقولا شاوي ورفاقه في ١٩٣٩ كانوا مرتاحين لانتهاء الثورة الفلسطينية وصدور الكتاب الابيض البريطاني . (وليس المهم ان نلومهم ، بل اننـــا نشكرهم على كونهم لم يبسّطوا الأمور : تحدثوا عن الكتاب الابيض بدون شتائم زائدة) . وفي منظور القضية الفلسطينية التاريخي ، أكبر خطأ للقيادات الرجعية العربية – الفلسطينية + القاهرة ودمشق الخ – أنها في ١٩٣٩ ، رضيت وقبلت واستكانت . الشعب وخـيرة القادة انتظروا واستعدّوا ....

رابعاً – اذا عدنا إلى موضوع الطبقة الاقطاعية الفلسطينية ، وجب علينا ان نميز سياسياً بين خط عائلة الحسيني وخط عائلة النشاشيبي : الخط الأول كان ضد الانكليز . والثاني كان معهم . والخطان ضد مشروع التهويد ، ذاتياً . والشعب ، ٩٠ ٪ من شعب فلسطين كان مع الخط الاول . وكان على حق . الانقسامـات داخل هذا الشعب ، الفوارق ، الاجتهادات (مثلا حول مكان اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين واقاموا فيها ، حول الموقف الخططي الواجب سلوكه تجـاههم هي

فوارق صغيرة ضمن الخط الأساسي : ضد الانكليز ، ضد الصهيونية ، ضد الهجرة ضد الاستيطان ، ضد بيع الاراضي . وكان النضال الفلسطيني بين الحربين العالميتين القطاع الثابت الاقوى والاوسع والاكثر عنفا في كل النضال الوطني العربي من الخليج إلى المحيط .

خامساً – حين يقول الرفاق اللبنانيون « أن الرجعية والاقطاعية حاولت تركيز مقاومة العرب بالاساس ضد اليهود وصرفها عن الاحتلال البريطاني»... ، فان هذا القول يجمع الخطأ مع الصواب . ان النضال العربي كله ، ونضال الجماهير الكادحة العربية كان بالاساس موجهاً ضد الاحتلال البريطاني واليهود ، ضد الاستيطان اليهودي ، ضد الاستعمار اليهودي ، والصهيونية هي هذا ، هي الاستعمار – الاستيطان colonisation اليهودي . وحين يقولون « الاحتلال البريطاني الذي كان ينفذ مخطط الامبريالية والصهيونية في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، فانهم يحدّون من خطئهم السابق ، وينقضون في نهاية هذا الشطر الثاني الالتباس الوارد في الشطر الاول . من الواضح انه من المستحيل ، من رابع المستحيلات مقاومة « الاحتلال البريطاني الذي كان ينفذ مخطط ... دون مقاومة « مخطط الامبريالية **والصهيونية** ، **في** ، **اقامة** ، **الوطن** ، **القومي** ، **اليهودي** ، **في فلسطين**».

اما الشطر الثالث والأخير من هذه الجملة الطويلة « مما كان يلقي بعض الظلال على شرعية المقاومة العربية ويبرزها في اطار الصراع الديني والعنصري امام الرأي العام العالمي » ! أي « رأي عام عالمي » هذا الذي تقصدونه ؟ السوفياتي والشيوعي ؟ الغربي البرجوازي ؟ الاول يخطيء حين لا يأخذ بمواقف لينين وماركس وانجلز . ومواقف لينين وماركس وانجلز تتضمن الاعتراف الواضح والاعلان الصريح بان كفاحاً كهذا لا بد ان يتضمن مظاهر حرب أديان وحرب اجناس وانه رغم ذلك كفاح بالغ الأهمية وبالغ المشروعية ، يضاعف مشروعيته كونه كفاحاً دامياً ضد استعمار استيطاني ... أما الرأي العام الاوروبي البرجوازي – البرجوازي الصغير – العمالي فانه بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩٥٠ يسير هبوطاً وانحداراً

كوجـدان إنساني ، وهـذا السير المتداعي يلازم صعود الاستعمار الأوروبي في العالم . والثورة الجزائرية في ١٩٥٤ ، لكي تحرّك الوجـدان الفرنسي والطبقة العاملة الفرنسية ، لم تلجأ إلى أسلوب عموميات الإخاء الانساني بل إلى اسلوب وضع النقاط على الحروف ، المدعوم بقوة واستبسال وتفاني الشعب المستباح .

سادساً - ما دامت القيادات الاقطاعية والرجعية متّهمة - جزئياً بحق - بمحاولتها صرف المقاومة العربية عن الاحتلال البريطاني ، لا يجوز أن ننسى ان عدداً من مقالات « صوت الشعب » في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ (وبعضها بقـلم خالد بكداش) ، تجاهلت في عرضها « لمطالب الشعب الفلسطيني » مطلب « إلغـاء الانتداب » مطلب « انهاء الاحتلال » . وكان هذا الموقف ذا صلة مـا بالوضع الدولي والموقف الدولي الذي تحدثنا عنه في « ثالثاً » . حتى ان « صوت الشعب » نشرت آنذاك مقالاً بقلم « سليم عبود ، عضو اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية » رحب فيه صاحبه بمشروع سوريا الكبرى الذي أيده على حدّ قول القـائد المذكور ، غير الاقطاعي وغير الرجعي ، وليّ العهد المصري و « الشخصيتان النافذتان في العالم اليهودي » وهما الدكتور ما غنس Magnes رئيس الجامعة العبريـة ، والسر هربرت صموئيل المفوض السامي البريطاني الأول في فلسطين (وبعد تسع سنوات تكتشف « صوت الشعب » انهما صهيونيان كبيران)[١] . ان أخطاء وخيانات الاقطاعية والرجعية شيء وتحويل النظر في هـذا الاتجاه لصرفه عن التقييم الصحيح الكامل للتاريخ شيء آخر .

٨ - عودة الى ١٩٤٧ - ١٩٤٨

ان أسلوب قول اشياء وعدم قول اشياء يجد مثالاً ساطعاً في عرض الموقف

---

(١) هذه نقطة أوردناها في كتابنا «تاريخ الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي»، دار الطليعة بيروت . ولم تكذبونا عليها . لم يفت الأوان . على كل حال ، سنوردها بتفصيل أكبر في الطبعة الثانية من كتابنا ، والتي هي أوسع واطول بكثير .

السوفياتي في ١٩٤٧ .

يذكر البرنامج اللبناني خطاب المندوب السوفياتي في الامم المتحدة في جلسة ١٥ أيار ١٩٤٧ : « انه لا يمكن ضمان مستقبل شعب فلسطين الا باستقلالها ، ذلك الاستقلال الذي يضع أسس التعاون بين العرب واليهود في فلسطين » ، وطالب « بايجاد دولة ديمقراطية مستقلة في فلسطين ، يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق متساوية . فايجاد هذه الدولة المستقلة هو أحد الحلول الجديرة بأعظم اهتمام ، لأنه سيكون اساساً معقولاً للتعاون السلمي بين اليهود والعرب » (ص ٣٦) . ويتابع البرنامج : « ولكن بعد أن أوصل الاستعمار البريطاني المشكلة الى ذروتها وفشل مشروع الدولة الموحدة نتيجة مناورات الدول الامبريالية ، أيّد الاتحاد السوفياتي مشروع التقسيم ضمن شروط مبدئية عديدة في مقدمتها انهاء الانتداب البريطاني وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين ، ووقف الهجرة اليهودية ، واقامة نوع من الوحدة الاقتصادية بين القسمين تكون عاملاً للتوحيد بينهما في المستقبل » (ص ٣٦ — ٣٧) .

ان هذه العودة من الرفاق اللبنانيين إلى الأوراق القديمة غير موفقة بتاتاً . وسنتوقف عند هذه الأوراق ، لاسيما ان مجلة « الطليعة » القاهرية ، عادت تحت قلم حمدي عبد الجواد (في عددها الصادر في حزيران ١٩٦٩) إلى هذه الأوراق وبشكل اسوأ وأسخف .

ان تصريح المندوب السوفياتي في جلسة ١٥ أيار ١٩٤٧ له تتمــة مفادها أننا سنضطر الى تأييد مشروع الأقليــة (أي مشروع التقسيم) ، اذا استحال التعايش بين العرب واليهود في دولة واحدة . بتعبير آخر : ان المندوب السوفياتي نبه إلى احتمال تغير قريب في الموقف السوفياتي منذ أيار ١٩٤٧[١] . ولكن لعل الرفاق اللبنانيين الآن يعتمدون على الجريدة (صوت الشعب) في ١٩٤٧ . ولعل الجريدة في ايار ١٩٤٧ « لعبت بالطميمة » .

(١) الاتحاد السوفياتي كان واضحاً وصادقاً . موقفه الأخير في تأييد لم التقسيم يفاجىء الا الذين أغمضوا عينهم عن التنبيه السابق .

في ١٩٤٧ كان هناك في الأمم المتحدة مشروعان: مشروع الاكثرية (اكثرية اللجنة الدولية التي درست وحققت ..) وينص على تقسيم فلسطين إلى دولتين احداهما عربية والأخرى يهودية، ومشروع الاقلية (اقلية اللجنة ذاتها) وينص على اقامة دولة فلسطينية واحدة ذات قوميتين عربية ويهودية محل الانتداب البريطاني المنتهي . وان من المستحسن لو ان العرب قبلوا بالمشروع الثاني كحل وقتي أو كغطاء للحرب القومية البادئة حتما من قبل اليهود (غير العاقل وحده يتصوّر ان هذا أو ذاك يمكن أن يكون اكثر من وقتي ، يمكن أن يكون حلاً نهائياً يجلب السلم والاخاء إلى ربوع فلسطين في زمن الامبريالية والصهيونية والتحرر العربي والكفاح العالمي) .

هذا اولاً .

وثانياً - يقول الرفاق اللبنانيون : « ولكن بعد ان أوصل الاستعمار البريطاني المشكلة إلى ذروتها وفشل مشروع الدولة الموحدة نتيجة مناورات الدول الامبريالية ، أيد الاتحاد السوفياتي مشروع التقسيم » !

صحيح ان الرفاق أتبعوا الاستعمار البريطاني بـ « الدول الامبريالية ». ولكن يبقى ان الاستعمار البريطاني هو الذي أوصل المشكلة إلى ذروتها بين ايار وتشرين ١٩٤٧ !؟ « أطرد طبيعتك تعد اليك مُخيِّلة على حصان». لا ريب ، هنا ايضاً ، يعتمد الرفاق اللبنانيون على جريدة «صوت الشعب» أي على خط خالدبكداش ورفاقه في سنة ١٩٤٧ . وجوهره : التركيز على بريطانيا ، ومشروع سوريا الكبرى وعبد الله ، الخ ... ولكن كيف نسوا في هذا السطر ٢٤ من الصفحة ٣٦ ما قالوه في الاسطر ٦ - ١١ من هذه الصفحة ذاتها : بعد الحرب العالمية الثانية ، تسنمت الولايات المتحدة زعامة الامبريالية العالمية و« تحملت المسؤولية المباشرة في إيصال المؤامرة الامبريالية الصهيونية ضد العرب الى نهايتها » ؟

قطعاً ، ايها الرفاق ، عليكم ان تدرسوا جيداً خطكم في ١٩٤٧، أن تدرسوه تفصيلياً ، موقفاً موقفاً ، مقالاً مقالاً ، جملة جملة ، كلمة كلمة ، أن تفندوه هكذا ، عليكم أن تكشفوا الأشباح بالضوء حتى تكف عن كونها اشباحاً وحتى

تغادر منزلكم (وعيكم) الى غير رجعة . في ١٩٤٧ وقبل ايار ١٩٤٧، في اوائل ١٩٤٧ ، في مؤتمر الأحزاب الشيوعية المنعقد في لندن ، كان تركيز خالدبكداش على بريطانيا ، وبعكس موقف الشيوعي العربي الفلسطيني اميل توما الذي فهم واعلن في المؤتمر ذاته أي منذ اوائل ١٩٤٧ ان اميركا هي الزعيمة وهي الخطر الاكبر وان الدولة الصهيونية شرّ مستطير . مرة اخرى ، نكرر لكم ولغيركم ، ما قلناه دائماً : ليست خطيئتكم في تلك الآونة منحصرة في انكم تخليتم في اواخر ١٩٤٧ او في ١٩٤٨ عن موقفكم السابق المعارض للتقسيم ورضيتم بالتقسيم ، بل ليس هذا هو أساس وقمة الخطأ (ولعلّكم مـا كنتم تستطيعون أن تعارضوا موقفاً أيده الاتحاد السوفياتي وستالين ، ونحن في هذا أقل تفاؤلاً مما قلـتم في تقريركم السياسي)،بل ان منظوركم الاساسي كان خاطئاً، تشخيصكم وفهمكم للموقف السياسي والتاريخي كان فاسداً : العـالم ، بريطانيا ، أميركا ، الشرق الاوسط ، الصهيونية ، الرجعية العربية الخ ...

وثالثاً – « ... أيد الاتحاد السوفياتي مشروع التقسيم ضمن شروط مبدئية عديدة في مقدمتها انهاء الانتداب البريطاني وانسحاب القوات البريطانية من فلسطين ووقف الهجرة اليهودية ، واقامة نوع من الوحدة الاقتصادية بـين القسمين تكون عاملاً للتوحيد بينهما في المستقبل » . لننظر الى هـذه الشروط المبدئية الثلاثة :

أ – « في مقدمتها انهاء الانتداب البريطاني وإنسحاب القوات البريطانية..». تستطيعون أن تمدوا هذه العبارة اذا شئتم سطراً إضافياً أو أكثر ، هذا لا يجدي فتيلاً . حين تتسنّم الولايات المتحدة الزعامة و « تحمل المسؤولية المباشرة في إيصال المؤامرة الصهونية الى نهايتها »، فان وصول المؤامرة الصهيونية الى نهايتها يفترض كنتاج ادنى وكتحصيل حاصل انهاء الانتداب البريطاني . أما بخصوص الاتحاد السوفياتي فقد كان موقفه الاول – رفض التقسيم – يتضمن أصلاً هـذا « الشرط المبدئي » في المقدمة . وفي صيف ١٩٤٧ لا نعتقد أن مسألة استمرار الانتداب والاحتلال البريطاني في فلسطين كانت مسألة جدية (هذا ما يمكن

قوله على ضوء تحليلكم ذاته، ولا سيما الاسطر ٦ – ١١ من هذه الصفحة ذاتها).

ب – أما أن يكون الاتحاد السوفياتي قد اشترط بين « شروط مبدئيـة عديدة وقف الهجرة اليهودية »، فاننا نرجوكم أن تعودوا الى الأوراق القديمة بدقـّة (وليس فقط الى جريدة « صوت الشعب »، بل مثلاً الى نشرات هيئة الامم المتحدة) . أليست الدولتان القوميتان الاثنتان الجديدتان المقرر قيامهما في فلسطين، دولتين مستقلتين سيدتين؟! أفلا يحق لبلجيكا أو بولونيا او جمهورية المالاغاش ان تستقبل من تشاء من الوافدين ؟

جـ – وأما أن يكون قد «اشترط» أيضاً « إقامة نوع من الوحدة الاقتصادية بين القسمين » (بين الدولتين!) ! حمانا الله من هذا « التوحيد » الاقتصادي، ورحمنا ورحمه. وأن يكون هذا النوع من الوحدة الاقتصادية « عاملاً للتوحيد» بين الدولتين والشعبين في المستقبل، فهذا يكشف مثاليـة وطوباوية الموقف السوفياتي الذي كان (في هذه النقطة) أمنيةً وتوصيةً ولم يكن شرطاً مبدئياً، على حد علمنا . نقول « على حد علمنا » نقلاً لعبارة « في حُدود علمنـا » التي استخدمها حمدي عبد الجواد في مجلة « الطليعة » مثبتاً أن بين علمه والعلم ما صنع الحداد (ما صنع « التزوير ») . ولحسن الحظ، في هذا الشهر حزيران ١٩٦٩، كتب كاتب عصري آخر (أديب ديمتري في مجلة « الكاتب ») يضع بعض النقاط على بعض الحروف فيقول : كان الاتحاد السوفياتي يأمل أن يكون هذا طريقاً للسلام والتعايش . الا ان التجربة أثبتت أن إسرائيل عدوانية على طول الخط. آن أوان الفهم ... واذا دقق الرفاق اللبنانيون في الاوراق القديمـة، فانهم سيجدون في هذه السنة ١٩٤٧ (وبدءا من ايار) اعترافاً سوفياتيـاً بالحقوق القومية لليهود الموجودين في فلسطين والذين أصبحوا يشكلون أكثرية السكان في بعض أجزائها، وتعاطفاً أو بداية تعاطف مع مبدأ الهجرة . وكان اعتراف الاتحاد السوفياتي بالدولة المعلن تأسيسها فورياً وكاملاً (ايار ١٩٤٨) .

د – والأهم من ذلك كله، وبالارتباط معه ترك الرفاق اللبنانيون أشيـاء هامة تفلت من حقل بصرهم، أشياء حدثت في سنة ١٩٤٨ نذكر منها :

١ – وصول أسلحة تشيكية غير قليلة الى الهاغانا واسرائيل ، غير قليلة ولعبت دوراً في سير المعارك ، والدور المحتمل لسلانسكي ، الامين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ، والذي أعدم بعد أربع سنوات بعدة اتهامات صحيحة او ملفقة او كلاهما، بينها تهمة الصهيونية (في الفترة الاخيرة – الاخيرة من حياة ستالين) .

٢ – صدور كراس « شيوعي » عراقي حقير ، بغياب الشهيد فهد نزيل السجن ، يدعو الى مساندة اسرائيل ويمجد تقدمية جماعة شترن (١٩٤٨) ، ولعبَ دوراً مشؤوماً ضد الحزب الشيوعي العراقي وضد القضية العربية .

٣ – دور ساسون شلومودلال (ما يسمّى باللجنة المركزية الثالثة في الحزب الشيوعي العراقي) ، خلقُه حرباً أهلية عنيفة وعابرة في بغداد ضد الرجعية والاستعمار الخ ، حرباً ضربت الحزب الشيوعي العراقي ، وكان هدفها التأثير والضغط على سير المعارك الفلسطينية ولا سيما معركة القدس التي انتهت بسقوط القدس الجديدة .

٤ – الدور المحتمل لرجل من طراز موشه سنيه M. Sneh . قبل سنوات، كان في الحركة الصهيونية ، في أحد أحزابها اليمينيـــة ثم أصبح لفترة رئيساً للهاغانا (ليس أقل !) . وها انه في أعقــاب الحرب العالمية ، وعند وصول المؤامرة الصهيونية الامبريالية الى نهايتها ، ينضم الى حزب مـــا بام ، العمالي – الاشتراكي – اليساري ويصبح في هــذا الحزب الصهيوني اليساري ، يسارياً جداً ، وأشد أعضاء وقادة الحزب حماساً للاتحاد السوفياتي ولستالين ، يذهب به الحماس الى درجة طلب الموافقة على السياسة السوفياتية إبان قضية سلانسكي (١٩٥٢) ، رغم أن أحد افراد المابام ، « اليساريين » اعتقل في هذه القضية (كان في تشيكوسلوفاكيا) الامر الذي يؤدّي الى فصـــله (أي سنيه) او انفصاله عن المابام ، فينضم بعد قليل الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي وقيادته ، ثم في ١٩٦٥ يتزعّم مع رئيسه ميكونيس الانشقاق الصهيوني في الحزب ! هذا الانتقال لسنيه من اليمين الى اليسار ومن رئاسة الهاغانا الى المابام والى مساندة

السياسة السوفياتية بطبل وزمر الخ ... الم يكن عملاً مخططاً لتضليل الاتحاد السوفياتي حول وضع اليهود ومستقبل الدولة الاسرائيلية والمجتمع الاسرائيلي ؟ ونترك تاريخ ميكونيس لمناسبة أخرى !

٥ – هذه الامور البالغة الخطورة سنتحدث عنه تفصيلياً في المستقبل . ولكن يستطيع نقولا شاوي ورفاقه أن يدرسوا هذه المواضيع وأن يسبقونا إلى حديث مفصّل عنها في حدود علمهم التي من المفروض انها تتخطى حدود علمنا. وعلى أي حال ، فان علمنا تحت تصرفهم ، من اجل المساعدة على تكوين الصورة على أدق وأكمل ما يمكن . (المستقبل ليس مستقبلا بعيداً ، ولكن اذا شاءوا سنسبّقهذا العمل على كل شيء ،سنضع فوراً معلوماتنا تحت تصرفهم) .

٩ – مستقبل القضية . خطان . هل هناك شرفاء في اسرائيل ؟ المقاومة والشعارات .

ويختم البرنامج اللبناني عرضه التاريخي بتشخيص جوهري صحيح لاسرائيل – جزء من الحركة الامبريالية العالمية ، كيان غريب ، عنصر تقسيم وعائق في وجه الوحدة العربية ، دولة ذات مطامع توسعية غير محدودة ، دركي ، رأس جسر الخ (ص ٣٧) – وهو التشخيص الذي نقلناه سابقاً وأيدنا تأييداً كاملا. علينا الآن بإلقاء نظرة نقدية **إلى مستقبل القضية كمايعرضه الرفاق اللبنانيون (ص ٣٨) وكما نقلناه عنهم .**

ليس من شك في ان الصواب يغلب الخطأ في منظور الرفاق اللبنانيين ، فهم يضعون القضية في اطارها التاريخي والستراتيجي الصحيح : « اطار النضال العام بين قوى التحرر العربية التي هي جزء عضوي من الحركة الثورية العالمية وبين الامبريالية والحركة الصهيونية » . وحقاً ان « كل محاولة لعزل القضية عن هذا الاطار ، والتطلع إلى حلها بمنأى عن القوى الثورية العالمية واغفال دور هذه القوى أو الدعوة المتسرعة العاطفية لشن حرب التحرير الفورية « ولو أدت إلى تصفية انظمة الحكم التقدمية » ، ليست مجرد خطأ ،بل هي مغامرة بالثورة العربية وبالقضية الفلسطينية نفسها ، ولا بد لاشكال النضال التي يجب اتباعها

ان تخضع لمصالح الحركة الثورية العربية ككل » (ص ٣٨) .

في هذا كله ، نؤيد الرفاق اللبنانيين وبدون تحفظ ، ونحب ان نقول انهم فيما لو تغافلوا عن « الدعوة المتسرعة العاطفية لشن حرب التحرير الفورية » لما كانوا فعلوا شيئاً مفيداً وحاسماً طيلة هذه الصفحات الفلسطينية . هذه الدعوة المتسرعة العاطفية والتي تلبس ألبسة متنوعة ، وتتلون بألوان ماركسوية وغيفارية هي فعلاً شيء خطِر في ١٩٦٨ وفي ١٩٦٩ وفي كل وقت المتسرعون ! العاطفيون يحملونهـــا . ولكن من يدري ؟ لعل في جملة هؤلاء اناساً همهم « تصفية انظمة الحكم التقدمية » ، ومن فضلكم ، تصفية وجود الامة العربية بتطبيق تطبيق ختامي لوثيقة بانرمان . وإذا كان نصف الماركسويين يشاركون في هـــذه الدعوة ، فان الفكر « الثوري » السعودي الاسلامي (وأحد منظريه جـــلال كشك) يشارك فيها هو ايضاً . والفريقان ، الماركسوي والسعودي يلتقيان على محاربة القاهرة (والنـــاطق بلسانها وزعيمها) ، وعلى محاولة جعل المقـــاومة الفلسطينية بديلاً عن الجيش المصري . والآن (في خريف ١٩٦٩) ، يشتد هـــذا الهجوم « الثـــوري » « الماركسوي » على القاهرة ، في الوقت الذي قطـــع فيه الاستعداد العسكري المصري شوطاً لا بأس به والذي يتصاعد فيه القتال الفعلي على القنال شهراً بعد شهر . اننا اذن نؤيد موقف الرفاق اللبنانيين ، ومع التشديد : هـــذه الدعوة المتسرعة العـــاطفية تحتاج إلى ادانة كاملة ودائمة ، لا تحفظ ولا هوادة ولا رحمة فيها .

كذلك « التطلع » إلى حل القضية « بمنأى عن القوى الثورية العالمية واغفال دور هذه القوى » .

وفي رأس « القوى الثورية العالمية » الاتحاد السوفياتي : مساندته للعرب ، في السلاح والخبرة العسكرية (في الطائرات والدبابات والغواصات والمدافـــع والبواريد والخبراء) وفي الاقتصاد (السد العـــالي وسد الفرات ، التجهيزات الصناعية ، القمح لمصر . . .) وفي السياسة ، في هيئة الامم المتحدة . بدون هذا ، أو بدون جزء منه اين نكون ؟

ولكن ما معنى « أغفال دور هذه القوى ؟ » دور « الاتحاد السوفياتي » ؟ لم لا تقولون « دور ، وموقف هذه القوى » ، « دور وموقف الاتحاد السوفياتي ؟

ان اولئك الذين طبّلوا ويطبّلون « لحرب التحرير الفورية » و « يغامرون بالثورة العربية [١] وبالقضية الفلسطينية نفسها » ، لا يغفلون دائماً « دور » القوى الثورية العالمية ، بل ان التنويه بهذا الدور ، وتأكيد هذا الدور وارد في بياناتهم الجدارية والاذاعية . ولكنهم يغفلون موقف هذه القوى ، موقف الاتحـــاد السوفياتي . يظهرون الموقف وكأن موقفهم هو موقف الاتحاد السوفياتي، وكأن الاتحاد السوفياتي معهم ، مع « دعوتهم المتسرعة العاطفية » ، (ويشتمون ليل نهار « المشروع البريطاني » ناسين أن هذا المشروع هو قرار يحمل توقيـع الاتحاد السوفياتي) . وهذا ما يجب علاجه يجب الخروج من العموميات ، انتم وهؤلاء ونحن كلنا نؤكد دور القوى الثورية العالمية ، ودور الاتحاد السوفياتي . ولكن نحن مصرون على كشف اولئك الذين يعملون ضد القاهرة على أساس « الدعوة المتسرعة العاطفية ، وبضمن منطقهم تجاهل موقف الاتحاد السوفياتي .

ولا يتصوّرن الرفاق اللبنانيون اننا نخطىء موقف الاتحاد السوفياتي . تلك حماقة . الاتحاد السوفياتي على حق ١٠٠ ٪ حـــين يعارض الدعوات المتسرعة العاطفية . وله الحق في أن يسعى لحل سياسي من أجل الانسحاب والرجوع إلى حدود ٥ حزيران . وما دام يلتزم بهذا الرجوع، فهو لا يفرط بشيء،ولا يخالف موقفه التقليدي المبدئي الذي انتم وهؤلاء ونحن نعرفه . وأوضاع العرب بعـد حزايران ١٩٦٧ (وقبـــله !) تستحق وتتطلب اولاً الشفقة والتحذير ! وعلى العرب حين يصبحون أو يكونون « على استعداد » (وهذه كلمة كبيرة) ، أن يراعوا موقف القوى الثورية العالمية . ونعتقد ان هذا الموقف هو ايضاً مرهون، إلى جانب اشياء واشياء ، بهذا الاستعداد العربي ذاته . وحين يدخل العرب في

---

(١) نسجل اصطلاح « الثورة العربية » بسرور بالغ، هذا تجاوز محمود على اصطلاح«حركة التحرر الوطني » ، ولنتمسك بالاصطلاحين !

حوار الحل السياسي ، فإنهم يفعلون ذلك ، لا رضوخاً لسياسة سوفياتيـة بل استناداً لعدة عوامل واهداف وحاجات،أحدها (أحدها فقط) دور وموقف الاتحاد السوفياتي والقوى الثورية العالمية و « الرأى العام العالمي » .

يبقى انه من الخطأ « اغفال دور وموقف القوي الثورية العالميـة » . ليس فقط لأن اغفال الدور يعزل العرب ويعرضهم لشر مستطير ، بل ايضاً لأن اغفال الموقف يعيدنا (يعيدكم ويعيد غيركم) إلى ذلك الموقف المدان الذي يصوّر المستقبل وكأن قضية فلسطين والقضية العربية ستحلها « القوى الثورية العالمية » « التي » الثورةُ العربية جزء منهـا قليل الفاعلية ، الموقف المـدان الذي يظهر الامور وكأن العرب والسوفيات شيء واحـد لا تمـايز فيه ، والذي يعرض العرب للأوهام ويعرض الصداقة العربية – السوفياتية للتقويض بالخيبات ، وفي النهاية يعزل العرب ويفصلهم عن « القوى الثورية العالمية » بسبب عدم وضوح التمايز ، بسبب اغراق الحدود القائمة دائمـاً داخل معسكر « القوى الثورية العالمية » ، بسبب « الخلط » السديمي الذي أُحِلّ محل التحالف والترابط والوحدة .

ونحن نوافق ايضاً على قول الرفاق اللبنانيين« ولا بد لاشكال النضال التي يجب اتباعها ان تخضع لمصالح الحركة الثورية العربية ككل »، غير اننا نريد ان يأخذ رفاقنا قياس هذا القول جيداً : النضال الفلسطيني جزء من الحركة الثوريـة العربية . « وجزء » معناه ان لا وجود للكل ككل بدون هذا الجزء . وان التضحية بالجزء لصالح الكل انتقاص للكل ، وفي ظرفنا العربي الشرق أوسطي التاريخي العالمي نسف للكل . لقد مضى الوقت الذي كان يجب فيه على الفلسطينيين ان ينتظروا حتى انتصار « الحركة الثورية العربية ككل ». حين يكون التناقض الأساسي على أرض الشرق الأوسط هو التناقض بين حركة التحرر العربية والثورة العربية والامة العربية وبين اسرائيل بوصفهـا جزءاً من الامبريالية العالمية و «خلاصة» لها في أرض الوطن (الكيان الغريب والهراوة والدركي ورأس الجسر) ، لا يمكن الا ان يحتل الفلسطينيون – شعباً ومقاومة وفدائيين – مكان الصدارة ، مكاناً في الصدارة ، في هذا الصراع التاريخي الدامي الطويل .

والرفاق اللبنانيون يفهمون ذلك ويؤيدون « حركة المقاومة » ، بمـا فيها

المقاومة المسلحة .. « داخل اسرائيل والأراضي المحتلة » . « داخل اسرائيل» ايضاً ! وهذا قول ممتاز . داخـــل اسرائيل في الناصرة وعكا وحيفا والقدس اليهودية واللد وتل أبيب . داخل اسرائيل. واسرائيل بدون مزوجين ! يمكننا ويجب علينا بنضال طويل ومتفان يسقط فيـــه مئات الألوف من ابناء الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ان نقضي على اسرائيل دون ان نضعها مثاليـــاً ومسرحياً بين مزدوجين . وطالما كنا نضعها بين مزدوجين كانت تضعنا واقعياً بين مزدوجين . وطالما كنا نحاربها بالحرب الكلامية اليومية ، كانت هي الـــتي تحاربنا بالحرب الحقيقية الخاطفة والظافرة . المتخلفون وحدهم يعتقدون انهم حين يقولون « اسرائيل » مـــع المزدوجين أو « الصهيونية الغاشمة » (وسلسلة من الاوصاف) فانهم يثبتون بذلك موقفهم الثوري والمبدئي . قوتهم هي قـــوة « الالفاظ » . ولذا فنحن نستبشر باسلوب الرفاق اللبنانيين : اسرائيل بدون مزدوجين ، تحليلها ، تشخيصها وعدم التهرب من الحكم على اسرائيل الدولة والكيان بأحكام العنف الصراخي ضد « الصهيونية المجرمه » ..

ولكن هناك في موقف الرفاق نقص أكيد . ان طريق القضية الفلسطينية غير واضح عندهم، انه أكثر وضوحاً مما هو عند محرري مجلة الطليعة القاهرية أو عند الشيوعي الاردني فهمي السلفيتي أو عند غالبية الماركسيين اليساريـــين المستحدثين . ولكنه ليس واضحاً بما فيه الكفاية .

صحيح ان الماركسيين (ماركس ، انجلز ، لينين ، وتلامذتهم) ليسوا أنبياء. لينين في ١٩١٢ يؤكد الثورة القادمة ويقول : هذا يقين علمي ، وينبذ موقف الذين يتصورون أنه من الممكن تحديد وقت وموعد هذه الثورة القادمة ! هذا هو الفرق بين العلم والنبوة . العالم الثوري الحقيقي ، يحلل الواقـــع وعوامله وتناقضاته ، وبالاستناد الى هذه المعرفة العلمية ، يحدد خطاً عاماً عريضاً .

في سوق الافكار « التقدمية العربية » ، نجد حول قضية فلسطين ومستقبلها عدة خطوط (خاطئة) ، يمكن تلخيصها في خطين رئيسين (مع عـــدد من التلوّنات والتداخلات) :

١ — خط يميني ينزع نحو السلمية ، والتعايش السلمي (التعايش السلمي بـين اسرائيل والدول العربية) على أساس انسحاب اسرائيل من الاراضي الـــتي احتلتها في حزيران ١٩٦٧ . هذا الخط يرّحب بالحل السياسي . يعتقد بأن هذا الحل يمثل احتمالاً جدياً كبيراً . يتعاطف الى حد ما مع القاهرة ، ويتصور أن سياسة القاهرة هي هكذا . الانسحاب ، الحل السياسي ، توفير الدماء . يشتبه بالعمل الفدائي ويحذر منه . على أي حال ، المسألة معقدة . مستقبلها معقد . انها مسألة دولية ... موقف الاتحاد السوفيتي في ١٩٤٧ لم يكن خاطئاً . الاتحاد السوفياتي أيد التقسيم على أسس وشروط. هذه هي حدود علمنا . حذار من المخربين ودعاة الحرب الفورية. شيوعيو غزة كانت جبهتهم الوطنية في ١٩٥٦ ممتازة أو تقريباً. الشوفينية العربية عـــدوة كبيرة لحركة التحرر . لا ننسى الجماهير التقدمية في اسرائيل الخ الخ .

هذا الخط المتنوع هو خط قسم كبير من الاحزاب الشيوعية ، ومن محرري مجلة الطليعة القاهرية .

٢ — خط « يساري » يريد نفسه نقيضاً للخط الأول ، يتلون تارة بالقومية الثورية وتارة بالطبقية البروليتارية ودائماً بالغيفارية ، واحياناً يتداخل مع عناصر من الخط الأول (« الاممية البروليتارية » ؟؟) . شعاراته المتنوعة : رفض الحل السياسي ، الحرب الثورية ، حرب التحرير الشعبية ، حرب التحرير الفورية ، البؤر ، البروليتاريا ، هجـــوم على الاتحاد السوفياتي أو تمجيد لدوره في صيغ عمومية ، ودائماً محاربة القاهرة وخط القاهرة . السعي لاتخاذ المقاومة الفلسطينية بديلاً عن القاهرة وعن الجيش المصري والجيوش النظامية والحرب النظامية . لقد فشلنا مراراً بالحرب النظامية ، اذن الحرب الشعبية . مع ترك هذه الصيـــغ « حرب شعبية ، حرب تحرير شعبية ، حرب ثورية » بدون تحديد . وفي هـــذه

الحال ، تكون الثورة الكوبية حرب تحرير شعبية ، والثورة الصينية ، وحرب الاتحاد السوفياتي ضد ٢٤٠ فرقة المانية وحليفة ، وربما ثورة اوكتوبر ، وربما (في احد التعاريف ، حرب التحرير الشعبية = تجديد وتعبئة كل طاقات الأمة) حرب فرنسا ضد المانيا والمانيا ضد فرنسا في ١٩١٤ (ما دامت كل أمة في ١٩١٤، عبأت وجندت كل طاقاتها) . اذن الحرب الشعبية ! الجيوش إلى البيوت ! احتلال الأرض والمدن (أرضنا ومدننا) ليس هاماً. فليتوغّل العدو في ارضنا ، سينأى تحت ثقل الاحتلال ... بانتصاره في حزيران ، طالت خطوط مواصلاته ...

هذا الخط هو خط غالبية الماركسيين – الجدد ومَنْ في جوارهم ، يفتك في الاحزاب والمنظمات ، يروّج في الصحف والمجلات والكتب ، بأشكال شتى .

كل من الخطين فيه صواب ، وأحياناً كثير من الصواب . ولكن كلا من الخطين فاسد في الجوهر . وحقُّه أريد به باطلا . موضوعياً ومهما كانت النوايا الذاتية . كلاهما ارتفع على موجة الانفعال التي اندفعت اثر الهزيمة . ولكن كلاهما ولا سيما الثاني ، تشبث وبلور موقفه . ولا نعتقد أن احداً من الموقفين يمثل رأي قطاع كبير من الجماهير العربية ، ولكن خطورة الوضع الفكري تنبع من كون الموقفَيْن يمثلان في الحالة العربية الراهنة غالبية الجمهور « المنظم » وصحافته[1].

كل داء من الداءَين اليميني واليساري يظهر وكأنه الدواء للداء المقابل . ولكنه ليس أكثر من داء آخر يعزز الداء المقابل ، يسوّغه من حيث لا يشاء ، وفي بعض الحالات يجتمع ويتحد معه من حيث يشاء .

ان الرفاق اللبنانيين يوجهون عدداً من الصفعات لكلا الموقفين :

أولاً – للموقف اليميني السلمي – ان عبارات « التعايش السلمي » لم ترد على لسانهم . واسرائيل اعتبروها جزءاً من حركة الامبريالية العالمية . واعلنوا ان المقاومة الراهنة بما فيها المقاومة المسلحة حركة ثورية لشعب اغتصبت ارضه

---

(١) وسخافات فهمي السلفيتي مثلا تنشر في ٢٠ لغة .

وكامل حقوقه في وطنه . وتجنبوا حديث « القوى الشعبية التقدمية في اسرائيل » .

وثانياً – للموقف اليساري ، « الثوري » ، للدعوة المتسرعة العاطفية ، دعوة التهوير والمغامرة القادرة فيما لو أخـــذت بها الشعوب العربية ودولها على دفن القضية الفلسطينية والعربية ...

ولكنها صفعات جزئية ، بسبب نقص التحديد ، ونقص التحديد في منظور الرفاق اللبنانيين ذاته . لو استنتج الرفاق اللبنانيون الاستنتاجات اللازمـــة والكاملة من منطلقاتهم الصحيحة ، لو غطّوا القضية إلى النهاية لو حدّدوا منظورهم التاريخي والستراتيجي والتاكتيكي تحديداً كاملاً (ولا نقول مغلقاً أو منتهياً ، بل كاملاً جوهرياً ، وافياً) ، لكانوا قد صفعوا الخطين الخاطئين إلى النهاية ، وفنّدوهما ، ودحضوهما .

أولاً – على الصعيد المبدئي والتاريخي ، يجب الاعلان الصريح ان السلم مستحيل ، وان لا مكان للامة العربية ولأمة[1] أخرى ، لدولة أخرى ، لدولة العرب القومية ولدولة أخرى ، في وطن العرب القومي . بشهادة بانرمان ورفاقه وبشهادة وايزمـــان وبن غوريون ودايان . وبشهادة نصف قرن من التاريخ . وبشهادة تحليل لينين للامبريالية وعصرها ومسائلها وصراعاتها القوميـــة . اسرائيل ذاتها تلغي كلام فهمي السلفيتي وعدد من الآخرين ، وتجعله خداعاً للسلفيتي والعرب أو بعضهم ، ليس الا .

ثانياً – تجربة نصف قرن من التاريخ – العنف ، معارك دامية ، قتـــال مسلح بين ١٩٣٠ أو ١٩٤٧ (عدة انتفاضات وثورات عربية ، ومنظمات عسكرية يهودية) ، وحروب ثلاثة بين ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ ، ومعركة دائمة في

---

(١) من مزايا البرنامج اللبناني ، انه لم يكرس جهداً لاثبات ان اليهود في اسرائيل ليسوا أمة . كان هذا الجهد الذي بذل في ١٩٥٤ أو ١٩٥٦ لدى قيادات الأحزاب الشيوعية طريقاً آخر للهروب . ان المان أو الفرنسيين هم الذين اقاموا دولة في هذا الجزء من الأرض العربية ذلك لا يضفي على هذه الدولة صفة المشروعية الماركسية !

١٩٦٧ - ١٩٧٠ ، على القناة وفي طرفيها ، في البحر المتوسط وخليج العقبة ، في الكرامة والأغوار ، في القدس وغزة وتل ابيب الخ ، وربما في الاسكندرية وحوران وصور واللاذقية . تجربة نصف القرن القادم = المنف ، الحرب ، عدة حروب نظامية ، وشعبية الخ . حرب المئة عام بين فرنسا وانكلترة دامت ١١٠ سنوات . والحروب الصليبية دامت قرنين . حرب العرب واسرائيل ليس لها بعد من العمر سوى نصف قرن (إذا حسبناها من ١٩٢٠)، وأقل من ربع قرن(إذا حسبناها من ١٩٤٧) .

ولا بد ان نتوقف عند موضوع « الشرفاء في اسرائيل » و« القوى الشعبية التقدمية في اسرائيل » ما دام هذا الموضوع مطروقاً في المناقشات الحاضرة بين « الماركسيين » .

من السخف والغباء وضيق النفس والعقل الادعاء بان جميع يهود فلسطين اوغاد اوباش،ليس لهم من همّ سوى الحقد على العرب ، ذبح العرب،والوصول إلى النيل والفرات. كلا هناك بين يهود الوطن المحتل ، من يعارض احتلال حزيران ، وقد يكون هناك بينهم من يميل إلى أكثر من ذلك ، إلى التراجع مثلاً عن بعض الاراضي التي احتلت في ١٩٤٨ ، وربما في مستقبل الأيام إلى حل يزيل الكيان الاسرائيلي الحالي الحكومي القومي السيّد ، إلى حل يجعل من اليهود في فلسطين كياناً قومياً نصف حكومي في اطار وطن عربي قومي موّحد اشتراكي ... وهذا كله شيء ايجابي هام ، لا نهمله (همنا القضاء المطلق على مخطط بانرمان ووايزمان ، أما حقوق اليهود في لغة عبرية وفولكلور وجامعة ومستشفى خاص وعطلة يوم السبت وفي « دائرة قومية » فليس لنا اعتراض مبدئي،ولا نعتقد ان عند ماركس ولينين اعتراضاً مبدئياً على هذا)، ولكن من البديهي ان هذا كله نسوقه عن مستقبل بعيد ، كاحتمال . والشيء الايجابي الهام الذي ذكرناه (وجود يهود في اسرائيل يملكون حداً مقبولاً من الوعي وحداً

كبيراً من الأخلاق) يساوي لا شيء ما دام العرب في وضعهم الحاضر : تجزئة وضعف وضياع فكري . سيكون له قيمة مع صعود القوة العربية (قوة الدول والجيوش وقوة المقاومة) .

غير اننا نعترض أشد الاعتراض على تضخيم الظاهرة الايجابية المعنية . المجتمع اليهودي الاسرائيلي مجتمع صهيوني ، وأحزابه ، كل احزابه صهيونية ، عدوانية ، توسعية . حين يحدثنا بعض الكتاب (لا سيما المصريين) عن ماير فيلنر وحزب راكاح (الحزب الشيوعي ذي الاكثرية العربية الساحقة ، حزب اميل توما ، ومحمود درويش) ، فاننا لا نرد عليهم : هذا حزب صهيوني ، ما دام موافقاً على وجود اسرائيل (رد قائم على أسلوب السحب الاستنتاجي من المبدأ ، ولو كانت قضية « تحرير فلسطين » متوقفة أولاً وأخيراً على الموقف « المبدئي » ، اللفظي ، لكنا قد حررنا فلسطين منذ زمن لا بأس به) ، بل نرد عليهم بَعْدَ ان تحدثونا عن حزب راكاح ، أو حين تحدثونا عن حزب راكاح ، قولوا فوراً ان هـــذا الحزب يتمتع بتأييد حوالي واحد أو اثنين بالألف من يهود اسرائيل ، وان تسعة اعشار يهود الحزب الشيوعي التقليدي السابق قد ساروا وراء ميكونيس وسنيه في الحزب « الشيوعي » الصهيوني .

ثم ارسموا لقرائكم (يا رفاق « الطليعة » وسواهم !) خريطة المجتمع الطبقي – السياسي الاسرائيلي ، **خريطة الطبقات – الاحزاب الاسرائيلية** ، كما رسم لينين لقرائه في ١٩١٢ خريطة الطبقات – الاحزاب الروسية . لقد رسم لينين خريطة المجتمع الروسية ، استناداً على انتخابات البرلمان القيصري الزائفة ، وأنتم لا ترسمون خريطة المجتمع اليهودي الاسرائيلي ، استناداً على انتخابات برلمـانية اسرائيلية ديمقراطية (تعطي لكل مواطن صوتاً واحداً متساوياً ، في دولة تترك للاحزاب صحفاً ، ولا تستبيح حريات مواطنيها اليهود ، كما يفعـل نقولا الثاني وستوليبين مع الرعايا الروس) .

اليكم خريطة المجتمع السياسي الاسرائيلي ، كما تحددها الارقام ، (في ضوء حب لينين للخرائط والأرقام) . من اليمين إلى اليسار ، أرقام القوى السياسية

اليهودية – الاسرائيلية في سنوات ١٩٤٩ –١٩٦٦ (مقدّرة على اساس أصوات الانتخابات الدورية . هذه النسب تعرّضت لبعض الارتفاع والانخفاض حسب الانتخابات الستة ، الا انها بوجه الاجمال ظلت قريبة من هذه المعدّلات الوسطية . وقد اسقطنا اصوات الاقلية العربية تقديريـاً . الانشقاقات والتحالفات موضّحة في الخريطة نفسها) :

احزاب دينيـــة متنوعة : اغودات اسرائيل ، عمـــال آغودات اسرائيل ، مزراحي ، عمال مزراحي ، وأحزاب أخرى .	حزب هيروت وهو سليل الايرغون ورئيسه بيغن .	الصهيونيون العموميون والتقدميون ويـأتلفـون احياناً تحت اسم الاحرار	حزب رافي وهو منشق عن المـاباي (رئيســـه بن غوريون)	الماباي (حزب رئاسة الحكومة) وهـــو حزب اشكول ومابر واسمه حزب عمال فلسطين ، ارتكازه الهستــــادروت وارتباطه التاريخي بالهاغانا .	أحدوت افودا اصله من المـاباي عـــاد الى الائتلاف معـه .	المابام قوتـه الرئيسية في الكيبوتز .	الشيوعيون
١٧ ٪	١٤ ٪	١١ ٪	٩٪	٣١ ٪	٩ ٪	٧ ٪	٣ ٪

المـاباي قبل انشقاق بن غوريون وبرئاسته =٤٠٪

١٦ ٪

الائتلاف العمالي : ماباي + احدوت = ٤٠ ٪

المابايمع جناحيه اليميني واليساري = ٤٩ ٪

المابای الاكبر ، من رافي الى مابام = ٥٦ ٪

المجتمع اليهودي الاسرائيلي مجتمع صهيوني من يمينه إلى أقصى يساره . الحزب الشيوعي الاسرائيلي تأسس في ١٩٤٨ – ١٩٤٩ على أساس الاعتراف الكامـل بدولة اسرائيل (وضمت رئاسته ميكونيس ، ماير فيلنر ، ثم سنيه ، وبعض القادة العرب) . ومع ذلك حين حدث الانشقاق داخل الحزب (١٩٦٤ – ١٩٦٥) ، ذهب الاعضاء اليهود والاصوات اليهودية وراء الحزب « الشيوعي » الصهيوني بقيادة ميكونيس وسنيه . المجتمع اليهودي الاسرائيلي مجتمع صهيوني ليس بنسبة ٩٨ ٪

بل بنسبة ١٠٠٪ [١] بكل طبقاته وأحزابه . والصهيونية تعني التوسع والحرب. جميع الاحزاب الاسرائيلية كافحت من أجل قيام الدولة الصهيونية ،وارتباطاتها التاريخية بالمنظمات الارهابية اليمينية و « اليسارية » موضع فخر واعتزاز دائم لديها . كلها كانت تنتمي إلى الوكالة اليهودية رسمياً ، وتشارك في الحركة الصهيونية . باستثناء الشيوعين . بانشقاق ميكونيس وجماعته ، والتفاف غالبية الاعضاء والانصار اليهود حولهم ، تبدد الالتباس .

حين يحدثنا فهمي السلفيتي أو حمدي عبد الجواد أو ثروت كاتبه الخ عن الشرفاء في اسرائيل ،فاننا نقول لهم : نعم . هناك شرفاء : ماير فيلنر ،راكاح ، بضعة أساتذة ، بضعة عمال ، بضعة طلاب ، بضعة حاخامات ، بضعة اطباء ، وجميع الاطفال تحت عمر السنتين . ولكن ، يا شرفاء ، يا لينينيون ،يا ماركسيون ،متى كان الشرف واللاشرف يغني عن تمييز ومعرفة **الطبقات** ومو قف الطبقات ؟

في اسرائيل طبقات : برجوازية ، برجوازية صغيرة ، طبقة عاملة . والطبقة العاملة اليهودية الاسرائيلية هي في ٩٩ ٪ من الحالات مع اشكول وغولدا ماير وآلون ودايان وبن غوريون وآحدوت افودا والمابام وهيروت وعمال مزراحي وعمال اغودات اسرائيل وشيوعي سنيه . و « الشرفاء » في اسرائيل نفر موزع بين المثقفين والطلاب والعمال ورجال الدين . وليسوا بين الطبقة العاملة بالدرجة الاولى . هذا هو الكيان الغريب ، الصهيوني ، الامبريالي ، بقضّه وقضيضه . والكيبوتز – المزارع الجماعية – هذا الشكل الاجتماعي الاسرائيلي الارقى « اشتراكياً » (وهي ارقى من العديد من المزارع التعاونية والجماعية في العالم الاشتراكي ، ولو كانت الاشتراكية قطرية ولو كانت الماركسية « اقتصادية » ، لكان مثلها الأعلى الكيبوتز ! وجود الكيبوتز يدين كل فهمكم « الاقتصادي »

---

(١) اذا جمعنا راكاح + ماتزبن ، لن نتعدى ١٪ . لا يمكن ان نضم الى هذا الجمع اصوات أوري آفنيري (١٪)، ليس فقط بسبب آراء آفنيري المثالية ، بل لأن هذه الاصوات ينالها أوري آفنيري لا لدعوته إلى السلام والاخاء بل بالدرجة الأولى لعدائه لجو التزمت الديني الذي يفرضه الحاخامات والحكم ،

الماركسية ايها الماركسيون !) هو الشكل الاجتماعي الاسرائيلي الأرقى صهيونياً وحربياً وعسكرياً ...

هناك شرفاء في اسرائيل وفي كل مكان من العالم. ولكن اذا كان عمال انكلترة « اوغاد الامبريالية » في نظر لينين ، فان « عمال اسرائيل » اوغادٌ – اوغاد أعلى تكثيف للامبريالية وكل صنوف الاستعمار .

هذا ما نقوله ضد أنصار الخط اليميني ، كتوضيح آن اوانه . ونقوله ايضاً ضد بعض أنصار الخط « اليساري » ، المتداولين مع « خصومهم » ، الداخلين معهم في أحاديث « الأممية البروليتارية » .. (!!) تحت شعارات « الطبقية » و « البروليتارية » .

•مستقبل قضية فلسطين لعشرات السنين ، لجيل أو عدة أجيال ، هو العنف. ولكن أي عنف ؟ ولأي هدف ؟ وعلى أساس أي منظور ؟

هذه المقاومة الفلسطينية المسلحة هل هي أداة للضغط والحصول على « حل سلمي معقول » ؟

كلا ! حتى لو تحقق « حل سياسي » معقول بالصيغة السوفياتية – المصرية أو المصرية – السوفياتية ، فانه لن يكون سوى حل موقت عابر . وحتى لو جاء هذا الحل بعد نصر عسكري عربي جزئي ، فانه لن يكون سوى حل وقتي عابر . وقد لا تتحمل اسرائيل نصراً عربياً جزئياً يعيدها خمسين كيلو متراً إلى الوراء ، ويجعل الحل السياسي (أياً كانت التنازلات العربية – حرية الملاحة ، أو أكثر – وما دام يتضمن الانسحاب الكامل من سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان والمرتفعات الأمامية والقدس الأردنية) هزيمة لتاريخها العتيد ، لابأس بها . وقد تتحمل الصدمة ، وتتكيف وقتياً ، لتستعد وتتحين فرصة حرب صاعقة جديدة .

لا يمكن ان يكون هناك سلام مديد بين العرب واسرائيل . فترات السلام ليست سوى تعايشات وقتية تتخلل حروب المئة عام تنتقل من حرب إلى حرب. والمقاومة الفلسطينية المسلحة ليست اذن ولا يمكن ان تكون اداة للضغط ،

ثقلاً اضافياً في المباحثات الدولية حتى لو خدمت في هذا الاتجاه ، وحتى لو نجح هذا الاتجاه ، كأحد طرق وزواريب ووسائل ومحطات الدرب الطويـــل ، الكفاحي الدامي .

المقاومة الفلسطينية المسلحة ولدت في حروب المئة عام ، منذ سنوات قليلة، ولكنها ستعيش إلى النهاية ، وستتخطى حتما مثالبها : الانقسام ، نفاذ الصبر ، قصر النفس عند بعض الشبان وفي بعض المنظمات ، الثرثرة اليسارية ، الحكاك الثوري ، ألغام العدو المتنوعة المصادر والغايات ، عموميات « حرب التحرير الشعبية » ، الأيمان بانها هي وحدها – المقاومة – « ستحرر فلسطين » .

ان الاعتقاد بأن المقاومـــة الفلسطينية وزن خفيف ، أداة للضغط ، أداة مساعدة،ومساعدة للسياسة ، خطأ كبير . وفي نظرنا ، لا يقل عنه الخطأ الآخر، الذي يصور المستقبل وكأن الحركة الفدائية أو المقاومة الفلسطينية أو « الثورة الفلسطينية » ستتحول إلى « ثورة عربية شاملة » تحـــرّر فلسطين والعرب من الامبريالية . هذا الخطأ هو خطأ العموميات البالغة الفراغ لأنها بالغة العمومية . وضد هذا الخطأ نقول :

كلا ! مستقبل قضية فلسطين ، هذا الجزء الذي لا يتجزأ من صراع العرب والامبريالية ، هو صراع العرب واسرائيل ، ولا سيا صدام الدول العربيـــة واسرائيل . اسرائيل دولة وجيش ، وقبل عدوان حزيران ١٩٦٧ أرض هذه الدولة سكانها يهود بنسبة ٨٧٪ ونيف ، يؤيدون بقوة وجودهـــا وسياستها ، ويحاربون من أجل وجودها وسياستها . الاعتقاد بأن هذا الوجود سيسقط وينتهي تحت ضربات المقاومة وهم فارغ . المنطق الذي يقول : بما ان الحرب النظامية فشلت ، اذن حرب التحرير الشعبية ستنجح ، انمـــا يستنتج من مقدمة ناقصة نتيجة خاطئة وبالغة الخطـأ . يجب أولاً ان تثبتوا ان كل حرب نظامية سوف تفشل . واذا اثبتم ذلك ، يجب ان تثبتوا بـــأن حرب التحرير الشعبية سوف تنجح ، أي يجب أولاً ان توضحوا وتحددوا مـــاذا تقصدون بحرب التحرير الشعبية ، وثانياً ان تثبتوا أنها ستقضي على الوجود الأسرائيلي في الجليل الشرقي

وطبريا وحيفا واللد وتل ابيب ، انه يمكن القضاء على جيش اسرائيل وطيران اسرائيل والكيبوتز الاسرائيلية بـ « الجماهير الشعبية العربية المسلحة » لمجرد كونها مسلحة وعربية ! والا فإن منطقكم الناقص القافز يدفع « خصومكم » الذين « يكملونكم » إلى منطق نقيض ومكمل في « ديالكتيك » الخطين اليساري واليميني : بما ان الحروب النظامية فشلت وستفشل ، (وهذا منطقكم بالذات) ، فالافضل السلام والتعايش ... لأنه اذا كانت الجيوش عاجزة ، فالكفاح الشعبي المسلح اشد عجزاً بكثير .

ان احتلال اسرائيل للضفة الغربية وغزة والجولان ، أي لمناطق سكانها عرب ، فتح امكانيات جديدة وهائلة للمقاومة المسلحة ، للحرب الشعبية . وهذه المقاومة المسلحة تشتد ، وتضرب أيضاً في داخل اسرائيل ، في القدس اليهودية وتل ابيب . ولكن لهذا كله حدود . يمكن ان يتوسع العمل الفدائي وان يرتقي وحدة وتخطيطاً ووعياً وتنظيما وبأساً عدة اضعاف وان ينزل ضربات أشد عشر مرات باسرائيل ، واقعاً اجتماعياً وعسكرياً ومعنوياً . ولكنه سيبقى عاجزاً عن اسقاط دولة اسرائيل وكيان اسرائيل وجيش اسرائيل ، وفي اليوم الذي تعلن فيه الحركة الفدائية هذه الحقيقة ستكون بلغت مرحلة النضج وتجاوزت العموميات وساعدت على الارتقاء إلى مستوى اعلى ، من القوة والفعل والتأثير .

ولكن هنا نسمعُ رد البعض : لم نقل ان العمل الفدائي الفلسطيني سيحرر فلسطين ، سيقضي على وجود اسرائيل وجيشها وطيرانها . بل قلنا ونقول حرب التحرير الشعبية ، الجماهير العربية المسلحة ، المقاومة ، الثورة الفلسطينية ، الثورة العربية في كل مكان .

ونحن نقول : عموميات . لو أخذ العمل الفدائي في العامين الاخيرين (بل ومنذ بدايته) بمنطق العموميات ، لما تقدم ، لحكم على نفسه بالجمود والموت ، بالاجهاض . المفكرون المنظرون الشبان ومعهم حشد لا نهاية له من الصحفيين والمذيعين وطلبة المدارس يقولون : جماهير ، حرب تحرير شعبية ، مقاومة ، ثورة ... وهذا المنطق « اليساري » العمومي يصل أيضاً إلى انصار الخط

« اليميني » . ولكن العمل الفدائي نفسه ، قادة المقاومة الحقيقية ، مخططي العمل الفدائي ، يرفضون – في الواقع العملي على الاقل – تذويب الحدود ، يتجنبون الخلط ، يتمسكون بالتمييز كشرط للربط : هناك الكفاح المسلح ، العمل الفدائي ، المقاومة المسلحة ، وهناك المقاومة الفلسطينية غير المسلحة (مظاهرات غزة أو نابلس ، اضرابات عرب الاراضي المحتلة ...) . شعب فلسطين العربي كله مقاوم ، مكافح ، في الضفة الغربية ، في اسرائيل ، في الضفة الشرقية ، في سوريا ولبنان والكويت . وهو معين لا ينضب للعمل الفدائي . ولكن العمل الفدائي هو الشكل المتقدم والمميز لهذا الكفاح . في كفاح الثورة الجزائرية ، « المجاهدون » عشرات الالوف ، « المسبلون » مئات الالوف ، والشعب عشرة ملايين . بدون التمييز ، كل شيء ينهار . وقد نعود إلى الماضي القديم الذي سار عليه الحزب الشيوعي الجزائري (وبالاحرى الفرنسي) في بداية الثورة : الكفاح « الشعبي الجماهيري » مقبول وجيّد ، والباقي ارهاب فردي غير مقبول .

ومن الواضح ان اكبر خطر تنطوي عليه عموميات « حرب التحرير الشعبية » العربية ، هو اعفاء الجيوش العربية من واجباتها التاريخية . وهذا أمر يروق لبعض مرتزقة الايديولوجيا و « البروليتاريا » والعسكريتاريا سواء بسواء . ولكنه لا يروق للشعب الفلسطيني والشعوب العربية والجيوش العربية بكل ما فيها من ضباط لا نقول تقدميين ويساريين وهلمجرا بل نقول وطنيين وحسب .

نعتقد ان قادة العمل الفدائي والمقاومة الفلسطينية سيتجاوزن عاجلاً لا آجلاً عموميات المنظرين وسيضعون الامور في نصابها : الدول والجيوش والشعوب العربية ، العمل الفدائي والمقاومة الفلسطينية ، قوتان متكاملتان ضروريتان لا تغني احداهما عن الاخرى في المعركة التاريخية الشاقة . سيوحدون العمل الفدائي ويحمون استقلاليته نهائياً ، وسيلعبون دورهم في الضغط على الدول العربية ليس فقط لكي « تساند المقاومة » بل وايضاً واولاً لكي تأخذ دورها ومكانها في المعركة ، وليس « بالجماهير المسلحة » وحسب ، بل ايضاً واولاً بالجيوش النظامية والتي يجب ان تكون نظامية جداً ، تأخذ بكل معايير

الجيوش التقليدية البرجوازية والاشتراكية ، من تدريب وتسلح وتعلم وتخصص وتعاون وطاعـــة وانضباط (معايير نابوليون وكلاوسفيتس وانجلز وستالين وجوكوف وكونييف وغودريان وهتلر وايزنهـــاور وديغول وماوتسي تونغ وتشوتي ولين بياو) .

لا نعتقد ان الرفاق اللبنانيين يعارضوننا في هذه الامور ولا نستطيع، انصافاً، ان ننسبهم إلى الخطأ اليميني أو الخطأ اليساري ، بصدد مستقبل القضيـــة الفلسطينية . غير اننا نريـد ان نعترض بشكل خاص على غموض فقرتين وردتا في الصفحة الأخيرة :

« ان الحل النهائي للقضية الفلسطينية يجب ان يعتمد المواقف المبدئيـــة وينطلق من حق الاعتراف بحق العرب الفلسطينيين الذي لا ينازع في أرضهـم ووطنهم وبالتالي الاعتراف بحقهم بالعودة إلى هذه الأرض وحقهم بتقرير مصيرهم فيها . وما قام على القوة والاغتصاب لا يمكن تبريره ، ووجود اليهود في فلسطين اليوم لا يمكن ان ينـال من حق عرب فلسطين الطبيعي والتاريخي في وطنهـم (ص ٣٨ — ٣٩) .

هذه الفقرة الخاتمة جديرة بان تكون موقفاً يعلنه جمال عبد الناصر أو ياسر عرفات أو مندوب سوريا في مجلس الأمن . وليس هذا الموقف خاطئاً البتـة ، بل ولا نقصد انه « مناورة تكتيكيـة » . وفهمنا للتكتيك يختلف اصلاً عن فهم سوانا . التكتيك شيء هام جداً ولا يتعارض مع الستراتيجيـة ومع الخط التاريخي بل يخدمه . ولهذا الغرض ، يجب ان يتبناه الشعب كجزء من العمـل ومن الموقف . نقول : جزء ، وهنا بيت القصيد . هذا الجزء لا يختم موضـوع قضية فلسطين في برنامج حزب ، لا سيما الحزب الشيوعي .

« الحل النهائي » ما هو ؟ « حقهم (حـــق العرب الفلسطينيين) بتقرير

مصيرهم فيها »ما هو ؟و « وجود اليهود في فلسطين» اليوم ،ما هو ،وما هو حله في اطار مستقبل القضية ككل ؟

الحل النهائي لقضيــة فلسطين ، هو فلسطين وطن عربي ، وطن قومي عربي لسكانها العرب ، وجزء من الوطن العربي ، ومن الأمة العربية . وهذا هو حقهم في تقرير مصيرهم فيها . وجود اليهود في فلسطين اليوم ، الناجم عن الهجرة أي الاستعمار الاسكاني وعن الامبرياليــــة ، والمرتبط اليوم تماماً بكيــان الدولة الصهيونية ، لا يمكن الا ان يزيد من اصرارنا على المبدأ . ليس لأن الفرنسيين والاميركان لم يستعمروا فيتنام سكانياً بشرياً ، يكون حق الفيتناميين في فيتنام أكبر من حق الفلسطينيين بفلسطين . لا يجوز ان نتراجع أمام ابتزاز (شانتاج) الدعاية المعادية التي تؤثـّر على بعض اصدقائنا في العالم . قضية فلسطين وقضية فيتنام قضيتان مختلفتان ؟ أجل ! بقي أيها الاصدقاء الأوروبيون ان نحدد اتجاه الاختلاف وان نعرف ما اذا كان الاختلاف يجب ان يدفعكم الى تأييد فلسطين أقل أم اكثر من تأييدكم لفيتنام ! بقي ان نعرف ما اذا كان الاختلاف (وجود مليونين ونصف من اليهود في فلسطين ، وعدم وجود مليونين ونصف مستوطناً فرنسياً واميريكياً في فيتنام التي تتسع لنيف وعشرين مليون فيتنامياً ، ما إذا كان تعرض فلسطين لاستعمار سكاني كثيف لا مثيل له في له في العــالم وفي تاريخ العالم وعدم تعرض فيتنام لذلك الا في حدود ضيقة جداً) يبرر « فتوركم » تجاه فلسطين ، اما انه يدين هذا الفتور كخيانة لا للثورة العالمية وحسب ، بـــل ايضاً لمبادىء حقوق الانسان العزيزة على قلوبكم ! ولو ان الثورة الجزائرية رضخت لشانتاج الدفاع عن « البيض الصغار » الذين انكشفوا كمعين « الأقدام السود » ، لما استطاعت ان تحرّك عمال وطلاب واكليروس فرنسا وعقل ديغول . فلنستفد من تجربة قادة الثورة الجزائرية ومفكريها .

بالنسبة لمستقبل فلسطين المبدئي : زوال دولة اسرائيل زوالاً تامــــاً ، هذا أولاً أو أولا وثانياً وثالثاً ورابعاً : حق العرب الفلسطينيين في العودة إلى أرضهم كنتاج عادي للبند السابق . وخامساً أو عاشراً : حق اليهود في البقاء ضمن هذه

الشروط ، على أساس البنود التسعة السابقة . نقول حق اليهود ، ولا نقول اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل ١٩١٧ أو حتى قبل ١٩٤٧ . ولا نقول تعريب اليهود ، بحجة انهم ليسوا أمة قومية . بقاء اليهود ولغتهم العبرية ، ودينهم وعاداتهم واعمالهم (على اساس النظام الاقتصادي الاجتماعي لفلسطين المنشودة والدولة العربية الاشتراكية الكبرى) .

كيف نوفق بين وجود مليونين من اليهود ومليونين من العرب في فلسطين؟

– هذا ليس شغلنا وشغلكم الآن . نحدد هدفاً مبدئياً وحسب ، ونحدد الطريق الحاضر إلى الهدف : القتال وسقوط مئات الالوف من العرب ومن اليهود (ومن العرب اكثر من اليهود) . ومع انتصار الثورة الجزائرية ، غالبية الفرنسيين ، كباراً وصغاراً ، ذهبوا ، عادوا إلى فرنسا . ومع انتصار العرب في الشرق الادنى (والمعركة ستكون أطول وأشد وأكثر خسائر بشرية) ، يمكن ان يعود اليهود بأعداد غفيرة إلى حيث اتوا ، أي إلى بغداد وحلب واليمن والمغرب وتوتس والجزائر ومصر ، إلى بولونيا وسواها ، إلى فرنسا ، أو ان يستوطنوا في كندا والولايات المتحدة واوستراليا . هذه مسألة لا يجوز أن تشغلنا . حتى هذه المسألة حلها في الكفاح. حينما يتقدم الكفاح العربي جوهرياً، حينما تصل الأمة العربية إلى نقطة اللاتراجع فعلاً ، حين تصل اسرائيل إلى نقطة اللاتقدم واللاتوسع فعلاً ، حينما تزال آثار عدوان حزيران ١٩٦٧ ، حينما يتوحد الكفاح الفلسطيني ، حينما نتجاوز طور المراهقة ، حينئذ فقط يمكن ان تصبح مخاطبة جماهير الشعب اليهودي الاسرائيلي و « اصدقاء الشعب اليهودي » في في العالم، والحريصين على توفير دماء الشعب اليهودي والعربي (ونحن حريصون بجدية . وحينذاك ، سنخاطبهم ، بلا كذب ولا تشنج (فالكذب لا يجدي بل يضر ، والتشنج غير وارد لأننا حريصون على توفير ما يمكن من دماء شعبنا) .

ان برنامج الحزب الشيوعي ليس بياناً إلى « الرأي العام العالمي » . والحل الاخير المبدئي لقضية فلسطين هو زوال الكيان الغريب ، الاستعماري – الامبريالي ، نقول الاخير . ولا نعتقد ان هذا الحل الاخير يمكن ان نصل اليه بدون

الوحدة العربية .

هناك من يعتقد ان الوحدة ستتحقق من خلال المعركة (مثال حزيران ١٩٦٧ ؟؟) . منذ سنوات ، قبل الحرب – الهزيمة بأعوام ثلاثة ، صُنعت النظرية القائلة : تحرير فلسطين طريق إلى الوحدة العربية . صنعت هذه النظرية ضد مشكلة الوحدة ، احتمالها ، وبقاء جذوتها . وظهرت وكأنها رد على الاستكانة في جبهة المسألة الفلسطينية . وأعلنت نفسها كرفض للنظرية القائلة : الوحدة العربية هي الطريق إلى تحرير فلسطين .

ونحن نقول الآن وبقوة : من الممكن ان تتقدم قضية فلسطين شوطاً أو شوطين بدون الوحدة العربية . من الممكن ان تزال آثار العدوان أو بعضها ، بدون قيام وحدة حقيقية . من الممكن ان تتراجع اسرائيل بهذا القدر أو ذاك بدون الوحدة . ولكن من المستحيل ان تحرر فلسطين أي ان تزال اسرائيل بدون الوحدة العربية وعدة أشياء أخرى . الوحدة شرط لازم وليس شرطاً كافياً . ولكنها مرة أخرى شرط لازم ، وهذا الشرط اللازم معناه ان يخوض العرب المعركة (الحرب ، الحروب العسكرية ، والمعركة الاقتصادية والسياسية) تحت قيادة واحدة في انضباط وطاعة واحدة .

وحين يقول الرفاق اللبنانيون في احدى فقرات هذه الصفحة الأخيرة : « ان الطريق الواقعي والصحيح الذي يفتح الامكانية الفعلية لحل القضية الفلسطينية يمر عبر العمل على توطيد الانظمة التقدمية العربية بوصفها القوة الاساسية التي ستسهم في حل القضية ، وعبر تحرير البلدان العربية التي لا تزال تحكمها الاقطاعية والرجعية » ... فاننا نقول : ان حل قضية فلسطين هو في هزيمة الصهيونية هذا الجزء المتقدم من الامبريالية العالمية والمعزز بالامبريالية الاميركية ، على ارض فلسطين والشرق الأدنى . وهذا الحل يمر عبر الوحدة العربية . ليست الوحدة العربية ، قيام دولة العرب القومية ، هي بداية البدايات التي سيعقبها تحرير فلسطين ، ولكنها ، في كل خطوات ومعارك وتقدمات وتراجعات ومنعطفات السير الطويل للثورة العربية ، أي للكفاح بين الجماهير

العربية وبين الامبريالية والصهيونية والرجعية ، حلقة اولى وعنصر حسم يقرر سير القضية الفلسطينية أيضاً .

حين يترك الماركسي الحل الاخير للقضية الفلسطينية « مفتوحاً » ، فانه من الطبيعي ان يترك في طريق الحل ، الوحدة العربية . والماركسي لا بـــد أن « يغلق » الحل الأخير ، أي ان يحدّده (زوال اسرائيل) ، وان يغلق طريقه أي أن يحدده (الوحدة العربية كجزء لا غنى عنه) . هــذه ضرورة ملحة في برنامج حزب ماركسي . ويزيدها إلحاحاً انه هناك من ينشر اليوم منطلقاً مفاده ان العرب هزموا في حزيران ١٩٦٧ لأن قيادة مصر برجوازية – صغيرة وذات عقل ديني ولم تضرب بني التخلف (الخ ... وهذا كله صحيح ولكن !) وليس لأن العرب اندفعوا نحو الحرب وهم أبعد ما يكونون عن الوحدة الحقيقية (وهذا قمة التشويه ، « منطق لا تقربوا الصلاة » !)

١٠ – مسألة التناقضات وافضليتها وعلاقاتها فيما بينها

وهناك شيء آخر يحتاج الى تدقيق في هذه الفقرة .

يقول الرفاق اللبنــانيون : « ان الطريق ... الذي يفتح ... لحــل القضية الفلسطينية يمر عبر العمل على توطيد الانظمة العربية التقدمية .. وعبر تحرير[1] البلدان العربيـــة التي لا تزال تحكمها الاقطاعية والرجعيات بوصفها حليف الاستعمار والصهيونية وعقبة في طريق حل اية قضيــة في صالح تحرر العرب ووحدتهم وتقدمهم » .

هـــذه الفقرة تطرح اذن مسألة **التناقضات** ، و**افضلية التناقضات** ، و**علاقاتها فيما بينها** .

ان الثورة العربية ثورة ديمقراطية أي انها موجهة ضد الرجعية والاقطاعية

---

(١) ورد في الكراس : « تحليل » . ولكن من الواضح اننا امام خطأ مطبعي . وان الصح هو « تحرير » .

والعروش . وطابعها الديمقراطي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطابعها الاساسي الأول، بطابعها القومي المناهض للامبريالية . بتعبير آخر ، في سيرة الثورة العربية ، ان سقوط العروش والنظم الاقطاعية والاقطاعية – الرأسمالية في الأقطار العربية مهمة أساسية حاسمة ، في سير سقوط الامبريالية الطويل . ولقد لعبت الملكية الأردنية دوراً مشهوداً في انفصال ايلول ١٩٦١ . والملكية السعودية وضعت وتضع قواتها على حدود اليمن ونيف ولا تضع عشرة جنود في اتجاه النقب . وملك السعودية وامراء وشيوخ الكويت والخليج عاجزون (على الأقل !) أمام الزحف الايراني : ليس هذا همهم ، بل همهم الثورة الشعبية العربية وحصتهم في عائدات البترول (البترول الذي يغذي العالم الامبريالي والاسطول الاميركي) . والرجعية العربية ، في أماكن شتى لا تنفك تتآمر على النظم التقدمية . ونرجح ان مهمة تحرير فلسطين – وهي مهمة تاريخية طويلة – لن تنجَز ما لم ينجز هذا العمل الديمقراطي .

ولكن القول بـ « ان الطريق الذي يفتح الامكانية لحل القضية الفلسطينية يمر عبر تحرير البلدان العربية التي لا تزال تحكمها الاقطاعية والرجعيات » ينطوي على عيبين :

أولهما في التقابل بين عبارة « حل القضية الفلسطينية » وعبارة « تحرير البلدان العربية التي تحكمها الاقطاعية والرجعيات » . اهدافنا : تحرير جزيرة العرب من الشيوخ والاقطاعيين (وشركات النفط الامبريالية) ... وتحرير فلسطين من الاستعمار الصهيوني والامبريالية بازالة هذا الكيان الغريب .

وثانيهما : في عبارات « يفتح الامكانية » لـ « عبر » ، هذا كثير ! تحرير فلسطين يشترط تحرير البلدان العربية الاقطاعية الرجعية . أما التقدم على هذا الطريق فلا يشترط بالضرورة سقوط كل ملك وامير وشيخ ، خصوصاً إذا كان الطريق ليس أكثر من « طريق يفتح امكانية لحل القضية ... » . يمكن ان تسير الأمور هكذا ويمكن ان تسير بالعكس . المستقبل يمكن ان يحمل الطريقين معاً: سقوط النظم الاقطاعية الرجعية ← تحرير فلسطين والتقدم في عملية تحرير

فلسطين ← سقوط النظم الاقطاعية والرجعية .

ان صيغة « الاقطاعية والرجعية حليفة الاستعمار والصهيونية » ، هذه الصيغة المبدئية والأساسية والتقليدية العامة ، يجب ان تثبّت وان تُشخّص عيانياً خلال المعركة ، في المعركة مع الصهيونية ، في المعركة مع عدو الأمة . وحتى تثبت يجب ان تقوم الدول العربية التقدمية بواجباتها على نحو جيد أو مقبول . وهذا لا يعني ان تنتصر هذه الدول غداً أو بعد خمس سنوات ، ولكنه يعني ان تقاتل الآن ، ان تحمل العبء ، ان تنطق فعلياً ، بالبشر والسلاح ، باسم الأمة ، ان تكون فعلياً زعيمة الأمة . وإلا بقيت الصيغة العامة عن « الاقطاعية الرجعية حليفة الاستعمار والصهيونية » صيغة « عامة » وضرباً من العبث . معركة فلسطين ، في سير الثورة الديموقراطية والاشتراكية العربية ، هي ايضاً اختبار وامتحان في هذا السير . من المؤسف ان هذه النقطة قد أفلتت من بصر الرفاق اللبنانيين عند صياغتهم هذه الفقرة الهامة !.

والأرجح ان رفاقنا اللبنانيين لا يحبون الصيغة الماوتسي تونجية القائلة « الوطنيون من الأمراء وصغار الملوك والملوك ، كجزء في النضال الثوري ضد الامبريالية المنفلتة من عقالها ، جزء ملحق بجبهة العمال والفلاحين والبرجوازيين الصغار والبرجوازيين الوطنيين (تحت قيادة البروليتاريا) ». وهي صيغة تبين في جملة ما تبين ان ثوريي الصين الذين حققوا فعلاً قيادة البروليتاريا وحققوا فعلاً ثورة بروليتارية لا حد لها ، يستطيعون ان ينزحوا هكذا نحو « اليمين » (؟؟) وان يخالفوا هكذا « المفهوم العلمي الطبقي » (؟!) . وهنا نقول : في وطننا العربي ، في وضعنا العربي التاريخي الراهن القضية هي il s'agit de القضية الفلسطينية ، هذا الجزء الممتاز والحاسم في النضال ضد الامبريالية . وفي وضع كهذا من الممكن ان يظهر بين العرب « وطنيون من الامراء وصغار الملوك والملوك » وخونة من الزاعمين الناطقين بلسان الجماهير الكادحة . هذا هو عصر الامبريالية واللينينية .

ولكن لندع «الأمراء وصغار الملوك والملوك الوطنيين» ، كظاهرة هامشية .

ولنمسك بالمقابلة بين الانظمة التقدمية والانظمة الرجعية العربية في صدد قضية فلسطين والحركة القومية .

ترى ، لو أن « الانظمة التقدمية العربية » كلها قامت بواجباتها بشكل جيد في ٥ - ١٠ حزيران ، ولو أن الانظمة الرجعية الملكية كلها خانت الواجب في ٥ - ١٠ حزيران ، ماذا كانت ستكون النتائج ؟ لو أن الانظمة التقدمية العربية كلها أو واحد منها ، غداً أو بعد غد ، بعد سنة أو خمس سنوات يخوض حرب الدفاع القومي بكل طاقاته العسكرية والبشرية والاجتماعية ، ويستطيع الصمود ، مجرد الصمود ، أسابيع أو شهور ، ينزف ويُنزِف العدو ، بينما الاقطاعيون والرجعيون وبعض التقدميين بعيدون عن الحرب القومية والنزيف ، ماذا سيكون مصير هؤلاء الاقطاعيين والرجعيين ومن فضلكم التقدميين ؟ أن انظمة كثيرة ستنهار ، ستداس بالأقدام ، ليست فقط وبالضرورة انظمة رجعية - اقطاعية ! نقول بالأقدام أي باقدام الشعب واقدام بعض انصارها الحاليين ، تحت جنازير الدبابات والمصفحات ، وبسيوف الفرسان (اذا لم توجد دبابات ومصفحات) .

كيف يمكن أن نتعامى عن ذلك أيها الرفاق اللبنانيون ؟.

هـذا كله يطرح اذن على الصعيدين النظري والعملي مسألة التناقضات واولويتها .

ما هو التناقض الرئيسي في الثورة العربية الديمقراطية والاشتراكية والوحدية ؟.

الجواب : انه التناقض بين الأمة العربية والامبريالية . بل يمكن القول : هذا هو التناقض كله بمعنى ان الاقطاعية والرأسمالية والرجعية والتخلف الـخ آخذة مكانها في عصر الامبريالية في اطار الأمبريالية وتحت جناحها الكبير . وصيغة «الأمة العربية» لا تعني اذن وبأي حال جميع طبقات الأمة : ١ - ملوك ، امراء ، ملاكون كبار ، اقطاعيون - رأسماليون ، رأسماليون كومبرادور .

٢ – برجوازية وطنية . ٣ – برجوازية صغيرة وفلاحين . ٤ – عمـال . الأمة العربية تعني الطبقات القومية ، أي ٣ و ٤ ، وإلى حد ما ٢ والافراد القوميون في ١ ، ضد الامبريالية (والصهيونية كجزئها الممتاز) وضد الطبقات اللا قومية المناهضة للامة ، حليفة وخادمة وعميلة الامبريالية ، أي ضد ١ – الذي يمثل الامبريالية ، الذي هو الامبريالية . لو لم يكن هناك « في الأمة » من هو الامبريالي ، لكان التناقض بين الأمة والامبريالية شيئاً غير مفهوم في الوضع العربي التاريخي . لو لم تغزُ الامبريالية الأمة العربية ، ولو لم تخلق رأسماليين واقطاعيين أو لو لم تتحالف معهم ، لو بقيت الامبريالية بعيدة عن الأمة العربية ، « مستقلة » ومنفصلة عنها ، لما كان هناك تناقض تاريخي بين الأمة والامبريالية .

نقول : « التناقض بين الأمة والامبريالية » ، مع علمنا بأن رفاقنا اللبنانيين يفضلون صيغة « التناقض بين حركة التحرر والامبريالية » ، ونحن لا نعترض على صيغتهم ولكننا نفضل ونؤكد الصيغة الأولى التي ننقلها عن ماوتسي تونغ . ومع ماوتسي تونغ نقول هذا هو التناقض الرئيسي الأول : بين الأمة والامبريالية . والتناقض الرئيسي الثاني هو بين الشعب والاقطاعية . بتعبير آخر نحن بحاجة إلى صيغة « الأمة » في موضوع التناقضات ، حتى نميز بين التناقض ، بـين تناقض رئيسي أول (الأمة – الامبريالية) وتناقض رئيسي ثان (الشعب – الاقطاعية الرجعية ، الامراء ، الشيوخ) . أما « حركة التحرر » فيمكن ان يقابلها في في صياغة التناقضات « الامبريالية والاقطاعية » معاً ، وهذا يبين لنا في آن واحد صوابها وقصورها عن التحليل والتمييز . هذا التمييز لا غنى عنه . اولا الامبريالية . ثانياً الاقطاعية ، الرجعية الخ . وثانياً : التناقض بين الأمـة والامبرياليـة . أولاً : التناقض الكبير القائم بين الشعب والاقطاعيـة والرجعية الخ . تمييز لا بد منه ولا غنى عنه ، كشرط للربط ، كشرط لمعرفـة وتحديد الارتباط ، كشرط يحول دون تحويل الربط إلى خلط .

ويبقى ان التناقض الرئيسي الأكبر هو تناقضنا (الأمة ، الشعب ، حركة التحرر ، الثورة العربية ...) مع الامبريالية . ولا نتصور أن رفاقنا اللبنانيين يخالفوننا في ذلك . « التناقض الرئيسي الأول الأكبر الأعظم هو تناقضنا مع

الامبريالية » . مَنْ يخالف هذا المبـــدأ يكفّ فوراً عن ان يكون لينينيا ، ينقطع فوراً عن اللينينية ، « ماركسية عصر الامبريالية والثورة الاشتراكية العالمية » الموجهة أولاً ضد الامبريالية . بل يمكن القول : هذا هو التناقض العالمي الأكبر ، مبدئياً من وجهة نظر اللينينيين : مع الامبريالية . في الكونغو والبرازيل ومصر والسودان وفيتنام واندونيسيا والصين ، والاتحاد السوفياتي ، وفرنسا ، وانكلترة ، والولايات المتحدة : الثورة الاشتراكيــة العالمية ، هي الثورة على الامبريالية العالمية . ولكن ، بذلك ذاته يتبين للرفاق اللبنانيين ان هناك سؤالاً ثانياً يتبع فوراً السؤال الأول . وهذا السؤال هو : كيف **يتشخص ويتحدد** هذا التناقض العالمي في المكان والزمــان ، في القطر ، في المنطقة ، في المرحلة ، في الساعة ، في « اللحظة » التاريخية ، وفي اللحظة السياسية .

في صين ١٩٣٥ – ١٩٤٥ ، انه يتشخص ويتحدد كما يلي : التناقض الرئيسي هو التناقض بين اليابان والصين ، بين الامبريالية اليابانية والأمة الصينية ، بين الأمة اليابانية والأمة الصينية . في الاتحاد السوفيـــاتي في ١٩٤١ – ١٩٤٥ انه يتشخص ويتحدد كما يلي : التناقض الرئيسي (وتقريباً الوحيد) هو التناقض بين أمم الاتحاد السوفياتي والامبريالية الألمانية وحلفائها . في فرنسا في ١٩٣٩ – ١٩٤٥ : التناقض الرئيسي المهيمن هو التناقض بين الشعب الفرنسي والأمـــة الفرنسية وبين الامبريالية الألمانية واعوانها .

كيف يتشخص ويتحدد التناقض الرئيسي في الوطن العربي في هذه اللحظة السياسية وفي هذه اللحظة التاريخية ؟

الجواب الهارب : التناقض الرئيسي بين العرب (الشعب، الشعوب، الأمة، حركة التحرر ،الثورة، ليس هذا هو المهم) وبين الامبريالية والاستعمار والصهيونية والرجعية والاقطاعية والرأسمالية والتخلف والزحف الايراني الخ الخ. جواب هروب. صاحبه مضطر لاطالة لائحة العدو . مع ان السؤال ليس ما هو التناقض، ولا ما هو التناقض الرئيسي ، بل السؤال هو كيف **يتحدد ويتشخص** التناقض الرئيسي (الذي هو تناقضنا مع الامبرياليـــة واجزائها وحلفائها الخ) . كيف يتحدد

ويتشخص التناقض الرئيسي في اللحظة الراهنـة ؟ هل التناقض الرئيسي الأول والأعلى هو الآن بين العرب والزحف الايراني ؟ بين العرب وتركيـــا على اسكندرون وكيليكيا ؟ بين الشعب السوري والاقطاعية السورية ؟ بين مصر والسعودية ؟ هل التنافض الرئيسي – على صعيد الامة العربية أو حركة التحرر العربي – هو التناقض بين الثورة اليمنية والامـــام ؟ بين شعب الخليج وشيوخ الخليج ؟ بين الشعب السعودي وحكامه ؟ بين الشعب التونسي وبورقيبة؟ على صعيد الوطن العربي .

كلا . ان التناقض الرئيسي يتشخص ويتحدد الآن على صعيد الأمة العربيـة في التناقض الاكبر والأعظم بين الأمة العربيةواسرائيل . العدو – الامبريالية – يتشخص ويتحدد الآن ، بصورة رئيسية اولى ، على صعيد الامة العربية ، لا في الزحف الايراني ، ولا في بورقيبة ، ولا في شيوخ الكويت ، ولا في اقطـــاعيي ورأسماليي هذا القطر أو ذاك ولا حتى في شركات النفط ، بل في جزء آخر من الامبريالية ، في هذا الجزء المتميز من الامبريالية : اسرائيل ،الزحف الصهيوني ، جيش اسرائيل ، مجتمعها ، الاحتلال الاسرائيلي للدول العربية ... وهـــذا التناقض الرئيسي يحدد ويقرر إلى حـــد كبير سير التناقضات الاخرى ، بين الاقطار ، بين الانظمة ، داخل الاقطار ، بـين الطبقات ، يدفـع نحو ثورة في السودان ، ونحو ثورة في ليبيا ، نحو سقوط حكام ، وقيام حكام ، نحو اقتلاع قواعد عسكرية وشركات بترول [1] وشيوح وامراء وملوك صغار وكبار ، نحو اقتلاع تجزئة واوضاع تجزئة ، نحو اقتلاع بني اجتماعية وعادات وتقاليـــد ، وافكار رجعية بالية ، وافكار « تقدمية » بالية . كارثة حزيران ليست بعيدة عـن ثورة السودان وثورة ليبيا ، و « ليست بعيدة » عن ضرب البيروقراطية العسكرية البوليسية في مصر ، وعن تقدم وعي الحزب الشيوعي اللبناني . وأول الغيث قطر .

---

(١) لا سيما وان القواعد العسكرية وشركات البترول حليفة لاسرائيل ذاتها ، في الامبريالية الواحدة .

حين نقول : « الطريق ... الذي يفتح ... يمر عبر توطيد الانظمة التقدمية العربية... وعبر تحرير البلدان العربية التي لا تزال تحكمها الاقطاعية والرجعيات » ، من الواجب أيضاً أن نسجل اولوية المعركة ضد الصهيونية ، وان نعلن ان هذه الاولوية تحمل معها تغيرات كبيرة في الانظمة التقدمية العربية على اساس هذا الامتحان ، وتحمل معها تحرير البلدان الاقطاعية والرجعية على اساس هـذا الامتحان أيضاً . على وجه التحديد ان احدى المعادلات الخطيرة التي يصعب على اميركا حلها هي : كيف تستطيع اسرائيل الاميركية ان تحارب مصر بحرب ظافرة ومنزفة . آن ، تستغرق بضعة اسابيع[1] ، دون ان يؤدي الصمود المصري لبضعة اسابيع الى تغير مباشر في الاوضاع العربية في المشرق والمغرب ، في الدول الرجعية وغير الرجعية ، « لصالح » مصر وعبـد الناصر ، لصالح العرب ضد اميركا الاسرائيلية . في ٥ – ١٠ حزيران ١٩٦٧ ، لم تصمد مصر ولا بضعة أيام ، فرطت غزة وسيناء والجيش والطيران وكل شيء على الصعيد العسكري ، ومع ذلك ، فان اتجاه الضربة ، اتجاه قوة السلاح وليس قوة الكلام ، اتجاه النصر والشرشحة (ضد مصر وعبد الناصر) كان كافياً لإيقاظ (تصحيح) الوعي العربي وتحريك الوجدان العربي وتعبئة شعوب الأمـــة العربية في شكل أولي بدائي (مظاهرات شعبية عارمة) .

١١ – « وحدة القوى الثورية العربية »

يخصص الرفاق اللبنانيون الصفحتين الاخيرتين من حركة التحرر العربيـة « لموضوع وحدة القوى الثورية العربية » (٣٩ – ٤١) .

يقول الرفاق اللبنانيون :

« في المراحل الأولى لحركة التحرر العربية كانت الجبهـــة الوطنية المعادية للاستعمار هي الصيغة التي جرى فيها التعاون بين القوى الوطنية داخل

(١) بفضل اكبر تعزيز لطيران اسرائيل .

كل بلد عربي . وكان التضامن الذي لا يحده اطار تنظمي هو صيغة التعاون على النطاق العربي بين الشعوب العربية » . وفي المرحلة الحالية تطرح قضية ايجاد اشكال جديدة أكثر جذرية وفعالية . و« لقد وَجدَت القوى الثورية ان الظروف الموضوعية تدفعها للسير في اتجاه واحد وتوجيه الضربات لعدو مشترك والتطلع نحو اهداف مشتركة .

« ولم تحُلْ دون ذلك الخلافاتُ الفكرية والسياسية التي تُباعد بين هذه القوى . وفي اساس هذه الخلافات تباين في الانتماءات الطبقية وتفاوت في التقديرات والمواقف واختلاف في الالتزام الفكري وفي تحديد اشكال النضال واساليبه ، التي يتطلبها الوضع الملموس . وقد انعكست الخلافات في الحركة الثورية العالمية باشكال مختلفة على مواقف هذه القوى وعلى العلاقات فيما بينها ».

الا ان العوامل الموضوعية الدافعة إلى التقارب ظلت قائمة : مهمة تصفية النفوذ السياسي للدول الامبريالية ، ومواجهة مؤامراتها ومشاريعها العدوانية ، تصفية آثار العدوان الاسرائيلي ، تصفية مواقع الاحتكارات الامبريالية وتحرير اقتصاد البلدان العربية وروابط التبعية للسوق الرأسمالية العالمية ، تعميق التحولات المنجزة وتطويرها باتجاه الاشتراكية ، حل القضية الفلسطينية ، درء الحرب النووية والحفاظ على السلم العالمي ، مقاومة عدوانية الامبريالية في العالم وتوثيق الروابط الكفاحية بفصائل الحركة الثورية العالمية . هذه المهام المشتركة تؤلف اساساً عاماً لبرنامج العمل الموحد . والعوامل والظروف الموضوعية هي التي تملي الشكل الأرقى للتقارب والتلاحم بين القوى التقدمية ».

وهذا صحيح وجيّد . ولكنه لا يكفي .

لننظر اولاً إلى « المراحل الأولى لحركة التحرر العربي » .

ماذا يقصد بـ « الجبهة الوطنية المعادية للاستعمار ، تلك الصيغة التي جرى فيها التعاون بين القوى الوطنية داخل كل بلد عربي » ؟ اذا كان المقصود بالقوى « الأحزاب » ، وإذا كان المقصود « بالجبهة الوطنية » هو الجبهة الوطنية التي دعا اليها الحزب الشيوعي السوري – اللبناني خلال نيف وربع قرن ، عندئذ لا بدّ

أن نعترض ، وان نلاحظ ما يلي :

أ - الجبهة الوطنية كانت محدودة الأثر .

ب - الجبهة الوطنية كانت صيغة متقلبة ، تارة تضم أحزاباً وقوى لا يجب ان تضمها، وتارة لا تضم احداً سوى الحزب الشيوعي رافع لافتتها .

ج - نخشى ، حين نسكت (تسكتون) عن هذه التجربــة الماضية ، أن تنقلوا هذه الحالة إلى التجربة الحاضرة والمقبلة ، ولو بشكل مصلح ومطوّر .

د - بالحقيقة ، العلاقــات بين ما يمكن ان نسميه ، في التجربة الماضية ، « القوى الوطنية التقدمية » ، وإذا شئتم « اليسارية »، لم تكن جيدة بوجه الاجمال خلال نيف وربع قرن . والآن ايضاً ، العلاقات بين ما يمكن تسميته (وتسمونه) الأحزاب التقدمية أو اليسارية ليست جيدة ، ولستم أنتم المسؤولون عن هذه الحالة . ولكن عليكم وعلينا ان نتعظ من التجربة الماضية .

ه - في التجربة الماضية ، كان التحرك الجماهيري ، في المعارك والمنعطفات الكبرى ، يتخطى - وباضعاف مضاعفة - قوة « الجبهة الوطنية » للاحزاب والقوى ، ويُظهر الجبهة الوطنية **الحقيقية** ، قدرة الشعب **الحقيقية** . ولن نجعل من هذه الحقيقة فضيلة. كانت ضرورة ولم تكن فضيلة، وهذه الضرورة التي لم تكن فضيلة، لم يكن الشعب مسؤولاً عنها ، بل حَمَلَةُ «الوعي» (نقصد الحزب ،الأحزاب ، قيادة الجبهة الوطنية المتصورة، والمحدودة تماماً في الواقع والقاصرة عن جبهة الشعب الحقيقية).

لننظر إلى الوضع الحاضر ، وإلى جبهــة القوى التقدّمية كما يتمناها الرفاق اللبنانيون .

يسجل الرفاق اللبنانيون بحق ان الدوافع الموضوعية - المهمات والأهداف المشتركة - تدفع إلى التعاون والتلاحم . ولكن، على ما يبدو ، النتائج المنشودة

دون مستوى الأسباب الموضوعيـة . المسألة اذن مسألة وعي ، وعي الدوافع الموضوعية ، قصور هذا الوعي عند الاطراف المطلوب تعاونها وتلاحمها في جبهة جديدة عالية على « اساس عـــام » هو « برنامج عمل موحّد » ، وفي « اطار تنظيمي » عربي ، على نطاق كل قطر وعلى النطاق القومي . هـذا ما نفهمه من كلام الرفاق اللبنانيين ونوافقهم عليه ، وأحياناً نحن نصرح لهم عنه ، مستخدمين عباراتهم .

فما هي العوائق التي تعترض طريق التعاون والتلاحم والوحدة ؟

لقد نقلنا عرض الرفاق اللبنانيين لهذه العوائق حرفياً : « خلافات فكرية وسياسية » ، « في اساسها تباين في الانتماءات الطبقية وتفـــاوت في التقديرات والمواقف واختلاف في الالتزام الفكري وفي تحديد اشكال النضال وأساليبه . . » ، « انعكاس الخلافات في الحركة الثورية العـالمية على مواقف هذه القوى وعلى علاقاتها » .

وهذا جيّد تماماً .

واحدى نقاط الجودة فيه هذه الجملة الأخيرة : الخلافات في الحركة الثورية العالميـة ، وانعكاسها بأشكال مختلفة على مواقف القوى التقدمية العربية وعلى علاقاتها فيما بينها .

حين تحدث الرفاق اللبنانيون عن « الوضع العالمي محتوى عصرنا وجوهره . . » ، اطلقوا العنـــان لهجوم كاسح على « زمرة ماوتسي تونغ الانشقاقية » ، وتجنبوا الاشارة إلى أشياء من نوع احداث تشيكوسلوفاكيا ، أو موقف غالبية الاحزاب الشيوعية الاوروبية من هذه الأحداث ، او وصية تولياتي ، أو .... أو . . . من خلافات وانقسامات أو اختلافات ومسائل الحركة الشيوعية العالمية ، وعالم الدول الاشتراكية ، والفكر الماركسي المعاصر في شتى المجـالات . وفي ذلك الفصل الأول ، تبدو الحركة الثورية العالمية وكأن ليس فيها خلافات موضوعية ، وانما مشكلتها تنحصر في شخص ماوتسي تونغ وزمرته . والآن ، حين يجيئون إلى الوطن العربي وحركة التحرر العربية ووحدة القوى الثورية العربية ، يتبين

لهم ان هنـــاك خلافات حقيقية وخطيرة في الحركة الثورية العالمية ، حقيقية وخطيرة لدرجة انها تنعكس على مواقف القوى الثورية العربية وعلى علاقاتهـا فيما بينها ، ولا يمكن ان تعالج بهجوم كاسح على حملة اللوثات الماوتسي تونجية . صحيح انهم هاجموا هـذه اللوثات خارج اطار الصفحة المكرّسة لـ « ماوتسي تونغ ، عنصر شقاق . . . » ، هاجموها مثلاً في ذيل الحديث الطويل عن حركة التحرر الوطني وتحولها النوعي (نظرية الدول الغنية والدول الفقيرة) ، وصحيح انهم نشروا على طول الفصل الأول افكاراً هي ضد الافكار الصينية (وضد منطق لينين !) . ولكن هـــذا كله في الفصل الأول ، في الوضع العالمي ، في محتوى العصر وجوهره ، وحين وصلوا إلى حركة التحرر العربية ، اكتشفوا سلسلة من الحقائق العربية ، تتعارض مع منطق « الوضع العالمي ، محتوى العصر وجوهره » ، وثبتوها ، وحين تقدموا نحو خلافات القوى التقدمية العربية ، وفرّوا على أنفسهم الهجوم على الأفكار الصينية أو آثارها في الساحة العربيـة وذكروا « الخلافات في الحركة الثورية العالمية » ، واعتبروها خلافات داخل هذه الحركة الثورية العالمية . وهذا درس وعبرة . ولو كان الرفاق اللبنانيون يعتقدون مثلاً ان نبذ الآراء الصينية « الجغرافية والعرقية » (؟) وتبني مفهومهم « العلمي الطبقي » لثورة اوكتوبر وعمليّة الثورة الاشتراكية العالمية والأزمة العامة للرأسمالية الخ شرط لوحدة القوى الثورية العربية ، لبقوا بالتأكيد خارج هذه الوحدة ، ولجعلوها ، بقدر ما يفرضون آراءهم في الساحة ، مستحيلة التحقيق .

هذا كله جيد . ولا ريب ان آراء ماو تسي تونـــغ وتولياتي وخروشوف وبريجينف وغيفارا ودبشيك وتيتو وخوجا وغارودي ولوفافر وبتلهايم الخ «تنعكس» على العرب وقواهم التقدمية . ولكننا نخطىء اذا تصورنا ان هذه الآراء تنعكس بشكل سلبي منفعل ، وأن الثوريين العرب يأخذونها هكذا ، بقضها وقضيضها. صحيح ان هناك بين العرب ومفكريهم واحزابهم من يأخذها هكذا ، من ينقل آراء ماو تسي تونغ أو آراء بريجنيف أو آراء غيفارا أو آراء التوسر الـــخ . ولكن كل هؤلاء الذين ينقلون موسكو أو بكين أو هافانا أو . . . أو . . . ، كلهم مجتمعين لا يؤلفون سوى جزء من الاحزاب التقدمية العربية ، وجزء صغير جداً

من القوى الثورية العربية ، من « الجماهير العربية » المتطلعة إلى نضال ثوري طويل وشاق . وهـذه الجماهير تطالبنا بموقف آخر : تطالبنا بأن لا ننجرّ إلى هجوم كاسح على بكين وأفكار ماو تسي تونغ ، وبأن لا ننقل هؤلاء أو هؤلاء ، بل ان ندرس هؤلاء وهـؤلاء ، وأن نتعظ بالخلافات ، وان نصيغ مواقفنا بالاستناد إلى ممارستنا العربية ، وان نصيغ فهمنا العربي للعالم والعصر ، حتى يكون هذا الفهم عامل توحيد في النطاق العالمي أيضاً . وأن خيرة الثوريين العرب ، والقادة الثوريين العرب ، لا تنعكس عليهم آراء القوى الثورية العالمية سلبياً ، وانما يتأثرون بهذه الآراء ، على أساس الأسس العربية – العالمية الموضحة آنفاً . وطالما أنكم لم تستخلصوا هذا الدرس من خلافات الحركة الثورية العالمية ستكونون متخلفين عن هؤلاء ، لا يشفع لكم ملاك « الانتماء الطبقي » للطبقة العاملة .

اذن ، لندقق معاً هذه الجملة الطويلة : « وفي أساس هذه الخلافات (بين القوى الثورية العربية تباين في الانتماءات الطبقية ، وتفاوت في التقديرات والمواقف ، واختلاف في الالتزام الفكري ، وفي تحديد أشكال النضال وأساليبه التي يتطلبها الوضع الملموس » (أضفنا الفواصل) .

لست أدري ما اذا كان الرفاق اللبنانيون تعمدوا هذه الألفاظ « تباين . . . ، تفاوت . . . ، اختلاف » ، ما اذا كانوا يعيرونها قيمة تمييز . ولكن أنْ يوضع هذا كله تحت عبارة « وفي أساس هـذه الخلافات » ، فهذا يدفعنا الى تساؤل : اذا كان كل هذا – التباين في الانتماءات الطبقية ، التفاوت في التقديرات والمواقف ، الاختلاف في الالتزام الفكري « وفي تحديد . . . – هو « في أساس » ، فماذا يبقى للبناء ، للفروع ؟ .

ما هو المنطق الذي سير صياغة الجملة ؟ كيف بدأ واضعو البرنامج « في أساس هذه الخلافات . . . » ثم انتهوا إلى عرض طبيعة ومحتوى الخلافات ؟

من الواضح ان الأمور سارت في ذهنهم على النحو الآتي : بدأوا بتأكيد أن « في أساس هذه الخلافات التباين في الانتماءات الطبقية » . وهذا قول صحيح ومحكم ، ولكن صوابه كصواب مبدأ « صراع الطبقات » و « المفهوم الطبقي »

للتاريخ والثورة ، أي انه يمكن ان يتحول من مبدأ عميق إلى مبدأ فارغ ومن حقيقة بديهية الى بديهية كاذبة. والأرجح ان هذا الشعور (الشعور بخطر التحول المذكور ، الشعور بخطر النزوح الى السفسطة الاستنتاجية العقيمة) لم يكن غائباً عن ذهن الرفاق اللبنانيين (وكما قلنا : ثمـــة فرق بين « الفصل الثاني » وبين « الفصل الأول » هو الفرق بين خط صائب جوهرياً وخط خاطىء جوهرياً . « حركة التحرر العربية » لا تتحمل فراغ « المفهوم العلمي الطبقي » العادي) . الأمر الذي دفع الرفاق اللبنانيين الى متابعة الجملة ، الى تحديد ميادين الاختلاف والتفاوت ، فقالوا : « وتفاوت في التقديرات والمواقف » (وهذا تحديـــد) واختلاف في الالتزام الفكري (وهذا عام ، ولكنه أفضل تحديداً من عبارة تباين الانتماء الطبقي) وفي تحديد أشكال النضال وأساليبه ، التي يتطلبها الوضع الملموس (والملموس قمة التحديد !) .

ولو كنا محـل الرفاق اللبنانيين لقلنا : اختلاف الخطوط السياسية والاستراتيجية والفكرية وبالتالي الطبقية !

ان مسألة الانتماء الطبقي واختلاف هذا الانتماء لا يجوز أن تتحول إلى عمومية لفظية ببغائية . وحتى لا تتحول ، نلاحظ ما يلي :

اولاً – أن تسعة أعشار القادة التقدميين العرب ، (ولا مانع من القول جميعهم) ، – مؤسسي وقادة الأحزاب التقدمية ، قادة الثورات القطرية الكبرى ، رؤساء وحكام الدول التقدمية ، المفكرين والمثقفين التقدميين ، في جميع الاقطار العربية – ينتمون من حيث أصولهم الطبقية إلى البرجوازيـــة الصغيرة ، لا إلى مقولة « البرجوازية الصغيرة » اللفظية بل إلى واقع البرجوازية الصغيرة الحقيقية الفضفاض . ذوو المنشأ العمالي والبروليتاري نفر قليل (بعض القادة والمؤسسين الجزائريين لنجمة شمال افريقيا في باريس وللحزب الشيوعي ، فهد مؤسس الحزب الحزب الشيوعي العراقي كان عاملاً مارس العمل اليدوي ، ولكن والده لم يكن عاملاً ...) . نقول واقع البرجوازية الصغيرة الفضفاض ، المفتوح نحو الأعلى ونحو الأدنى ، المتضمن أغنياء وفقراء ، ومـــن الواجب ان نقول ان الغالبية

الساحقة ليست من البرجوازية الصغيرة وحسب ، بل من مراتبهـا الاجتماعية الميسورة . الأمر الذي وفر لها امكانية التحصيل المدرسي حتى صف البكالوريا مثلاً ، في وقت (قبل عشرين او ثلاثين او اربعين سنة) كان فيه نسبة الذين يصلون إلى صف البكالوريا لا تتجاوز ٥ ٪ او ٢ ٪ او ١ ٪ مـن الشباب . كثير منهم ينتمون إلى وجاهات المجتمع التقليدي المتحـــول ، إلى « العائلات » - وجاهـــات الدين والعشيرة والارزاق ، والنشاط الاقتصادي البرجوازي الحديث - . وإذا قسمنا المجتمع العربي من حيث الفقر واليسر إلى ٩٠ ٪ و ١٠ ٪ ، فانــه من الممكن والواجب ان نضع في الـ ١٠ ٪ الميسورين نيف وتسعة أعشار القادة التقدميين والمفكرين التقدميين ومؤسسي الاحزاب التقدمية وقادة الثورات العسكرية التقدمية الخ (بما فيهم الذين يأكلون حالياً على طبق الماركسية ، هم وأنتم ونحن) ، أي اننا نضعهم في واقع البرجوازية - الصغيرة الفضفاض ، ولكن مع حرفه قليلاً نحو الأعلى ، نحو « العـــائلات » ، والمراتب « البرجوازية » . خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ويوسف فيصل وفؤاد نصار واميل توما ، ميشيل عفلق وصلاح البيطار واكرم الحوراني ونور الدين الاتاسي وصلاح جديد ويوسف زعين وابراهيم ماخوس وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وفؤاد الركابي وعـــلي صالح السعدي وحردان التكريتي وحازم جواد ، جمال عبد الناصر وخالد محي الدين وكمال الدين حسين وصلاح سالم وعلي صبري وزكريا محي الدين وكمال الدين رفعت وثروت عكاشـة ، وجورج حبش ومحسن ابراهيم ونايف حواتمه وصادق جلال العظم الخ الخ ... . وهذا في منطق التاريخ ليس رذيلة ولا فضيلة . ولا ننسى ان ماركس وانجلز ولينين وماوتسي تونغ لم يكونوا من ابناء البروليتاريا ولا بأي حال من ابناء « الشغيلة » و « الكادحين » . بعض قادة الاحزاب الشيوعية في العالم هم عمال في الاصل (توريز) ، بعضهم ليسوا عمـــالاً بل شيئاً آخر مثلاً معلمون (تولياتي ، خوجا) . وهؤلاء ليسوا اسوأ من اولئك . برنشتاين وعدد من اوغاد الاحزاب الاشتراكية الغربية هم من اصل عمالي الخ . وقادة العمال الانكليز والعمال الاميركان ! . الانتلجنتسيا الثورية

الروسية (عدد من المفكرين العظام، وعدد من الطلاب الجامعيين المجهولين الذين كرسوا حياتهم للشعب وللطبقة العاملة ، وماتوا في شبابهم تحت وطأة المرض أو السجن ...) كانت ، في قسم كبير منها ، من « ابنـــاء العائلات » . تلك طبيعة التاريخ . ان الذي لا ينتمي حقيقة إلى اهداف الشعب وإلى الايديولوجيا البروليتارية الثورية هو الذي يخجل مـــن اصله غير البروليتاري أو حتى غير « الشعبي » ، أو « يفاخر » بأصله شبه البروليتاري وشبه الشعبي .

ثانياً – اذن لا يمكن ان يقصد رفاقنا اللبنانيون بـ « تباين الانتماء الطبقي » الاصول الطبقية الواقعية للأشخاص ، نقول للأشخاص بالجمع ، للاشخاص المؤلفين قيادة الاحزاب والقوى السياسية (والذين يصنعون وعيها !) . ولا نعتقد أنهم يريدون ان ينقلوا هذه القضية إلى مستوى تركيب القواعد . لا ريب ان هناك أحزاباً شيوعية في التاريخ العربي وصلت الى نسبة لا بأس بها من العمال في تركيب قواعد الحزب (وبالتالي وايضاً كوادره وقيادته) . ولعل أكبر وابرز مثل تاريخي لهذا هو الحزب الشيوعي العراقي الفهدي . ولكننا لا نعتقد ان هذا الحزب وصل إلى أكثر من الثلث في تركيبه العمالي (وهي نسبة عاليـة في الظرف العربي) . ولا ريب ان الاحزاب التقدمية العربية (مع الاستثناءات الممكنة : الحزب الشيوعي السوداني ؟؟ وبالطبع نجمة شمـال افريقيا في باريس) هي في تركيبها احزاب برجوازية – صغيرة ، ثلاثة أرباع اعضائها من البرجوازيين الصغار . (ولو أن الاحزاب الحاكمة تستطيع ان تزيد نسبة العمال والفلاحين الفقراء في تأليفها) .

لا ريب ان الرفاق اللبنانيين يقصدون بالانتماء الطبقي ، الانتماء الايديولوجي إلى الطبقة ، الالتزام بالايدلوجيا البروليتارية ، مقابل الالتزام بالايديولوجيات التقدمية الأخرى ، ايديولوجية الشعب عامة أو « الجماهير الكادحة » عامة أو « تحالف قوى الشعب العامل » عامة أو « القومية الثورية » الخ .. ولكنهم في هذه الحالة ، يقولون هنا في البداية ، وبعد عبارة «في أساس ...» ما سيقولونه بعد سطر واحد « اختلاف الالتزام الفكري » . ومهما يكن أمر هذا (هـــذا التكرار) ، فان هذا القول صحيح: لا شك ان تباين الانتماء الفكري – الطبقي

هو في أساس ، وأساس أساس ، كل خلاف بين جميع أحزاب الكون والتاريخ ، مبدئياً . وحتى لا يتحول المبدأ العظيم الى سفسطة ، يجب ان نقيم حداً فاصلاً بين الايديولوجيا الحقيقية وبين اللافتة ، بين المضمون وبين الاطار ، بين بضائع السفينة وبين الراية التي ترفعها السفينة .

بتعبير آخر : هل يسمّي الرفاق اللبنانيون حزبهم في الحقبة الماضية ، خلال ربع القرن الذي نقدوه (في تقريرهم السياسي) ، وخلال ما قبل ربع القرن (ما قبل ١٩٤٣) ، حزباً ينتمي إلى الايدلوجيا البروليتارية ، والى الماركسية – اللينينية ؟ إذا كانوا يفعلون ذلك – رغم تسجيلهم ان حزبهم تبنى منظورات البرجوازية ، وفشل في فهم المسائل القومية ، و... و... فانهم بالحقيقة يُذلّون الايديولوجيا البروليتارية ، يذلون الماركسية ، يذلون الطبقة البروليتارية ، يذلون مفهوم الايديولوجيا بتحويله إلى شعار لفظي يمكن ان يغطي اسوأ مضمون . وإذا كانوا لا يفعلون ذلك ، عليهم ان يدركوا الحقيقة الآتية : ان حزباً كحزبهم وبالاحرى كبعض الأحزاب الشقيقة لا يتحوّل بين عشية وضحاها من حزب انحراف واخطاء وانحراف طويل إلى حزب بروليتاري ماركسي – لينيني . وبالمقابل ليس من الممكن ان تسقط كل عناصر الصفة البروليتارية والماركسية عن قوى لا ترفع شعار الايديولوجيا الماركسية (ولمجرد انها لا ترفع هذا الشعار) . وبتعبير آخر ، وهذا ما نريد الوصول اليه : المسألة اليوم على صعيد النظرية والطبقة والايديولوجيا قائمة **في وسط الماركسيين ذاتهم!** وهي مسألة معرفة من هم الماركسيون ومن هم ليسوا بماركسيين ، وما هي الماركسية واقعياً اليوم في الساحة التقدمية العربية . هذه القضية واجهها وحلها الماركسيون الروس ابتداء من سنة ١٨٨٣ وفي صراع فكري دائم قاده لينين على طول الطريق المؤدية إلى اوكتوبر .

وإذا لم يدرك الرفاق اللبنانيون هذه الحقيقة ، ولم يأخذوا قياسها كاملاً ، فانهم سينساقون غداً إلى اسوأ المواقف التحالفية في الظرف العربي التاريخي .

سينجرّون أولاً إلى التصنيف النافه الذي يصنف القوى التقدمية العربية

إلى صنفين – ماركسي وغـير ماركسي – حسب معيار الشعار والشعائر، اللافتة، الراية المرفوعة فوق سفينة القوة المعنيّة. ثم ينجرون إلى قبول التحالفات على هذا الأساس: « الماركسيون » الماركسويون ضد « الاشتراكيين القوميين »، « الاشتراكية العلميـة » ضد « الاشتراكية العربية والدينية »، « الاشتراكية العمالية » ضد « الاشتراكية البرجوازية الصغيرة »، على أساس الايديولوجيـا المعلنة، على أساس اللافتة والشعائر والبيـارق والرايات. ويتصورون ان كل تصريح يصدر عن جهة تقدمية بمعنى تخليها عن « الاوهـام القومية والبرجوازية الصغيرة » الخ هو تقدّم. وقد يكون تراجعاً وتراجعاً كبيراً نحو خطأ أكبر، نحو وَهْم أكبر، 'فنّع ذاتياً بـ « الاشتراكية العلمية »، ان تجربة « القوميين العرب اليساريين » (تجربة الحزب الشيوعي اللبناني مع « القوميين العرب اليساريـين ») يجب ان تكون درساً وعاصمـاً عن الشطط « الايديولوجي » الايديالي المثالي).

وليتمسك الرفاق اللبنانيـون بالصيغ الاخرى التحديدية: « التفـاوت في التقديرات والمواقف، الاختلاف في تحديد أشكال النضال وأساليبه »، ونقول نحن: الاختلاف في الخط السياسي والستراتيجي والفكري.

ان عالم اليوم عالم معقد. وعالمنا العربي عالم معقد وعالمنا اللبناني عالم معقد. قوى دولية، خطوط دوليـة، طبقات، أفكار، أقطار، دول، أحزاب، امبريالية متنوعة، اسرائيل... كيف يجري وعيُ هذا العالم؟ ما هي النظرية الماركسية الصحيحة لتطور العـالم العربي وللثورة العربية؟ النظرية الأساسية والتفصيلية!

كيف تطور العالم العربي خلال القرن المنصرم؟ وخلال العشرين سنة الماضية؟ وخلال السنوات الخمس الماضية؟ كيف يتطور الآن؟ وغداً؟ ما هو الخط العريض للتطور المقبل، وسبله ومحطاته، وأشكاله، واحتمالاته؟ ما هو الوعي وما هي المسؤوليات؟

على هذه الأسئلة تتحدد الاختلافات والقوى والخطوط المحلية القائمة واقعياً

في الوطن العربي . ويجب ان نضغط بقوة لكي يكون الأمر هكذا . لكي تكون هذه الاسئلة وبتفاصيلها هي المحددة للوحدة والانقسام . لا تخافوا من الانقسام حين يكون على هذه الاسئلة! كونوا بلاشفة لينينيين في موضوع الانقسام. وحين ستتبنون المنظورات اللينينية العامة،فانكم ستكونون بلاشفة لينينيين في موضوع الانقسام أيضاً .

ان ما تريدونه وما نريده معكم هو « وحدة القوى الثورية » ، هو اللقاء والاتفاق بين القوى الثورية . رغبة مشروعة ! بلْ إرادة حقيقية !

اللقاء خير ألف مرة من اللالقاء . الوحدة خير ألف مرة من اللاوحدة .

ولكن ، لسوء الحظ (!) ، هناك في هـــذا المضمار ، وفي وضعنا العربي بالذات ، لاحالتان بل ثلاث حالات : ١) لقاء حقيقي ، ٢) لا لقاء معلن، ٣) إعلان لقاء غير حقيقي ، وهمي . وفي هذه الثلاثية التي هي ثلاثية وليست ثنائية اذا كان ١ أفضل من ٢ ألف مرة فان ٢ أفضل من ٣ ألف مرة أيضاً ، أو ربما ألفي مرة . لأن ٣ لا يخدع الا بعضاً منا وربما الاصدقاء في الخارج . ولكنـــه لا يخدع العدو قيد شعرة (العدو : اشكول ، جونسون ، دايان ، نيكسون + الرجعية العربية ، بورقيبية [١] الخ) . يخدع بعضاً منا ، البعض القليل ، ولسوء الحظ ، البعض القليل الذي هو في بعض الأحيان الأكثر فاعلية لأنـــه منظم ، «ايديولوجي»،صحفي. وفي الخارج ينخدع اولئك الذين يغطسون في الايديولوجيا والأوهام المثالية ، هروباً من واقع عالمي غير مثالي . أما الجماهير الشعبية العربية جماهير العمال والفلاحين العرب فبوجه الإجمال لم تنخدع ، ولا تنخدع ،ولكنها تخنق وتقهر تحت ضلال المثقفين المنظمين .

ان تجربة التاريخ العربي في الحقبة الاخيرة تقدم لنا حالات متنوعة ومختلفة

(١) لأن الرجعية العربية ضالعة مع الامبريالية . لأنها ليست اليوم شيوخاً جهلة ، بل شيوخ نصف جهلة معهم خبراء أجانب متعلمون ، ومخابرات الامبريالية وزعامتها وتوجيهها .

عن وحدة الأحزاب التقدمية ، وعن التحرك الشعبي الجماهيري (كشيئين اثنين يجب ان يتلازما ولا يتلازمان دائماً ، ويتفاوتان من حيث الحجم كثيراً) .

١ – في ١٩٥٦ – ١٩٥٨ : حركة جماهيرية جبارة من المشرق الى المغرب تضم عشرات الملايين من ابناء الشعوب العربية (تأميم السويس ، خطف طائرة القاده الجزائريين ، العدوان الثلاثي وصده ، مبدأ ايزنهاور ومؤامرات الرجعية العربية ، الوحدة السورية – المصرية ، ثورة ١٤ تمـــوز العراقية)،الشيوعيون داخل الحركة . والحركة أكبر عشر مرات من الشيوعيين والاحزاب الحليفة والخصمة في « الجبهة الوطنية ».الشيوعيون داخل الحركة، وفي طليعتها ما عدا بعض الحالات (وحدة شباط ١٩٥٨) .

٢ – في ١٩٥٨ – ١٩٥٩ : انقسام . مع الشيوعيون وعبد الكريم قاسم : حركة جماهيرية فعلاً ، في العراق . عزلة الشيوعيين في أقطار أخرى ، وتراجع ينكشف في فترة الانفصال السوري وانتخاباته البرلمانية والنقابية وصحافتـــه « الحرة » (١٩٦٢) . في الجهة المقابلة : حركة جماهيرية كبيرة ، موجودة في العراق ، وطاغية في سوريا ولبنان والاردن والارض المحتلة ومصر والمغرب .ثم فتور كبير (١٩٦٠ – ١٩٦١) .

٣ – في ١٩٦١ – ١٩٦٤ : حركة جماهيرية جبارة من المشرق الى المغرب (الانفصال والنضال ضده ، ثورة اليمن ، تأسيس الاتحاد الاشتراكي العربي في مصر ، انتصار الثورة الجزائرية التاريخى ، احتمالات بلدان المغرب الغربي ،ثورة ٨ آذار ، ميثاق الوحدة الثلاثية ، استمرار الثورة اليمنية ، تحولات في العراق، زيارة خروشوف لمصر . عشرات الملايين من البشر . الشيوعيون ضد . وظهور انقسام جديد . في الفترة الأخيرة (١٩٦٤) اختمارات جديدة في وعي الشيوعيين تحت صدمة التجربة .

٤ – في ١٩٦٥ – ١٩٦٧ : الحركة الجماهيرية مفتتة . وشعار « لقاء القوى التقدمية » ، «وحدة القوى الثورية» . وفعلاً في ندوة الجزائر ، تلتقي الاحزاب التقدمية العربية (مع غياب بعضها) والاحزاب الشيوعية (غالبيتها) موجودة

في اللقاء . هذا لا يؤثر كثيراً على الجماهير العربية ، لا ينعشها ، لا يبعثها . في ٩ – ١٠ حزيران ، تنفجر حركة الجماهير المصرية والعربية ، من نبع آخر غير « الايديولوجيا » « اليسارية » و « العالمثالثية » و « العلمية » و « الصداقية » التي سيرت ندوة ما قبل اسبوعين . وبلاط الجحيم مرصوف بالنوايا الطيبة .

ونتصوّر ان رفاقنا اللبنانيين يفضلون ، من بين الحالات الأربع ، الحالة الأخيرة الرابعة ١٩٦٦ – ١٩٦٧ : « لقاء القوى التقدمية » ، ومكانهم فيه وفي صدارته (ولو وراء آخرين ، في هرج méli - mélo « ايديولوجي » كبير) . نحن نعتقد ان هذه الحالة الرادعة هي اسوأ حالة . ولعل الرفاق اللبنانيين يدركون معنا ان عشرات الملايين من البشر هم الاساس ، وان المهم تحرك هؤلاء ، المساعدة على تحريكهم . ولعلهم اذن لا يفضلون الحالة الرابعة ، بل الحالة الأولى وهي حالة جيدة . ولكننا نفضل أيضاً الحالة الثالثة ، ونريد (وقد أردنا) ان تكون الأحزاب الشيوعية لا ضد بل مع الحركة الجماهيرية الجبارة (النضال ضد الانفصال ، انتصار الثورة الجزائرية التاريخي ، ثورة ٨ آذار ، ميثاق الوحدة الثلاثة ، زيارة خورشوف لمصر) : عشرات الملايين من العمال والفلاحين والبرجوازيين الصغار ضد الامبريالية والتجزئة والاقطاعية والرجعية والرأسمالية الكبيرة ، بعد انكشاف مواقع ومواقف الطبقات .

ولا نعتقد ان الحالات تتكرر . واليوم : احتلال العدو لاراضي عدة بلدان عربية ، وانتصارات الجنوب والسودان وليبيا ، ومشاكل وأزمة الثورة والأمة . ولكن ليس ممكنا فهم أي شيء فيما يتعلق في المستقبل ، مستقبل حركة الجماهير ، و « القوى التقدمية » السياسية الحزبية ، إذا تجاهلنا جوانب أساسية في تجربة الماضي .

بتعبير آخر ، ان لقاء ووحدة القوى التقدمية العربية ضرورة ملحة لا غنى عنها . وإذا تحققت هذه الوحدة فعلياً ، فانها يمكن ويجب ان تكون إطاراً لاحياء وتنظيم حركة عشرات الملايين من البشر ، ان تكون

قائدة لهذه الحركة القادرة على دك مواقع الامبريالية والرجعية في كل مكان .
غير ان هذا كله مستحيل ، اللقاء الجدّي ، الوحدة الجديدة ، مستحيلة ، بدون عرض التجربة ، بدون عرض كل وقائع تاريخ الحقبـــة الاخيرة والسنوات الاخيرة ، والتفاهم بين القوى المعنيّة على هذا التشخيص . نقول : عرض وقائع الحقبة الأخيرة . ونشدّد على كلمة الوقائع . لأن « الايديولوجيا » . الوهميـة الضارية أطنابها في فكر ما قبل عدوان حزيران ، وفي ندوة الجزائر الأولى[1] تتصوّر ان « المبادىء العامة » ، « العموميات » ، تغني عن الوقائع. والقول ، أيها الرفاق ، ان المهام واحدة والأهداف واحدة والعدو واحد الخ ، اذن ← وحدة ، فلا يعدو كونه نوايا الجحيم الطيّبة المخلصة ، المثالية . انظروا مثلاً ! الجميع تقريباً يقولون : وحدة اشتراكية حرية ، أو حرية اشتراكية وحدة الخ ، ويقولون أيضاً « اشتراكية علمية » ونضال ضد الامبريالية ومعسكر اشتراكي صديق ، وإذا شئتم فانهم سيقولون في صبـــاح يوم غد « أُممية بروليتارية » و « مفهوم علمي طبقي » الخ . ومع ذلك ، نحن بعيدون عن لقاء و « وحدة القوى الثورية » . المهام الواحدة ، الأهداف الواحدة ، الايديولوجيا الواحدة ، مفهومة بهذا الشكل « العام » ، لا « تقدّمنا » كثيراً ولعلها ترجعنا إلى الوراء .

مرة أخرى وأخيرة : انكم (اننا) بحاجة إلى مفهوم صحيح لتاريخ العصر وصراعه وثورته ، لتاريخ العرب ونضالهم وثورتهم ، إلى تشخيص دقيق بالوقائع (بما فيها وقائع الآراء والأقوال) لتجربة الماضي ولا سيما لتجربة الماضي القريب جـــداً ، وإلى تصور صحيح علمي وغير نبوي لمستقبل النضال العربي والثورة

---

(١) من أهم مزايا هذه الندوة : ١) انها اولى من نوعها . ٢) انهـــا جمعت قوى كثيرة . ٣) انها استمعت إلى رسالة من عبد الناصر تركز على الوطن والوطنية . من أهم مثالبهـــا : ١) انها لم تجمع كل القوى ، ان قوى حقيقية حرمت من الاشتراك . ٢) انها شهدت هرجاً ايديولوجياً كبيراً يخفي مصالح محدودة . ٣) انها لم تقم بعملية جرد وقائع الماضي السياسي العربي القريب . ٤) انها ، رغم قصرها ، تحولت إلى دعايـــة من كل دولة وحزب لتجربة الذات الخ ...

العربية والتاريخ العربي . وعلى هـــذا الأساس ، إلى : نضال حازم ضد الآراء الخاطئة والمواقف الخاطئة من أجل فرض وحدة القوى التقدمية العربية ، بمـا يمكن ان يتضمنـه ذلك من انقسام بين هذه القوى ،انقسام مبلور حول الخطوط ، بعد كشف وتمزيق قناع الالفاظ . حول الخطوط السياسية أولاً ، والاستراتيجية ثانياً ، والفكرية ثالثاً . نقول السياسية اولاً ، في ظرفنا العربي ، دفعاً للالتباس « الايديولوجي » الكلامي الفتاك .

الفصول الباقية :

لبنان

التاريخ ، الاقتصاد ، المجتمع ، الدولة ، برنامج الحزب

لقد اطلنا عرض ومناقشة ونقد الفصل الأول والفصل الثاني من برنامج الرفاق اللبنانيين :

الأول – الوضع العالمي ، مفهوم العصر ، أي الفهم الماركسي للعالم والعصر – سيء وغير لينيني ، رغم بعض المظاهر .

الثاني – حركة التحرر العربية ، أي الفهم الماركسي للعالم العربي والتطور العربي – جيد ولينيني ، جوهرياً ، رغم بعض الاخطاء والعيوب والنواقص .

ولا يدخل في مشروعنا ان نعرض ونناقش تفصيلياً الفصول التالية وموضوعها لبنان ، مع إيماننا الكامل بأهمية هذه الفصول للبنانيين وللعرب عموماً . هـذا ليس موضوعنا ، وإلى حد مـا ، ليس ميداننا . ونأمل ان يقوم بهذا العمل التفصيلي رفاق آخرون من لبنان ، ماركسيون – لينينيون – عرب .

غير اننا لا نستطيع ان نغلق بحثنا دون إلقـاء نظرة اولية على التحليل اللبناني لرفاقنا اللبنانيين . وسيرى القارىء اننا ننسب هذه الفصول اللبنانية إلى الفصل الثاني ، من حيث صوابها الجوهري ، ومن حيث تقدمها على مواقف سابقة لرفاقنا اللبنانيين وللماركسيين العرب التقليديين .

١ - « سمات وخصائص تطور لبنان »

هذا التقدم يظهر بوضوح في الفصل الثالث : « سمـــات وخصائص تطور لبنان » (٤٢ - ٥٧) .

يتحدث البرنامج عن النظام اللبناني السائد في زمن العثمانيين وقبلهم باعتباره « نظاماً اقطاعياً ذا طابع عسكري » . ويسجل ان « الضرائب كانت الشكل الرئيسي للاستثمار الاقطاعي » ، وقد خضع نظام الضرائب « لحاجات البـــاب العالي ومتطلباته » . ثم يتحدث عن « التنظيمات » ، ونشوء العلاقات الرأسمالية ، وضغط الحركات الفلاحية ، وقيام العاميات الاولى (عامية انطلياس ١٨٢٠ ، عامية لحفد ١٨٢١) ، وحملة ابراهيم باشا ، وحركة طانيوس شاهين والفتنـــة الطائفية لعام ١٨٦٠ ...

ويشير إلى « ان الرأسمالية ذات الطابع الكولونيالي حافظت على بقايا العلاقات الاقطاعية وحافظت على نفوذ الاقطاعيين السياسي ، ونالت من مصالح الحرفيين والتجار غير الوسطاء ، لذا وضعت مناهضتهم للنفوذ الاجنبي بذور الحركـــة الوطنية آنذاك . ولقد تمثلت تطلعات هذه الفئات ومطامحها في كتـــابات رواد الفكر في الثلث الأخير من القرن الماضي » . ويقيم البرنامج هذا التراث الفكري تقييماً عالياً ، فهو تراث ديموقراطي تقدمي ، يفضح جرائم الاقطاعيين وحلفائهم من رجال الاكليروس ، ويدين مثيري الفتن الطائفية ، بشر بالمساواة والحرية ، عربي ، شمولي ، علمي .

وينتقل إلى التصارع الانكليزي - الفرنسي ، مديناً النزعات الانعزاليـة ، الفينيقية والمتوسطية . ويؤكد الطابع الوسيط للبرجوازية اللبنانية (= وسيط تجاري للرأسمالية الاجنبية) ، ويتحدث عن نضالات الحركة العمالية ونشوء الحزب الشيوعي اللبناني في ١٩٢٤ - ١٩٢٥ . ويذكر نهوض الحركة الوطنية في ١٩٣٦ ، ونشوء منظمات وأحزاب شبه عسكرية وطائفية للوقوف بوجه المد الوطني ، اقتبست شعاراتهـا واشكال تنظيمها عن النازية والفاشستية وارتبـط

بعضها بأجهزتها . ويتحدث عن نضال الحزب ضد الفاشستية وصنائعها الفيشيين. ثم يصل إلى النهوض الشعبي العارم سنة ١٩٤٣ ...

« الا أن **استقلال لبنان** لم يسفر عن قيام الدولة القادرة على تغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية التي تكونت في ظل السيطرة الكولونيالية » . « لأن البرجوازية المرتبطة بالانتاج الوطني لم تستطع الاحتفاظ بالسيطرة التامة على الحكم نتنتجة لضعفها وروابطها التاريخية بالبرجوازية الوسيطة»... مما أدى لتسلم **تحالف البرجوازية والاقطاع** مقاليد السلطة بقيادة البرجوازية الوسيطة الوثيقة الارتباط تاريخياً بالرأسمال والاحتكارات الأجنبية ... »و « شهدت **الخمسينات** نمواً سريعاً لوتائر تطور **قطاع الخدمات** وبنـــوع خاص القطاع **المصرفي والتجاري** ، وتغلغل البنوك الأجنبية وبخاصة **الاميركية** ، وهيمنتها على الحياة المالية والاقتصادية في البلاد . واتجهت التوظيفات الضخمة نحو **القطاع العقاري** وغدت المضاربات العقارية وسيلة لجني الارباح الطائلة والسريعة » . « ان حماسة البرجوازية الوسيطة هذه في تأييدها **لحلف بغداد ومشروع ايزنهاور** ... انما كان تعبيراً عن قطيعتها التامة مع المصلحة الوطنية والقومية ».

ويصل البرنامج إلى **الانتفاضة الشعبية ضد حكم شمعون - مالك**(١٩٥٨) . لقد اكتسبت حركة المقاومة مغزى اجتماعياً بفضل اشتراك الجماهير الشعبية . « وقد وقفت جميع الفئات السياسية ... جبهة مشتركة بوجه التدخـــل الاستعماري الاميركي » ،« في حين أقدمت بعض العناصر من الساسة البرجوازيين التقليديين المحترفين الذين التحقوا بالحركة بدوافع مصلحية وانتهازية على تحوير مجراها وتشويه مضمونها واعطائها صيغة طائفية ولجأت إلى التسويات الفوقيـة لاجهاضها تحت شعار « لا غالب ولا مغلوب » .

« ان مقاومة الشعب العنيفة والمسلحة للحكم العميـــل حملت فئات من البرجوازية وقسماً من المثقفين العاملين في الحقل الاداري والسياسي على انتهاج سياسة اجتماعية « معتدلة » واقامة علاقات حوار البلدان العربية المتحررة ... وتمثل هذا الاتجاه **بالشهابية** ». « ان الشهابية ، كتيار برجوازي، بسعيها لاقامة

دولة برجوازية ، تعبر عن مصالح البرجوازية كطبقة ، عملت على إنشاء جهاز دولة عصري ، الا أنها لم تمس المواقع الاساسية للبرجوازية الوسيطة . واتجهت نحو تطويق المد الشعبي والحد من تأثير القوى التقدمية فلم تستطع بالتالي الحفاظ على مقاليد السلطة » ...

تلك هي « سمات وخصائص تطور لبنان » كما يراها الرفاق اللبنانيون ويرونها جيداً .

وفيما يلي ملاحظاتنا :

أولاً : لقد خرج الرفاق اللبنانيون عن تقليد سابق في عرض تطور «المنطقة» وكأنه تطور ينقل المجتمع من « النظام الاقطاعي » الى « النظام البرجوازي » في صراع بين التشكيلات الاجتماعية ، تطور مسحوب من تاريخ فرنسا أو من « النموذج » التطوري لنظرية « المادية التاريخية » العامة . وهذا شيء ممتاز .

ان الرفاق اللبنانيين يعتبرون النظام اللبناني التقليدي نظاماً اقطاعياً . ولكنهم لا يلبثون ان يسجلوا صفاته الخاصة ، الشرقية : فهو ذو طابع عسكري ، والشكل الرئيسي للاستثمار الاقطاعي هو جباية الضرائب لصالح الباب العالي ، أي لصالح الدولة . وهذا يقرب تشخيصهم لهذه الاقطاعية اللبنانية ،الشرقية العثمانية العسكرية الضرائبية ، من مفهوم الاسلوب «الآسيوي» لماركس .ونأمل ان يعمد الحزب الشيوعي اللبناني الى دراسة تعاليم ماركس وانجلز حول هذا الاسلوب ، أي نصوص ماركس وانجلز وملاحظاتهما حول الهند والصين والعرب والدولة العثمانية الخ اذ من غير الممكن ان نفهم خلفيتنا التاريخية بدون هذه التعاليم الواضحة الصريحة التي تضع حداً لانفلات اللاهوت الطبقي المسمى « مادية جدلية وتاريخية » !

وبالطبع ، نحن لا نخطىء رفاقنا اللبنانيين حين يستخدمون لفظ «الاقطاعية» في وصف لبنان المماليك والعثمانيين وبالأحرى لبنان القرن التاسع عشر. فلئن كان

من المستحيل ان نفهم تاريخ العرب وتاريخ لبنان ، مع نبذ مفهوم الاسلوب « الآسيوي » أو « الشرقي »والركود الشرقي والانحطاط الشرقي ، فمن المستحيل ايضاً ان نفهم تاريخ العرب وبالأحرى تاريخ لبنان بالذات ، مع نبذ مفهوم التشكيل الاقتصادي – الاجتماعي « الاقطاعي » ، كتشكيل نعتقد أنه غالب في ظروف لبنان التاريخية والجغرافية . منابع هذه الاقطاعية اللبنانية متنوعة – عسكرية ، ظروف الدفاع عن « الجماعة » ، جباية الضرائب و « اقطاع الاقطاعات » لهذا الغرض ... – ولكنها شيء أكيد ووارد . لا تحمل في قلبها اقتصاداً سلعياً ، وبذور برجوازية (الا بشكل محدود) كما في أوروبا النصف الثاني من العصر الوسيط ، ولكنها مع ذلك اقطاعية : ملكية خاصة وقنانة وسخرة أو ما يشبه ذلك . ونرى في عاميات انطلياس ولحفد (١٨٢٠، ١٨٢١) وحركة طانيوس شاهين (في منتصف القرن) اثباتاً على وجود وهيمنة هذه « الاقطاعية » كتشكيل اقتصادي – اجتماعي (تماماً كما في ثورات رازين وبوغاتشف وانتفاضات الفلاحين الروس الجبارة ، رغم وجود المشاعية الروسية[١]) . غير ان هناك نقطة يجب ان يطرقها الرفاق اللبنانيون ، بصدد هذه الخلفية التاريخية .

ان تشخيص الرفاق لمجتمع لبنان في طور ما قبل التسلل والاقتحام والتأثير الاستعماري يبدو وكأنه = الاقطاعية + الاسلوب « الآسيوي » ، أو بتعبير آخر : الاقطاعية + السمات الشرقية الخاصة (الطابع العسكري ، الأساس الضرائبي ، سلطة الدولة الاستبدادية) . وهذا تشخيص عام يصح بأشكال ودرجات شتى على بقاع كثيرة من عالم « الشرق » ، على الصين ، على أجزاء من الهند ، على مناطق أخرى من الشرق الأدنى) .

مع ان هناك سمة أخرى في تطور لبنان ، سمة خاصة أو خاصة إلى حد كبير ، هي الطائفية ككيان .

---

(١) مع الفارق : وجود وأهمية الحرفيين في الانتفاضات اللبنانية .

على طول الخط ، عند الرفاق اللبنانيين، وعند سواهم من ماركسيي لبنان، الطائفية تظهر كنزعة ، كنزعة بغيضة تعرقل الصراع الطبقي والكفاح الوطني والتقدم والثورة الخ ، وكنزعة شجعها وخلقها الاستعمار ...

وفعلاً ، الطائفية نزعة بغيضة ، وفعلاً الاستعمار شجع وخلق هذه النزعة . ولكنها أكثر من نزعة ! وهي شيء آخر ، موضوعي ، في الموضوع ، قبل ان يكون في العواطف والعقول. وهذا الشيء الآخر ، الاستعمار ساهم في تكوينه ، دفعه الى تبلوره الأخير والكامل ولكنه موجود في أحد جوانبه وبذوره قبل التسلل الاستعماري الغربي ، بل وجزئياً قبل زمن العثمانيين ..

الطائفية (ونفضل لو أن هنـاك لفظاً آخر ، لأن هذا اللفظ يوحي فوراً بالنزعة، فلنستعمل اذن كلمة « الطوائف ») الطوائف، كيان موضوعي تاريخي ، كيان اجتماعي – مذهبي ، ديني – سياسي – اقتصادي ، تاريخي ، يبدأ تكوّنه في عصور الحكم العربي الاسلامي والحروب الصليبية والمماليك ويتقدم في زمن العثمانيين والتدهور العثماني، ويتبلور في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، تحت تأثير الاستعمار والاقتصاد الحديث، ويبقى بتطوره جزءاً من التكوين الكولونيالي الاقطاعي الكومبرادوري للبنان المعاصر . لبنـــان التاريخي السابق للحركة الحديثة (الاستعمار ، النهضة ، ..) كيانٌ اقطاعي شرقي – طائفي . ولبنان الجديد كيان رأسمالي كومبرا دوري كولونيالي اقطاعي طائفي .

وهذا يدفعنا مرة أخرى إلى دعوة الرفاق اللبنانيين لدراسة نصوص ماركس وانجلز عن الشرق. عالم الشرق الكبير الواقعي لا ينحلّ في مقولة: الاسلوب « الآسيوي » الماركسية (أو اذا شئتم في مقولة من طراز « الاقطاعية الشرقية ، البطريكية ، القروية – الاستبدادية – العسكرية – الضرائبية » . هذا الوصف « الآسيوي » للشرق ليس عند ماركس وانجلز سوى هيكل تجريدي أساسي « عام » – عام المجتمعات التي يشملها فعلا – . ولكنه في كل مجتمع من هذه المجتمعات ، يتلون بألوان خاصة ، محلية ، قطرية ، « قومية » ، طبقاً لمنطقه ذاته . في الهند : + نظام « الطبقات » أو « الطوائف » الهندي castes + تبعثر قومي لا مثيل له

(تبعثر قومي – لغوي – عرقي – سلالي ، بالاضافـــة إلى « تناثر » القرى الشرقي) . في الصين : لا نظام « طبقات » هندي ، ولا تبعثر قومي – لغوي (اللغة الصينية وشعب هان) .

في الشرق الادنى القديم ، يلاحظ انجلز أن الانعزال بين الطوائف الدينية كان من أهم أسباب الضعف والسقوط تحت هجوم رومـا . والطوائف ليست فقط ايماناً دينياً منفعلا ومستقلا عن الحيـاة اليومية ، بل هي ايمان ديني يطبع الحياة اليومية بما فيها الطعام والشراب ، بله النشاط الاقتصادي !

تاريخ العرب بعد الفتح الاسلامي (بما فيه تاريخ تكوّن الأمة العربية بحركة الاستعراب التاريخية المديدة) يجب أن يُدرَس من هذه الزاوية أيضاً . لا سيما وانها – كما ترون – زاوية ماركسية (شغلت بعض الشيء قـــادة البروليتاريا الاوروبية ، ومؤسسي الماركسية ، لأن الماركسية هي للعالم اجمع ، لتغيير العالم أجمع) . حين يعرض مؤرخونا العرب تاريخ الفتوح والامجـاد والدولة العظيمة وصراع العرب والفرس وتاريخ السلالات العربية و « الجنس العربي » الخ الخ ، وصولاً إلى التجزؤ السياسي والتنـــاثر السياسي والدول والدويلات والمماليك والعثمانيين ، فانهم يعملون عملا مفيداً ، بقدر ما يتقيدون بالوقائع . انهم يعرضون الوقائع ، قسماً منها . ولكن هـذا لا يكفي . وحين يضيف أحد الماركسيين دراسة عن بابك أو ثورة الزنج أو القرامطة ، فانه هو أيضاً يعمل عملا مفيداً ، اذا كان يتقيد بالوقائع ، إذا لم يكن جاهلا للتاريخ العربي وللماركسية ، وإذا لم يكن « تحليله » « سحباً » لجان هوس على بابك ولحرب الفلاحين الالمان على حركة القرامطة [١] . وحين يدرس مؤرخ آخر تاريخ الاقتصاد والتجـــارة العربية ، فهو أيضاً يعمل عملاً مفيداً ، بقدر مـــا يغطي فعلاً موضوعه متقيداً بالوقائع محاولاً النفوذ إلى النظام الاقتصادي .

ولكن مـــن الضروري أيضاً أن ندرس ، الأديان والمذاهب ، الطوائف ،

---

(١) بالطبع جان هوس ، حرب الفلاحين الألمان ... اشياء سمع بهـــا ماركسينا الجاهل من بعيد .

مسألة « الأمة الاسلامية » وأهل الذمّة ، سياسة التسامح وموجات التعصب لدي « الخلفـاء » والحكام . ولنذكر ، في صميم مفهوم الاسلوب الأسيوي والركود الشرقي الماركسي ، انه ، كمفهوم ماركسي دينـاميكي ، يميز تاريخ « الشرق » وتاريخ « الغرب » ، ويقوم بهذا التمييز على الأساس الآتي : التاريخ (التطور ، التغيير ، الصراع ، الديناميكية ، التعاقب) هو ، في « الغرب » ، بصورة رئيسية واساسية ومحورية ، تاريخ التشكيل الاقتصادي – الاجتماعي ، تراجع وسقوط اسلوب ، ونشوء وانتصار اسلوب انتاج . التاريخ في « الشرق » هو بصورة رئيسية تاريخ أديان ومذاهب ، وشعوب ، وسلالات حاكمة ، ودول ، تاريخ سياسي – حضاري – ديني ، (بالطبع على أساس أسلوب الانتاج ، أسلوب الانتاج الذي « ليس له تاريخ » ، ليس له تغير ، حسب وصف ماركس للهند ، بـل حسب وصف ماوتسي تونغ للمجتمع الصيني الاقطاعي « الذي بقي على حاله خلال ثلاثة آلاف عام » ، رغم مئات الثورات والانتفاضات الفلاحية التي كانت تؤدي إلى استبدال اسرة حاكمة باسرة حاكمة أخرى) . وقد يختلف وضع العرب التاريخي عن الهند والصين إلى حد لا بأس به . وقد سجّلنا انه في تاريخ العرب هناك ظاهرة تاريخية بارزة : تكوّن الأمة الحديثة خلال قرون وقرون ، ذوبان شعوب قريبة (وعناصر غير قريبة) في بوتقة الأمة العربية ، على اساس البيئة وتحت جناح اللغة القومية .

والدولة العثمانية دولة الملل : ملة الاســلام (والشيعة هراطقة مرتدون ، متروكون وشأنهم طالما أنهم بعيدون عن مركز الخلافة ، في لبنان أو العراق أو سوريا ، وطالما أنهم يسددون الضريبة ، ولكنهم في العراق موضع شبهة ، عند تخوم دولة الفرس الشيعية) ، وملـّة الروم (شعوب البلقان ، و« روم » ارثوذكس سوريا ...) ، وعدد من الملل . الدولة العثمانية ليست فقط دولة السلطان والصدر الاعظم والولاة – الجباة والجنـد الانكشاري ، بل هي في تكوينها السياسي – الاجتماعي – الاقتصادي دولة الملل . قـادة الملل (رجال الدين ، شيوخ – زعماء طوائف الشيعة وغلاة الشيعة ، البطاركة ومن تحتهم الـخ) مسؤولون عن رعاياهم . كل راع مسؤول عـن رعيته في تنظيم متسلسل .

والسلطان – الخليفة ، الرئيس الاوحـــد للدولة الاستبدادية الشرقية السنية الكبيرة (ونائبه الصدر الأعظم) هو راعي الرعاة ، والى جانبه في البروتوكول شيخ الإسلام مفتي الحنفية الأكبر ، ونقيب أشراف العاصمة ، وبطريرك الفنار .
وهذا الطابع يطبع المجتمع العربي العثماني من فوق إلى تحت ، ولا سيما في الولايات الموجودة تحت السلطة العثمانية الأحادية ، أي في بـــلاد الشام (والعراق) .
الاقتصاد ، المجتمع السوري ، ليس فقط محكوماً بانغلاق الاقتصاد الطبيعي ، بل ايضاً بانغلاق الطوائف . الطوائف تتجمع في مناطق ، في اقاليم للطوائف ، تتبلور « نهائياً » بعد سلسلة تحركات وتنقلات الحقبة السابقة (من زمن العباسيين و « المردة »والفاطميين و « الدروز » والصليبيين وسقوطهم) كما يلي: الموارنة في جبل كسروان ، العلويون في « جبال العلويين » وامتدادها نحو الشمال ، الدروز في « جبل الدروز » وفي جنوبي كسروان ونحو الشرق ، الشيعة المتاولة في سهل البقاع ،الاسماعيليون شرقي حماة وفي جبل مصياف ، النصارى في«وادي النصارى».
المدن تبقى ميدان أهل السنة وبعض ملة « الروم » . أكـــثر أرياف الداخل والبادية ، ميدان أهل السنة ، السكان المسلمين الذين بين البداوة والزراعة في زمن يسوده تدهور انتاجي مخيف . واذا نزحنـــا بعض الشيء عن ميدان الجماعات الدينية إلى ميدان الجماعات السلالية وشبه القومية ، اضفنا ما يلي : الاكراد في جبل الاكراد (كرد ضاغ) ، والاكراد السائرون في طريق الاستعراب في جبل اكراد اللاذقية ، وفي جبال عكار ، التركمان في منطقة التركمان شمالي اللاذقية .
هذا التبلور الطائفي – الاقليمي وشبه القومي – الاقليمي عائق كبير في طريق الاندماج الاجتماعي – الاقتصادي للامـة ، التي تتقدم رغم هذا العائق . حتى زمن حديث ، موارنة لبنان يتكلمون السريانية أو السريانية والعربية . بعـــد قليل هم الذين يحملون لواء اللغة العربية والأمة العربية . والسريانية ، في الطباعة تبشر بالعربية . ولكن العائق يبقى عائقاً في طريق الاندماج الاقتصادي – الاجتماعي . ليس فقط ان القرية والقرية متباعدتان (اقتصادياً واجتماعياً رغـم التجاوز الجغرافي) ومعزولتان عن المدينة ، بل بالاضافة إلى ذلك القرية العلوية

والقرية المسيحية والقرية الاسماعيلية ... متباعدة (اقتصادياً – اجتماعياً ، حتى إذا كانت متلاصقة جغرافياً) بشكل مضاعف في ظل نظام الملك الذي يحكم البلاد واقاليمها .

التوزع الطائفي – الاقليمي واضح على امتداد القسم الغربي من بلاد الشام (من كيليكيا حتى شمال فلسطين) . هذا وضع شرقي يبدأ وصفه أو تعليله من الاطار الجغرافي – سلاسل جبال الشام الغربية ومـا بينها وما حولها – وصولاً إلى الحلقة التاريخية الأخيرة – العهد العثماني – .

وفي هذا الاطار السوري الكبير ، وضعُ لبنان متمايز : أولاً ، لقد أصاب التدهور الانتاجي والبشري للقرون العثمانية سوريا الداخليـــة بشكل خاص . وثانيـاً ، بعد قضـاء العثمانيـين على ثورات دمشق وحلب الأولى واقتلاع المماليك من المدن السورية الداخلية وتصفية آخر مظاهر الاستقلال السياسي المحلي ، أصبح لبنان مركز الصراعـــات ، مركز التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري للاقاليم العربية العثمانية . لبنان متقدم على دمشق وحَلب ومتقدّم على المنطقة الواقعة شماله . وعلى هـذا الاساس يمكن القول: في القسم الأكبر من العهد العثماني،منذ منتصف القرن السادس عشر حتى النهاية تقريباً ، هناك تمايز وفرق كبـــير بين لبنان وبقية سوريا . مدينتا حلب (مركز التجـارة) ودمشق (طريق الحج) في قبضة العثمانيين المُحكمة،الأرياف الداخلية في تدهور قاتل،ومنطقة جبال العلويين والاسكندرون على الهامش . لبنان مركز السياسة والامراء ومطامعهم ومحاولاتهم لتأسيس دولة ، والاتصال مع الغرب ، والتطورات الحديثة ، و .... الطوائف .

وبينما تتمركز سوريا الداخلية والساحلية أكثر فأكثر عـلى المدن (في زمن تداعي الأرياف وتقدم البادية) ، لبنـان يتمركز على الجبال ، في وقت انحدر فيه مرفأ بيروت إلى ما يقرب من لا شيء . التجمع السكاني الكبير في جبـــال كسروان والشوف وسهل البقـــاع . وطرابلس المركز السياسي والتجاري ، وتاريخها مع « سوريا » (فهي « طرابلس الشام ») . والسكان في « لبنان »،

بخلاف سوريا الداخل والساحل ، طوائف كبيرة ، اقليـات كبيرة : موارنة ، شيعة ، دروز ، سنة ، روم . و « جبل لبنـان » هو بالدرجـة الاولى منطقة الموارنة في الشمال والوسط والدروز في الجنوب ، مع تجمعات محدودة من طوائف اخرى . سهل البقـاع وتلال وسهول الجنوب للشيعة . مدن طرابلس وصيدا وبيروت للسنة (وبعض الروم) . « اليد العليا » في المنطقة للدروز ، للعائلات الدرزية ، وللموارنة . بعض الامراء (من المعنيين ثم الشهابيين) يتقدمون نحو الاستقلال عن الباب العالي ، ينشّطون التجارة ، يتوسعون في الجوار ، ينالون لقب « امير عربستان » ، يشجّعون التعليم ، يسعون إلى تخطي الاطار الطائفي وتكوين دولة حديثة ، يستخدمون اساليب حديثة وقديمة للوصول إلى دولة حديثة واحدة . عبثاً – فالعثمانيون أقوى . والدولة الحديثـــة البرجوازية تتعارض مع كيان الطوائف ، وتحتاج إلى مرتكزات اخرى. والعائلات الحاكمة تواصل صراع القيسية واليمنية ، عرب الشمال وعرب الجنوب .

الموارنة هم الجماعة الأكثر تعرضاً للاضطهاد ، تاريخهم الديني معقد وواضح . أصلهم (الديني) شبيه بالسريان والكنائس غير الخلقيدونية عموماً (سريان ، اقباط ، ارمن) ، المنفصلة عن بيزنطية وروما ، أي عما اصبح الشطر الرئيسي الاوروبي – في المسيحية [1] غير انهم ، بعد قرون من ذلك ، وسعياً وراء الحماية مالوا نحو الكرسي البابوي ، اتصلوا ببلاط فرنسا ، ثم تبنوا العقيدة المسيحية العامة في شكلها الكاثوليكي ، وحافظوا على « الجماعة » وعززوها ، انهم معرضون للاضطهاد لا سيما وانهم ليسوا من « ملة الروم » التي تحميها روسيا كاترين ونقولا واسكندر . ١٨٦٠ : شاهد أخير دامٍ (يصيب المسيحيين الآخرين ، في المدن) .

---

(١) أما « الروم » (الروم الارتوذكس) فهم المسيحيون الذين بقوا على الولاء الديني لعقيدة روما وبيزنطية (وعلى وجه التحديد ، بعد الانشقاق في المسيحية الاوروبية بين شرق وغرب، للشرق ، لروما الثانية اي بيزنطية) ، بخلاف السريان « السوريين ». وبالطبع ليس لطائفـــة « الروم » العرب علاقة ما عرقية أو قومية أو لغوية « باليونان » الا بقدر ما يفسح الاشتراك في العقيدة مجالاً لتصاهر (أي لتزاوج) ظل محدوداً .

منذ قرنين ، زعماء الجماعة الفكريون والروحيون ، يصنعون الأسطورة التي هي ككل أسطورة (بالمعنى الأدبي) في جوار الواقع ، قريبة منه ومخالفة له : الجبل والبحر ، نواقيس الكنائس وسفن الغرب .

في ١٨٢٠ وبعدها ، هذه الاسطورة الاجتماعية الانعزالية المتعارضة مع العصر العالمي ومع متطلبات المنطقة والتطور التاريخي ، تصاب بضربة قاسية : عامية لحفد وعامية انطلياس واخيراً حركة طانيوس شاهين الجبارة : الشعب ، الفلاحون الفقراء ومعهم الاكليروس الأدنى ، ضد الاقطاعيين والاكليروس الأعلى ، مع محاولة واضحة ، عظيمة ، لتجاوز إطار الجماعة الدينية ، لتعبئة شعب الجماعات الأخرى (الدروز ، ...) ضد مستغليهم ، ضد اقطاعييهم واكليروسهم[٢] .

وحملة ابراهيم باشا التي ساندها الأمير بشير الشهابي ، الاقطاعي - الاستبدادي - الحديث ، وجهت ضربة ثانية لكيان الطوائف الشرقي ، دولة حديثة ، ضرائب حديثة ، جيش حديث مع انضباط لا طائفي ، وعلمانية (واعتماد على المسيحيين ، وقمع تمردات جبال النصيرية بجنود من اقاليم أخرى وهيمنة من على شغب الزعماء الدروز) ، ولكنها في الأخير ، سقطت أمام الطوائف وكيانها ، المتخذ من قبل أسياد العالم الانكليز والآخرين رأسَ حربة وقوةَ صدام محلية ضد التقدم الكبير ، ضد الفرصة الأخيرة للعرب قبيل ساعة السقوط . في كنيسة مار الياس بانطلياس ، يقسم زعماء الموارنة والدروز والشيعة والسنة يمين الوحدة « الشعبية » و « الديموقراطية » ضد الاستبداد المصري ، ومن ورائهم رسول بريطانيا السير رتشارد وود ، القادم قبل عامين من

---

(٢) دون جدوى . الدروز كانوا متأخرين من حيث التطور الاجتماعي وصراع الطبقات . ولا ريب ان زعماء الموارنة الماديين والروحيين عززوا الاسطورة بعد المجزرة . الصراع الطبقي، العاميات ... تظهر في الاسطورة كعامل تقسيم خدم اعداء الجماعة التقليديين ، في هذا الصراع الآخر للقرن التاسع عشر ، الذي ليس صراع طبقات داخل الجماعات الدينية ، بل صراع الجماعات الدينية ، أي صراع طبقاتها القائدة .

الاستانة ، والذي قام سابقاً بمهمـــة في كردستان ، و « خبير لغات وسياسات الشرق الادنى » (وقد صيغ بيان الثورة على المصريين بلغة ١٧٨٩ ، ويعتقد انه كان مع الثوار اثنان من الفرنسيين كانا على ما يعتقد على خلاف مع حكومتهم) . لقد سقطت الدولة العربية في سوريا ، تحت انذار بريطانيا و « الدول » (جميع الدول بما فيها روسيا التي كانت قبل نصف قرن مع علي بك الكبير زعيم مصر المملوكي ضد الاستانة والانكلـــيز ، وباستثناء فرنسا الملك لوي – فيليب التي كانت «مع» مصر والتي تراجعت أمام تهديد الانكليز والالمان ، ولعلها هي أيضاً لم تكن اصلا مع مصر في حكم سوريا). تحت ضربة حلف« الدول » العالميـــة وخليفة الاسلام وزعماء الطوائف اللبنانية والسورية ، بما فيهم زعماء الموارنة الذين في هذه الحالة داسوا على عواطفهم الفرنسية (كما يدوسون في الستينات من هذا القرن على عواطفهم الفرنسية والديغولية عندما « تحز الحزوزية ») .

والأرجح ان« الشعب » الماروني – والأرجح الشعب المسيّس تقدمياً وثورياً بالعاميات السابقة ومرشديه الثوريين الحقيقيين – قد سار (مثل « شعب » بقية الطوائف) مع الثورة ضد المصريين والامير بشير . لعل سليلي العاميات الأولى تصوروا ان هذا هو الطريق الضروري والممكن ، في مرحلة لاحقة ، سيضربون الاقطاعية والزعماء . وفعلاً تأتي ثورة طانيوس شاهين ثورة شعبية جبـــارة . والاخيرة ! الحربُ الأهلية الدينية على الأبواب . وأشباحها التي تسكن الموارنة والمسيحيين. وحماية الدول. جيل المفكرين العظام يقاوم هذا المدّ الطائفي الحديث : اللغة العربية ، النهضة ، الحرية ، المساواة ، الاخاء ، الوطن ... وفي الوقت نفسه ، يتواصل نشاط الارساليات ، والدول ، والتسلل الاقتصادي ، وتصارع الدول وراء الطوائف (لم تبق « طائـــفة » الا وكانت « موضوعاً » لدولة . الانكليز ، بعد الدروز ، يتوجهون نحو اشراف مكة ونحو « الاسلام » . حتى الطائفة الاسماعيلية ، الهامشية في منطقة ما من وسط سوريا ، كانت في تلك الأيام على ما يبدو « موضوعاً » فكرت به امبراطورية النمسا – المجر !).

وفي زمن الفتح العسكري الفرنسي وسقوط ملكية فيصل ، والانتـــداب

الطويل والحركة الوطنية المديدة، تختلف المواقف السياسية تبعاً لأوضاع البرجوازية القائمة، وطبيعتها – وسيطة، كومبرادورية، أو انتاجية وطنية، وتبعاً للطوائف أيضاً. وتستمر وتتطور هذه الحالة وتتبدل جزئياً بعد الجلاء وفي زمن التغلغل والهيمنة الاميركية... الكومبرادور المسلمون، الاقطاعيون الشيعيون يتاجرون بالوطنية والعروبة والوحدة وعبد الناصر وفلسطين. يتاجرون « تجاوباً » مع « جمهورهم ». الكومبرادور المسيحيون – وهم اكثرية بين الكومبرادور وليسوا كل الكومبرادور – لا يتاجرون: لأنهم ليسوا في مقابل جمهورهم في وضع مشابه لاخوانهم المسلمين. التمايزات غير الطبقية، غير المنتمية إلى التشكيل الاقتصادي – الاجتماعي كتجريد علمي، باقية، تتراكب مع التمايزات الطبقية، وتتداخل وتتخالط معها. والقوى التقدمية الحقيقية، البروليتارية، الماركسية، في وضع غير بسيط وغير سهل. والتجاهل ليس حلاً.

في ١٩٤٣ – ١٩٤٧، بنى الحزب الشيوعي اللبناني قوة شعبية، عمالية وفلاحية وطلابية وبرجوازية صغيرة وبرجوازية، كبيرة. نبعت هذه القوة من النضال العالمي ضد الفاشستية وما حَمَلَهُ من معان كونية للبشرية جمعاء، من انتصار وطن الاشتراكية على الامبريالية الألمانية النازية، من التحول «اليساري» العالمي، من التطلع العالمي واللبناني والعربي إلى تغيير سياسي واجتماعي في اتجاه التقدم، من نمو الطبقة العاملة اللبنانية والعربية وحركة العمال اللبنانية والعربية. لسوء الحظ كان الوعي، الخط، البرنامج، قاصراً. قاصراً عن الثورة الديمقراطية وبخاصة الزراعية الفلاحية، قاصراً عن ربط الوطن بالعالم، القضية الوطنية بالنضال العالمي. قاصراً عن المسألة القومية وقضية فلسطين. وبهذا القصور، فاتت فرصة ثمينة، كانت أيضاً فرصة ثمينة في مضمار تذليل الطوائف وكيانها (لا سيما وان الحزب الشيوعي كان يضم اعضاء وأنصاراً أو قادة من جميع الطوائف أو تقريباً. وبالمقابل، فإن تفاوت قوته بين هذه الطوائف يكشف أيضاً جوانب القصور في الوعي). واليوم، ان وجود الحزب الشيوعي اللبناني (حتى المحدود المصحح، فرصة للبنان، فرصة لن تثمر ما لم يلق الحزب نظره على موضوع

الطوائف ، كأساس موضوعي لمحاربة النزعة الطائفية ودفنها في الثورة الاجتماعية والقومية العتيدة .

هذا ما نريد ان نقوله للرفاق اللبنانيين ، في ضوء قراءتنـــا لفصلهم اللبناني الأول (التاريخ) .

ان « الطوائف » جزء هام من خلفية لبنان التاريخية ، الاقطاعية – العثمانية – المحلية . أترى يتصورون ان هذا الجزء قد ذاب ، ذوبه التطور الحديث ، الذي هو في جملة اشياء (على الأقل) تطور استعماري وامبريالي ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فانه ليس فقط تشخيصهم للبنان خاطىء ، بل فهمهم الجوهري « للعصر » ، عصر الامبريالية وموجودات « عالمها » ، وهو أيضاً فهم فقير . وبالنسبة للبنان ، أفلا نعطي أي قيمة اجتماعية و « موضوعية » لخريطة « أحزاب » لبنان السياسي ؟ كتائب ، ونجادة ، وحلف ثلاثي و ...... ، بمـــا في ذلك أحزاب « عقائدية » ، بل وأحزاب تقدمية ، « تكمش » على طوائف ولا « تكمش » على طوائف أخرى؟ أم ان رفاقنا اللبنانيين يجدون في برلمان لبنان شبه الزائف نفس الاحزاب التي يراها لينين في برلمان القيصر وستوليبين الاكثر زيفاً : اقطاعيون واقطاعيون رأسماليون (مئة سود وأوكتوبريون) ، وبرجوازية ليبرالية (كاديت) ، وديمقراطية برجوازية – صغيرة (اشتراكيون – ثوريون ، شغيلييون ، شعبيون) وديمقراطية عمالية (حزب الماركسيين الروس ، بلاشفة ومناشفة) ؟

ونريد ان نتوقف قليلاً عند تحليل رفاقنا اللبنانيين لحملة ابراهيم باشا . ونريد أولاً أن ننقل هذا التحليل لقرائنا ، نظراً لصوابه واهميته :

يسجل الرفاق ان ضرب عامية لحفد ١٨٢١ قد « فكك الحركة الفلاحية ، فاستوجبت أعادة تجميع القوى مرحلة زمنية طويلة » ، ويتابع :

« وشهدت السنوات اللاحقة حملة ابراهيم باشا ضد السلطنة العثمانية ، التي تميزت بطموح البرجوازية المصرية الناشئة ، المتأثرة بافكار الثورة الفرنسية ، لخلق دولة ذات إطار قومي . وسعياً لكسب تأييد الاهالي ، حققت هذه الحملة إجراءات اصلاحية في الادارة والتعليم ، فلقيت تجاوباً لدى الفلاحين لكونها لبت بعض

مطالبهم وخففت من الضرائب والاعباء الملقاة على عاتقهم . كما أوجدت هـذه الاصلاحات مجالاً لدفع تطور الحِرَف ، لهذا تمسك الفلاحون بهذه المنجزات ، لكنها ، من جهة أخرى أسهمت بتمديد ركود الحركة الفلاحية الثورية .

وتصدّى لحكم ابراهيم باشا العثمانيون والاقطاعيون الناقمون الذين حدّ من نفوذهم ، وانكلترا صاحبة المطامع الاستعمارية في المنطقة والهادفة لمنع نشوء دولة حديثة وقوية في مصر ، وفرنسا ذات المصالح الناشئة المباشرة في لبنان وسوريا. واستلزمت مجابهة ابراهيم باشا لهذه القوى مجتمعة تعزيز جيشه وايجاد موارد له ، فلجأ إلى فرض التجنيد الاجباري والضرائب الجديدة والسخرة ، مما ألب الفلاحين على الحكم وأثار صداماً مباشراً معه .

وكانت احدى نتائج ازالة حـكم ابراهيم باشا إعادة مكانة الاقطاع السياسية وسلطته وتعزيزهما ، من خــلال نظام القائمقامين . فبرزت من جديد المواجهة المباشرة بين الاقطاع والفلاحين . واتسع تغلغل الدول الرأسماليـة وأسفر ذلك عن عرقلة تطور القطاعات الحرفية بسبب المزاحمة ، وتطور قطاع التجارة وما نجم عنه من نشوء فئات التجار والوسطاء ووكلاء الشركات الأوروبية » .

كم أن هذا التحليل يُبعدنا عن المقال « التاريخي » الذي نشرته جريــدة « النور » الدمشقية ،في أعقاب الوحدة (١٩٥٨)عن حملة ابراهيم باشا في سوريا! **الدول الاستعمارية هي التي طردت الحكم المصري من سوريا .أكبر حلف للدول الاستعمارية** (١) . جميع الدول الاستعمارية التقت على الدفاع عن « الرجــل المريض » العثماني ، ومنع قيام الدولة العربية القوميــة ، التي كانت أكبر فرصة لمنطقة من الشرق لتجنب السقوط ولانطلاقة برجوازية حديثة ، إذا كانت هناك

---

(١) اوسع حلف في تاريخ الاستعمار كله . ليس له الا شبيه واحــد : حملة الدول على ثورة البوكسر في الصين (١٩٠٠) . وفي المثال العربي ، لنتذكر ان سكان مصر وسوريا في ١٨٤٠ لم يكونوا أكثر من خمسة ملايين !

مع ضرب الوجود المصري في سوريا ، ظهر اول مشروع بريطاني جدي لتهويد فلسطين . في ١٨٦٠ ، نابوليون الثالث فكر ايضاً بذلك .

فرصة للتجنب والانطلاقة ، على نطاق العالم الآفرو - آسيوي كله ! و« الشعب » ، الشعب اللبناني أو السوري ، لم يكن الا أداة في الحلف الرجعي ، بقدر ما اشترك هذا الشعب في الثورة على المصريين (وقد اشترك) . والاعتقاد بانه كان من الممكن ان ينطلق ابراهيم باشا انطلاقته البرجوازية الحديثة في هذه المنطقة « الشرقية » بدون ضرائب جديدة وبدون سخرة وبدون تحالفات اقطاعية واساليب « شرقية » ، اعتقاد مثالي ، لا يقع فيه رفاقنا اللبنانيون .

ونحن لا نعارض قول الرفـاق اللبنانيين « ان حملة ابراهيم باشا ضد السلطنة العثمانية تميزت بطموح البرجوازية المصرية **الناشئة** لخلق دولة ذات اطار قومي » . نلاحظ فقط ان هذه البرجوازية الناشئة « ناشئة » **جداً** ، مجرّد ناشئة و**بدايـة** و**مشروع برجوازية** . بكلام آخر : نريد ان نحذّر من الاتجاه « الاقتصادي » في فهم الحوادث ، الاتجاه الذي يجعل نمو التشكيل الاقتصادي مقرراً للسياسة (في سير أحادي : من الاقتصاد ← الى ← السياسة) ، ويجعل الدولة الحديثة **محض** تعبير عن « الطبقة » و**نتيجة** لها ، ويجعل من محمد علي أو بطرس الأكبر أو اسكندر الثاني أو الميكادو أو بسمارك ناطقاً بلسان البرجوازيــة الناشئة وحسب . كلا ! حتى في تطور فرنسا الطويل ، كانت الدولة - الدولة الملكية الاقطاعية المتقدّمة وبقدر ما تتخطى الاقطاعية ، أي الدولة القومية ! - أكثر فعلاً وتأثيراً مما هو في التصور الدارج في صفوف الماركسيين . وبالاحرى في عالم الشرق ، في عصر الخطر الداهم ! هذا الخطر يُحِسّ به رجال ذوو عواطف ومطامح واطماع وأفكار ، مدنيون ، عسكريون ، ملوك ، نبلاء ، برجوازيون ، رجال دين ، مثقفون الخ ... في مصر ، في تونس ، في اليـابان ، في الصين ... فيندفعون بوعي لا بأس به (بوعي متقدّم على « الطبقات » ، وعلى البيئة) إلى تدارك الخطر ، وصياغة وتحقيق المطامع والاطماع . اليابانيون يحققون المعجزة . والعرب يكادون ويفشلون . يفشلون لأنهم ليسوا اليابان . اولاً من الناحية الجغرافية ، من ناحية الموقع الجغرافي ، المتوسط القريب من « اوروبا » سيدة الكون . وفي هذا العصر - المنعطف ، سبلُ النهوض « البرجوازي » العـالمي

تحت تأثير اوروبا وافكارها وتداركاً لاستعمارها واحتلالها بسبل متنوعة ، دولة حديثة « برجوازية » استبدادية شرقية قومية عربية ، ونهوض فكري برجوازي متنوع في لبنان ومصر الخ ، دون أن يكون ذلك كله ملازماً ومرافقاً لنمو وتبلور طبقة برجوازية وتشكيل اقتصادي ، ذاتي ، (بل كما قلنا ، بسبل شرقيـــة بغيضة ، ومع امراء ، وأشراف الخ) .

البرجوازية ، كطبقة حقيقية ، لا تلعب الدور التقدمي الجبّار الذي لعبته في تاريخ اوروبا ، لا سيما الغربية ، هذا الدور يلعبه أو يحاول أن يلعبه جمع متنوع ، واسع ومحدود ، يضم برجوازيين (أو ما يشبههم ، قسماً منهم وليس كلهم) ومفكرين وحكاماً وسياسيين وأسياداً ووجهاء وعسكريين ورجال دين ، والفكر « البرجوازي » والسياسة « البرجوازية » – بهـذا المعنى – تتخطيان الاقتصاد « البرجوازي » مأخوذاً بالمعنى الذاتي المحلي ، على أساس الرأسمالية العالمية وتناقضاتها ومسألة الاستقلال ، والسيادة التي تحرّك ، في المفاصل التاريخية الكبرى ، جماهير الشعب (كما في مصر اوائل القرن التـاسع عشر ، وفي مصر ١٨٨٢ ، وفي سوريا ١٩١٨ – ١٩٢١) .

علينا ان ندرس هذا المنعطف دراسة ماركسية صحيحة ، بعيداً عن أخطاء شائعة ، « اقتصادية » « دوغمائية » . البرنامج اللبنـاني على أبواب تلمّس هذا الموضوع تلمساً ماركسياً ، في فصله الثاني وفصله الثالث . ولكن منطق الفصل الأول ، إذا ما استمرّ ، فسيحول دون هـذا التلمس الماركسي ، سيلغمه سلفاً بـ « الاقتصادية » التي هي الدغمائية . وان احدى مآثر هــذا الفصل الثالث (بعد الفصل الثاني) – ادراك الرفاق اللبنانيين عـــدم وجود ظاهرة كفاح برجوازي (نقصد كفاح للبرجوازية اللبنانية كطبقة اجتماعية) ضد الاقطاعية . تلك ليست برجوازية !

وأخيراً ، لا نستطيع أن نوافق الرفاق اللبنانيين على كون هذه الصفحات

(٥٢ – ٥٦) التي تتحدث عن سير الحركة الوطنية ضد الانتداب الفرنسي وعن النازية والفاشست وعن مآثر الحزب الشيوعي اللبناني وعن اجهاض الاستقلال واستفحال حكم الطغمة المالية ، وحكم شمعون ، جاءت خالية من أي نظرة نقدية على تاريخ الحزب ، هذا الاغفال يترك جانباً أحد الاسباب الرئيسية الكامنة وراء سير التطوّر الذي هو من وجهة نظرنا المبدئية سير تطور الحركة الوطنية ، وسير الثورة في لبنان: تأخر الثورة، تأخر زعامة البروليتاريا، ضعف الحزب الشيوعي اللبناني ، وتدهور قوته ليس في ١٩٤٨ وحسب (وتحت عسف الحكام الرجعيين) ، بل **التدهور المتدرج الطويل لقوته في الطور اللاحق كله.** ان التقرير السياسي قد القى ضوءاً نقدياً على تاريخ الحزب بعد ١٩٤٤ ، ولكن هذا لا يبرّر إغفال هذا التاريخ كلياً في فصل تاريخي من البرنامج حرص على تسجيل بعض المآثر للحزب . ان هذا الموقف يترك خارج التحليل تاريخ الطبقة العاملة اللبنانية ، كوعي وتنظيم ، كسياسة .

٢ – الاقتصاد ، المجتمع ، الدولة ، برنامج الحزب .

بعد « سمات وخصائص تطوّر لبنان » ، ينتقل البرنامج إلى **تركب الاقتصاد اللبناني** (الفصل الرابع ، ص ٥٧ – ٦٨) .

يسجّل ان **قطاع الخدمات** بات يشكل ثلثي الدخل الوطني . ويبيّن أسباب هذه الحالة اللبنانية التي تكاد تكون فريدة في العالم والتي تمثل وضعاً اقتصادياً غير سليم : الظروف التاريخية التي رافقت نشأة الرأسمالية وتطورها في لبنان ،تراكمات الحرب، أموال المغتربين ، كارثة فلسطين ،التحولات الاجتماعية في المنطقة وتدفق رؤوس الأموال إلى لبنان ، وتوجّه هذه الرساميل إلى قطاع قطاع الخدمات السريع الربح . ثم يفند مزاعم « الاقتصاد الحر » و «الازدهار» اللبناني والمعجزة اللبنانية ، منوّها بالازمة الاقتصادية وارتفاع أكلاف المعيشة وتردّي أحوال الفئات الكادحة وأعداد متزايدة من الفئات المتوسطة وخراب

جماهير الفلاحين . وينوّه بانعدام التكامل الاقتصادي لبنان والدول العربية .

ثم ينتقل إلى الزراعة . فيبيّن أهميتها السكانية ، ويحلل نشوء الملكية الكبرى (هبات من السلطان ، الاستيلاء بالقوة ، الشراء في أوقات الحروب والأزمات) وانتقالها من أسلوب الاستثمار شبه الاقطاعي إلى أسلوب الاستثمار الاقطاعي الرأسمالي السائد حالياً في معظم الأراضي المروية والخصبة . ويسجل ان «شغيلة الزراعة هم أكثر فئات المجتمع اللبناني حرماناً من الحقوق . فالعمال الزراعيون استثنوا من قانون العمل ، وليس لهم حدّ أدنى للأجور . ويدعو إلى « القضاء على احتكار الملكية الكبرى للارض ، وذلك بـ «إجراء اصلاح زراعي جذري» ، و« تصفية بقايا الاقطاعية والملكيات الكبرى وجعل الأرض ملكا لمن يعمل عليها ». ثم يحدّد « جملة من المطالب الآنية » : رفع مستوى الريف معاشياً وصحياً وثقافياً ، تحديد حد أدنى لاجور العمال الزراعيين ، سن تشريع خاص يحدّد شروط إيراد الأرض ويصون حقوق المحاصصين والمستأجرين ، إنقاذ المزارعين من نهب المرابين والبنوك ، وضع برنامج لاستصلاح جميع الاراضي ، تأمين استيراد الاسمدة الكيماوية والأدوية الزراعية ، الانضمام إلى السوق العربية المشتركة وتوسيع التجارة مع البلدان الاشتراكية ، ضم احتكار التبغ إلى القطاع العام ... أما الاصلاح الزراعي الذي يدعو اليه الحزب : مصادرة ما يملكه الرأسمال الأجنبي ، تعيين حدّ أعلى للملكية ، توزيع الأراضي المصادرة على الفلاحين المحرومين من الأرض أو الذين يملكون القليل منها ، تطبيق الاصلاح الزراعي بمساهمة جماهير الفلاحين والعمال الزراعيين بواسطة لجانهم المنتجة ، مدّ المزارعين المالكين الجدد بالقروض والبذار ، وتشجيع التعاون . .

ويخصص البرنامج الفصل الخامس لـ« التركيب الاجتماعي في لبنان »(ص ٦٩– ٨٥) . حيث يميز في المجتمع اللبناني عدداً من الطبقات والمراتب والجماعات السكانية ، يدرسها تحت العناوين الفرعية الآتية : البرجوازية الوسيطة (الطغمة المالية وكبار المستوردين) ، البرجوازية المرتبطة بالانتاج الوطني (مع تأكيد أهمية السابقة) ، الطبقة العاملة ، الفئات المتوسطة في المدينة . وصولا إلى الطبقات

والفئات في الريف ، وهي : الاقطاعيون وكبار الملاكين ، الفلاحون الاغنياء (المزارعون) ، الفلاحون المتوسطون والميسورون ، الفلاحون الصغار ، الفلاحون الفقراء ، العمال الزراعيون . ثم ينتقل إلى المواضيع الآتية (ص ٧٨ – ٨٥) : المثقفون ، الطلاب ، الشبيبة ، النساء .

ويخصص الفصل السادس لـ « **طبيعة الدولة** » (ص ٨٦ – ٨٧) « أداة سيطرة سياسية للبرجوازية المتحالفة مع الاقطاع ، وبخاصة الطغمة المالية المرتبطة بالاحتكارات الامبريالية » – مفنّداً الدستور والنظام الضرائبي والسياسة الخارجية .

أما الفصل السابع والأخير عنوانه « **برنامج الحزب الشيوعي اللبنـــاني وطرق تحقيقه ووسائله** » (ص ٨٨ – ٩٦ ، مكتوبة بحرف كبير ، على خلاف الفصول السابقة) . ويقرر هـذا الفصل : « أصبح النظام الرأسمالي هو النظام الاجتماعي السائد في لبنــان . وبهذا تحدّد طريق التحويل الثوري المقبل في لبنان بأنه انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية » (ص ٨٨) . الأمر الذي لا يلغي مرحلة النضال الديموقراطي العـــام الهادف إلى تحقيق المهام الوطنية والديموقراطية ، « بإسقاط حكم الطغمة المالية » و « إقامة حكومة وطنية ديموقراطية .. مستندة إلى أوسع تحالف وطني ، باشتراك ممثلي الطبقة العـاملة وسائر الكادحين » ، وتحقق برنامجـــاً قوامه : تصفية الشركات الاحتكارية الأجنبية ، وتقليص مواقع الطغمة المالية باتجـــاه تصفيتها ، واجراء الاصلاح الزراعي ، وتقوية القطاع الصناعي وانشاء مؤسسات مختلطة ، إطلاق الحريات الديموقراطية ، تحقيق المطالب المعاشية والاجتماعية للطبقة العـــاملة والفئات الشعبية الأخرى ، تحقيق التنسيق والتكامل بين لبنان والدول العربية ، انتهاج سياسة خارجية مستقلة معادية للامبريالية ، سياسة تعاون وثيق مـــع الدول العربيـــة المتحررة ، تحصين القرى الأمامية وتسليح سكانها وتقرير التجنيد الاجباري ، توسيع التعاون بين لبنـــان والاتحاد السوفياتي وبلدان المنظومة الاشتراكية . هذا برنامج وطني ديموقراطي عام وليس برنامجاً اشتراكياً .

« الا ان الحزب الشيوعي ، اذ يأخذ بعين الاعتبار طبيعة البرجوازية المحلية... يرى ان هذه البرجوازية ليست فقط غير قادرة على قيادة مثل هــذا النضال الديموقراطي العام بل هي لا تريد كذلك تحقيقها بصورة تامة وجذرية لتكون اساساً لتطور لاحق باتجاه الاشتراكية » .

« لذلك يعمل الحزب الشيوعي لتهيئة الطبقة العاملة وكادحي المدينة والريف وسائر القوى الثورية الطامحة إلى الاشتراكية ، تنظيمياً وسياسياً ، ويقودهــا لتحقيق هذه المهام بصورة تامة وجذرية عن طريق تسلم السلطة ، وبذلك تتشابك مهام التحرر الوطني من الاستعمار الجديد بمهــام الثورة الاشتراكية وتصبح جزءاً منها » .

و « الحزب .. يعير أهمية بالغة لعمليّة توازن القوى الداخلية والعربيــة والدولية وللظروف الموضوعية والذاتية .. وهو يرفض الكلمة الثورية والميول اليسارية المغــامرة والنزعات الرومانطيقية . كما ... يفضح الميول التصفوية والذيلية والانتهازية اليمينية ، متمسكاً بموافقة الطبقية ، المبدئية » .

و « الحزب... يفضّل انتقال السلطة إلى أيدي البروليتاريا وحلفائها بالطريقة السلمية » ، ولكنه « يهيىء الطبقة العاملة وحلفاءها لكافة أشكال النضال ، بما في ذلك الرد على عنف الرجعية بالعنف لضمان انتصار الثورة الاشتراكية » .

تلك هي الفصول اللبنانيــة من برنامج الحزب ، الفصول التي تلي التمهيد التاريخي عن « سمات وخصائص تطور لبنان » .

وفيما يلي ملاحظاتنا الفرعية :

أولاً – بخصوص « تركيب الاقتصاد اللبناني » ، ان عبارة « انعدام التكامل الاقتصادي بين لبنان والدول العربية » يجب ان تدفع الرفاق اللبنانيين إلى أن يدرسوا أيضاً موضوع التكامل الاقتصادي فيما بين الدول العربية كاملاً . ليس

هذا التكامل بين مصر وسوريا والجزائر والعراق واليمن الخ في حالة جيدة .

ان مطلب دخول لبنان إلى السوق العربية المشتركة ، كأحد بنود البرنامج الوطني الديمقراطي للحزب والجبهة التي يدعو اليها (البند السابع) مطلب صحيح . ولكن لا يجوز أن نترك الأوهام « الاقتصادية » تتسلل إلى وعينا . على الماركسيين العرب أن يؤيدوا كل تقارب اقتصادي بين الدول العربية التقدمية ، وأن يعتبروا هذا العمل جزءاً من عمل توحيد العرب القومي . ولكن على الماركسيين ان يكتشفوا ويكشفوا سير التعمق الاقتصادي للتجزئة العربية في العصر الراهن ، بتحريك من آلية السوق العالمية الرأسمالية والاشتراكية أيضاً ، أي بتحريك من برامج التنمية في الأطر القطرية . ولذا بدلاً من «تحقيق التنسيق والتكامل الاقتصاديين بين لبنان والدول العربية بدخول السوق العربية المشتركة » (البند السابع من البرنامج الوطني الديمقراطي) ، نقترح صيغة « **المساعدة على** تحقيق ، المساعدة **على دفع** قضية التنسيق والتكامل ، **الحد من** تدهور التكامل ، بدخول السوق ... » .

انه موقف لا يمكن ان نقبله ، ماركسياً ، ذلك الموقف الذي يتصور أننا نحقق « الاقتصاد العربي الواحد » أولاً ثم « الوحدة السياسية العربية » ثانياً . هذا لن يكون ! « الاقتصاد العربي الواحد » يتطلب « الوحدة السياسية » . كل « اتحاد اقتصادي » أو « وحدة اقتصادية » على هذا الطريق ليست الا « وحدة اقتصادية جزئية ، عملاً واعياً وجزئياً ، شأنها شأن « الاتحاد الجمركي » الالماني تسوافراين Zollverein في الربع الثاني من القرن الماضي ، مع فرق بدرجة الفاعلية («الاتحاد الجمركي» الالماني كان أكثر فاعلية مما يمكن ان تكونه اتحادات مشابهة في الظرف العربي) . ان ترك الوحدة العربية لمستقبل التطور الاقتصادي « الموحد » بعد تصحيح هذا التطور الاقتصادي وحدوياً طوباوية جديدة ، « ماركسية » — « قومية » .

ثانياً : ان المأثرة الرئيسية في هذه الفصول اللبنانية هي تأكيد البرنامج للطابع الوسيط للبرجوازية اللبنانية : البرجوازية الوسيطة (الطغمة المالية

وكبار المسنوردين) أكبر شأنا بكثير . ولقد أصبح « النظام الرأسمالي هــو النظام الاجتماعي السائد في لبنان » ، منذ زمن غــير قصير ! النظام الرأسمالي الاجنبي والوسيط والوطني والزراعي . و « الاقطاعية » ليست الا بقايا حقيقية وجزئية وآخذة في الزوال والاختفاء ، الأمر الذي لا يلغي بأي حال مهـــام الثورة « البرجوازية » الديمقراطية ، الــتي ليست في ظروف الشرق تحويل الاقطاعية إلى رأسمالية ، أو اسقاط الاقطاعية لإقامة المجتمع البرجوازي ، بل هي مهام وطنية قومية ديموقراطية علمانية الخ (بما في ذلك تصفية بقايا الاقطاعية حين تكون موجودة ، وتصفية الملكية الرأسمالية الكبيرة للارض ، الأمر الذي يؤكد الارتباط التاريخي بين الثورتين الديموقراطية والاشتراكية) . والرفاق اللبنانيون محقون في وضع برنامج ديمقراطي وطني عـــام لجميع القوى الوطنية الديمقراطية ، ما داموا يؤكدون أن مهام التحرر الوطني والديموقراطي جزء من الثورة الاشتراكية . وحتى لو ألغينا البرجوازية الوطنية المحدودة والتافهة ، او ألغيناها كلياً من هذه الجبهة وهذه الثورة أو هذه المرحلة الأولى ، يجب ان نؤكد على وجود هذه المرحلة ، أي بتعبير آخر ان نضع للشعب اللبناني مهمة إسقاط الطغمة المالية وإقامة دولة ديمقراطية شعبية . **هي فاتحة الثورة الاشتراكية .**

هل يستطيع الحزب الشيوعي اللبناني ان يكون قائد هذه الجبهة الشعبية وممثلاً للبروليتاريا اللبنانية ؟ نعم ، اذا تمسك بالمواقف الصائبة وتابع نقده الذاتي إلى النهاية ، ووصل الى فهم ماركسي صحيح للعالم والعرب ولبنان ، أي اذا توفرت له شروط الحزب اللينيني ، كما عرضها لينين في الفصل الثاني من « اليسارية مرض الطفولة » .

ثالثاً - ان تقسيم المجتمع اللبنـاني إلى طبقات ، كما هو معروض في الفصل الخامس ، يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان هـذا التقسيم يعتمد فعلاً على دراسة احصائية (كتلك الدراسات الاحصائية التي قام بها باني البولشفية الروسية عن الاقتصاد الروسي والريف الروسي). حين نقرأ هذا التقسيم « للطبقات والفئات في الريف » (والذي يبدأ بالاقطاعيين ! هل هم في الريف ؟) ، لا نستطيع ان

نطرد فكرة تراودنا : كان بإمكاننا أن نضع التقسيم ذاته ونحن في اللاذقية أو باريس أو في موسكو ، عن « ريف لبنان » . ولكن هل هذا هو ريف لبنان ؟ لا ادري ! كلنا نعلم ان الرأسمالية والعلاقات البرجوازية الخ تخلق تمايزاً متزايداً بين الفلاحين إلى أغنياء ، ومتوسطين ، وصغار وفقراء وعمال . ولكن لا ادري ما إذا كان الأمر كذلك في زراعة انكلترا ونيوزيلندا والولايات المتحدة اليوم ؟ وفي لبنان ، حيث السكان الزراعيون نسبة كبيرة من السكان ؟ مـا هو دور الخاصّة اللبنانية الرئيسية (رأسمالية وسيطة . النمو المرَضَي لقطاع الخدمات) واثرها في هذا القطاع السكاني ووضعه الطبقي والاجتماعي ؟

رابعاً – من المستحيل ، في هذا العصر ، وفي لبنان ! ، الاكتفاء بتشخيص يقسم المجتمع إلى طبقات ، ولا يقدّم أرقاماً عن الدخل ، كما يتوزع على الطبقات الواقعية ، على الطبقات والقطاعات والأقاليم والمناطق وأقسام السكان .

من المعروف ان احدى السمات الرئيسية في حالة التخلف sous - dévelo-ppement هو التفاوت الكبير بين مردود (دخل ، ريع) العمل الزراعي ومردود العمل التجاري . الأول متدنٍ . الثاني مرتفع ، نسبياً . في سوريا مثلاً (وهي مثال جيد نسبياً) ، الفرق بين الأول والثاني هو ١/٢٫٧ . في تركيا، في بعض بلدان اميركا اللاتينية ، يصل هذا الفرق إلى ١/٥ أو ٦ أو ٧ . في نيوزيلندة ، في انكلترة ، الحالة مختلفة : تسَاوي ، واحياناً ميل بالاتجاه المعاكس ١٫٥/١ . ما هو وضع لبنان ؟

ثم كيف يتوزع الدخل القومي اللبناني بين مناطق لبنان ، وبين طوائف لبنان؟

من المعروف ان هذا السؤال يطرحه ويجيب عليه زعماء بعض الطوائف اللبنانية من رجعيين وتقدميين . ولعل الرفـاق اللبنانيين يتجنبونه خشية أن يفسحوا المجال لمصطادين بالماء العكر أو حتى لا يزيدوا الطين بلّة . انهم مخطئون . ليس من ماء مبارك يبدد هذا الماء العكر .خصوصاً الماء المبارك للتجاهل والتغافل . الماركسيون لا يمكن ان يكونوا ماركسيين وان يغمضوا عينيهم عن هذا الواقع.

لقد اصاب الرفاق البنانيون حين عرفوا طبيعة الاقتصاد اللبناني الحاضر ، وحين بيّنوا تضخّم قطاع الخدمات، وأسباب هذا التضخّم التاريخية – الاقتصادية

والسياسية الخ ، وأكثر هذا التضخّم في تخلخل الاقتصاد اللبناني والمجتمع اللبناني وفي احتمال وقوع أزمات تهدّد بالخراب تسعة أعشار سكانه ، فلاحين وعمالاً ومشتغلين في الخدمات ! ولكن هذا لا يكفي ، يجب المضي في طريق التحديد. يجب تقديم الارقام ، الجداول ، البيـانات الاحصائية – في البرنامج ، أو في شروحه ، على أن تساعد هذه الشروح في إحكام صياغة البرنامج من جديد .

خامساً – يبدو لنا أن لبنان نموذج مكثف عن العالم المعاصر ، نموذج يجمع تناقضي العصر ، يمثل تناقض العصر الرأسمالي الامبريالي في شكليه الكبيرين : التناقض الكلاسيكي للمجتمع البرجوازي (طبقة عاملة – برجوازية . وبيروت كمثال). وتناقض العالم المتخلف والعالم المتقدّم ، المنطقة المتخلفة والمنطقة المتقدمة ولو بتشوّه . وهذا الوضع يحمل معه ، **موضوعياً** ، احتمالات عظيمة للثورة (ولعكسها) ومسؤوليات كبيرة للوعي الماركسي .

ولقد وردت في برنامج الرفـــاق اللبنانيين ملاحظات جيدة عن المثقفين والطلاب والشبيبة والنساء، وملاحظات جيّدة عن المراتب البرجوازية – الصغيرة. هذا الجمهور الكبير من من الناس هو في غالبيته الساحقة مسحوق ، تحت وطأة « انخلاع » فريـــد . نقول انخلاع aliénation لاننا نري مكاناً لهذا المصطلح الماركسي الأول كما نراه في مدينة بيروت الكبرى وامتدادتها البشرية : جمهور من البشر يستقتل من أجـل الارتقاء المعاشي و « والاجتماعي » (السيارة ، السهرة الأسبوعية ومقتضياتها المادية ، وعمل متواصل خلال الأسبوع ، نفقات تعليم الأولاد ، وفضائح المستشفيات والأدوية ، وانغلاق أو محاولة حبس كبير عن تحولات العالم الكبير على يد أسياد « الدنيا » و « الدين » ...)

وعلى برنامج الحزب الشيوعي اللبناني ان يخصص ، لهذا الباب ذاته ، صفحتين للسوريين والفلسطيين في لبنان .

سادساً : هذا القسم يفتقر إلى الارقام. ما هو عدد طلاب الجامعات ؟ ما هو عدد الطبقة العاملة ؟

في وقت تجتاحنا فيه نظريات تقول بانحدار وزوال دور الطبقة العامـلة في

الثورة الاجتماعية (نظراً لحدود حجمها العددي ، ولتحسن أحوالها المعاشية) ، وبحلول الطلاب والشباب والثورة الطلابية محـلّ الطبقة العاملة ، يجب الردّ . والرد لا يكون بتكرار صيغ قديمة ، بَلْ باحكام نظرية الوعي اللينينية طبقاً لظروف العصر ، وصياغة الوعي الماركسي اللينيني لأوضاع لبنان .

موضوعياً ، ان لبنان مؤّهل أكثر من غيره ، لتحقيق زعامة **البروليتاريا**. القضية تتوقف على **الوعي** .

سابعاً : لقد أصاب الرفاق اللبنانيون حين ذكروا مبدأ **التجنيد الالزامي** في البرنامج الوطني الديمقراطي يجب أن يركزوا على هذه النقطة ، أن يبرزوها كضرورة للبنان وللمجتمع اللبناني وكيانه القومي ، وكشعار يكشف «المصالح» التي تتعارض مع هذا الكيان نفسه ، والتي تريد إبقاءه على وضعه الحالي : طوائف وامتيازات ، ونهب ، وفِئات تلقى من مائدة الأسياد على أقسام من الجمهور .

وعلى الرفاق اللبنانيين ان يعيروا انتباههم **لقضايا التعليم** : تجارة التعليم ، واتجاهاته القومية . قسم من المجتمع يتلقى تعليماً حكومياً متمحوراً على الوطن اللبناني وقليل العروبة ، وقسم آخر يتلقى تعليماً لبنانياً — غربياً - أجنبياً .

ثامناً : لسنا ندري ما اذا كان الرفاق اللبنانيون ، في نهاية مطاف فصولهم اللبنانية ، يتصورون أو لا إمكانية بناء « لبنان اشتراكي » . غير أن بعض جمل « حركة التحرر العربية » تدفعنا مرة أخرى إلى ان نحدد موقفنا هنا ايضاً : « لبنان اشتراكي » خرافة .

لا نعتقد أن بلداً من البلدان العربية — بما فيها مصر ، القطر العربي الأكبر والاكثر تلاحماً - يستطيع أن يصبح « اشتراكيـــاً » . وبالأحرى لبنان بلد الطوائف وقطاع الخدمات . بل لا نعتقد ان معضلات لبنان الخاصة التي يشكل حلـّها جزءاً كبيراً وخطيراً من الثورة الديمقراطية يمكن ان تجد حلهـا الكامل بدون وخارج وطن عربي موّحد واشتراكي ! « إن الدولة العربية القوميـــة الاشتراكية هي التي ستنجز حل هذه المعضلات ، لصالح البروليتاريا والطبقات الكادحة اللبنانية والعربية ، لصالح لبنان كإقليم وكقطر حقيقي ولصالح الوطن

العربي الكبير ، هي التي تستطيع أن «تأخذ» التطور اللبناني الحاصل خلال قرن ونصف بما فيه التخصص اللبناني ، مبقية ومطورة ومعدّلة (ومنمّية في بعض الأحيان) الجوانب المقبولة في هذا التخصص ،الجوانب التي تتفق فعلاً مع الاقتصاد الحديث ومع الحياة الحديثة (مرفأ بيروت ، السياحة ، الخبرات المصرفيّة ، أهمية بيروت في حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ....) .

ليس من الممكن إقامة « لبنان اشتراكي » ، وليس من الممكن انجاز مهام التحويل الديمقراطي والاجتماعي القومي الحديث للبنان ، ، الا في اطار مجتمع عربي اشتراكي موحّد ، غير انه هذا لا يمكن أن يفيد الماركسيين اللبنانيين ، وان يجعلهم في بيروت وطرابلس وكسروان والبقاع والجنوب يعملون أولاً « من أجل الوحدة العربية » ، أو ينتظرون قيام وحدة الدول العربية التقدمية ، حتى يناضلوا من أجل الانضمام اليها . كلا ! عملهم ، نشاطهم ، في لبنان ، ومهماتهم لبنانية ، بالدرجة الأولى . الكفاح – العمل الدائب المتدرج والانفجاري – ضد الطغمة المالية والامبريالية والضياع مهمة مباشرة ، يومية ، والطريق طويل ، طويل وهم الآن في بداية الطريق .

لا نعتقد أن مستقبل الوحدة العربية سيكون بانضمام « تبعي » لقطر من الاقطار إلى « الوحدة »، إلى « النموذج » ! أي وحدة هـــذه ؟ وأي نموذج ؟ الأحمق وحده (« قومياً » كان أو « ماركسياً » – اقتصادياً) هو الذي يتصور ان الوحدة معناها التماثل ، تذويب الفوارق ، التضحية بالخصائص الاقليميـة والقطرية ، لأن الصفة الاقليمية والقطريـة هي « عكس » القومية وان الصفة القومية تطرد خصائص الاقاليم والاقطار طرداً .

بل اكثر من ذلك . نعتقد ان لبنان المطهر من الطغمة المالية والامتهان الأجنبي ومخلفات القرون ، سيكون له دور فاعل وهائل في بناء الأمة العربية المنشود . ذلك لأن تلك القرون وهـذا القرن حملت معها صراعات متنوعة (طبقية ، دينية ، وطنية) كتلك الصراعات الاوروبية (بما فيها حروب الدين !) التي صنعت « اوروبا الحديثة » ، الديمقراطية ، العلمانية ، العلمية ،

المتقدمة . ولأن لبنان هو وطن البستاني واليازجي والريحاني وفصيلة من الرواد الخالدين ، الذين بدونهم يكون تكوننا الحديث ومستقبلنا شيئاً غير مفهوم . ولأن لبنان هو وطن العاميات الفلاحية ونضالات البروليتاريا الحديثة في الشرق العربي ، ولأن لبنان دفع وسيدفع ثمن مستقبله ومستقبل العرب ، من دماء أبنائه ولأن ماركسيي لبنان قادرون على أن يطرحوا المسائل ، كل المسائل « القديمة » والحديثة ، طرحاً كاملاً إلى نهاياتها .

تاسعاً – لقد نشأ لبنان ككيان راهن ، سياسي واجتماعي واقتصادي – خلال تطور تاريخي ، وبشكل ادق ، تكون على أساس أهداف وسياسة فرنسا وانتدابها على بلاد الشام الشمالية . وقد ثبتت الحركة الوطنية في ١٩٤٣ – ١٩٤٥ هذا الكيان ، بموافقة سوريا والعرب شعوباً ودولاً .

ان واقع هذا الكيان وُلِد في تلك الملابسات الاستعمارية (وأن الحدود بين سوريا ولبنان والاردن مصطنعة) لا يفرض بالضرورة أن يُلقي الماركسيون بهذا الكيان من النافذة . بالعكس ، ان الوطن العربي الاشتراكي الموحد « سيأخذ » هـــذا الكيان القطري كما سيأخذ سائر الكيانات القطرية الرئيسية المبلورة . والاعتقاد بأن الكيان القومي العربي الأعلى يفترض انفراط الكيانات القطرية ، قديمها وحديثها ، كبيرها وصغيرها ، اعتقاد « ثوروي » أجوف . بالعكس : الكيان القومي العربي الكبير يفترض تعزّز وتلاحم الكيانات القطرية الحقيقية . وفي هذا المضمار ، ان الموقف القومي العلمي الصحيح ، والموقف القومي للماركسيين بالذات يتجلى كموقف قومي ، فقط في ايمانه وايمانهم بان الوحدة العربية ضرورية لهذا ايضاً . ان الوحدة العربيـــة (وبالاحرى عند الماركسيين) لا يمكن أن تقدّس حدود الاقطار الداخلة فيها ، ولكنها لا تنسف كيانات الأقطار ككيانات جوهرية ، ولا يمكن ان تفضّل مبدئياً العودة إلى « لبنان الصغير » لمجرد أن لبنان الكبير كان « من صنع فرنسا » (« لبنان الصغير » كان من صنع ماذا ؟)

وفي زمن هيمنة الامبرياليـــة الامريكية وزخمها العدواني والفاشستي ضد الشعوب ولا سيما ضد العرب وانفلات التوسعية الصهيونية في كل الاتجاهات ، لا

نتصور ان هذه الامبريالية الامريكية – الصهيونية تلتزم في مخططاتها بحماية كيان « لبنان الكبير » حتماً وبالضرورة . الامبريالية ، نظراً لأهمية ما هو موضوع اللعب enjeu ، تستطيع في كل لحظة في أماكن شتى من الوطن العربي ان تتخلّى عن ملوك وامراء واقطاعيين وشيوخ . وليس مستحيلاً ان « تترك على الأرض » بعض « المصالح » اللبنانية ! وأن لا يرى أصحاب هذه المصالح ، الزعماء الخالدون في لبنان « الخالد » ، هذا الاحتمال أمرٌ في طبيعة الأمور . وليكن كتاب كارانجيا « خنجر اسرائيل » عبرة . ان الامبريالية الاميركية الصهيونية تحمل امتهاناً كبيراً للبنان بكل مناطقه وطوائفه .

ان موضوع تلاحم لبنان موضوع يجب ان يأخذه التقدميون على عاتقهم ، يفضحوا أعداء الشعب اللبناني . ولا يمكن أن يفعلوا ذلك اذا تغافلوا عن الأوضاع الحقيقية للبنان : تاريخه ، واقتصاده ، وطبقاته ، واقاليمه .

ان برنامج الحد الأدنى للحزب الشيوعي اللبناني يجب أن يتضمّن هذا الموضوع بالارتباط مع التطورات المحتملة لأزمة الشرق الأوسط بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ .

عاشراً : – لا يستطيع الماركسي ان يتنبأ بالسير العياني المحدّد لتطور لبنان وصراعاته في الآونة القادمة . هذا السير (ونتائجه) يتوقّف على وعي الماركسيين وقدرتهم[١] . ولا بدّ لنا من الاعراب عن رأينا في أن الوضع الشعبي اللبناني – السياسي ، الثوري ، التنظيمي – ليس اليوم جيّداً ، رغم انتشار « الماركسية » وجماعاتها . انه اسوأ مما كان في سنة ١٩٥٨ ، حين جابهت غالبية

---

(١) اخيراً ، لاحظت « الماركسية اليسارية » الكاريكاتورية هجرة سكان الجنوب ! لقد غمر هؤلاء « اليساريون » لبنان والعرب بسيل « حرب التحرير الشعبية » الكلامي . واخيراً – ١٩٧٠ ! – لاحظوا ان الجنوب المتاخم لاسرائيل قد لا يبقى فيه شعب ، بشر ، لاسباب قديمة (اقتصادية ومعاشية) وجديدة (أزمة الشرق الاوسط وسياسة الدولة ، وسخافاتهم الثوروية الفلسطينية الماركسوية) . لقد اعترفوا بفشلهم ولكنهم لا يعترفون بخطئهم (محمود سويد ، افتتاحيات « دراسات عربية » شباط ١٩٧٠ وبعده) ، ولا يزالون يحاربون ... القاهرة .

الشعب اللبناني حكم شمعون – مالك . ومع ذلك ، يمكن ويجب ان يكون هذا الوضع الحاضر « انتقالياً » ، وان ينتقل الشعب اللبناني إلى جبهة وطنية تقدمية حقيقية أرقى وأمتن .

ان تشخيص البرنامج اللبناني للشهابية كمحاولة برجوازية اصلاحية «حديثة» ومحدودة الاهداف والاثر صحيح تماماً . (وانتهاء الثورة بـ « لا غالب ولا مغلوب » يرتبط ، إلى حد لا بأس به ، بالاتفاق العالمي والعربي الحاصل على موضوع « الشرق الأوسط » العربي بعد ثورة ١٤ تموز العراقية والتدخل الانكلو – اميركي في الاردن ولبنان . ورفاقنا اللبنانيون مخطئون حين لا يرون هذا الوجه العالمي الدولي للأمور) . ولكن ، بين احتمالات المستقبل القريب لا نستبعد احتمال قيام شهابية أخرى ، أكثر تقدماً ، ومتأخرة بالطبع عن البرنامج الوطني الديمقراطي للحزب الذي هو ، مأخوذاً بخطوطه الاساسية ، مقدمة مباشرة للثورة الاشتراكية . ان مسألة تأييد تجربة جديدة من هذا النوع تتوقف على عوامل شتى أولها امكانيات قوى الثورة الوطنية الديمقراطية ، تلاحمها ، قوتها الحقيقية ، استعدادات الجماهير الشعبية ، ميزان القوى في الساحة اللبنانية والعربية ، استعدادات القوى العالمية . ولا نعتقد أن من الصائب تأييد تجربة كهذه ، ما لم يتوفر فيها حد أدنى من العمل المطلوب ، حد أدنى من الاجراءات الفعلية ضد مواقع الرأسمال الأجنبي ومواقع الطغمة المالية في السياسة والاقتصاد ، بدء اقتلاع فساد الدولة بقوة وجذرية ، إصلاح زراعي جزئي حقيقي (حد أعلى للملكية الزراعية مهما كان عالياً وتوزيع مباشر للأراضي ، رفع حصة الفلاح المحاصص) ، التجنيد الالزامي لأبناء الشعب اللبناني ، تحصين قرى الحدود والاستعداد لخوض معركة الجيوش العربية ضد العدوان الاسرائيلي ، إصلاح أوضاع التربية والتعليم ، وأوضاع الصحة والمستشفيات...

ان هذا الاصلاح الحقيقي لا يمكن ان يعطل مسيرة الثورة الاشتراكية الديمقراطية والقومية ، لا سيما في ظروف لبنان ، ان مسيرة الثورة طويلة وشاقة ، وعملها كبير . ولبنان – بسبب الشروط الموضوعية ، والظروف الذاتية التاريخية

للاحزاب والجماعات التقدمية – لا يعيش اليوم في عشية الثورة الاشتراكية ولا « الثورة القومية الديمقراطية » الحقيقية .

وبالطبع ، ان هذا الاحتمال الاصلاحي ليس سوى احتمال . وعلى القوى التقدمية في لبنان ان تستعد وأن تعِدّ الشعب لأسوأ الاحتمالات وأول أعمالها ان تخوض النقاش فيما بينها إلى النهاية ، بشكل منهجي كامل ودقيق لتصل من هذا النقاش إلى برنامج حدٍ أدنى يتيح لها تنشىء جبهتها على أساسه بتوحيد قواها المبعثرة وان تبني القوة الشعبية الضاربة والقادرة على مواجهة الطوارىء القادمة وحسمها لصالح الشعب ، مهما بلغ الثمن .

على سبيل الخاتمة

هكذا ننتهي من عرضنا ونقدنا لبرنامج الحزب الشيوعي اللبناني الصادر عن المؤتمر الثاني للحزب في صيف ١٩٦٨ .

كتبنا هذا البحث الطويل ونحن مرتاحو البال والضمير ، مؤمنون بأن هذا عملٌ جديّ بالغ الجد ، ومجد بالغ الجدوى .

ونتصوّر أن بعض الرفاق والاخوان يرون غير ما نرى .

ولا نقصد بالذات أولئك المتخلفين الذين لا يزالون عند الصيغة القائلة ان « مكافحة الشيوعية » هي لصالح العدو . وهي صيغة صحيحة ... وعامة . بالتأكيد ، أن « مكافحة الشيوعية » سلاح في يد الامبريالية . بقي أن نعرف ما هي الشيوعية ، وما ليست هي الشيوعية ، ما هي الماركسية – اللينينية وما ليست هي الماركسية – اللينينية ! والحزب الشيوعي اللبناني يقول اليوم وبأعلى صوته (في تقريره السياسي بصورة مباشرة ونقدية ، وفي برنامجه بصورة غير مباشرة عن طريق العرض الايجابي الوضعي positif لما هو صواب) : كلا ، أن أخطاءنا في قضية فلسطين ، موقفنا السابق ضد الوحدة العربية ومع الانفصال ، خطنا السابق الاجتماعي البرجوازي ، لقاؤنا السابق مع الاديين والكتائبيين ، ليست هي الشيوعية ولا الماركسية في اية حال ، وهذا ما قلناه منذ زمن غير قصيرة .

وانما نقصد أولئك الذين يتساءلون : أليس من الأجدى أن تعرضوا آراءكم ومواقفكم بشكل وضعي ايجابي صرف positif ، أي بغير طريق نقد آراء

الاخرين ؟ إلى هؤلاء نقول : نعرض آراءنا ومواقفنا بالطريقتين ، وبشكل خاص بالطريقة الثانية : نقد ، تفنيد ، (أو تأييد) آراء وتحليلات الآخرين : ساطع الحصري ... ، وبالدرجة الأولى ، « الماركسيين » (بمزدوجين أو بدونهما) . ونسير ، في هذا ايضاً ، على هدي لينين. في زمن ماركس ، كان النضال الفكري هو ، بالدرجة الاولى، نضال ضد التيارات الفكرية الاشتراكية خارج دائرة الماركسية ونفوذها . في زمن لينين ، النضال الفكري هو بالدرجة الاولى داخل دائرة الماركسية والماركسيين(بمزدوجين وبدونهما) ،نضال ضد« الاقتصاديين » و « المنشفيك » و « الاقتصاديين الامبرياليين » والكاوتسكية - البليخانوفية ، و « اليسار » ... وهذا النضال هو نضال الوعي ، في عصر يتغير ويزداد تعقيداً ، وتصبح فيه صيغ الماركسية الأساسية الجبارة (التشكيل الاقتصادي، مراحل تطور وقوانين التاريخ ، صراع الطبقات ، الثورة الاجتماعية ،عند مئات وألوف الماركسيين غير المكوّنين ماركسياً أي غير الواعين للعصر وتغيره وتعقيده)،سبيل هروب من الواقع ومبرّر كسَل بغيض ودافعاً إلى استراتيجية وتاكتيك خاطئين مخرّبين وفي الوضع العربي التقدمي الراهن ، حيث أصبحت الماركسية لافتة كبيرة تهيمن أو تقريباً على الساحة التقدمية ، في القاهرة وبيروت ودمشق والجزائر والرباط وعدن وبغداد والخرطوم ، وتشكل « شعاراً »يرفعه أو تقريباً مئة حزب وتنظيم وجماعة وجناح ، ليس من مهمة ، على صعيد الفكر الماركسي والتنظيم الماركسى ، تعلو على هذه المهمة : صراع الأفكار ، « خضّ الوعي » ، تبيان الخطأ والصواب ،جوهرياً وتفصيلياً،وصولاً الى أدق التفاصيل. سنواصل اذاً هذا العمل إلى النهاية داعين الرفاق اللبنانيين وسواهم إلى المشاركة الفعلية في هذا العمل الفكري الصراعي .

ونقصد بشكل خاص اولئك الذين يتصورون ان موضوعنا لا يستحق الجهد المبذول . الحزب الشيوعي اللبناني ليس الا جماعة واحدة بين مئة جماعة ، وهو جماعة صغيرة ، حزب لا يعد اليوم سوى خمسمئة أو ألف أو ألفين من الاعضاء ، وعشرة آلاف من المؤيدين. الى هؤلاء نقول: تخطئون اذا كنتم تتصورون ان آراء

الحزب الشيوعي اللبناني ، الصحيحة والخاطئة ، هي فقط آراء الحزب الشيوعي اللبناني . كلا ، انها آراء عشرات الألوف من التقدميين العرب ، الموجودين في منظمات أخرى وفي جوارها (وآراء العديد من الماركسيين والتقدميين خارج المنطقة العربية) . ليس من رأي بين الآراء التي ناقشناها الا وله انصار بالألوف وعشرات الألوف خارج دائرة نفوذ الحزب الشيوعي اللبناني ، وأحيانا داخل منظمات أخرى مخاصمة لهذا الحزب ، على امتداد الساحة العربية .

وتخطئون أيضا اذا كنتم تتصورون أن أهمية الحزب الشيوعي اللبناني الحاضرة والمقبلة تقاس بقوته العددية والسياسية الراهنة ! كم كان تعداد الماركسيين الروس وحزبهم في سنة ١٩٠٠ أو سنة ١٩٠٣؟ كم كان عدد أنصار لينين في سنة ١٩٠٤ أو في ١٩٠٧ أو في ١٩١٥؟ ان أهمية الحزب هي قابليته للنمو ، كقوة شعبية . الحزب الشيوعي اللبناني ، في ١٩٤٧ ، كان أقوى الاحزاب ، عدداً ، على طول الساحة التقدمية العربية ، من جبال كردستان إلى منابع النيل . وتدهوره اللاحق خلال عقدين من السنين كان الدافع الكبير الذي دفع الحزب وقادته التاريخيين والحديثين إلى التصحيح ، بعد أن وصل إلى نهاية درب مسدود . وأحد أخطائه عند هـذا التصحيح أنه لم يولِ انتباهاً كافياً لأخطاء ما قبل ١٩٤٧ .

واكثر ما نخشاه أن يتصور الحزب أن نموه الشعبي بين ١٩٣٦ و ١٩٤٧ (مع انقطاع ١٩٣٩ – ١٩٤١ : زمن فيشي) دليل على صواب خطـه آنذاك ، جوهرياً على الأقل . ومع ذلك ، وإنصافاً ، يبدو لنا ان الحزب قد أقلع نهائياً عن عادة قديمة وسخيفة قوامها اعتبار نموه الشعبي العددي دليلاً قاطعاً على صواب الخط ، واعتبار التقلص اللاحق هو أيضاً دليل على صواب الخط عن طريق فكرة « تساقط العناصر البرجوازية – الصغيرة على درب النضـال » . والتعليلان خاطئان وسخيفان ، لأنهما جزئيان جداً . في الأول (مثلاً في تقارير مؤتمر ٣١ / ١٢ / ١٩٤٣ وَ١ و ٢ / ١ / ١٩٤٤ وفي مقالات « صوت الشعب » في ١٩٤٦ – ١٩٤٧) ، تمجيد للحاضر ، مثاليّ . وفي الثاني (مقالات « نضال الشعب » و « حياة الحزب » ، في عام ١٩٤٨ عنـد التحول « اليساري » المتشنج)

« تهبير » لذلك الحاضر الذي أصبح وأعلِن ماضياً ! وفي ضوء تلك التجربة ، وخدمة للحزب ، ومساعدة له على تحاشي تكرار التجربة الخاطئة ، نريد من هذا الحزب (ونزن عليه بما نستطيع) أن يطرح أيضاً المسائل **النظرية والايديولوجية** وان يتعمق فيها . ان نموه المقبل ، وقيادته الممكنه للبروليتاريا والجماهير الكادحة ، يتوقف على وعيه الحاضر .

في الواقع التقدمي العربي الراهن ، الأفكار تنزل الى « السوق » فتنتحل ، وتشوّه . ان فكرة صائبة ، وتحليلاً صائباً ، ونظرية صائبة ، تتحول ، بتغيير لفظ واحد أو عبارة واحدة ، الى فكرة خاطئة وتحليل خاطىء ونظرية خاطئة . بله حين يكون الأمر إسقاط وإلغاء أحد جوانب الفكرة والتحليل والنظرية . ان الماركسيين – اللينينيين العرب ، الذين يعملون في ساحة الفكر التقدمي العربي منذ نيف وعشر سنوات ، لم يقدموا ، في يوم من الأيام ، نظرية قوامها « اليسار » ضد اليمين البرجوازي الستاليني البكداشي . هـذا لم يكن وليس الا أحد وجوه افكارهم وتحليلهم ونظريتهم . وفي هـذه اليمينية البرجوازية البكداشية الحقيقية التي كافحوها وضربوها ، ميزوا دائماً وجههـا القومي – العالمي بالذات : الموقف من الامبريالية والمسألة القومية . ونتصور أن الشيوعيين اللبنانيين هم اليوم (اذ صححوا عدداً كبيراً من آرائهم ، وتبنوا عدداً كبيراً من آرائنا) أبعد الناس في الساحة العربية التقدمية عن تشويه أفكارنا (ليس لأنهم يتحاشون ذكرنا أو الاستشهاد بأفكارنا – هناك آخرون يتحاشون ذلك ، وينقلون ويشوّهون – بل لأنهم أكثر وعياً من سواهم) . غير اننا ، في الظروف الراهنة ، ودفعاً لالتباسات ومعاتبات المستقبل ، فضلنا ان نعالج أفكار الرفاق اللبنانيين عن الوضع العالمي وعن الوضع العربي ، جملة جملة . واذا كانت هذه هي المرة الأولى التي ننقد ، **حرفياً** ، برنامج حزب من الأحزاب التقدمية العربية ، (ولعلها مثـال أول وفريد في ساحة الأحزاب والفكر والنقد) ، فإنهـا (فيما يخصّنا وضمن طاقتنا) لن تكون الأخيرة . وبالطبع ، في هذا العمل المقبل ، نفضّل ، بوجه الاجمال ، الاحزاب

رافعة لواء الماركسية – الليذينية .

ولقد فضّلنا اليوم « برنامج الحزب الشيوعي اللبناني » كموضوع . ذلك لان الحزب الشيوعي اللبناني قدّم لنا في تقريره السياسي وفي أكثر فصول برنامجه دليلاً ساطعاً على تغيّير إيجابي كبير ، يضع أصحابه في طليعة الفكر الماركسي العربي في الظرف العربي الراهن. وبعيداً عنا أن ندعي لنفسنا مأثرة تسبيب هذا التغيّير . ان مثل هذا الادعاء المثالي يضعنا في موضع الديك الذي يتصوّر أن صياحه هو الذي يوّلد الصباح . ولقد رفعنا صوتنا مع فجر الثورة العربية ، القومية والاجتماعية (وفجر المحاورات والانقسامات العالمية) . ومن الافضل للجميع ، أن تأتي الأحزاب التي رفعت منذ زمن قديم راية الماركسية والطبقة العاملة ، الى النهار ولوْ بعْدَ الصباح . لا سيما وأن بعض الاخرين يخرجون على النهار وينشرون الضباب ، عند الظهر . ان التاريخ لن يغفر لهؤلاء . ولن يغفر للذين ينتظرون نهاية النهار ، كبومة مينرفا التي لا تطير الا في الليل . وقبل أن يتقدم النهار وضبابه الكثيف ، قبل احتدام المعارك الانسانية ، نريد ، مرة أخيرة ، أن نقدّم خلاصة افكارنا للرفاق اللبنانيين وسواهم :

آ – ان « المفهوم العلمي الطبقي» شيء يتعارض تماماً مع الماركسية – اللينينية ، اذا لم يرتكز اليوم على الامبريالية ، مفهوماً وواقعاً . والامبريالية ليست فقط صيغة من نوع « أعلى مراحل الرأسمالية » ، و« الرأسمالية الاحتكارية والمالية» و « تصدير الرساميل » ، بل هي ، وفي هذه الصيغ ذاتها مفهومة على حقيقتها اللينينية ، انقسام العالم بين مستعمِر ومستعمَر ، بين مستغِل ومستغَل ، بين أمم مستغِلة وأمم مستغَلة ، بين غرب وشرق ، الخ . والانقسام = انقسام ، صراع ، وليس تراصفاً وليس فقط تمايزاً. والامبريالية تحمل معها تلوث قطاعات كبيرة من الطبقة العاملة في الأمم ذات الامتياز ، في « الغرب » ، والانقسام النهائي داخل حركة العمال العالمية . والثورة الاشتراكية ، الثورة الاشتراكية العالمية ، هي الثورة ضد الامبريالية ، في الغرب والشرق والشمال والجنوب . والاشتراكية وليدة الطبقة العاملة العالمية عن طريق وبوساطة وعلى جسر

الحركة ، حركة العمال الواعية الثورية وقد وُلدت الاشتراكية العالمية ونمت وتقدّمت في المنطقة التاريخية الواقعة بين الغرب والشرق ، وفي منطقة الشرق (في روسيا وبلدان اوروبا الشرقية ، في منغوليا والصين وكوريا وفيتنام ، وكوبا...). وقد حكمت هذه الولادة وهذا النمو والتقدم ظروف اجتماع الثورة الديمقراطية والثورة الاشتراكية في عصر الامبريالية ، وحربيها العالميتين ، والامتداد الفاشستي والنازي للامبريالية واضطهادها القومي الكوني .

ان الماركسية – المفهوم العلمي الطبقي الحقيقي – ليست فهماً « اقتصادياً » للتاريخ ، بل هي فهم مادي وجدلي للتاريخ . لقد صاغ ماركس وانجلز هذا المفهوم بالاستناد الى تمييز ودراسة « المجتمع » و « الاقتصاد » وصراع الطبقات، ودفع لينين هذا المنهج إلى ذروته ببلورة مفهوم التشكيل الاقتصادي – الاجتماعي » كأساس لا غنى عنه لتحليل روسيا والعالم الكبير . وبذلك أسسوا نهائياً عِلْم التاريخ وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الثورة . غير ان ماركس وانجلز ولينين خاضوا على الدوام نضالاً دائباً ضد تلامذة جعلوا من المفهوم بديلا عن الواقع ، ومن نظرية التاريخ بديلا عن علم التاريخ ، ومن منهج العلم بديلا عن موضوعه ، ومن مذهب صراع الطبقات بديلاً عن الصراعات الواقعية الطبقية والقومية والسياسية ، ومن لفظ « الثورة » بديلاً عن الثورة الاجتماعية الحقيقية . عارضوا ، على الدوام وعلى طول الخط ، الاتجاه « الاقتصادي » – « الطبقي » المزعوم ، الدوغمائي ... في السياسة والفلسفة سواء بسواء . وتميز لينين هذا الاتجاه « الاقتصادي » في مواقف حزب البروليتاريا في شكلين اثنين، ولا سيا في شكل ثان ، في صفوف الماركسية اليسارية الامية لزمن الامبريالية وصراعاتها والثورة البروليتارية العالمية الوشيكة والبادئة والمنطلقة في الشرق والغرب . ولقد حكمت التجربة التاريخية لنصف القرن اللاحق لصالح لينين ونيّف ، ضد شتى الخصوم والرفاق .

ب – ان عالم اليوم يتميز بالحقائق الاساسية الآتية :

١ – لقد أصبحت الاشتراكية نظاماً عالمياً يضم نصف سكان القارتين

– أوروبا وآسيا – وتطرقُ الثورة الاشتراكية اليوم أبواب جميع الأمم والشعوب على امتداد القارات . ان عصرنا هو عصر تحوّل البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية . ويتحقق هذا التحوّل بمعارك صراعية ضد الامبريالية ، ذات مدى عالمي وتاريخي .

ولقد وجهت الاشتراكية الظافرة ضربة فاصلة للامبريالية العالمية، وقضت في مجتمعاتها على استغلال الانسان للانسان ، ونقلت مئات الملايين من البشر إلى مستوى لائق من الحياة المعاشية والفكرية لأول مرة في تاريخ البشرية ، بينما يتخبّط مئات الملايين من البشر في عالم الرأسمالية في الفقر والجوع والجهل . ويلعب المثال السوفياتي – الصيني – البلغاري – التشيكوسلوفاكي الخ دوراً قوياً في أذهان الشعوب المكافحة في سبيل التخلص من الرأسمالية والامبريالية والتخلف .

٢ – ان النظام الكولونيالي التقليدي للامبريالية (الاحتلال العسكري ، فقدان الاستقلال القانوني والسياسي) يوشك على النهاية . ولكن الاستغلال والاضطهاد الامبريالي لغالبية شعوب القارات الثلاث (آسيا – افريقيا – اميركا اللاتينية) باقٍ وآخذٌ في الاستفحال بأشكال متنوعة (توظيف الرساميل ، تبادل الخامات والمصنوعات بأسعار السوق العالمية ، وإحكام التبعية الاقتصادية والتجزئة السياسية والاقتصادية ، العدوان والحروب المحلية للاستعمار الجديد والقديم) . وليس من طريق أمام هذه الشعوب سوى مواصلة الثورة القومية والديمقراطية والاشتراكية بتوعية وتحريك وتنظيم وتعبئة مئات الملايين من المسحوقين بأشكال ووسائل و « حلقات » تاريخية بالغة التنوع .

ان شعوب آسيا وافريقيا والعالم الثالث التي كان تطور الرأسمالية العالمية الصاعدة بالنسبة اليها دور السقوط والتحوّل الاستعماري الكولونيالي ، تواجه في الطور التاريخي الحاضر مهمة نزع الاستعمار والبنى الكولونيالية والتخلفية . وهذا العمل التاريخي جزء صراعي حاسم ومتقدم في الثورة الاشتراكية العالمية وفي بناء الانسانية الاشتراكية المقبلة .

ان الأوضاع الراهنة للعالم والتجربة الماضية للثورة الاشتراكية العالمية تثبت ان الثورة الاشتراكية العالمية، بوصفها عملية إسقاط الامبريالية العالمية، تتمحور اليوم على شعوب هذه القارات الثلاث .

٣ – الأزمة العامة للرأسمالية في « الغرب » دخلت منذ عقدين من السنين في طور جديد يتميز بالتفاوت بين ازدهـــار اقتصادي نسبي وحقيقي وبين تأزّم « سياسي » متنوع الأشكال : الصراعـات البروليتارية ، قضايا السلم والحرب وأعباء التسلح ، قوة الحزب البروليتاري في فرنسا وايطاليا وسواهما ، خلافات الدول ، التسلط الاميركي وقضايا مستقبل السيادة القومية والتقدم ، أثر ثورات المستعمرات والحروب المحلية للامبريالية ، تحركات الزنوج والطلاب والشباب ..

ان الثورة الاشتراكية البروليتارية لم تنطفىء في الغرب الامبريالي الرأسمالي الصناعي المتقدم . والشروط الموضوعية للتحول الاشتراكي (القاعدة الصناعية والعمالية ، التقدم الهائل في الطابع الاجتماعي للعمل ...) التي كانت ناضجة في زمن لينين باتت اليوم اكثر نضجاً بكثير . غـــير ان الشروط الذاتية في وضع مختلف ...

ان الثورة الاشتراكية لهذا العالم « الغربي » سير مستقبل . هذا أولاً. وثانياً، ان هذه الثورة الاشتراكية المقبلة لا محال ، وبأشكال وسبل مختلفة ، لا تنبثق من سير صراع تجريدي بـين الطبقتين المؤلفتين للمجتمع الـبرجوازي ، بل من المسائل العيانية للعصر الحاضر والمقبل : مسألة صدّ الهيمنة الامبريالية الاميركية المتنامية ، المسائل القومية ، تجدّد مسائل « الثورة الديمقراطية » ، « قضايا السلم والحرب ، الـــخ ، وبالاستناد على وبالاستفادة من التقـــدم الهائل للطابع الاجتماعي للعمل [1].

٤ – الحقيقة الماركسية الاساسية القائلة ان الثورة الاشتراكية تنبع مـــن التناقض بين قوى الانتاج المتقدمة (الاجتماعية ، « الاشتراكية » الطابع) وبين

---

(١) إن اضراباً في أحد معامل رينو Renault بات قادراً على الحاق الشلل بسلسلة صناعة سيارات رينو .

علاقات الانتاج المتأخرة (الخاصة ، الرأسمالية ، الاستغلالية ، والتي تجد تعبيرها في توزيع الدخل الواحد) ، يجب ان تفهم اليوم تاريخيا و « عالميـا » ، أي في نطاق عالم الأقطار والأمم « والجهات الجغرافية » . لقد بلغ تقدم قوى الانتاج والانتاجية درجة أصبح معها من الممكن سدّ حاجات البشرية المعذّبة «بلمح البصر » والذي يحول دون ذلك ، هو علاقات الانتـاج الرأسمالية العالمية (العالمية أولا ، وبالتالي القطرية) ، أي توزّع الدخل العالمي بين أمم العـالم بواسطة « السـوق » . والثورة الاشتراكية العالمية هي جوهرياً (وأولياً) الثورة الإطاحة بهذه العلاقات الانتاجية العالمية ، بعلاقات الاستغلال العالمي بين الأمم والشعوب ، وهي العلاقات التي تقرّر أيضاً وإلى حد كبير العلاقات الداخليـة للأمم ، أي بنيانها الطبقي الداخلي .

وعلى هـذا الأساس ، ان قيادة البروليتاريا للثورة الاشتراكية (بالمعنى الأوسع : لكل الثورة الديمقراطية والاشتراكية) - هـذه الحقيقة الماركسية الجوهرية – يجب أن تُفهم هي أيضاً ، تاريخياً وعالمياً ، كقيادة البروليتـاريا العالمية ، كقيادة الوعي البروليتاري الثوري العالمي ، كقيادة الماركسية – اللينينية للثورة الاشتراكية العالمية . ان بروليتاريا مصانع بطرس بورج وموسكو واوديسا وباكو الـخ قادت الشعب الروسي عيانياً عـلى أساس الظروف الموضوعيـة للعصر ولروسيا العصر وعـلى أساس الوعي الذي صاغه لينين في هـذه الظروف وصانه وأنماه ضد شتى نوازع التأخر والقصور الفكري والانفـلات التجريدي . والبروليتاريا الصينية قـادت الثورة الصينية على أساس وعي ماو تسي تونغ وحزب البروليتاريا المسلح بهـذا الوعي . ولكن عمال منغوليا أو البانيا لم يقودوا الثورة المنغولية أو الالبانية . والمثال الكوبي حالة أخرى .

ان قيادة البروليتاريا للثورة الاشتراكية هي اذن قيادة البروليتاريا العالمية ، قيادة الايديولوجيا البروليتارية الثورية ، قيادة الماركسية – اللينينية للثورة الاشتراكية في العالم وفي الأقطار . في حد أقصى ، في حالة قصوى ، يمكن ان

تنطلق الثورة البروليتارية (أي الاشتراكية بالمعنى الاوسع ، بدأ من الثورة ضد الاستعمار والاقطاعية والتخلف) في بلدان ومناطق ليس فيهـــا بروليتاريا ، عيانياً . في الحالات المتوسطة ، ان قيادة الوعي الماركسي – اللينيني المتطور يمكن ان تسبق قيادة البروليتاريا العيانية [١] . تلك ستكون الحال « في العديد من » أقطار العالم الثالث . وفي أقطار الغرب المتقدم ، حيث الظروف تتنوع وتتعقد ، وحيث تتعرض البروليتاريا كطبقة لتحولات كبيرة ، ستكون قيادة البروليتاريا المسلحة بالوعي الماركسي – اللينيني الشمولي ، قيادة ذات مـــدى « قومي » وتاريخي (بمعان مجددة) . وليس من قبيل الصدف ان قادة الدول الاشتراكية (مثلاً غومولكا) يشددون اليوم على مفهوم الأمة .

٥ – العالم الاشتراكي يجابه اليوم مسائل كبيرة في شتى الميادين .

ان الشعوب المكافحة في سبيل الخلاص من الرأسمالية والامبريالية ، ولا سيا الشعوب التي تعاني من أشد انواع البؤس والاضطهاد والامتهان ، ليست بحاجة إلى أسطورة « الفردوس الاشتراكي » الذي يسوده التفوق الاقتصادي والفكري الشامل ويسوده العدل والحرية والتناسق والانسجام . هذه الاسطورة أصيبت بسلسلة من الضربات : كشوف المؤتمـــر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وعواقبه وامتدادته [٢] ، تصريحات خروشوف عن الزراعة السوفياتية وعـن زراعة الدانمرك ، انفجار الخلاف الصيني – السوفياتي واستمراره ونوباته الحادة ، أحداث تشيكوسلوفاكيا ومواقف الاحزاب الشيوعية الغربية من هذه الاحداث .

لقد سارت روسيا السوفياتية ، بصورة اضطرارية ، في طريق بناء الاشتراكية في بلد واحد ، كبير ، ومتخلف ومستنزف ومطوق ، وبنت الاشتراكية فعلاً فاتحة باب المستقبل للعالم أجمـــع عبر طريق من الآلام والتضحيات الجسام .

---

(١) ويمكن ان يكون دعاة هذا الوعي وأدعياؤه متأخرين كثيراً عن البروليتاريا العيانية وعن حركة التاريخ .

(٢) الاحزاب الشيوعية العربية حمت نفسها من الامتدادات الممكنة . ولكنها على أساس هذه الحماية ذاتها لم تلبث أن دخلت في اسوأ طور من تاريخها الطويل ، تاريخ وعيها ونشاطها .

المرحلة الستالينية (التي لعبت فيها أوصاف ستالين الشخصية – التي حذر منها لينين في وصيته - دوراً مقرراً وحاسماً) قامت وانبسطت على هذه القاعدة التاريخية والموضوعية : بلد واحد ولو كبير ، مطوق ، متـأخر ، مستنزف ، ومحارَب محارِب . وقد ضم درب الآلام الحلقات الرئيسية الآتية : التصنيع الثقيل السريع ، التحويل الاشتراكي الطوعي ونصف القسري والقسري للزراعة والارياف (وتضحياته ومخلفاته الذهنية) ، التصفيات الدامية لأعوام ١٩٣٦ – ١٩٣٩ ، حرب الخلاص القومي ضد الامبريالية الالمانية النازية وما خلفته من دمار شامل في قوى الانتاج البشرية والمادية ،نوبات الستالينية الأخيرة ، ومكائد العدو العالمي على طول خط التاريخ. وعلى الرغم من أن بناء الاشتراكية قد انطلق في روسيا في اطار هائل من الموارد البشرية والطبيعية ، الا ان هـذا الانطلاق نفسه قد افترض التضحية بمزايا التقسيم التاريخي للعمل (على مساوىء هـذا التقسيم !) والانعزال عن العالم الرأسمالي المتمدن وقدراته ، إعطاء الأولويـة لقطاعات الدفاع الوطني. هذه الظروف كلها ، مضافة إلى تأخر روسيا القيصرية الكبير ، والى مزايا تاريخ الولايات المتحدة واقتصادِها ، ومزايا موقعها العالمي وهيمنتها العالمية الحاضرة ، تفسر لنا تأخر الانتاجية السوفياتية (في الزراعة ، وفي الصناعة) عن الانتاجية الاميركية. ولا تزال مهمة اللحاق بالولايات المتحدة من حيث حجم الانتاج ومن حيث معدل الإنتاج للفرد من السكان ، قائمة .

والاشتراكية ، إذ وُلِدت بحكم آلية التاريخ العالمي (**عالمية الرأسماليـة وأوضاعها الاستغلالية** ، **وعالمية الثورة** ، عيانياً) وعلى أساس ظروف موضوعية وذاتية محدّدة ، في المنطقة غير المتقدمة وغير « المتمدنة » من العالم ، حملت وتحمل في أوضاعها الحاضرة عدداً من النواقص والمثالب والعيوب « الاضافية » (أي اضافة لعيوب « المرحلة الأولى » ، لعيوب المجتمع الاشتراكي الخارج من أحشاء المجتمع البرجوازي والذي ذكرها ماركس في نظرتـه العامّة إلى المرحلة الأولى ، أي الاشتراكية ، من الشيوعية القادمة) . وعلى صعيد سير الثورة العالمية الحاضر والمقبل ، ان هذا الوضع الولادي يعزّز الطابع « السياسي » ، أو الجانب « السياسي » في

عمليّة الثورة العالمية ومعاركها .

الاعتقاد بأن منجزات الاشتراكيـــة في الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية والدول الاشتراكية مثالٌ يُلهم الشعوب الأخرى ويدفعها نحو الاشتراكية شيء ، والاعتقاد بان التحويل الاشتراكي للعالم ينبثق من المباراة الاقتصادية السلمية بين الاتحـــاد السوفياتي والولايات المتحدة ، بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي ، شيء آخر . هذا يكون في أقصى حال خلطاً بين الأساس الاقتصادي للطور التاريخي لعمليّة انتقال العالم إلى الاشتراكية وبين محتوى العملية الصراعي الثوري ، السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحربي والقومي . لقد كان تفوق الانتاجية هو الأساس الاقتصادي الذي قرر تاريخياً انتصار الرأسمالية على الاقطاعية ،أي انتقال شعوب وأمم أوروبا من الاقطاعية إلى الرأسمالية . ولكن هذا الانتقال نفسه لم يتحقق إلاّ بصراعات الطبقات ، والدول والأمم ، بالثورات ، والحروب (ثورات انكلترة وفرنسا ، حروب نابليون وضد نابليون ، الثورات والحروب اللاحقة) . والصراعـــات الطبقية والقومية ، ثورات وحروب الطبقات والشعوب والدول ، تملوءُ أيضاً طـور الانتقال من الرأسمالية ألى الاشتراكية ، من انتاجية ادنى إلى انتاجية أرقى ، على أساس تفوق الانتاجية الأرقى (= عالم الاشتراكية) على الانتاجية الأدنى (= عالم الرأسمالية وعالمها الثالث) . اذا استطاع الاتحاد السوفياتي في العشرين سنة القادمة ان يتفوق في الانتاجية على الولايات المتحدة وان يضربها في السوق العالمية ، فان ذلك سيكون شيئاً عظيم الأهمية . ولكن هذا التفوّق (من قطر على قطر) ليس محتوماً ولا ضرورياً ، لسير الصراع ونتائجه المنشودة. والأهم من هـــذا وحدة العالم الاشتراكي ، والتقدّم المطرد والمتناسق والمتحد للعـــالم الاشتراكي ككل .

ان أهمّ المسائل التي يواجهها العالم الاشتراكي وأخطرها على الصعيد السياسي العالمي ، هي مسألة الخلاف والانقسام بين الصين الشعبية والاتحـــاد السوفياتي . هذا الانقسام ، من حيث أنه اختلاف ، يرتكز على عدد من الشروط والفوارق

الموضوعية والتاريخية : موقع المجتمعين ، والثورتين ، شروطها، «الأمتان» ... الا أن الانقسام والتناقض والصراع يتجلى في وعي ومنظورات وايديولوجيا الفريقين وبشكل حاد ومتعارض . وانطلاقاً من هذا ، وانطلاقاً من واقع العالم المعاصر ، ومن تعاليم الماركسية ، لا نتصور ان الثورة الاميركية – اللاتينية أو الافريقية أو العربية أو الأوروبية – الغربية ، « ستنقل » أحد النموذجين الكبيرين أو إحدى الايديولوجيتين الماركسيتين الكبيرتين . وفي مواجهة الانقسام الصيني – السوفياتي ، يجب على الماركسيين – اللينينيين العرب ان يتحلوا بضبط النفس ، وأن يبنوا خطهم المستقل وأن يصونوه ، وأن يعلنوا صراحة افكارهم ومنظوراتهم العربية والعالمية ، وان يخوضوا الكفاح الصحيح الجدي ضد الامبريالية العالمية ، باعتبار ان هذا الموقف هو الذي يمكن ان يساعد فعلاً على بناء وحدة القوى الثورية العالمية على اسس سليمة ونهائية بما في ذلك وحدة وسلامة الانسانية الاشتراكية القادمة !

٦ – ان تسارع التقدم التكنيكي والعلمي (« الثورة الصناعية » الجديدة) في العالم المتقدم ، يفتح للبشرية آفاق تقدم مادي وفكري لا حد له . مبدئياً . واقعياً وآنياً ، هذا التقدم في عصرنا الامبريالي يحمل معه اخطاراً فادحة للبشرية. ولا تملك البشرية من سلاح لدرء الخطر سوى مواصلة وتشديد وتوحيد الكفاح ضد الامبريالية ، بجميع السبل والوسائل الثورية والانقلابية والسلمية والحربية الخ ... ان التخلي عن هذا المنظور الثوري مآله الاستسلام للابتزاز ، وترك الشعوب المستباحة فريسة لعدوان الامبريالية وتوسعها ، الأمر الذي يؤول في نهاية المطاف إلى وقوع الكارثة التي أريد تفاديها .

ومن البديهي ان الكفاح الثوري ضد الامبريالية شيء ، والشعارات والشعائر والجمل والصياحات الثوروية شيء آخر . والمنظور الثوري الكفاحي ليس تكتيكاً بل وليس ستراتيجياً ، بل هو « مبدأ عام » يفقد معناه ويتحول إلى اطار فارغ حين لا يتحدد المضمون الفعلي الحقيقي ، التاريخي والستراتيجي والسياسي ، لهذا المنظور – المبدأ .

ان الشعوب التي تقاتل في سبيل التخلص من السيطرة الامبريالية لا تملك ان تطلب من الاتحاد السوفياتي – الذي قدم اكبر التضحيات في سبيل مستقبل البشرية ، والذي يقدّم عوناً للشعوب متنوع الأشكال – ان يأخذ مكانها وان يقاتل ويضحي بدلها ، وان يتبنىمنظوراتها وزلاتها وأوهامها الخ. غير انها تخدع نفسها فيما اذا أغمضت عينها عن « موقف » (موقع ، وضع) الاتحاد السوفياتي والقوى الثورية العالمية ، مكتفية بالاشادة العامة أو المفصلة بـ « دور الاتحاد السوفياتي والقوى الثورية العالمية » .

جـ – الوضع العربي يتميّز بالحقائق الرئيسية الآتية :

١ – في الظروف التاريخية والآنية للعالم ، تحتل المنطقة العربية والتطور العربي والثورة العربية مكاناً مِحْوَرياً . الامبريالية تركز جهودها على المنطقة وتطورها وثورتها ،بقيادةالولايات المتحدةالاميركية ،ومع الصهيونية واسرائيل في قلب الوطن كقوة ضاربة تعادل مئة « قاعدة عسكرية » منتشرة في تركيا وايران وباكستان والنروج والدانمارك حول الاتحاد السوفياتي (مع تأكيدنا ان هذه القواعد بالغة الأهمية والخطر) . وليس أمام العرب الا أن يجابهوا بكل طاقاتهم هذا العدوان المستفحل جيلاً بعد جيل .

ان المقاومة الفلسطينية – وقطاعها المتميّز : الحركة الفدائية – قد أعلنت بداية المجابهة المسلحة المديدة مدشنة بذلك طوراً جديداً في تاريخ صراع العرب والصهيونية . وهذا الكفاح يحتاج الى الوحدة والنفس الطويل .

ان القول بأن المقاومة الفلسطينية المسلحة كفيلة بتحرير فلسطين أي بإزالة الكيان الاسرائيلي قول خاطىء على الصعيد النظري والتاريخي ، وهو ، على الصعيد العملي والسياسي ، يعفي الدول العربية والجيوش العربية من مسؤولياتها وواجباتها. ان عملاً أولياً وابتدائياً كازالة الاحتلال الناتج عن حرب حزيران ١٩٦٧ يحتاج إلى أكثر من الكفاح الفلسطيني الفدائي والشعبي ، يحتاج إلى حرب أو عدة حروب بين الدول العربية ودولة اسرائيل ، بين الجيوش العربية وجيش اسرائيل . وفي الحروب القادمة أيضاً قد لا يكون العرب هم

البادئون .

ان الماركسيين (ولا سيما من الاحزاب الشيوعية) الذين يقولون ان طريق القضية الفلسطينية طريق معقد ، مخطئون لا في هذا الذين يقولون (فعلاً : الطريق معقد ، أنه اولاً طويل وثانياً معقد) ولكن في هذا الذي لا يقولون ، في عدم تأكيدهم انجوهر هذا التعقيدوالتنوع العنفُ ، القوةُ ،الصراعُ الدامي ، وان في جوهر الطريقالقادم للمسألةالفلسطينية الحرب ،وعلىالأرجح عدةحروب.

ولن يستطيع العرب ان يتقدموا بشكل جذري وراسخ نحو إزالة الوجود العدواني الا بقدر ما يتقدمون نحو وحدة حقيقية .

٢ – ان الوحدة العربية أكبر ضربة يمكن ويجب ان توجه للامبريالية الاميركية والعالمية في وطننا العربي ، ضربة تحكم بشكل مباشر إزالة الكيان الاسرائيلي والنهب المكشوف للبترول والنهب المقنع بقناع أسعار التبادل في التجارة العالمية . ان الثورة العربية المتمحورة على مهمة تحقيق الوحدة العربية تشكل في انتصارها التاريخي المنشود أكبر كارثة يمكن ان تلحق بالامبريالية وهيمنتها العالمية بعد الثورتين الروسية والصينية . ان الاوضاع الراهنة المتأزمة للثورة العربية – توقفها، « فشلها » أمام مهمة الوحدة العربية ، وتضبيع الجماهير العربية – تحكم إلى حد كبير التخبط الراهن لحركة التحرر في افريقيا وعلى نطاق « العالم الثالث » . ان بانرمان ومئة آخرين قد رأوا منذ زمن طويل هذه الحقائق التي لا يراها اليوم غالبية ماركسيي البلاد العربية ، الذين لا يرون ايضاً ديناميكية الثورة الاشتراكية عبر التاريخ كثورة حية تعبىء عشرات ومئات الملايين من البشر من أجل مهمات التاريخ ، القومية والديمقراطية والاشتراكية ، المتفاقمة في عصر الامبريالية واضطهادها الكوني .

ان السير القادم لتطورات وانفجارات الدول العربية ، والسير القادم لقضية الوحدة العربية سيقررهما إلى حد كبير سير المعركةالقوميةفي «أرض اسرائيل» الكبرىوالصغرى(موقفالدولالفعلي فيهذه المعركةالمديدةالمتنوعةالأشكال).

٣ – ان قيادة البروليتاريا العربية للثورة تأخرت تأخراً كبيراً ، نتيجة جملة

من الشروط والظروف الذاتية والموضوعية . وفي رأس هذه الظروف ، أخطاء الاحزاب التي رفعت لواء البروليتاريا ونطقت بلسانها في الوطن العربي . وتقدم البروليتاريا العربية نحو تسنُّم مكانها القيادي يتوقف في الشروط الحاضرة على تبلور وضع « الماركسيين » العرب ، على نتائج الصراع الفكري والسياسي القائم في صفوف « المنادين » بالماركسية وما شابهها ، في الوطن العربي .

لقد تقدمت الثورة العربية ، وتخطت إطار الاستقلال السياسي واطار الثورة البرجوازية بالمعنى التقليدي الدارج ، وسدّدت عدة ضربات للامبريالية والاقطاعية والرأسمالية المحلية ، في عدد من الاقطار . وقد حَكَمَ هذا النموَ والتحوّلَ سيرُ حركة التحرر الوطني ذاتها ونمو الاشتراكية في العالم ، واشعاعها الفكري . وفي الحقبة التاريخية الحاضرة والمقبلة ، ان البروليتاريا كإيديوجيا (الماركسية – اللينينية) تسبق البروليتاريا كطبقة اجتماعية عربية ، في مضمار « القيادة » . غير ان هذا لا يمكن أن يكون سوى وضع عابر ، والايديولوجيا البرليتارية لا يمكن ان تصل الى القيادة في الوطن العربي إلا وبمرافقة الطبقة البروليتارية . إن السير الفعلي يتوقف على قدرة الماركسيين العرب الحقيقيين على صياغة وعي ماركسي لينيني صحيح للثورة العربية وبناء وحدتهم التنظيمية على هذا الأساس .

وان هذا الوعي الماركسي – اللينيني الصحيح يتضمن «أخذ » « العالم العربي » المؤلف من « اقطار » و « دول » ومجتمعات و « سياسات » و « أحزاب » بكامل الاعتبار .

ان الوحدة الحقيقية للقوى الثورية العربية الحقيقية لا يمكن ان تقوم إلا على أساس وعي أولي صحيح ، يتضمن في جملة اشياء تشخيصاً واحداً لسير الأحداث والوقائع والتطور العربي في الحقبة التاريخية الأخيرة . بدون هذا تنحدر « الأفكار » إلى مستوى عموميات وألفاظ ويستحيل إنشاء برنامج توحيد ملزم للأطراف الداخلية في الوحدة المنشودة .

٤ – ان لبنان ، بحدّ ذاته ، « عالم » ، وليس فقط « مجتمع » تجريديا .

يستطيع « الماركسي » ان يتميز في لبنان طبقتين « برجوازية – بروليتاريا » أو سلسلة من الطبقات : اقطاعية–رأسمالية كومبرادورية–برجوازية وطنية - برجوازية صغيرة مدينية–فلاحين ومراتب فلاحية : كبار، ميسورين ومتوسطين، صغار وتحت الصغار – وطبقة عاملة ، (وهذا افضل) ، يستطيع «الماركسي» أن يتميز في لبنان تشكيلا إقطاعياً متحولاً الى رأسمالي ، وتشكيلا رأسمالياً ذاتياً ، وتشكيلا رأسمالياً امبريالياً ، وان يراكب هـذه التشكيلات تحت جناح الامبريالية والرأسماليتين ، ويستطيع ان يتقدم إلى الحد الأقصى للتعرف على التداخلات والانتقالات والترابطات وعلاقات التبعية والرئاسة في هـذا البناء ، ولكن هذا البناء لا يزال أكثر من أساسه ، أساسه « الاقتصادي ». أن الماركسي اللينيني المسلح بتحليلات ماركس التاريخية والشرقية وبمبدأ «العالمية» اللينيني ، والذي يفتح عينيه على الواقع اللبناني (ولا سيما على الواقع «السياسي» اللبناني ، واقع الأحزاب والدولة) لا بد ان يتبين ان لبنان ليس فقط مجتمع طبقات ، بل هو ايضاً عالم من أقاليم وطوائف تكوّن تاريخياً وتبلور على هـذا الشكل « الأخير » تحت جناح حركة الرأسمالية والامبريالية .

وليست هذه الحال عقبة كأداء في طريق « الثورة الاجتماعية » إلا في نظر « من لا يعرف ما هي الثورة الاجتماعية ». ان شروط لبنان الموضوعية تجعله من البلدان المؤهلة للثورة الاجتماعية وقيادةالبروليتاريا. والأمر يتوقفعلى الوعي .

ولا يستطيع لبنان ان « يبني الاشتراكية » بل ولا حتى أن ينجز « الثورة الديمقراطية القومية » بالتمام والكمال دون اطار الوحدة العربية ، غير ان هـذا لا يقلل من اهمية لبنان وثورته الاجتماعية والقومية الا في نظر من يتصور أن العوامل والشروط « العالمية » هي عكس القطر ونقيضه .

ان موقع لبنان من العالم العربي والتاريخ العربي يجعله ذات خطورة بالغـة بالنسبة للثورة العربية كلها – خطورة تفوق نسبته السكانية في الأمة العربية – ويضع على عاتق ماركسييه مسؤولية تاريخية عظيمة .

* * *

هذا ما أردنا ان نقوله كخاتمة ، وان نوجهه بشكل خاص للرفاق اللبنانيين ، بعد أن أعلقنا برنامجهم .

ونريد أن نقول لهم ، في هذه السنوات التي تتواتر فيها الذكريات الخالدة (ذكرى اوكتوبر الخمسينية ، ذكرى مولد ماركس ، **ذكرى مولد لينين** الخ) :

حين نطالع المقالات الظرفية الطويلة التي تصدر عن مراجع ماركسية دولية (وأحياناً محلية) بمناسبة الذكرى الخمسينية لثورة اوكتوبر أو الذكرى المئوية لميلاد لينين ، وحين نقرأ في هـذه المقالات عرضياً « خلاصتُه » وفحواه : « المفهوم العلمي الطبقي » ، الثورة ، الطبقة العاملة ووليدها ، بناء الاشتراكية في خمسين عاماً بدون اخطاء ، تقدم الثورة الاشتراكية ، تراجع الامبرياليـة والرأسمالية ، الدنيا بخير ولينين على حـق ... ، فإننا نقول : قف ! في هذا العرض ، ليس لينين على حق ، بل « الماركسيون » عموماً ، لينين ، وحلفاؤه ، وخصومه . كلهم على حق . وخصوم وحلفاء لينين أكثر من لينين . كلهم قالوا هذا والآخرون قالوه أكثر مما قاله لينين !.

في رأينا : الطريق ليس مستقيماً كشارع نيفسكي ، الاخطاء والانحرافات كثيرة ، المشاكل كبيرة ، الدنيا ليست دائماً بخير ، ولينين على حق ، على حق تماماً ، لأن طريق السياسة ليس مستقيماً كشارع نيفسكي ، ولأن طريق التاريخ فيه تعرج وانحراف محتوم ، ولأن الاخطاء والانحرافات كثيرة والمشاكل كبيرة ومشكلة **الوعي** كبيرة ، ودنيا الوعي والواقع ليست دائماً بخير . ان لينين على حق ليس فقط فيما أكده وأكده معه الآخرون ، بل فيما أكده بمخـالفة وضدّ الآخرين . وهذا العصر بالذات ، هذه السنوات الخمس والعشرون من تاريخ العالم (ومن تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني) ، تثبت ما قاله لينين ضد الآخرين اكثر مما يثبته العصر الذي عاش فيه لينين والآخرون ، وأحياناً بكثير . وهـذا ما يجعل اننا في عصر لينين ، اليوم . ان لينين لم يتنبأ بالخلاف الصيني السوفياتي ولا بأحداث تشيكوسلوفاكيا ، ولا بالثورة الكوبية ، ولا بالنازية ، ولا بإسرائيل ولا بعلم السيبرنطيقا ، ولا بالثورة الليبية ، ولا بأفكار نقولا شاوي وعزيز الحاج

وخالد بكداش . ولكننا لا يمكن ان نفهم الخلاف الصيني السوفياتي، وأحداث تشيكوسلوفاكيا ، والثورة الكوبيـــة ، والنـازية ، واسرائيل ، وعلم السيبر نيطيقا ،والثورة الليبية ،وأفكار نقولا شاوي وعزيز الحاج وخالد بكداش بدون لينين ، وبدون لينين من ألف إلى ياء . فلنتخذ من هذه الذكرى المئوية للينين ، لا مناسبة لمقالات ظرفية تمجد الرجل العظيم أو لعرض تقليدي دعائي لفضائل وانتصارات الصراط المستقيم ، بل مناسبة لتعلم لينين ، لتعلم عمل وفكر باني ماركسية العصر ، مرشد الثورة الاشتراكية العالمية ، حتى يكون هـذا الفكر اللينيني مرشد الثورة العربية نحو نصر عظيم .

فهرست

صفحة

جدول الخطأ والصواب

سيلاحظ القارىء ان اكثر الأخطاء المصححة في هذا الجدول لا يخفى عليه. غير اننا فضّلنا إضافة هذا الجدول مع رجائنا القارىء ان يبدأ به .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦	قبل الأخير	يقضي	يُقضى
٤٤	٢١	، كما	. وكما
٤٦	١٨	حركة	محرّكة
٥٠	١٥	ورأنا	وراءنا
٥٧	٨	١٧٧٩	١٧٨٩
٥٧	السطر ١٨	يُحذَف ما عدا الكلمتين الأولين والاخيرتين	
٥٨	١٠	في الطبقات	في اكتشاف الطبقات
٥٨	٢٠	ورددنا	رددنا
٦١	الأخير	بل نظرية	بل في نظرية
٧١	٢٠	قرون ونصف	قرن ونصف
٩٣	٨	تعلق	تعليق
٩٦	٢ من الهامش	علامات	علاقات
١٠٢	٣	والانسان	والانساني
١١٦	٨	أيضاً . يجب	أيضاً ، يجب
١٣٢	٣	يبقي	يبقى
١٣٣	٣ من تحت	يعاطفون	يتعاطفون
١٤٠	١٦	وهذا ... جزءاً	هذه ... جزء
١٤٤	١	تشبة	تشبه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٤	١١	قيل في	قيل : في
١٤٤	١٦	الاقتصادية	الاقتصاد
١٤٥	قبل الأخير	انطار	انصار
١٤٨	٨	وكان	وكأنّ
١٥١	الهامش تابع للصفحة التالية السطر العاشر		
١٦٤	١٤	مصابق	مطابق
١٦٦	١٨	والدة	ووالدة
١٧٠	٤	أُحذُف المزدوجين	
١٧٥	١٤	– حسياً	– . حسياً
١٨٠	١٧	بالتظافر	بالتضافر
١٨١	٩ و ١٠	أُحذف المزدوجات	
١٨١	١٠	« يخص	يخص «
١٨١	١٦	هذه	هذه .
١٩٣	٢ من الهامش	« بمكتبتنا »	« ركبتنا »
١٩٤	١٧	. في كل مكان	في كل مكان .
١٩٥	٧	من	عن
١٩٥	قبل الأخير	الحروب	الحرب
١٩٧	١٤	جديداً	جديد
١٩٨	الاخير	ظروف	ظرف
٢٠١	١	وللحقيقة	وبالحقيقة
٢٠٦	٦	او أفكارها	وأفكارها
٢١٤	قبل الأخير	توجّهها	توّجها
٢١٧	٣ من الهامش	وفي	« وفي
٢١٧	٨ من الهامش	والآسيوية	والآسيوية »
٢٢٠	٢١	سير وتطور	سير تطور

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢١	١٧	وكونهم	كونهم
٢٣٥	١٣	ولكن وليس	ولكن ليس
٢٣٨	٨	بلغت	بلقنت
٢٤٦	١٢	الاقتصاد	الاقتصادي
٢٥٧	٦	التشيكيلات	التشكيلات
٢٥٧	الأخير	إلى النهائية	إلى النهاية
٢٦٠	الأخير	—	)
٢٦٢	١٢	الاقتصادية	الاقتصاد
٢٦٤	١٠	الجنوبي	اليمن الجنوبي
٢٦٨	٣ من الهامش	في الواقع .	. في الواقع
٢٧١	الأخير	النوع	التنوّع
٢٧٥	٢٠	الصفحات	الصِفات
٢٧٥	٢٢	ان نفهم	ان تفهم
٢٨٧	١٩	القليدي	التقليدي
٢٨٨	٦	سوى	سوري
٢٩٧	١٣	الكبرى	البرجوازية الكبري
٣٠٣	١٣	بعدُ	بعدَ
٣٠٣	١٨	حزبَ ... فسادُ	حزبُ ... فسادَ
٣٠٦	٣	منهما	منها
٣١٥	الأخير	« عملية »	لِـ « عملية »
٣١٩	١	متمعاً	متمماً
٣٤٠	١ من الهامش	لم التقسيم	التقسيم لم
٣٤٣	١٦	عصري	مصري
٣٥٢	٣ من الهامش	ان ألمان	هب ان الألمان
٣٥٧	قبل الأخير	تنتقل	تنقل

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦٢	١٨	أما أنه	أم أنه
٣٦٩	١٥	بين التناقض	بين التناقضين
٣٧٢	٨	. آن	في آن
٣٧٣	١	تنظمي	تنظيمي
٣٨٠	١٠	مستوهم	مستوى
٣٨٥	٨	الرادعة	الرابعة
٣٨٧	٣	يتضمّنة	يتضمّنه
٣٩٠	قبل الاخير	حورا	حوار مع
٣٩٣	٦	دفعة	دفعهُ
٣٩٦	الاخير	التجاوز	التجاور
٣٩٧	٢	الملك	الملل
٣٩٩	١٥	وهيمنة من	وهيمنة
٤٠٥	١	بسبل	سبلٌ
٤٠٦	١٤	تركب	تركيب
٤٠٧	١	لبنان	بين لبنان
٤١٣	١	وأكثر	وأثر
٤١٣	١٥	لأننا نرى	لأننا لا نرى
٤١٥	٨	ان يفيد	ان يقيّد
٤١٦	١١	إنّ واقع	إن واقع أنّ